AL-ITHNAINYA الاثنينية

منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء السادس

إبداعات

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية
(٣٢)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ
عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء السادس

إبداعات

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ح عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري . / عبد الله عبد الرحمن الجفري .- جدة ١٤٢٦هـ

(٦ مج ٤٢٢٠ ص) الجزء السادس ٥٨٨ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٢)

ردمك ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٨٣٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج٦)

١ - الأدب العربي - مجموعات ٢ - الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

٣- الأدباء السعوديون أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٩٥٣١ ١٤٢٦/٢٣٨١

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٣٨١

ردمك : ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٨٣٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج٦)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

إبـداعات ....

المثقف العربي و . . . الحلم! ....

مقدمة ....

ابتداء ....

«الكتاب»: قضية تنادي ....

الثقافة: طبعة جديدة ....

الثقافة ما هي؟! ....

المثقفون إلى أين؟! ....

الكاتب والجنرال! ....

قضية الكاتب اليوم! ....

ـ أزمة الكتاب والكاتب ....

ـ زمن "الصوت" أم زمـن ـ "المعنى"؟! ....

جيل عاطفي أم أناني ؟! ....

بهو الكتاب ....

مدخل ....
أكثر عاطفية. . بلا انضباط ....
أصوات. . وأصداء ....
دور الأسرة في التنشئة ....
وعي الجيل الجديد ....
الخوف على الجيل ....
أحلام اليقظة ....
التحرُّر من الوهم ....
العنف الأسري والحقيقة المغيَّبة؟! ....
الشباب ساق زهرة متوتر ....
حوار حضاري مع "صديقي الحصيف"!! ....
الآن . . . ما هو الثابت؟!! ....
كيف نملأ هذا الفراغ؟!! ....
فروق الأجيال والمعاناة! ....
جيل التمرد!؟ ....
آخر سيف ذهبي أموي !! ....
إهــداء ....
نشيد/د. فؤاد عزب عن صديقه/ نزار قباني ....
ذكريات / عرفان نظام الدين!؟ ....
الجفري. . وتأم الروح: ....

تقديم: على مقام العشق!؟ ....

آخر سيف ذهبي أموي!! ....

بلقيس . . وزينب!؟ ....

بلاد العُـرْب!؟ ....

من هو. . . نزار؟! ....

أول التعارف. . فاكس!؟ ....

الحبيبة . . وشعر نزار ! ....

عندما كتب " خبراً "!؟ ....

مليون عربي على سريره!؟ ....

سلام عليك. . يا حبيبي! ....

موظف في مصلحة بريده!؟ ....

لك الله. . . أتعبناك! ....

الشاعر / العصر: ....

قنديل حب. . . يضيء!؟ ....

الرحيل المر!؟ ....

سلام على مجد المحبة!؟ ....

خلاصة الحياة !؟ ....

ورقة قرنفل!! ....

شُو بقي / عبد الله؟! ....

نَم قريراً. . . يا نزار !! ....

الذين أحبُّوه من بلادي ....
من أوراق " هدباء " ....
الدمشقي الذي احترف الهوى !! ....
وحده. . كرسي نزار ؟! ....
رؤية سليم نصار وحوار حسن القرشي !؟ ....
في أول حديث لمطبوعة عربية بعد مغادرته المستشفى ....
عبد الله عبد الجبار يُثَمِّن صداقة الجفري مع نزار قباني ....
من لوحات "نزار" فكراً وإحساساً ....
فيض من الحب؟! ....
بعض خطابات نزار بخط يده ....
وطن. . فوق الإرهاب! ....
يا وطني الأمجد ....
يا أيها «الوطن» المجيد ....
يوم الوطن تاريخ أبيض ....
من هنا. . . نقطة الضوء ....
الكيــان الكبيــر ....
بدأنا الحوار ....
مَن يتحالف مع مَنْ؟! ....
الأمير عبد الله. . والتاريخ ....
أمن الوطن والتاريخ!؟ ....

الأمير سلطان: حرية الرأي ووعي المجتمع!؟ ....
هاجس الأمن والأمير/نايف ....
آباء. . وأبناء ....
في عينَي حفيدي!! ....
التربية الدينية!! ....
الوطن. . وثقافة المواطن ....
الإصلاح. . والحوار الوطني!! ....
عدو الإيمان والأمان!! ....
الدعاة: ليسوا قتلة!؟ ....
الإرهابيون. . طالبانيون!! ....
أبعاد فتنة التكفير؟! ....
غرسات الحنظل! ....
فهرس المحتويات ....

إبـــداعات

المثقف العربي و . . . الحلم!

مقـدمـة

بقلم: الدكتور سمير سرحان

عبد الله الجفري كاتب عربي مرموق، استطاع على مدى العقود الثلاثة الماضية أن يشد انتباه القارئ العربي في كل مكان بفكره المتجدد، وأسلوبه الرشيق، وأن يكتسب احترام هذا القارئ لأنه يحترمه، وأن يحوز ثقته لأنه يثق به، وهو خير مثال للمقولة المعروفة إن الثقافة موقف، فهو كاتب تشي كتاباته بالفكر الناضج المتفتح على عالم اليوم، الواعي بتياراته المتلاطمة، والمدرك لأهمية التكاتف في سبيل رفعة أمته ولغته، وتاريخ أمته ومستقبلها، وهذه هي العناصر الأساسية التي تشكل موقفه الثقافي، أي إنه حين ينظر إلى المستقبل لا ينطلق من فراغ بل من أسس صلبة تقوم على الإيمان بتراث الأمة العربية وكنوز فكرها الدفينة التي ما زالت في حاجة إلى الاستكشاف والاستجلاء.

ويطلق عبد الله الجفري على كتابه عنوان «المثقف العربي والحلم» ولكن القارئ بعد أن يسبح في موج الفكر الزاخر في الكتاب يجد أن أفضل عنوان له يجب أن يكون «دعوة إلى التفكير» فهو مواجهة صريحة للواقع الثقافي العربي بجميع أبعاده، يتوجه فيها الكاتب إلى القارئ فيطلب منه أن يفكر معه، وأن يفكر له ولنفسه، وقبل ذلك وبعده أن يفكر لأمته ولأجيالها

الصاعدة، أي إنه يشرك القارئ معه في همومه الخاصة، حتى تتسع رقعة التفكير، ويكون قد أتى في نهاية المسعى بقارئ «جديد» قادر على التفكير، مؤكداً أنه إذا كانت الكتابة ثمرة للفكر، فالقراءة مولدة للفكر أيضاً، ويتجلى ذلك في رصده ـ مثلاً ـ لمفارقات القرن العشرين المنصرم، فهو يرصدها في عبارات موجزة تحفز القارئ حفزاً على إعمال ذهنه ومحاولة الإجابة عن الأسئلة المضمرة في هذا الرصد البديع:

«في القرن العشرين ـ وهذه ثمالته التي ضحلت كثيراً ـ كان عصر انتشار التعليم، وتقدم الطب.

وكان عصراً حاول الانتصار على الأمراض المستعصية التي اكتشفت فيه! وكان عصر محاربة الفقر بكل الأساليب. . وعصر تكثيف الفقر والمجاعة! وكان عصر التزوّد بالمعرفة في رحاب الإنسانية. وكان عصر «الإعلام» الموجه أو المزوّر للحقيقة.

وكان عصر الصعود العلمي، والمتمدين والصناعي. . وهو ـ في ذات الوقت ـ عصر السقوط لكثير من المثل والقيم والثوابت في سلوكيات الشعوب!

من الفصل الرابع «ما هي الثقافة».

أي إنّ الكاتب هنا لا يسجل ما يرى أو رآه، بل يفكر ليدفع القارئ دفعاً على التفكير، ويتضح للقارئ مدى أصالة هذا المنهج عندما ينتهي من أحد أجزاء هذا الفصل، الذي يستند إلى التحليل العلمي لواقع العالم اليوم، إلى جوهر موقف عبد الله الجفري باعتباره داعية الثقافة الحقيقية. وهو الجوهر الذي يتلخص في مقولته البالغة الدلالة على إيجازها وهي أننا سوف نفشل في مسعانا إذا لم يستطع الإنسان أن يعثر على «الإنسان» في أعماقه ـ

أو كما يقول «أن يعثر كل «إنسان» منا على نفسه».

بهذا يصل عبد الله الجفري إلى الجوهر الإنساني للثقافة، وفي سبيل ذلك ينزع الأقنعة التي يضعها الكثيرون على وجوههم ليستروا الخواء الفكري والثقافي، ويسلط الضوء الباهر عليها، أو فلنقل الضوء أو الأضواء الكاشفة، وهو هنا يضرب أمثلة واقعية مستقاة من الحياة التي يعيشها الجميع، حتى يكشف الزيف وينبذ البهتان.

«حقيقة تقول: إن مجتمع المثقفين منشغل بنفسه، أو بتكثيف الإضاءة على أسماء وتعتيمها ضد أسماء.. فما زالت الشللية تسيطر!

وهذا الإنشغال جر بعض المثقفين أيضاً إلى طرح موضوعات، ولا نقول قضايا.. ليمتد (الإشكال) حولها وعنها، ويستعرض البعض عضلات قراءاته، أو ملاحقته لمدارس الغرب النقدية (البايتة) التي أكل عليها الدهر، وأنف أن يشرب.. وقد شغلونا، مثلما شغلوا مجتمعنا، وأشغلوا صفحات الجرائد (بمطولات) من البحوث المنتمية إلى هذه المدارس والكتب.. دون أن يفهم الكثير ـ لو قرأوها ـ شيئاً من مصطلحاتها، وتنظيرها، و.. (إشكالاتها)، لأنها في مضمونها هي: المشكل، أو المشكلة التي تعيق انطلاق الثقافة، وتعرقل دور المثقف نحو مجتمعه!!». (الفصل نفسه).

وهذا التعليق العميق المؤلم في سخريته يذكرنا بموقف ماثيو أرنولد، الشاعر والناقد الإنجليزي في القرن التاسع عشر من «مثقفي» عصره الذين كانوا يرون في الثقافة ترديداً للعبارات اليونانية واللاتينية المرتبطة بتراث بائد وغريب، ودعوته إلى ارتباط الثقافة بالحياة النابضة لا بالغريب الزائف الذي يقصد منه البهرج والإبهار، ومثلما كان أرنولد يعلي من شأن القيم الروحية والنفسية، في مجتمع ينزع إلى المادية. يدعو عبد الله الجفري في فصل

(المثقفون إلى أين؟) إلى الاستمساك بالقيم الروحية التي تربط الإنسان بمصيره وجوهر إنسانيته «فالدين والروح هما الملاذ والشاطئ للنفوس وللعقول القلقة. . في عصر يتسم بالقلق» كما يقول، ولكنه يختلف عن أرنولد في أنه يرى في هذا الاستمساك بالقيم العليا وسيلة تمكّن المثقف العربي من الانطلاق إلى الإبداع وتجديد الفكر، ولذلك فهو يهاجم بكل ضراوة اتجاه بعض المثقفين إلى المحاكاة العمياء لبعض التيارات الأدبية «المستوردة» من عهود فات أوانها في الغرب. ولا تزال بعض الأقلام تتحدث عنها كأنها وليدة العصر الحاضر، ويكشف عبد الله الجفري عن سعة علمه وإحاطته بحقائق هذه التيارات حين يتحدث فيها تحديداً قائلاً:

«قد استغرقنا في مناقشة موجبة أطلقوا عليها: «الحداثة»! وكأننا. . بذلك نبدو مثل المأخوذين أو المسيرين»!!

إن «الحداثة» تخلو من هدف التطوير أو معناه. . فهي لا أكثر من تقهقر إلى مدارس أدبية كاد الزمن أن يطويها. . وقد ظهرت قبل أكثر من سنوات صارت بعيدة، ومنها: البنيوية، أو الألسنية، وتفرعت إلى بنيوية لغوية ـ ألسنية ـ وبنيوية ثقافية، وبنيوية نفسية أو سيكلوجية وبنيوية أيديولوجية!!. . (القسم ٦ من فصل المثقفون إلى أين؟).

لقد لخص عبد الله الجفري في سطور قليلة إحدى المحن التي تعرض لها المناخ الأدبي في الأعوام الأخيرة، وعبر عنها بإيجاز المبدع الواعي، وقلم الشاعر المرهف، فإذا بالنص ينطق بالحيوية، ويصب في رافد النهر في مجرى الهم الثقافي الذي يؤرق الكاتب العربي في هذه الصفحات!

ويضع عبد الله الجفري يده على مكمن الداء في «المناخ الثقافي» حين يميط اللثام عن انفصال الكثيرين من «المثقفين» عن قضايا وطنهم العربي

الكبير، بسبب انشغالهم «بموضوعات» غريبة لا تمس أرضهم ولا تعني أبناء الأمة الكبرى، وأهم مظهر من مظاهر هذا الانفصال هو انعدام «التحاور» فهو دليل على ضيق الأفق، وكلل العصر، ويلخص ذلك في القسم ٨ من الفصل نفسه قائلاً:

«.. تتجسد المتطلبات «الانتصارية» في رحلة الإنسان إلى الغد.. بكل طموحاته وهمومه، وأحلامه، وأمانيه، وجهده، واجتهاداته.. فتصاغ في قلب المسؤولين وتنتصب مهداً وعشقاً للأرض!

وبذلك يعطي الإنسان من أجلها نبضه، ويسفح عرقه، ويرخص دمه.. ويتصاعد بهذا العشق إلى ذروة الإخلاص للتراب، والإخلاص للقيم والمبادئ.

وحينما نلتفت إلى دور الفكر والعلوم والفنون.. لا بد أن نهتم «بأرضية» ليس شرطاً أن تكون ممهدة.. بل هي بالغة الوعورة، لتكون هذه «الأرضية» تمثيلاً لانبثاقة نطق فكري وإبداعي.. تجعل الحوار عنه مستشرقاً أبعاد المصلحة الوطنية، وتمجيد الشعور الإنساني!» (القسم ٨ من فصل المثقفون إلى أين؟).

وهكذا ـ مثلما يفعل البناء العظيم أو المهندس المعماري البارع ـ ينتهي عبد الله الجفري في فصل من أروع فصول الكتاب إلى وضع النقاط على الحروف، فهو يقوم بتحليل الكثير من الأعمال الأدبية العربية بمنهج الناقد المحترف حتى يصل إلى نتيجة العالم المتخصص، وهو يأتي بالنتيجة مستشهداً بأقوال فلاسفة ومؤرخين شهد لهم العالم بالموضوعية وبالحباء مثل «توينبي» و «برتراند راسل» فيورد المقولة التالية لتوينبي:

«الانطلاقة العربية المقبلة.. لن تأتي من أذهان مفكري العرب

وأدبائهم، ولكنها تأتي من معاناة الذين تهدمت فوق رؤوسهم البيوت، وهدمت إسرائيل قراهم، وقتلت أطفالهم ورجالهم.. أولئك هم فلاسفة الحياة في العدم، وظهور الحياة من العدم»!!

ويقول «كأن ذلك» يشير إلى الانفصال القائم حالياً بين بعض المثقفين العرب والأرضية الواقعية التي يدعو الكاتب إلى إدراكها والوقوف عليها، كما يدلل به على وعيه التام بمسار التاريخ الذي يطالب كل مثقف عربي بأن يعي تماماً ما قاله «برتراند راسل» الذي يبدو ـ في رأي عبد الله الجفري ـ مكملاً لمقولة توينبي، وقبل استفحال شراسة العدوان، إذ قال راسل:

لقد انتهى عرض إبداع الكلمة.. لأنه جاء عصر غلو القتل، وسيطلع القرن الواحد والعشرين على البشر، وهم أكثر أمية مما قبل الحضارة والإنجاز العلمي.. لأنه سيكون عصر القوة المدمرة بالتهديد!!

والدافع الذي حدا بعبد الله الجفري على الإتيان بهذين المقتطفين لا يقتصر على السخرية من انفصال الكثير من المثقفين العرب عن الواقع، بل هو يتضمن رسالة إيجابية تتلخص في ضرورة بعث دور المفكر والأديب «من تحت الركام»، وهو يرى السبيل الناجح في عدم فصل الروح عن العقل، وفي تكامل الإنسان في زمن يهدد بالتقنية والتشتيت، وينادي نداء المهموم بأزمة الكاتب والمثقف في الوطن العربي بأن يهب الجميع للتفكير وأن يشغل الجميع أنفسهم بقضايا الواقع على اختلافها وتباينها، فهذا هو جوهر الثقافة الحقيقية لا ثقافة الفنون والأقنعة!

وليس من الغريب أن يتحول عبد الله الجفري في خضم انشغاله بقضايا الثقافة والمثقفين في الوطن العربي من نبرة إلى نبرة، بل ومن صوت إلى صوت، فهذا يكتب أحياناً بنبرة العالم الذي يسوق الحجج ويقدم التحليلات

المنطقية، ويكتب أحياناً أخرى بنبرة الشاعر المرهف الذي ينفعل ويوجز العبارة البليغة التي لا يستطيعها سوى الشعراء وهو يجمع بين النبرتين وبين الصوتين معاً في فقرة من أجمل فقرات الفصل الأول:

إن أخطر ما في هذه الغربة الثقافية، ليس «المنتج» أو «المستهلك».. لكنه (المنظر) والمتسقط، والذي يطالبك بفصل الروح عن العقل، أو اعتبار العقل وحده هو النموذج، والروح هي «السلوك السري» في حياة الإنسان!.

وهذا هو الانفصام.. نجده في واقع السياسة العربية، مثلما نجده في واقع الوجدان العربي!

الغربة: أن لا يستطيع كاتب عربي، في بلد «ثوري» أن يكتب عن الحرية، فيصيغ قصيدة شعر.. بغازل ويلعن فيها امرأة!

أصبحت الأنثى ـ بالرمز ـ هي الوطن.. لأن الأنثى محرمة عند التعبير عنها، أو تصوير أحاسيسها.. فإما أن تكون «أماً» فقط وإما أن لا تكون.. والمرأة العربية قد تخلت عن هذه القناعة، لأنها تحاول أن تحارب.. ولكثرة ما عاملها على أنها «هجرته» إلى نفسه، وهي أن تكون عودته إلى نفسه ووطنه!!

الغربة: أننا نحاول العودة إلى طفولتنا.. ونعجز!

الغربة: أن نكتب ما نشعر بأنه صوت الداخل في كل إنسان ويرفض الإنسان صوته! إننا نحتاج إلى «تنمية» المشاعر ـ قبل تنمية الدخل!

نحتاج إلى تنمية «الأفكار»، ليس بالجامعات وحدها، بل بالقراءة الجالسة المتعمقة وبالوعي الوجداني، وبالثقة في الفكرة التي نطرحها، ثم ندافع عنها بإيمان.. قبل أن نستخدمها لغرض!

لقد تثقفت عقولنا. . وسقطت وجداناتنا في «أمية» قاسية!

وهي أشد آلام الغربة!!

إن القضاء على «الغربة» هو حلم عبد الله الجفري، وهو الحلم الذي وضعه في عنوان كتابه، ولكن الكتاب أبعد ما يكون من تهاويم الأحلام، فهو ينفذ إلى أعماق الواقع ويحلل ويناقش، وهو «دراسة» بالمعنى العلمي للواقع الثقافي، وأما الحلم فهو الأمنية التي تدفع كل مثقف إلى التفكير، وإذا كان القارئ لن يخرج من ذلك كله إلا بطاقة جديدة على التفكير في ضوء التحليلات والمناقشات، فذلك هو ما يرجوه الكاتب ويطمح إليه، إذ إن ذلك يؤكد قيام الحوار المبدع الذي يسعى إليه عبد الله الجفري، وهو الكفيل برأب الصدع وإنهاء الانفصام، ووضع حد نهائي للعزلة. . فهل هذا حلم؟

د. سمير سرحان

ابتداء

● بالأمس... كان هدف الإنسان: الأرض!

واليوم... صار هدف الإنسان: فوق الأرض التي سقاها بعرقه، وبتاريخه!

ومن أجل أن يحافظ على هذه الأرض، كان لا بد له أن يستفيد من حصيلة العلم، ومن مخاض المعرفة.. أن يستخدم الابتكارات، والاختراعات، والوسائل العلمية المتطورة التي تثبت استقراره!

اليوم... تعب الإنسان من الحروب، ومن الدماء!

تعب من الازدواج المرهق جداً.. فهو يقيم حضارة عظيمة، يقدّمها لقمة سائغة للأطماع، وللقنابل، وللدمار!

وفي ضمير المعرفة الإنسانية: قلق على الهدف "الآتي" الذي يسعى إليه إنسان اليوم، وينفعل بحوافزه إلى درجة الكدح، والتصاعد ضد الخوف، وضد البراءة أيضاً!

والمعرفة.. رغبة إنسانية يجتليها الإنسان، ليتقدم، وليسمو، وليشف.

المعرفة: غذاء الروح.. وكَسْرٌ لحدّة الرغبات التي تمليها مادية العيش، وتتسلط بواسطتها نوازع البقاء... فكان العِلْم الإنساني الذي يبحث للإنسان

عن وسائل ترفيه، استقرار!

وكانت (الفنون) التي يهرع إليها الإنسان، لتخفف من غلواء مادياته، وتنسيه منافسة الحروب فيما بين البشر وأطماعهم!

ولا بد أن يكون (العلم) هو طوق النجاة الذي ينتشل العالم من الغرق في محيطات التطاحن بسبب تلك الأطماع!

ولا بد أن يأتي (الفكر)، وتأتي (الفنون).. ليرقرقا وجدان العالم من الجفاف الذي صنعته الحروب المتلاحقة، والمدمّرة لحضارة القرن العشرين!

وتتعاقب الأسئلة.. حتى يتم تلخيصها في سؤالين هامين:

● الأول: ما هو الهدف الذي يحكم انفعالات العالم اليوم، ويدفعه لإعدام طمأنينة النفس الإنسانية، ويسلط عليه شهوات من داخله، ومغريات تطوّح بأمنه، وبصحته؟!

● والآخر: لماذا يستمر الإنسان يحارب.. حتى يموت؟!!

● ● ●

● الأرض: طوت في غبارها علامات كثيرة.. كان يمكن أن تكون بوارق أمل في تحقيق سعادة الإنسان!

وضرب الإنسان خاصرة الأرض، بالتقافز فوقها.. بتمزيقها.. بشقّها سراديب، وخنادق، تتوارى فيها فوهات البنادق، وتنفث الموت، والدمار!

إن الإنسان يزرع الأرض، ويسقيها... ثم يحرق الزرع بعد ذلك بانفعالاته، وعدوانيته على أرض الغير، أو على حق الغير!

وما زال الإنسان يُعاني من: إخضاع فكرة الحياة الجميلة لهذه الفجوة الماثلة ما بين: الرغبة، والانتهاء منها (!!)

دائماً. . يحاول الإنسان أن يجعل من هذه الفجوة: مواجهة ضد الخوف، وضد البراءة في آن!!

إنه يريد ـ بذلك ـ أن يكسب جولة (حديثة) يعتبرها هي: الوقت السانح. . وهي المصطلح الإنساني، الذي يترجم قيم الحياة. . ولكنه يتعسف في الوقت نفسه: ضمير الأحياء!!

إن الرغبة، والانتهاء منها. . هما: قلق الإنسان الآني، وهدفه أيضاً!!

• • •

• في الزمن القديم. . كان الهدف يتشكل بين كل اكتشاف، وما بعده. . . وبين كل رؤية، وما فوقها. . . وبين كل ممارسة، ومدى الراحة فيها!!

لكنَّ "الهدف" الآن. . هو شعور يسقط في معنى: اشتمال الحياة على الموت. . وتصاعد "الرغبة" ضد الأمان والاستقرار!

والأمثلة على ذلك كثيرة. . نجدها اليوم في هذا التغيير المفزع:

• يستخدم الإنسان الموت. . للتعبير عن المتعة!

يتمثل ذلك في تفشي المخدّرات. . بادعائه المتعة، والمزاج، والكيف، والخروج من دائرة الهموم، ونسيان الفقر، والفشل في تجربة من تجارب الحياة.

• يستخدم الإنسان الحب. . للوصول إلى الموت!

ولذلك . . فقد تبدلت مشاعر الناس . . وصارت الرغبة حباً، وموتاً في آن، ولاح مؤشر خطر جداً، ينذر بتفكك اللُّحْمَة الاجتماعية والأسرية!

• يستخدم الإنسان القتل. . لإثبات القوة!

وبذلك . . هانت "قيمة" الإنسان، في هذا التسيُّب السلوكي الأخطر!

● وتجمعت عناصر فكرية في ضمير معرفة الإنسان، ولم يتحقق لها النمو!

لقد وأدتها الإشكالات الجغرافية، والأطماع التي كشفت عن ركائز الهدف: بأن لا تكون للإنسان إلا جولته الأولى فقط. . انعطافاً على الحكاية التي يروونها للأطفال من قديم، عن مغارة "علي بابا"، وكلمة السر المعروفة: افتح يا سمسم!!

ولا يمكن أن نستنبط فلسفة استمرارية من خلفية هذه الحكاية. . لتكون ملامح للهدف عند الإنسان!

لقد جعل الإنسان في حياته: ضروريات. . وجعل من هذه الضروريات رحالاً يشدها إلى مغارات مجهولة!

ومهما حذق الإنسان، وأرسى مضامينه. . . فإنه يتورَّط في انفعالاته، وفي تطلعه للاكتشاف!

ويواصل نداءه على "الكنوز" التي يتخيّلها داخل مغارة الحظ، أو مغارة الرغبة التي تسيطر على كل قدراته، وعقلانيته، ووعيه!

بمعنى: أنه مطلوب منك أن تسرق لذّتك.

ومطلوب منك: أن تسرق لحظات فرحك.

ومطلوب منك: أن تسرق الفرصة ذاتها، وتتوارى بها.

ومطلوب منك: أن تستخدم ذلك كله ضد (الحدثية) في أشيائك، وقضاياك. . وضد مطاردة الآخرين لك!!

● ● ●

● لقد نجح الإنسان الحديث في اختراع ألوان من وسائل الراحة.

وظن هذا الإنسان أنه قريب من الترف في العيش.. والترف في التفكير.. والترف في العاطفة!

لكنه لن يستفيد من هذا الترف.. لأنه مرهون بالانفعال، وبمغارة الحظ، وبالرغبة التي قد تدمر كل شيء فيه!

ومجرد شعور الإنسان أنه يعرف كلمة السر لفتح مغارة الحظ، أو الرغبة، أو اللذة.. في جولة واحدة من جولات حياته.. فإن ذلك يُخلِّف لديه الإحساس بالأخذ، أو بالمتعة، أو بالكسب... ولكنّ انفعالاته تتهيَّج من جديد، تأهباً لتحقيق جولة جديدة!

ولا بد أن الإنسان يشعر ببراعته، لأنه نجح في جولة واحدة.. بأن جعل انفعالاته قادرة حتى على استخدام وسائل حضارية عديدة.. لكنه ـ بلا شك ـ عاجز عن استخدام: مواقفه الأخلاقية، أو صدقه الوجداني!

إن "الحب" يكسر الكلام الثرثار، ويكسر الهجوم!

ومن الصعوبة: أن تحب، وتهاجم، أو تهجم!

ومن الصعوبة: أن تحب، وتُثرثر... لأنك ترغب أن تحب وتموت على هذه الرغبة!!

إن "الرغبة" اليوم.. هي التي تُسخِّر الإنسان، وتقتله بعد ذلك!!

«الكتاب»: قضية تنادي

● إن منطق الخطاب العربي يضمن الكلمة معنى خاصاً يجمع بين مفهومي الخصوصية والإبداع، لا يستطيع عرب اليوم أن يقولوا إن لهم حضارة وثقافة بالمعنى الدقيق. . . إلا إذا كانت إنجازات اليوم في مستوى إنجازات الأمس، وفي الوقت ذاته متميزة عن إنجازات الشعوب الأخرى، الأوروبية بخاصة. . التي تدعي كونية زائفة!

عبد الله العروي/ المغرب

● سكبت الماء البارد فوق جمري!

كان لا بد أن أتلفّت في ابتهاجنا بالعديد من المهرجانات التي أقمناها على امتداد الوطن العربي. . تلك التي حظيت بالكثير من الأضواء الإعلامية ـ صحافياً فقط! ـ ونعني بها: مهرجانات المعارض السنوية للكتاب، ومهرجانات الشعر، والقصة، والفنون. . . في أكثر من قطر عربي.

وفي المقابل. . لا بد أن نتلفت أيضاً إلى: حصيلة كل قطر عربي من "دور النشر والتوزيع" التي قيل: إنها "تركض" وراء المؤلفين، لتطبع إبداعاتهم وأعمالهم الأدبية، وتركض وراء الكتب الجديدة لتوزيعها. . . وبالتالي لإثراء معارض الكتاب.

لكني توقفت ـ هنا ـ قليلاً... بعد أن اصطدمت بسؤال حاد ومدبب، يقول:

● أين هي دور النشر... وإذا وجدت، فماذا فعلت بالكُتّاب، وبكتبهم؟! لذلك... اضطررت أن أسكب الماء البارد فوق جمري، وفوق جمرة السؤال! إنها معاناة أي "كاتب".. يطمح أن يُصدر كتاباً واحداً في العام، على الأقل! إن "الكتابة".. هي جنون عشق الكاتب.

ولكن "الكاتب" لا بد أن يخضع للتريّث.. من أجل أن يبلغ عالم "العقلاء" جداً، ويدع القراء بمستويات وعيهم، وفهمهم، وتوجّهاتهم.. يتفرجون على الضوابط، ويحسّون بمقدار "الموضوعية" المجسدة للفكرة الهادفة، وللعمل الإبداعي، ويجاملون التعوّد أحياناً حتى النخاع!!

إن كل سياج يبنيه العقل.. يبدو الإنسان من ورائه مؤهلاً للانتماء إلى مجتمع متمدن، متعايش مع الوعي، ومترابط مع تلك الاتفاقات "الإنسانية" المبهرة.. لتلقّي فعل الإنسان من واحد إلى آخر!!

● ● ●

● ثم... ندخل الآن إلى: قضية "الكتاب" لدينا!!

إن القضية تنشطر إلى جزءين:

● الجزء الأول: قلّة دور النشر في بلادنا.. وبالتالي ضآلة نشاط هذه الدور، أو محدودية فعاليتها.. خصوصاً تلك التي تتوجه إلى طباعة نوع واحد من الكتب، أو من الثقافة!

ويرتبط بهذا الجزء أيضاً: واقع ما يعانيه المؤلف من تعامل مادي بخس

تفرضه عليه دور التوزيع، وحجتهم: ارتفاع تكلفة الانتشار، ومجاراة دور التوزيع في العالم العربي!

● الجزء الآخر: كثرة "دكاكين" المكتبات. . . حتى إنك تجد في الحي الواحد أكثر من مكتبة!

لكن هذه المكتبات قد حصرت مهمتها، أو دورها في خدمات تجارية بحتة، من أهمها:

ـ **أولاً**: التركيز على بيع القرطاسية، من كراريس مدرسية وأدوات مكتبية وللطلبة والطالبات. . وهي البضاعة التي تقوم عليها أسس هذه المكتبات التجارية!

ـ **ثانياً**: التسابق في عرض مكثّف ومغر لألوان المجلات التي تتدفق بشكل مخيف من العالم العربي، ومن أوروبا. . وحرص الذين ينشرون تلك المجلات ويصدرونها على تزيين أغلفتها الملونة بـ "الوجوه" الصبيحة، فيركض إليها الشباب والمراهقون!

وقد صار كل "تاجر" ناشر يفكر في إصدار مجلة ملونة. . يتلفت إلى القارئ هنا بخاصة، وفي الخليج بعامة. . . ويضمن تسويق "ألوانه" لأننا ـ فيما يلوح ـ لم نتشدد كثيراً في طريقة الطرح التي تتبعها هذه المجلات الوافدة!

ـ **ثالثاً**: يحدث التناقض العجيب هنا. . إذ نلاحظ أننا أمام هذا الدفق من المجلات الملونة، نجد هذا الانحسار في "الكتب"، والإصدارات الفكرية والأدبية الجديدة التي تموج بها مكتبات العالم العربي!!

فهناك إصدارات عديدة كل شهر من الكتب الثقافية، والأدبية،

والعلمية، نقرأ عنها في صحف ومجلات عربية، وحين نبحث عنها في المكتبات لا نجدها.. وكأننا أمة لا تقرأ إلاّ "الصور" فقط!!

وعندما نوجه أسئلتنا إلى دور التوزيع عن الكتب الجديدة.. نفاجأ بهذه الإجابة التي تخلو من الحقيقة.

ـ إن المكتبات مكتظة بالكتب الجديدة الصادرة في العالم العربي!

ونبحث من جديد.. ونكتشف أن الكتب المطروحة للبيع والتوزيع.. هي كتب "المذكرات" السياسية، وأغلبها مغرض أو شخصي، وروايات الجاسوسية، وكتب أخرى "للتقبيل" مثل الدكاكين التي يفلس أصحابها فيعرضونها بهذه العبارة: "للتقبيل" بأي ثمن!!

• • •

● فإذا أردنا أن نتوقف أمام الجزء الأول من القضية.. فلا ننسَ ـ بجانب دور النشر المحدودة ـ أن نتذكر: النوادي الأدبية، والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون!

أما النوادي الأدبية.. فإن بعضها يطبع كتب "أسماء" معينة من الذين "يصطفيهم" النادي، أو من داخل أسرته!

● وأذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن أديباً شاباً من كتاب القصة: أقدم قبل أكثر من ثماني سنوات على دفع أولى مجموعاته القصصية لأحد الأندية، وطوال تلك السنوات وهو يطالب سكرتارية النادي بإعادة مسودات قصصه ـ فقط! ـ بعد أن ألغى فكرة طبع المجموعة وقال:

ـ لا يمكن أن أطبعها بعد أكثر من ثماني سنوات دون أن أعيد النظر فيها!!

● وبهذه المناسبة أيضاً. . روى لي كاتب معروف "حكاية" قديمة مع إحدى دور النشر، مضى عليها أكثر من عشرين عاماً، فقال:

ـ تفضلت دار النشر هذه وطلبت مني مجموعة قصصية، وطبعتها، وأصدرتها، ووزعتها، وفرحت بلا شك. . ومضت أعوام وراء أعوام، وأنا أنتظر أن تعترف دار النشر بعرقي وتعبي فتبعث إليّ ولو نسبة بسيطة من ربع بيع الكتاب!

وبعد سنوات طويلة نسيت عددها. . فوجئت بمسؤول جديد في نفس دار النشر هذه يهاتفني ويعرض عليّ إعادة طبع المجموعة القصصية للمرة الثانية!

وفرحت، وخجلت. . فذلك يعني أن الطبعة الأولى قد نفدت، ولو بعد سنوات طويلة، فقلت للمسؤول:

ـ ولكن. . هناك الطبعة الأولى!؟

ـ قال: لا بأس. . سنبعث إليك بعقد، ونُصفِّي حساب الطبعتين بعد ذلك!

وصدرت الطبعة الثانية، ومرّ عام، وآخر، ونسيتْ دار النشر الموضوع برمته!

● ويروي كاتب ثالث تجربته مع دار نشر حديثة، بدأ بها صاحبها مشروعاً صغيراً، وجاء إلى هذا الكاتب يطلب منه الموافقة على طبع أحد كتبه طباعة ثانية!

أراد الكاتب أن يساعد هذا الناشر الناشئ، الذي كان أيضاً يتعاطى

الكتابة.. ووافق معه على الطبعة الثانية، وزيادة في التأكيد والأمانة بعث إليه الناشر الزميل عقداً!

وشاهد الكاتب في معارض للكتاب رواج كتابه.. وانتظر عاماً، وآخر.. استحى الكاتب خلالهما، و"صَهْيَن" الزميل الناشر، بعد أن صار غير ناشئ!

• • •

● وإذا أردنا أن نتوقف أمام دور التوزيع والنشر، فهنا مشكلة أخطبوطية لها عدة أذرع!

إن دور التوزيع تتقاضى من المؤلف من ٤٠ إلى ٥٠٪ من ريع بيع الكتاب!

ثم تهمل دور التوزيع الكاتب الذي تنحت من لحم مؤلفه ٥٠٪، ونلاحظ أن دور التوزيع ودور النشر.. لا تكلف نفسها نشر إعلانات في الصحف عن الكتاب الجديد الصادر.. فهناك كتب تصدر، ولا يعلم عنها القارئ!

بينما نجد أن مسوّق أي سلعة أخرى، مثل: اللبن، الشاي، الشامبو.. يأخذ ١٥٪. أما دور النشر، ودور التوزيع.. فإنها لا تقوم بهذه الدعاية!

المجال الوحيد الآن للإعلان عن الكتب الجديدة هي الصحف، ولا يحدث هذا أيضاً!

لا توجد صالات عرض، تنشر إعلانات عن صدور الكتاب.

التلفاز حتى الآن... لم يعترف بضرورة الإعلان عن الكتب الجديدة.. فيخدم الكاتب السعودي، ويخدم القارئ بإسهامه في التثقيف

عبر ما يعلن عنه من إصدارات الكتب العربية الجديدة!

إن في إمكان دور النشر أن تبادر إلى إنجاز طبعات "شعبية" تجارية من مؤلفات الكتّاب السعوديين، وليس شرطاً أن تكون الطبعة مرفهة ومترفة، أو تصدر طبعتين: بكميات قليلة من الطبعة المرفهة، وبكميات كبيرة من الطبعة الشعبية. . فإذا الكتاب الذي تكلف طباعته عشرة ريالات، بالطبعة الشعبية لن يكلف عشرة قروش!

لكن صاحب المكتبة، أو الموزع. . لا يريدان الطبعة الشعبية، لأنهما يهدفان إلى أن يكون سعر النسخة من الكتاب مائة ريال، حتى تكون نسبة التوزيع ٥٠٪ من سعر الكتاب. . أما إذا كان سعر الكتاب عشرة قروش، أو حتى ريال واحد. . فما هو مكسبه؟!

الثقافة: طبعة جديدة

● إن شكسبير يجلس على أكتاف الشعب الإنجليزي...

وأنا أجلس على كتفي شكسبير!!

بيرنارد شو

● أبلغوني: أن التقدم إلى نقطة الحقيقة.. وصول عظيم!

لكن هذا "الوصول" يتحول عند بعض الراكضين إلى "توقف".. إلى تمثال متلفع بالانبهار والخرس معاً!

فهل يركض الناس إلى اجتلاء الحقيقة، ليقيموا على امتداد طرقات الحياة تماثيل من الفرحة، ومن الراحة؟!

● أبلغتهم: أن الحقيقة منصهرة.. منصهرة. إنها تذوب في رغائب الناس، فنبحث عن حقيقة جديدة.. عن زمن جديد لم يعرف "دراكولا"، ولم يحتضن "بروتس"!

مقتول إنسان هذا الزمن بالشوق.

الشوق ليس هو الجاني، وإنما هو القتيل!

ونبحث عن الكلمات الجديدة التي تسافر بنا بين الحنين واللامبالاة..

إلى وديان الشهقة، والوجنة المحفورة بدمعة، والابتسامة التي ازداد بياضها حتى عدمت اللون!!

ولكن. . كيف تأتي الكلمات إلى الأفئدة الملتاعة برغائب الواقع المادي؟!

كيف تصهل الكلمات في وجدان الإنسان المتقهقر إلى الخلف؟!

• • •

في أذهان المفكرين والأدباء والشعراء العرب اليوم: أشياء تأتي منفصلة، وتأتي مفصولة!

بعض الأشياء في أذهان المفكرين والأدباء والشعراء العرب. . تنفصل بأسبابها النابعة منها، عن عناصر الاستيعاب لقضايا الحياة، وأفكارها المنتمية إلى الحس الإنساني، والتفوق!

وبعضها الآخر: يأتي مفصولاً. . فصلته أسباب من خارجه، عن تراثه وقيمه، وأساطيره، وملاحمه، وتاريخه العريض. . وطوحت به حفنة قلق وتصدع!

• • •

من هنا. . تلح أسئلة غير مردودة:

● ما هي أسباب "التوقف" الملحوظ في الفكر العربي. . كأنه الحقيقة التي انصهرت وانغمرت، وذابت في كل هذه المتغيرات السياسية في العالم العربي، وفي كل هذه التحولات الاجتماعية بالأسباب الاقتصادية. . وتحولت إلى تمثال متلفع بالانبهار والخرس معاً!!

● إذا أحصينا نسبة إصدارات الكتب، ثم فرزناها إلى: تراث، وحداثي.. وإلى إبداع، ونقد.. وإلى رواية، وقصة، وشعر.. فما هو محتواها، وما نوع اجتلائها؟!!

● من البديل المتفوق، أو حتى السائر على نهج رواد الأدب العربي.. الذين رحلوا في غياهب الموت، أو سقطوا في الملل من استمرار الشوق، ومن التعرف، ومن الاعتراف بالحقيقة.. كاملة ؟!!

إننا لا نبحث عن نسبة الأجوبة أمام عدد الأسئلة!

لكنه البحث عن الوقفة المبدعة.. وقد انبثق منها عطاء جيل، ومعاناة عصر بأحداثه، وغرائبه، وجديده.. وكيف يستطيع المفكر، والأديب، والشاعر، والفنان أن يذيبوا وجداناتهم في عبارة، وأن تصنع عباراتهم تجسد الوعي في ذهن الجيل، وأن يتبلور ذلك الوعي فيصبح دلالة وشواهد على زمان الرؤية، ورؤية الحياة؟!!

في الأجوبة المباشرة والمرتقبة.. لا تقدر أن ترسم صورة كاملة لأسباب التوقف الملحوظ!

إن روائياً مثل "نجيب محفوظ".. سمي "أب" الرواية العربية الحديثة، بعد أعماله:

(الثلاثية. أولاد حارتنا. زقاق المدق. خان الخليلي)... ولا تستطيع ـ كقارئ ناضج ومتابع ـ أن تدعي وتراهن على استمرارية إبداعه بمستوى أعماله العظيمة تلك.. خصوصاً في السنوات الأخيرة، وبعد "صدمة" الكامب، وما حدث من خلخلة في وجدان الأديب العربي عموماً!

إن روائياً مثل "نجيب محفوظ" لا تقدر أن تضع سبباً لتراجعه: هو

الشيخوخة وحدها. . لكنه انتهى إلى أن يسقط كل اعترافات عمره وتجربته في رحيل حتمي. . وهو التعب!

إنه لم ينضب. . ولكنه قتيل التعب من مشوار الحياة، وقتيل التعب النفسي. . ودورة "البداية والنهاية" التي لم تتوقف في حياته، ولم يسأم من تكرار الكتابة عنها. . هي القاتلة له أيضاً!

• • •

● ويأتي خلفه ذلك المتوهج والصاهل: "الطيب صالح" الذي سقط بين فكي اللوعة والفراق. . وما زال دائم الترحال والغربة كطائر النورس الجميل والحزين، والمعذب!

وكان مؤهلاً لأن يكون "البديل" المتفوق. . لكنه تعرقل في اللوعة، وتراكم عليه الفراق. . وكان يصف التياعه من واقع التاريخ العربي المعاصر، وقضايا أمته، ومشكلاتها، وتصدعها، وأحزانها!

وكان يندك بالفراق. . هجرته، وترحاله، وغربته.

وانفلش. . فلم يتمكن من مزج اللوعة بالفراق، ليصوغ حضوراً عقلياً وجدانياً ملتحماً بالأرض!

إنه تجمد الانتقال من رؤية إلى رؤية أعمق ـ تحفر الوجدان، وتصهر العقل ـ كأن العصر ينغرس في نفسه، ويلتف حولها. . تماماً كما صور "توماس كارلايل" حين قال:

● "بالرغم من أن هناك ساعة كبيرة دقاقة. . تدق حين الانتقال من ساعة إلى أخرى. . فليس ثمة مطرقة في ساعة الزمن، تدوي في أرجاء العالم. . معلنة أن هناك انتقالاً من عصر إلى عصر"!

ومع ذلك.. فإن الأديب العربي، يحاول اليوم أن يبسط "الهم"، وأن يرتفع بكل هموم الإنسان إلى محاولة ذلك الإبداع "الميثولوجي" الذي كان يتحدث عنه ذات مرة: "الطيب صالح"!

لقد سألته إحدى المجلات العربية: لماذا أنت غامض.. بمعنى: لماذا أنت مطوح في الغربة ؟!

ـ أجاب الطيب صالح: أنا لا أدعي أنني أعرف الواقع، ولا أزعم أنني أعرف نفسي تمام المعرفة.. أنا أبدع "ميثولوجيا" مرتبطة بالواقع، وليست هي الواقع ذاته، بقدر ما هي اهتمام بمادة خام.. بالتراث، ولكي نقدم فكراً له أبعاد ومعنى.. علينا أن نقدم ما عندنا!

• • •

سيدي الكاتب.. السائل، المناقش، المحاور!

سيدي الفنان المبدع.. المتألم، المسكوب شجى، والساكب معاناة!

ترى.. ما هو الواقع العربي اليوم؟!

ترى.. إلى أي مدى، وبأي مقدرة يستطيع الإنسان العربي أن يعرف نفسه؟!!

أمام الليل.. ينتصب "انتظاراً" لبزوغ الفجر، أو ينفسخ النوم والخدر!

أمام الفواصل.. تكثر العثرات، فأي تاريخ مثل تاريخ الإنسان العربي قادر على اليقظة، ومطلق سراحه من قيود العثرات؟!!

الجميع يتحدث عن: "الغربة الثقافية"!

هي غربة روحية، وهي غربة وطن، وهي غربة حق وعدل، وهي غربة عشق، وهي غربة حرية!

أما غربة الروح.. فنحن لا نطلب من كل كاتب أو مبدع أو فنان، أن يصير شاعراً ليصور روحه، أو يجسد شفافية الروح.. بل لا بد أن نجلس بعض الوقت!

ونطلب من كل قارئ عربي ـ أيضاً ـ أن يطالب "الكاتب" بالحقيقة!

إن الذي نراه الآن: عجيب، وساخر، و"قاعي"!

إن الكاتب في صحيفة، أو مجلة، أو حتى للإذاعة والتلفاز، والكاتب الذي يصدر الكتب.. تحس بهم جميعاً كأنهم يكتبون وهم "وقوفاً".. يسابقون الوقت، ويضيعون الزمان.. يركضون في كل المسافات، ويخسرون نقطة وقوفهم الأصلية!

لا وقت لدى هذه "الطبعة الجديدة" من الكتاب والمؤلفين.. المهم أن يكتبوا، ربما للتنفس ـ إذا بحثنا عن عذر أو سبب ـ وربما لأننا بلغنا العصر الذي ألمح إليه نبي هذه الأمة وبشيرها: "عصر فشو القلم"!

وسؤال آخر.. أكثر جدية، ومحاولة للرؤية وللالتحام.. يقول:

● ما هي قضية الكاتب اليوم؟!!

ـ حرية الوطن.. في عصر تفشي الاستعمار، والظلم، والقوة الغاشمة؟!!

فكيف تعاد حرية الوطن.. في ضياع حرية العدل، وحرية الحق، وحرية المنطق في العالم، وفي مفهوم كبار العالم وسفاحيه؟!!

ألم يقرأ كبار العالم لـ "توم بين" و"جيفرسون" و"زرادشت" و"غاندي" و"نهرو" و"برناردشو" و"برتراند راسل"؟!

أم أن الزعامات السياسية العالمية قادمة من محطات الأتوبيس،

و"الاوتوتستوب" و"قاع" العالم؟!!

هل يتحكم في مصائر الشعوب.. قادة العالم "الكبار" من المرضى نفسياً، ومن الذين يعانون من عقد نفسية؟!

ولو وقفنا أمام مثال واحد، وهو الرئيس الأميركي "ريغان".. نتساءل: ما هي عقدته.. وقد كان من الممثلين المعروفين في هوليوود.. أم لأن أفلامه كانت فاشلة؟!

ألم يجلس كبار العالم ـ في لحظة إصغاء ـ لسماع سيمفونية، أو كونشرتو، أو معزوفة جميلة، وينامون على العشب الأخضر، ويمشون تحت المطر؟!!

من يرى العالم اليوم.. يظن أنه قد خلا من الشجر، وشح فيه المطر، وضاع منه النغم، وسخروا فيه من "الكتاب". وانحصر عبق "أنوثة" المرأة في لحظة الشهوة؟!

كأن العالم: لا يسمع، لا يقرأ، لا يرى.. ولكنه يثرثر، بينما كل الدلالات الجمالية في الحياة تصمت، وتصاب بالبكم!

وتبقى أصوات: المدافع، والرشاشات، والقنابل، والأحقاد، والأمراض الخبيثة.. هي الأصوات التي تسود مناخ الإنسان!

أليس من المطلوب ـ إذن ـ أن يجلس الكاتب، ويتأمل، ويستوعب، ثم يكتب بعد ذلك بصدق، وبتجربة، وبرؤية أشمل؟!

نحن في عصر ازدهار "المذكرات" وكتابتها، وادعائها، والكذب فيها!

أصبحت "الكتابات": واقفة، قلقة، متوترة.. فقدت ملكية المعنى الذي تريد أن تصل إليه!

أليس من المطلوب ـ أيضاً ـ أن يفتش القارئ عن "الحقيقة"، وعن التفاصيل؟!

أكثر القراء لا وقت لديهم، أو أنهم أسارى ما يأخذونه من الوقت.. والوقت لا يمنح القارئ سوى لحظات يطالع فيها العناوين الكبيرة، والخبر المثير، والصورة الملونة الفاتنة، والفضائح، والمعارك بين أسرة الثقافة فيما بينهم (!!).

كأن الفكر، والإبداع، وترجمة المشاعر والأحاسيس الإنسانية.. تتساوى تماماً مع خبر انقلاب عسكري في أفريقيا السوداء، أو في أميركا اللاتينية، أو مع طعنة الانقلاب الضميري في نفسية زعيم عربي يتشدق بالثورية، وبالديمقراطية!!

ولكن القارئ العربي ـ أيضاً ـ مأخوذ إلى صفات العصر الجديدة.. فكيف له أن يقرأ رواية عاطفية أو حتى اجتماعية، ويقرأ ديوان شعر.. ووطنه مهدد، وإنسانيته مهددة، وعصره يعاني من التلون والتجلط؟!

• • •

● لذلك.. فليس غريباً أن "يتصوف" الفكر العربي خلال السنوات القادمة!

لأن الكاتب العربي يكاد يسقط في الانفصام.. فهو مرة كاتب يمتح من أعماق الحزن العربي، وينزف الألم الكامن في كل تاريخ الأمة.. وعندما يبدع، لا يجد القارئ الهاضم والمستوعب، بل يصطدم بقارئ يجري، وبقارئ "ساندوتش"!

وهو مرة: كاتب السطح.. يلتقط ما يتدحرج أو يسقط على سطح

العالم العربي، وعلى سطح نفسية الإنسان العربي، كما الأحداث الطارئة، ويسمى ذلك: "رواية" أحياناً، وقصة قصيرة، وقصيدة شعر تعيسة أو غامضة!

فالتصوف الفكري.. لن يأتي إبداعاً، لكنه "وعد" خطير للوعي العربي، أو وعيد أخطر للوجدان العربي!!

وهناك حقيقة صورها، وكتب عنها المفكرون والأدباء العرب عن تاريخهم، ومطالب أرضهم، وعدالتها وطموحاتهم.. لكنها حقيقة فشل أن يواكبها هؤلاء، فذابت في الرغائب، وتحولت إلى تمثال متلفع بالانبهار الأخرس.. وإلى ساعة سقط عقربها!

وتأتي إلى إصدارات الكتب، وهي ـ في محتوى الكثير منها ـ غارقة في تعذيب النفس، وفي استرجاع الأخطاء، وفي شتم الموتى، وفي استعادة المعاناة وأصداء الهزائم، وفي تجريد التاريخ العربي من دوره ليقيَّم ويُصفَّى!

إنها هذه الكتب التي تحول فيها مؤلفوها إلى: مخبرين صحافيين.. يجمعون الأحداث التاريخية، المتوارية خجلاً، ورواية تلك الأحداث كالفضائح.. كأن ذلك يعني ما ردده "توينبي" قبل وفاته بعامين، فقال:

● "الانطلاقة العربية المقبلة.. لن تأتي من أذهان مفكري العرب وأدبائهم، ولكنها تأتي من معاناة الذين تهدمت فوق رؤوسهم البيوت، وهدمت إسرائيل قراهم، وقتلت أطفالهم ورجالهم.. أولئك هم فلاسفة الحياة في العدم، وظهور الحياة من العدم"!!

ولكن هذه العبارة التاريخية.. لا بد أن تكون لها تكملة، لبناء المعنى الشامل لها.

والتكملة. . قالها "برتراند راسل" من زمن بعيد، قبل استفحال شراسة العدوان. وقبل كلمة "توينبي". . ونصها:

● "لقد انتهى عصر إبداع الكلمة. . لأنه جاء عصر غلو القتل، وسيطلع القرن الواحد والعشرون على البشر، وهم أكثر أمية مما قبل الحضارة والإنجاز العلمي. . لأنه سيكون عصر القوة المدمرة بالتهديد"!!

ولكن دور المفكر والأديب. . من الضروري أن ينبعث من تحت الركام. وإذا كانت المنطقة العربية قد عانت، وما زالت تعاني من تسلط القوة، وشراسة العدوان، وغياب العدالة عنها. . فهناك أمم سبقتها، ولاقت أكثر، بل ودمرت كل مدنها وحضارتها. . ولكنها انبعثت، وأنجبت المبدعين والملهمين.

● ● ●

إن أخطر ما في هذه الغربة الثقافية، ليس "المنتج" أو "المستهلك". . لكنه (المنظر) والمتسقط، والذي يطالبك بفصل الروح عن العقل، أو اعتبار العقل وحده هو النموذج، والروح هي "السلوك السري" في حياة الإنسان!

وهذا هو الانفصام. . نجده في واقع السياسة العربية، مثلما نجده في واقع الوجدان العربي!

الغربة: أن لا يستطيع كاتب عربي، في بلد "ثوري" أن يكتب عن الحرية، فيصيغ قصيدة شعر. . يغازل ويلعن فيها امرأة!

أصبحت الأنثى ـ بالرمز ـ هي الوطن. . لأن الأنثى محرمة عند التعبير عنها، أو تصوير أحاسيسها. . فإما أن تكون "أماً" فقط، وإما أن لا تكون. . والمرأة العربية قد تخلت عن هذه القناعة، لأنها تحاول أن

تحارب.. لكثرة ما أشعرها الرجل العربي أنه "الفارس" دوماً وهي "المهرة" أبداً.. ولكثرة ما عاملها على أنها "هِجْرته" إلى نفسه، وهي تريد أن تكون: عودته إلى نفسه ووطنه!!

الغربة: أننا نحاول العودة إلى طفولتنا.. ونعجز!

الغربة: أن نكتب ما نشعر بأنه صوت الداخل في كل إنسان، ويرفض الإنسان صوته!

إننا نحتاج إلى "تنمية" المشاعر.. قبل تنمية الدخل!

نحتاج إلى تنمية "الأفكار"، ليس بالجامعات وحدها، بل بالقراءة الجالسة المتعمقة، وبالوعي الوجداني، وبالثقة في الفكرة التي نطرحها، ثم ندافع عنها بإيمان.. قبل أن نستخدمها لغرض!

لقد تثقفت عقولنا.. وسقطت وجداناتنا في "أمية" قاسية!

وهذه أشد آلام الغربة!!

لقد طوحنا "الكلام".. فهل هذه هي الحقيقة؟!

أم الحقيقة: أن نملأ سمع النهار بيقظتنا، وأن تفيض عيون الليل بأشجاننا؟!!

إن الأشجان ليست أظافر.. ولكنها نبض يمد الحياة بزمن أطول، لئلا يتورط الإنسان في قضية واحدة.. هي:

ـ "ليل يحترق بالأشياء اللامنسجمة.. الحجارة والكلمات، والسنين، والعشب، والتعب"!!

الثقافة ما هي؟!

إن الثقافة هي أساس التنمية، ولا يمكن تصور تنمية، باعتبار أنها قيم، ونمط حياة، ووسائل مادية واجتماعية. . إلا من خلال حضارة وثقافة معينة.

إنه لا يمكن ـ بصفة عامة ـ أن يتم عمل إنساني في خارج دائرة الثقافة في كل الأبعاد، غاية ووسيلة. . فالثقافة في هذا الإطار، لا تكون بعداً من أبعاد التنمية، ولكنها تكون هي التنمية نفسها.

د. محيي الدين صابر

(١)

❊ لقد كان من البدهي أن نجيب في تلك الندوة/ إحدى فعاليات معرض الكتاب بالقاهرة ـ عام ١٩٩٣ ـ عن السؤال المطروح، والمدوّر من أعوام ماضية، وهو:

❊ ما هي الثقافة؟!

لقد كانت الثقافة في العصور السالفة هي: الإلمام من كل علم بطرف، ثم هي: التعليم، والجامعة أو التخصص، والكتاب أو الإطلاع والتثقف. . كل أمة بِلُغتها، وبتراثها الخاص بها، وليس أكثر من ذلك!

الآن... في هذا العصر، اختلف تعريف الثقافة من اختلاف دورها، وتأثيرها، أو توظيفها.

الثقافة اليوم هي: اللغة!

والثقافة اليوم هي أيضاً: الأيديولوجية ـ غير الثابتة! ـ وإنما كل نظام سياسي يأتي معه بشعار، يُحوله إلى أيديولوجية... ثم: الفهم السياسي.

ولا بد من ربط الثقافة بالسياسة منذ أن قال "أندريه مالرو" في عهد ديجول:

* المثقف المعاصر.. هو الذي يوازي بين التطور العلمي، وتنمية السياسة في المجتمع!

ثم ـ بعد الفهم السياسي ـ هناك: المناهج التعليمية المرتبطة بالخط السياسي أيضاً.

ثم: الإعلام... وخلفه تأتي: السينما، والمسرح، أو الفيديو!

ونلاحظ أن "الكتاب" صار يأتي: آخراً!!

وبذلك.. لا بد أن تكون للثقافة الغربية كل التأثير على الفكر العربي.. أو أن يكون لها كل القدرة على تذويب التراث العربي، وإغراقه!

* * *

* وفي ندوة أخرى.. طرح أحد المتحاورين استفساراً يبحث فيه عن:

ـ القدرة التي كانت للفكر العربي، أو العلم الذي ساد في الماضي السحيق، ثم انتعش منذ الثلاثينات في مصر، والخمسينات في أقطار أخرى عربية مع مصر... وما هي أسباب نقص قدرة العقل العربي اليوم؟!

* هل يرجع ذلك إلى المتغيرات السياسية المتلاحقة، وافتقاد الاستقرار؟!

* هل السبب يكمن في تفشي أنظمة القمع والاضطهاد للكلمة، ولحرية نشرها؟!

* هل يعود ذلك إلى الخلخلة التي أحدثتها الانقلابات والزوابع السياسية في عمق المجتمع العربي؟!

* أجاب ذلك المتحاور المحاور عن الاستفسار الأساسي بقوله:

ـ أحسب أن السبب يكمن في عجز القدرة الإعلامية العربية ـ بكل وسائل النشر، وتعددها ـ عن انطلاقة الفكر العربي!

* ولكني ـ بالتأكيد ـ أخالف هذا الرأي.

لو أننا استغنينا عن إثبات دور الإعلام العربي المُسيَّس، أو شجبه بعض الوقت. . . فإننا نجد: أن الفكر العربي المعاصر ذاته غير قادر على التحرك، ولا يستطيع أن يجهر بمضمونه. . . لأن هذا المضمون مريض ومتداعٍ بسبب المراحل السياسية التي تعاقبت على العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية.

ولو أننا طرحنا التساؤل عن: السبب في تراجع البحث العلمي العربي، وانحسار الفكر العربي، مما أفسح المجال لتفشي الثقافة الغربية، أو تقليدها الأعرج. . فإن ذلك يعود إلى الحقب الاستعمارية بلا شك!

وما حدث للجزائر ـ كمثال ـ هو شاهد مؤلم على ذلك. . مما دفع بالمفكر الجزائري الكبير (مالك بن نبي) إلى البكاء يوماً، وهو يقول:

* أليس هو العار... هذا الذي يسكن لساني، فأكون عربياً، وأنطق بالفرنسية؟!

* * *

* ذلك هو الجانب المعاصر، مما ينبغي علينا أن ننظم له ندوات متتالية، وتتبناه "الجامعة العربية" بالضرورة... وخصوصاً أن برامج التعريب في أقطار المغرب العربي لم تحقق ذلك النجاح المؤمل والمطلوب.

لكنّ جانباً آخر في هذا الحوار.. يعتبر: أن البحث عن الثقافة هو سؤال متأخر كثيراً، أو أنه جاء في تصور يقول:

* إن العرب صاروا أمة راكدة.. كانت في غابة، أو سرقتها غيبوبة.. أو كأن البحث عن تقبُّل الثقافة الغربية، أو أي ثقافة واردة.. هو: فضول!!

* لماذا؟!!

لأنه واقع من أقدم التاريخ.

إننا أمة وسط.. سواء في الجاهلية، أو في الإسلام.. وفي الحقب والعصور.

نحن ملتقى الأمم، وملتقى الطرق.. وقد تفاعلنا مع كل الحضارات، وهضمناها، وأضفنا، وجدّدنا... واعتقدنا أننا أثّرنا كثيراً، بينما نسبة ما أثّر فينا كان هو الأكثر بكل أسف!

* وعلى سبيل المثال:

* في اللغة العربية ألفاظ عُرِّبت من لغات شتى وبقيت إلى اليوم، والكثير يعتبرها من الألفاظ العربية الأصل، ومنها: زنجبيل، دمقس / وهو

الحرير الدمشقي المأخوذ اسمه من دمشق.

* وفي القاموس نجد لفظة: ديماس، أو ديماص (مغسول ديماس تماوصه)، ومعنى تماوصه: أي تخالطه، وديماس: تُترجم دمشق!

* ذلك مثال من اللغة. . . أما الموسيقى، فنعرف أن: أول من جلب (العود) إلى الجزيرة العربية هو "الحارث بن كلده" الذي تعلّم العزف عليه في الحيرة، وأخذ إلى منطقته.

ولو أردنا التوقف قليلاً عند تعاريف الأنغام. . . وجدناها فارسية، مترجمة للعربية:

* نعرف أن "سيكا" تعني: ثلاثة أصوات.

* وأن "الجاركا" تعني: جهاركا. . . أي أربعة أصوات.

* وأن "البنجكة" تعني: بنج. . . أي خمسة أصوات.

وكان عصر محاربة الفقر بكل الأساليب. . . وعصر تكثيف الفقر، والمجاعة!

وكان عصر التكنولوجيا، والاختراعات، وارتياد الفضاء، وتحطيم الذرة.

وكان عصر التزود بالمعرفة في رحاب إنسانية.

وكان عصر "الإعلام" الموجّه"، أو المزور للحقيقة.

وكان عصر الصعود العلمي، والمتمدين، والصناعي. . . وهو ـ في ذات الوقت ـ عصر السقوط لكثير من المُثُل، والقيم، والثوابت في سلوكيات الشعوب!

(٢)

في هذا القرن/ العصر: وقف ـ في الستينات ـ إنسان مثقف، يحمل شهادة الدكتوراه... وهو يدعو إلى: مبادئ إنسانية تستشرف قدَر وقيمة الإنسان في عصر يتفوق بالعلم، ويتطور بالحضارة!

كانت "التفرقة العنصرية" مستعرة في جنوب إفريقيا.

وكانت هذه التفرقة ذاتها تتبلور في نوايا الاستعمار الجديد لمنطقة الشرق الأوسط، متزامنة مع توظيفها في أعمال الصهيونية التي احتلت الأرض العربية في فلسطين.

ولم يكتف التاريخ ـ فيما لاح ـ بسقوط "إبراهام لينكولين"/ محرر العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية... فسقط الكثير من الضحايا، في سبيل الدعوة إلى مساواة الإنسان!

وكان من الطبيعي أن تنشط الحركة الصهيونية في أمريكا لإشعال الفتيل من جديد، لتحطيم وحدة الولايات المتحدة، أو اتحادها.. ولتحطيم امتزاج الأسود بالأبيض.. ولتوظيف "الدور" الثقافي في تغيير المفاهيم إعلامياً، وفي نسف الكثير من القيم والأخلاقيات التي كانت سائدة قبل ظهور الصهيونية.

إن ظهور الصهيونية قد أثر بلا شك في مسيرة الثقافة عالمياً.. وحاول ظهورها أن يُعتّم على التراث الإسلامي بوجه الخصوص، وعلى الحركة التعليمية والتثقيفية في الأقطار العربية!

لقد أرادت الحركة الصهيونية أن تنتقم من العالم كله.. ومن

"الإنسان" أياً كان، بعقدة اضطهاد النازية لها. . وأخطر توجُّهات الانتقام يتمثل في:

* تحطيم فكر أمة.

* تقزيم دور مثقفيها من خلال ما بثَّته من تشكيك وتخويف ينصبان على: تأثير المثقف في المجتمع، وتحريضه على التغيير. . . أي على إحداث الفوضى في دواعي الإستقرار، والأمان، والثقة السائدة داخل كل مجتمع عربي!

* * *

* ونذكر معاصرة هذا القرن/ العصر للحظة التي وقف فيها الزعيم الزنجي المثقف (مارتن لوثر كينج)، ليدافع عن ((لون)) بشرته، وإنسانيته معاً . . . وقيل عنه آنذاك:

* لقد كان يحلم!!

ويبدو أن أحلامه تلك . . كانت أقسى الإهانات التي وُجّهت إلى صميم العصر!

* كان يحلم كما قال: أن أبناءه الأربعة الصغار سيتمكنون في يوم من الأيام من العيش في أمة، أو في عالم لا يحكمه لون البشرة، وإنما يحكمه لون التفكير، وتحكمه مقومات الشخصية السوية الفاعلة، المنتجة، الواعية، المثقفة.

منتهى القسوة. . . ومنتهى الحقيقة أيضاً!

لقد سقط ((مارتن لوثر كينج)) يومها: قتيلاً في مدينة ((ممفيس))

بولاية تنيسي الأمريكية.. وكان يومها يدافع عن: حقوق الإنسان الزنجي، أو الأسود.

كان يتحدث عن: ركائز إنسانية يحضُّ عليها عصر العلم، والحضارة، والتكنولوجيا، والاختراعات، وتحطيم الذرّة، وارتياد الفضاء.. عصر: صرخات الحرية، وإصرار الشعوب على استقلالها، وإصرار ((الإنسان)) على كفالة قيمته الأعظم بدوره في الحياة!

وكان يتحدث عن: حق العيش الكريم، وحق المواطن الكامل، وحق العدل.

* وكان ذلك الصوت متلاحماً مع صوت ((أنديرا غاندي)) الذي عبرت به يومها .. فقالت:

ـ ((هذا يوم النكسة .. لمحاولة الإنسان الوصول إلى الضوء))!!

* * *

* الوصول إلى الضوء؟!!

نعم... فقد عم ظلام التفرقة العنصرية، أو التمييز العنصري منذ حوالي عام ١٨٧٨م أيام الاستعمار الأوروبي، وبتصريحات ((سيسيل دوز)) ومع ((دانيال فرانسوا مالان)) الذي دفع بالإنسانية يومها إلى خندق.. كان ظلامه أكثر من ذي قبل!

وتعاقب القهر على ((الملونين))... وقد اعتبر العربُ والمسلمون من الملونين في عرف الاستعمار القديم والمتجدد، وأداته: إسرائيل/ الصهيونية، وجنوب إفريقيا العنصرية!

اضطرم القهر في عام ١٩٥٠م في ((ترانسفال)).. يوم بدأت المحاولة

المضنية من الإنسان للوصول إلى الضوء.

مثلما بدأت مقاومة القهر فوق الأراضي العربية المحتلة منذ ذلك الحين.. مع سقوط شهيد جديد في قافلة الشهداء الذين يجندلهم ويغتالهم: قهر الصهيونية فوق الأراضي المحتلة!

وسقط في ذلك التاريخ: المناضلون في "روديسيا" وفي "حي هارلم" بجنوب أميركا... مثلما تساقط أفراد "المقاومة" للاحتلال الصهيوني، منذ عام ١٩٤٨م .

وانتعشت ظاهرة الاغتيالات للأفراد المميزين، وللفكر المميز.. أي للعقل الواعي، وللثقافة الطامحة إلى انطلاقة التغيير.. حيث يجد (الإنسان) نفسه من خلال: تأكيد قيمته وقيمه، والدفاع عنهما!

وقتل "مالكم إكس" هناك.

وقتل مئات من المسلمين والعرب.. وهم يناضلون لتحرير مقدساتهم، وأراضيهم!

ولاقى رياضي مثل "محمد علي كلاي" ـ كمسلم وأسود ـ صنوفاً من الحرب النفسية، والإعلامية بسبب: إسلامه ولونه ، وبحثه عن المساواة.. عن الضوء!

وكان من أهم ما جابهه: عدم اعتراف اللجنة الدولية للملاكمة به!!

* * *

* ويبدو ـ كذلك ـ أن من أهم أمراض القرن / العصر المستعصية، بجانب السرطان، والإيدز، كمرض جسماني.. هو مرض: التفرقة العنصرية، أو مرض: غزو العقل، وسرقة الثقافة والوعي!

وتطور الداء حتى تجاوز حدود البشرة أو اللون.. فأصبح ينال من أسس هامة جداً، وهي :

* عقيدة الإنسان: (ما يحدث من اليهود ومن الصرب ضد الإسلام).

* ثقافة الإنسان، أو فكره، أو وعيه.

* أرض الإنسان.. أي: حريته، وانتماؤه، وأمانه .

وإذا كان السود قد حققوا انتصارهم في روديسيا... فإن المسلمين ما زالوا يصارعون أحقاد التفرقة في كل مكان... لأن "الإسلام" ـ وهو دين حياة وآخرة، ودين عزة، وكرامة وحرية ـ فإنه أيضاً: دين ثقافة، وفكر، ووعي!!

وما جرى فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة.. كان: تجسيداً كاملاً لأفعال التفرقة العنصرية ولأفعال اضطهاد ((ثقافة)) الشعب العربي، أي تراثه.. بما يتضح من خلال ذلك: إدّعاء الصهيونية الكاذب عن: رغبتها في السلام، أو التعايش السلمي.. بينما يتم التعامل هناك مع كل عربي بالقهر، وباعتباره (مقيم) من الدرجة السفلى!

ويتضح ذلك أيضاً في حالة اليهود الذين نزحوا من أوطانهم العربية إلى: إرض الميعاد الكاذب.. من يهود اليمن، أو المغرب... وفي حالة الفلسطيني المتمسك بالبقاء فوق أرضه!

فاللعبة تتسع وتكبر... وهي تستهدف: عقل وروح ((الإنسان))!

* * *

* ولا بد أن أعنف لطمة توجه إلى وجه عصرنا الحاضر.. أن يقول مثقف:

ـ لازلت أحلم بالعيش في عالم لا يحكمه: لون البشرة. . ولا حقد على دين. . ولا مطامع في أرض وثرواتها. . . ولا إهانة ((لقيمة)) الإنسان ولحريته التي كفلتها له كل الأديان السماوية.

إن ((الإنسان)) المعاصر ـ وجد هذا المثقف القلق، الحائر، المقهور ـ يفتقد طريقة ليصل إلى (الضوء) الذي ينير درب خطواته نحو التكامل الإنساني المطلوب. . . بإذاعة: الحرية، والحق والعدل.

لكن ما يجري في أرجاء العالم كله. . . يدل على تناقض هذا العالم!

تناقضه في: مفهوم الحرية، وفي العيش، وفي القيم والأهداف، وفي التعامل، وفي. . . مطلب السلام!

إنها خديعة وهم كبير. . تُسوّق الإنسانية فيها إلى ((التجريد))، كما قال "سارتر" ذات يوم، قبل أن يصبح صهيونياً!!

(٣)

* الإنسان: يكتب تاريخ حياته بأعماله.

والشعوب: تكتب تاريخ نهضتها وتفوقها بآدابها وبفكرها، وبفنونها!

ومحتوى هذا التاريخ: تتشكل أهميته من الفكرة المفيدة التي يبدعها الإنسان، والتي تحققها الشعوب. . . ومن المقارنة الممتثلة بين ما يؤَدَّى من عمل، وما يصدر من سلوك. . وبين ما يؤديه الناجح أمام مجتمعه من عمل، وما يفعله المهذب الواعي تجاه مجتمعه من سلوك!

كما تتشكل أهمية محتوى هذا التاريخ من: الوجدان النظيف والصادق

نحو ما يشعر به الإنسان للناس، وما يعلمهم به من: ضمير، وضوء عاطفي يبدد به كل ظلمات العقَد النفسية، وتراكمات البغضاء!

هذا هو الإنسان الحقيقي: المثقف في حزمة شعب ناهض متفوق بحضارة فكره، وبتطور أدبه، وبملامح فنونه التي تدل على التراث أو القيمة التاريخية!

وهو الإنسان الذي يمتلك: قدرة المعايشة، ويستوعب معاني الحياة.. بكل ما تدفعه إليه، وبكل ما تحضه عليه، وما تُرغِّبه فيه، وبكل ما يتعلمه هذا الإنسان من تجاربها.

وكل إنسان يبحث في داخله عن هذا الإنسان: النموذج، أو الراقي، أو المثقف!

* * *

* الإنسان.. يبحث عن الإنسان في عصر: أُمِّية الضمير، وظلال الوجدان التي تكثِّفها ((الأنا)).

الإنسان.. يطفو على سطح النفس، وهو: الغريب، والتائه، والحائر!

وفي خلاصة المعايشة لواقع المثقف العربي... صدمني هذا الواقع في حصيلته، أو ـ على الأقل ـ في الانطباع عن شرائح من المجتمع التي تُشكِّل: الوجاهة، أو السوق، أو صوت المجتمع المعاصر.. فقال لي:

ـ لا تعتقد أنني أصدمك بهذه الخلاصة، قبل أن تعرف أنني صرت أعاني من الإحباط، والذهول... حين يتكشّف لي في كل يوم، وفي كثير من المجالس: أننا نعايش أفكاراً تافهة، محدودة.. تلوكها عقول مسطحة، أو سطحية... مغرقة في ((الأنا)) تارة، وفي ((مكانك سر)) تارة أخرى،

وفي هروب المسؤولية ((الموقف)) وفي الخصام مع الكتاب، أو المعرفة، أو. . . . الثقافة!

أفلا تخاف على مجتمع كهذا. . . يعتقد أن التسطيح: حياة مريحة ومستقرة؟!

مجتمع: يخاف أن يطرح فكرة جديدة للحوار. . . بطريقة: إبقاء الحال على ما هي عليه!!

ونتلفت عن شرائح مطلوبة في مجتمع يعاصر ويعايش مجتمعات من حوله، وفي عصره. . عرف "الإنسان" نفسه، وأخذ يمارس التجربة الجديدة بلا وجل، وبلا تردد، وبلا عُقَد. . . وصار يحترق بالحب، ويتطهر بالعقاب على الخطأ أو الانحراف بلا مجاملة، وبلا تعمية. . . ويتفاعل مع رغباته، وأمانيه، وأحلامه دون أن يشعر بالخجل منها، أو اعتبارها: عيباً. . . ويحس بالاحتراق في داخله، بأن الجوهر فيه يعاني حيناً، ويرتاح حيناً آخر!!

إنها اهتمامات النفس الإنسانية في معايشة الناس داخل مجتمع منفتح على الرأي، والحوار، والتجربة المدعّمة بالثقة في النفس!

* * *

* وفي داخل هذا "الإنسان": تدق الساعات معلنة عن موعد أفراحه. . وتدق منهية لحظات سعادته. . وتدق إيذاناً بموعدٍ لجرحٍ جديد، أو لحب وفيّ لا يخون!

فلا بد أن يخضع الإنسان للتوقيت في قمة المعرفة. . وهذه الضرورة هي: خلاصة لكيفية بحث الإنسان عن الإنسان. . . والبحث توفره الثقافة،

والنضج الاجتماعي، وتجاوز سطحية التفكير أو الفكرة.. للارتقاء إلى: قيمة الحياة، والتوقيت، والفعل، والسلوك!

إنه ـ إذن ـ التوقيت، والزمن، والموقف، والثقافة أو مستوى النضج... ثم الحقيقة في النهاية.

إن الإنسان لا يقدر أن يصنع توقيتاً لأفراحه.

وليس في إمكانه أن يحدد موعداً لجراحه وآلامه، فيحياها، ويبددها.

إن الإنسان يخضع لهذا التوقيت، بطموح الثقافة أو المعرفة، من أجل عبارة واحدة، تقول:

* "أريد أن أجعل العالم كله بلا معنى.. من أجل معنى واحد"!

وهي عبارة قيلت... ومضى الناس إليها يفتشونها، فلم يحددوا حتى الآن ملامحها، ولكن... ليس دائماً يصبح البحث عن الملامح هو: المحيِّر، والمضني، والمعذب... ربما بحث الإنسان عن "الأصداء" هو ما يتعبه!

إنه "الموقف" في حياة الإنسان من خلال تفكيره، أو فكرته، أو نضجه.

وهو "الموقف" الذي ينعكس على المجتمع كله من سلوكيات إنسانه، أو أفراده... لتُفرِّغ هذه السلوكيات المجتمع من الثقافة، ومن إبداع الفنون، ولتكثِّف السطحية، والعقد النفسية والعقلية... أو يتزود هذا المجتمع بسلوكيات هذبتها: الثقافة، والمعرفة، وصقلتها الفنون!

* وإذا تلفَّت هذا "الإنسان" حوله: في التاريخ القريب، وفي المؤثرات من جيرانه، وفي وحدة التجربة والمعاناة... فلا بد أن يتأمل هذا التاريخ القريب الذي مضى بلا ملامح... يبحث الإنسان فيه عن أصداء

شيء . . عن معنى واحد فقط . . . عن "قدرة" على اجتياز المحن، والفقر، وكثافة الجهل . . . من أجل أن يقفز فوق همومه، وفوق صغائر بعض الذين قُدِّر لهم الظهور على سطح الحدث، ليضطهدوا الحوار، والتعبير، وليعتسفوا معطيات الثقافة وتأثيرها على مجتمعاتهم!

هو نفسه الإنسان العربي الذي طحنته: حروب، وانقلابات خادعة، وهزّات عبثت باقتصاديات الوطن العربي من محيطه إلى خليجه . . . فصار يبحث كذلك عن: التفوق على تمزقه، وشتات "كلمته"، وضياع معنى واحد: بأن يهزم الخلاف، ويُبدد الفرقة . . وأن يقف على قدميه، ويجلو وعيه أو نضجه الفكري وإبداعه الفني . . ليثبت مصيره، من أجل أن يعيد "كتابة" تاريخه بحاضر يتمتع فيه هذا الإنسان بالوعي . . بتأثير الثقافة، ويُسقط (السطحية) التي تمحو شخصيته، وتُقزِّم مواقفه!!

* * *

* وكان موقف آخر أقسى، وأشد خطورة على العقل العربي، والثقافة، والفنون: أن يتمزق الإنسان العربي من الداخل، بعد أن نجحت أطماع الأعداء، وتهاونه في حقوقه، في تمزيقه من الخارج!!

وكان ما حدث في لبنان على سبيل المثال، هو: الانتحار على الطريقة اليابانية.

وما حدث في العراق هو: موت بالطريقة البوذية . . الخروج إلى الشارع، وسكْب الغاز، وإشعال النار بيد الإنسان في نفسه . . قبل أن يشعلها فيما حوله!

وكان لا بد لنا بعد صدمة الاجتياح العراقي للكويت:

* أين أبعاد، وأهداف، وقيمة تلك المهرجانات، والعاليات في المربد، وبغداد: احتفاء بالثقافة وبالفنون... ولِمَ لَمْ تؤثر بنفس تأثير (الثقافة) على الواقع السياسي العراقي، تنعكس على نفسية المعتدي العراقي؟!

إذن... فقد وظّف البعض (اسم) أو شعار الثقافة.. لكنه لم يستخدمها، ولم يُعممها ولم ينشرها ويرقب متغيراتها في العقول، وفي النفوس... مثلما وظّفت الأنظمة السياسة بعض المثقفين لنشر أهدافها إعلامياً، وثقافياً!

فهل (الثقافة) في الواقع العربي المعاصر: كذبة وهم، أم شعار للتوظيف السياسي، أم استعراض (شو) لترف السطحية الطاغي بكل أسف حتى على منهجية التفكير ؟!!

ذلك حدث، ومازال يحدث، في ثمالة القرن العشرين، بعد أن صعد "الإنسان" المتقدم عنا إلى سطح القمر، ونجح في زراعة القلوب الجديدة وبقية أعضاء الجسد.. ويجري أبحاثه (المتفائلة) على اكتشاف علاج للأمراض المستعصية والخبيثة.. مما رمى الإنسان بأدوائها بسبب: عُقَده النفسية، وإحباطاته، وتسطح أفكاره وأهدافه!

فإذا الإنسان اليوم: يموت بصحته، ويموت بحضارته، ويموت بشدة وعيه ونضجه الفكري أو الثقافي، ويموت بالتكنولوجيا وأحدث ابتكارات الحروب.. فإنه في جوانب أخرى: يموت بتسطحه الفكري، وبتفاهة حواره أو القضايا التي يطرحها من اهتماماته.. ويموت بجهله، وبشدة تخاذله وجبنه وتقوقعه.. ويموت برفضه للثقافة، وللفنون التي تصقل وجدان الشعوب، وتدل على إبداعاتها ومعطياتها الإنسانية!!

* * *

* إن ما يحدث الآن بالتحديد، وبلا محاولة للتجني، ولكن للتمني بإفاقة الوعي:

* توقيت: لا يدق ساعة الزمن للانتباه، بل يفقد بصيرته!

* زمن: ينكص إلى الوراء. . إلى ما قبل الحضارة، والصعود إلى القمر!

* مواقف: شاذة مولودة من رحم السطحية. . تنفصل عن الخلفيات، ويتصدع بها: الحرص حتى على إيجاد المعنى الواحد!

* حقائق: مخجلة، ومحبطة. . . تدين الوعي بضمور النمو العقلي أو الثقافي!

إنها الإلتفاتة الموجعة إلى حقيقة: الإنسان يبحث عن الإنسان!!

ولكن. . . كيف يستطيع الإنسان أن يعثر على نفسه بجوهرها. . ليبور فعل وتأثير الوعي بالثقافة ؟!

إذا لم يثمر العلم.

إذا لم نستفد من التطور الحضاري من حولنا.

إذا لم يذكر التاريخ بحقائقه. . . وليس بالتزوير فيه!

إذا لم نهتم بإنجازاتنا، وبنائنا للحياة وللإنسان من خلال شجاعة الحوار.

فنحن نفشل ـ إذن ـ في مهمة: التطوير، والتحسين، والتغيير. . . مثلما نفشل في أن يعثر كل "إنسان" منا على نفسه!

إن كل الحوافز في داخلنا ـ بتنمية الثقافة والفنون، وقبل تنمية المال ـ

قادرة أن تمنحنا: قدرة العمل والإرادة.. لنجعل الواقع مضيئاً متنفساً، خالياً من العُقد، زمن الإحباطات... مفيداً للمجتمع الإنساني!

وتلك هي: أهم حقيقة لا بد من تأكيدها... ممثلة في معالجة (تفشي) السطحية في عقول، وفي أفكار، وفي حوافز شرائح تعتقد أنها الصفوة في مجتمعات منشغلة بالتفكير في الوعي!

❋ ❋ ❋

❋ مطلوب ـ بالثقافة، وبالفنون ـ أن نحول الرصاصة إلى: زهرة... فالزهرة طلقة حضارية تُوجَّه إلى: العدو المتربص بالأرض وبالثروة، وطلقة إلى: السطحية إذا ما عششت في العقول، وطلقة إلى: العُقد النفسية التي تُمرض النفوس وتمنع عنها الضوء!

❋ مطلوب ـ بالحوار، وبالمواجهة ـ أن تكون لكلماتنا: معانٍ.. وأن تكون لمعانينا: أفعال وأهداف.. تتحد في معنى واحد، يؤكد (الانتماء) إلى عصر: الثقافة، والعلم، والوعي!!

(٤)

❋ مازالت الأسئلة تتمطى برتابة!!

وما زالت الأجوبة: خجلاً يرهق الأذهان، ويذوب في الحوافز كلما تشكّلت!

وتخبو الأسئلة أحياناً.. لتلوح وهي شيء كأفعى وهِنَة!

وتظهر الأجوبة حيناً ـ على استحياء ـ في تأكيد: ثقافة مجتمع، أو... وعيه!

إن الحاضر ينتظر الكثير من: المتعلمين، والمتخصصين، والمثقفين،

والعلماء المتفوقين بالثقة في الحياة، وليس المنهزمين بالخوف من الحياة!

* فأين هم: المثقفون ؟!

* وأين هو: موقعهم في حاضر طموح جداً، واحتياجي، وقاهر ظالم، ومستزيد ؟!

* وهؤلاء الذين نالوا أرقى الشهادات، وتحصّلوا على نسب عالية من التقديرات. . . وتسلموا بطاقة دخولهم إلى الحياة العملية مساهمين في بناء الإنسان بالوطن: هل أسهموا حقاً في العطاء. . أم اكتفوا بكرسي الأستاذية في الجامعة، وبالشهرة على صفحات الجرائد ووسائل الإعلام من خلال ما ينظِّرون به؟!

* هل تمركزوا في مواقع تخصصاتهم؟!

* هل أعدوا جيلاً رديفاً. . يكمل مشوارهم فيما بعد؟!

* وماذا حققوا من الفائدة، والإنجاز. . ومن الفكرة الجديدة المطوِّرة، ومن الإبداع المضيء؟!!

* * *

* ربما كانت الأسئلة: مفاجئة، وصريحة، ومباشرة. . . لكنها تبقى أسئلة تترادف، وتتكرر، وتتعثر. . حتى كاد الوهن والتبلد أن يصيبها، وأضحت: أسئلة رتيبة تتثاءب!!

وقد تلوح أجوبة متعاقبة خلف كل سؤال من تلك الأسئلة، في معنى الكلام الشعبي (إللي يدوِّر عن أعذار. . يلاقي) ـ من الأدب الشعبي!! ـ

لكنها أجوبة لا تعطي وضوح: القدرة بالعقل، ولا فاعلية الثقافة وتأثيرها. . . ولا تنهض بالدواعي الجيدة أبداً!

* فما هو "الإسهام" الحقيقي من الأكاديميين، والمثقفين، والمتخصصين، في ترشيد المجتمع، ونشر المعرفة التي تضيء عقول الأجيال بالوعي، وبالرؤية اللصيقة؟!

* وما هي أبعاد: العطاء، والتطلع لدى (الشباب) من خلال تأثير المثقفين، والأكاديميين على كسرهم للطوق، والصعود إلى مرحلة الرجولة، والمسؤولية، والفعل؟!

إن الأسئلة المطروحة قد تبدو ساخنة، وارتفاع درجة حرارتها يتأتّى من الاطمئنان على كل ما يمور في أدمغتهم، وما تعتمل به صدورهم، وما تعطيه أفكارهم الجديدة!

وهناك بعض الحقائق الذي يسمح لنفسه بالبروز قبل غيره، ويتخطى الانتظار الرتيب إلى مساحات مقفرة ومحتاجة.

* حقيقة تقول: إن مجتمع المثقفين منشغل بنفسه، أو بتكثيف الإضاءة على أسماء، وتعتيمها ضد أسماء.. فما زالت الشللية تسيطر!

وهذا الانشغال جرّ بعض المثقفين أيضاً إلى طرح موضوع، ولا نقول قضايا.. ليمتد (الإشكال) حولها وعنها، ويستعرض البعض عضلات قراءاته، أو ملاحقته لمدارس الغرب النقدية (البايتة) التي أكل الدهر، وأنِف أن يشرب... وقد شغلونا، مثلما شغلوا مجتمعنا، واشغلوا صفحات الجرائد (بمطوّلات) من البحوث المنتمية إلى تلك المدارس والكتب.. دون أن يفهم الكثير ـ لو قرؤوها ـ شيئاً من مصطلحاتها، وتنظيرها، و..... (إشكالاتها)، لأنها في مضمونها هي: المشكل، أو المشكلة التي تعيق انطلاقة الثقافة، وتعرقل دور المثقف نحو مجتمعه!!

* وحقيقة تقول: إن كل أكاديمي متخرِّج. . يطرح أول سؤال بعد عودته:

ـ كم سيتقاضى شهرياً، والحوافز، وحجم العمل، وساعاته، وخارج الوقت ؟!!

ويركض إلى الصحف. . يكتب التعليقات السياسية، والتحليلات الاقتصادية. . . وينسى أن يتحدث عن فكرة تسهم في تطوير خدمات وعطاء وطنه!

وليس في هذه الصورة تجنٍ. . . لكنها دوافع الحوار الصريح، المنطلق من عشقنا جميعاً للوطن، ومن تطلعنا للاستفادة من هذه العناصر الأكاديمية، والمثقفة. . . بدلاً من هذا (الإهدار) الملحوظ للعلم، وللثقافة!!

* وبمناسبة (الزحام) في المسابقات الثقافية التي تقدمها صحافتنا المحلية في شهر رمضان المبارك، لحثّ القارئ على القراءة والمطالعة. . . نكتشف بكل حزن وأسى حقيقة مخجلة جداً، تقول:

* إن أهم شريحتين في المجتمع. . لا يشتركان في هذه المسابقات، ولا يعيرانها التفاتاً، وهما:

* شريحة الشباب في نسبتهم الأكبر، والقلة العاشقة للقراءة وللاستزادة من المعرفة هي التي تشترك. . والكثرة (تستهلك) ليالي شهر رمضان في الركض بالشوارع، وبالأسواق التجارية، ونهارها نوم متصل!

* وشريحة المثقفين، والجامعيين أو الأكاديميين. . لأن هؤلاء يعتقدون أن دخول الواحد منهم في مسابقة كهذه: انتقاص من شأنه، وتقليل من أستاذيته، وثقافته. . . وأنه صار (أكبر) فلا مجال لإلتفاتته إلى مثل هذه

الأسئلة الثقافية، والعلمية، والدينية عليه... وهو يعجز في الحقيقة عن معرفة أجوبتها، وربما عن معرفة المصدر من الكتب!

والبعض من هؤلاء يصعب عليه حل أسئلة المسابقات، ليس لأنها صعبة، بل لأنه يترفع أن يراجع، ويبحث، وهو يفرض فوزه لو أراد!

ولعل الهدف من هذه المسابقات: جذب الشباب إلى القراءة، والتقصِّي عن المعلومة، والبحث في المراجع والمصادر، واحتساب وقت مفيد، بدلاً من ألوان العبث الذي يهين قيمة الإنسان في إهدار لوقته.

والهدف أيضاً: أن يتعاطف المثقفون، ليبرز وجه مشرق، مشرِّف.. يعلن عن: أحقية المثقف في نشر الوعي والمعرفة بين أهله ووطنه، وريادته لهذه الأحقِّية!

ونعرف أنهم هناك في الخارج... يخاطبون بمثل هذه المسابقات التي تنظمها هيئات ومؤسسات علمية وثقافية: المثقفين، والحاصلين على شهادات عليا، والشباب الطموح العاشق للمعرفة.. لمنحهم فرصة تقديم خدمة جيدة لمجتمعهم، وخدمة للبحث!

* فلماذا يخذل المثقفون مجتمعهم، ووطنهم ؟!!

ونعرف ـ كذلك ـ أن: المؤسسات الثقافية في العالم المتقدم... ترصد مبالغ ضخمة لتنشيط الحركة الثقافية، والحث على القراءة، وعلى الإبداع!

* * *

* وبعد هذا... نتساءل عن: وجود أو تواجد المثقفين، والأكاديميين الحقيقي، والمؤثر، والمنتج، والفعال.. ودورهم المطلوب في تحريك

ركود الأندية الأدبية الذي صار ركوداً آسناً، وصارت برامجه الثقافية المحدودة مملة، ولا جديد فيها!

ودورهم أيضاً في ترشيد (الشباب)، ومحاولة سرقتهم من جنون كرة القدم، ومن (السياحة) في الأسواق التجارية، ومن عبثهم بالسيارات مع هذا الحديد الذي اختطف زهرات من شبابنا المؤمل عليهم!

ودورهم في توجيه دفة (النقد) من الاستغراق، أو (النقع) في نقل المدارس الغربية المطوية مع زمانها الآفل. . إلى واقع يتطلب الخروج من قوقعة ما أطلقوا عليها (حداثة) وهي: حداثة في نقلهم الأفكار، ونظريات قديمة لم تعد صالحة، أو ليست في مجال الفهم المنطلق اليوم نحو ما هو مطلوب من دور أهم، وأعظم، وأكثر إيجابية. . لا بد أن ينهض به المثقفون، وأن يعترفوا بأن "معزوفتهم" قد استنفدت (أغراضها)، ولم تعد تجذب، ولا تقنع!!

* * *

* إن لدى مجتمع المثقفين قضايا مهمة جداً. . على رأسها:

* **أولاً**: المتغيرات التي حدثت في العالم ـ سياسية، واقتصاداً، وعنفاً أو إرهاباً ـ وهي المتغيرات من المخجل أن يستهين بها المثقفون، أو يتعامل معها البعض منهم بسطحية، ويتحدث عنها إنشائياً، وعبثياً، وتجهيلاً، أو. . . نفاقاً!!

* **ثانياً**: إهمال المؤسسات الثقافية، أو على الأقل. . . تنويمها، مثلما نلاحظ على (منظمة الثقافة، والتربية، والعلوم) التابعة للجامعة العربية. . . وقد سُجِّيَتْ على ظهرها، وغطّوها، دون أن نعرف: هل

ماتت، أم هي في انتظار طبيب نطاسي بارع، بعد أن كان لهذه المنظمة صوت، ودور مميزين، وفاعلين في تنشيط الحركة الثقافية العربية، وحتى الحركة التعليمية.

* **ثالثاً**: تجمُّد المناهج التعليمية ـ وهي حالة عامة في الأقطار العربية كلها ـ دون أن يكون هناك تطوير، وتحديث لها.. يتلاءمان مع مسيرة التقدم العالمي!

* **رابعاً**: منظمة الثقافة العالمية (اليونيسكو)... قتلتها القوى العظمى، بعد أن كان لها دور، وصوت في العالم، في حدود قدراتها المالية، لأن العالم لم يكن من سنوات يعترف بواجب دعم هذه المنظمة... لأنها ليست منظمة بيع سلاح، ولا منظمة مافيا... وسُجِّيَتْ هي الأخرى، وغطوها مع منظمة حقوق الإنسان!

* * *

* وأخيراً.. تنتصب أسئلة جديدة:

* لماذا يترك المتخرِّج من الجامعة مجال تخصصه، ويهرب إلى الوظيفة (إن وجدها)؟!

* لماذا يعمد المثقفون إلى تسطيح دورهم ومسؤولياتهم؟!

* لماذا نضيق بالحوار... وهو أول ركائز الثقافة والنضج؟!

* لماذا صار مجتمع المثقفين.. أكثر المجتمعات: شقاقاً، وبغضاً، وحسداً، ونفاقاً، ونرجسية ؟!!

ليت حواراً "نظيفاً" وهادفاً.. ينبض بيننا، لنسقط الصغائر، ونستنهض فينا: الفكرة المنتجة، والرأي المخلص الحصيف!

لتتمخض عن كل هذا: حصيلة.. نرى من خلالها الأخطاء، ونعرف بعدها: كيف نكون، وإلى أين نخطو، وماذا نريد ؟!!

(٥)

* صادمني سؤال... أطل عليّ يوماً من بين سطور رسالة "قارئة" تسألني:

ـ هل يقرأ الشباب.. أم أن لدينا أزمة قراءة بالفعل ؟!

وإذا كانت هناك فتيات مميّزات من الشباب تعشق القراءة... فماذا تقرأ؟!

من خلال عملي الصحافي، وتواصلي مع القرّاء ـ الشباب ... وبالذات هنا في الجزيرة العربية وفي أقطار الخليج العربي!

استطاعت المرأة أن تملأ فراغ وقتها بالقراءة.. لأن الساعات الأطول هي في البيت، بعكس الرجل... وأحسب أن المرأة قد سئمت من "الفيديو"، ولم تجد الجديد في التلفاز ـ حتى بعد الدش! ـ وتفوقت على جلسات الرغي الحريمي... وقد شاهدت فتيات في الطائرات يمسكن بكتاب طوال زمن الرحلة.

ولست أحمل هنا على الشباب، أو الرجال... لكنّ ظروف انطلاقهم خارج البيت: أوفر، وأوسع من ظروف الفتاة، أو المرأة... فالشباب/ الرجل يستطيع أن يسافر وحده، ويرتاد ملاعب كرة القدم، ويقود سيارته، ولا يجد في مميزاتها سوى التفحيط بها، أو التجول على الأسواق... ولعله لم يحاول تنظيم وقته، فيحرص على اقتطاع ساعة جادة للقراءة، ولتثقيف نفسه!

ويمكننا أن نقول هنا: إن شبابنا منشغل بالرفاهية... للقادر منهم!

أما غير القادر فإنه: منشغل بكدح العيش، والتعب، ولا سيارة لديه، أو.... الانشغال بالفراغ... وكلها أسباب ترمي الشباب في نتائج الحالة نفسها، أو الواقع.. بينما المجتمع كله منشغل عن الالتفات إلى الشباب ـ فتياناً وفتيات ـ وذلك بأمور وصلنا بها إلى (مُسَلَّمات)، أو قاعدة... ولا يمكن تنظيم الحياة بالإرغام، أو بعنف التوجيه!!

* * *

* وهناك سؤال آخر نطرحه.. استطراداً للحوار، وهو:

ـ هل أصبحنا نعيش زمن ثقافة: التلفاز، و"الدش" ؟!

* والإجابة: نعم... لكنها حالة مؤقتة، وقد رأينا كيف انحسرت جاذبية (الفيديو)!

لكن... هناك: كرة القدم بكل جنونها، أو (تجنيها)، والسفر، والتجوّل في الشوارع والأسواق!

فيسمى هذا الفعل: حرية!

ولعله بكل هذه الإيجابيات، والسلبيات.. يبحث عن المعرفة التي تنقصه باعتباره المخلوق الذي أعزّه الخالق عز وجل بالعقل، دون سائر مخلوقاته!

ولعله يكتشف شيئاً لم يكن يعرفه... فيفكر فيه، ويتأمله، أو... يدافع عنه!

وفي كل هذه المحاولات، وبها... تتم التربية، والترشيد والتهذيب!

* بمعنى: أن الطفل يكبر، ويفهم، وينضج.. من خلال مراحل النشوء هذه.

فهل نقول: إن الطفل الحديث اليوم.. يفتقد مثل هذا التوجيه، والترشيد والتهذيب... وأنه مهمل من التفات الأبوين إليه، ومن واجب التربية قبل التعليم في مدرسته، ومن معلميه ؟!!

❊ ❊ ❊

❊ في مرحلة النشوء الأولى.. لا نحسب ـ أيضاً ـ أن الطفل فقد العناية به من أمه بالذات: تكلأه، وإن كان الأب ـ في التقدير الأشمل ـ لم يعد لديه الوقت ليجلس إلى هذه الأشياء الصغيرة في طفله.. وهي الأشياء التي تؤثر على سلوكه فيما بعد، وتؤثر على تصرفاته، ورغباته.

لكننا نناقش الأهم.. أمام الوسائل التوعوية الحديثة والمباشرة:

❊ إن ذلك الطفل الذي نقلت وكالات الأنباء حكاية لصوصيَّته، حاول أن يمارس فعل رجال العصابات، ويقلد هجوميتهم وشراستهم وإجرامهم، فقام بعملية سطو مسلح لبنك في نيويورك، بعد أن سرق "زلاجة" جليد، هدد صاحبها بسكين!

وعندما كان في التاسعة من عمره: شَهَر مسدساً ـ لعبة! ـ في وجه صرّاف بنك... فابتزَّ منه مبلغ (١١٨) دولاراً حصيلة الخزنة يومها!

وهذا لا يعني أن البنوك الأمريكية قد أفلست... بل لعل البنك قد صرف الكثير يومها، وكان الطفل يحتاج إلى: ثمن تذكرة سينما، وبطاطس مقلية، وساعة منبِّه... والسينما رخيصة في أميركا، والبطاطس: في الشوارع تمشي أحياناً (!!).. والمنبّه مفقود في ذلك المجتمع... ولذلك: سرق ذلك الطفل!

❊ وقال محاميه مبرراً الفعلة: لقد تأثر الطفل بأفلام التلفاز التي يُدمن

مشاهدتها... فأراد أن يطبّق لعبة: الشرطي واللص!

ونحسب أن الشرطي هنا، هي: التربية.. والاهتمام بترشيد الطفل منذ مرحلة نشوئه!

أما اللص... فلا نعتقد أنه التلفاز ببرامجه السخيفة، ولا السينما!

إن مثل هذه الأفلام البوليسية تُنتج للكبار، وللصوص الكبار.. وتُعرض في وقت ينام فيه الأطفال، ويستمتع فيه اللصوص!

وهذا الطفل لم يكن ينام في موعده.. لأنه لم يجد العناية والرعاية حتى لتنظيم وقته.. وبالتالي: لتنظيم، وتهذيب أفكاره ومكتسباته.. ولأنه افتقد من يوجِّه إلى قراءة الكتاب المفيد والجاذب لاهتمامه!!

(٦)

* كنت أزور "تونس" في زوراتي التي كانت دائمة لها.

وكلما زرت هذا القطر العربي الشقيق.. لابد لي أن ألتقي هناك من أسمّيه: (عرِّيف) الثقافة فيها، كان بعد خُلوِّه من مهام وزارة الثقافة، واكتفائه اليوم "بالظل"...وهو: الأستاذ "البشير بن سلامة".

كان ـ في الاعتبار الأول ـ يمثّل هذه النافذة المضاءة التي تطل دائماً ـ قبل احتجابها ـ بوجه تونسي، وبفكر عربي، وبعقيدة إسلامية، واتخذت اسمها من "الفكر".

وكان ـ في الاعتبار الحميم ـ صديق قديم.. يملؤني كلما التقيته بمعاني صداقة الكلمة.. وبذلك التواصل الذي يرتفع بقيمة الوشائج، وبعطاء الفهم والرؤية لهموم الثقافة العربية!

حتى عندما سقطت حكومة "مزالي" التي شغل فيها منصب وزير

الثقافة، وتربعت إدارة سياسية جديدة لحكم تونس، وقُدِّم بعض الوزراء للمساءلة. . فإن "البشير بن سلامة" لم يكن واحداً من أولئك، بل تجاوزته المساءلة، وبقي: قيمة ثقافية باهرة. . ولو حاول البعض أن يصمه بصداقته للرئيس "محمد مزالي" ولكنه لم ينكرها. . وقد كانا معاً رفقاء مشوار على درب الفكر والثقافة!!

* * *

* وفي مكتبه القديم بوزارة الثقافة، وفي منزله الصغير الهادئ. . كثيراً ما تحدثنا وناقشنا هموم المثقفين العرب، وكنت ألمح حبوره وسعادته وهو يحدثني في كل لقاء عن: أهمية بناء الجسور الثقافية بين الأقطار العربية.

ومن حواراتنا معاً. . ما حدثني به في واحد من تلك اللقاءات، فقال:

ـ نحن هنا في تونس جاهدنا كثيراً، دفاعاً عن عقيدتنا، ولغتنا. . حاربنا الاستعمار الفرنسي، وانتصرت العقيدة واللغة والأرض بإنسانها. . . لأن دفاعنا كان حقاً، وكان من أجل العقيدة والانتماء والجذور والحرية. . . وواجهنا بعد ذلك: الحرب الأخرى. . التي بدت لنا أكثر خطورة وشراسة، لأنها كانت تستهدف: عقيدتنا، وتعادي لغتنا وعروبتنا!

وتصدينا لتلك الحرب الشرسة بمخططات التعريب، وترسيخ الثقافة العربية بكل ما حفلت به من تراث عظيم ومبهر.

وأضاف: إن هذه الأرض. . نمت فوقها حضارة قديمة، وكافحت وناضلت ضد ثقافات غريبة ومقتحمة ووافدة: لوبيّة، وجونيَّة، ورومانية، وبيزنطية. . . ثم كان الاستعمار الذي أراد أن يربطنا بلغته، وبثقافته. . ليُحوِّل مسار التاريخ!

قلت له: في حوارنا نتثبّت بأهمية الثقافة ودورها المرتبط بالتنمية.. ولابد أن تتحقق للإنسان العربي تلك الرابطة التي لا تفصله عن ماضيه، والتي تحميه من أن يسقط في غربة!

ـ قال: تحدثت في "البحرين" في إحدى زياراتي، عن: السياسة الثقافية في تونس، وكان لابد لي أيضاً أن أركز على : (لإثبات الذات وتجذير الشخصية).

* سألته: تقصد "الذات" الوطنية؟!

ـ قال: إن آدمية الفرد وإنسانيته المتميزة ـ كما قلت لهم ـ تتحقق بواسطة تكوين الشخصية الأصيلة ذات الجذور.. وهي التي تتكون من حلقات ثلاث: "الأنا الماضي، والأنا الحاضر، والأنا المستقبل"... ومن الخطورة أن يحدث تشقق في هذه الحلقات الثلاث.

* قلت له يومها: لكننا نواجه خطورة الغزو الثقافي.. الذي يقابله في عالمنا العربي: الإهمال الملحوظ لتنشط الحركة الثقافية ودعم المثقفين؟!

ـ قال: هذا صحيح، وأوافقك عليه بكل أسف... لكنَّ ثبات الشخصية الواعية في إطار تلك الحلقات الثلاث، يجعلنا أكثر قدرة على التصدّي لكل محاولات هذا الغزو وهذا التسلط على فكرنا ومبادئنا... وهناك أيضاً ما نلحُّ من ضرورة إقامة الجسور الثقافية بين الأقطار العربية بخطط مستمرة ومتواصلة.

* قلت: وقد تأتي ردود فعل أخرى.. يتمثل بعضها وأهمها في الذهاب إلى الاتجاه الآخر، مما يصفه البعض بأنه: دفاع عن الذات الدينية والوطنية.. وذلك بالاستغراق في المغالاة، والرفض لكل فكر، ولكل فكرة مفيدة!

ـ قال: ينبغي علينا أن نتلمس بعناية دور "الثقافة" في تواصل الأمم. . . وأن نعلن: "ضرورة المطالبة بتفجير المكاسب التراثية العربية، والنهوض من خلالها للالتحاق بركب الحضارة"!

قلت: إن الثقافة هي البَلْورة الحقيقية والإيجابية لهاجس إرساء التنمية الذاتية الوطنية، من واقع الانتماء وتعمُّقاً مع الجذور الأصيلة، واستنهاضاً للسعي نحو التطور الحضاري!

❊ ❊ ❊

❊ وفي تونس أيضاً: كنت أشارك بعضويتي في مجلس أمناء "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" قبل عدة سنوات. . . وكان الاجتماع الأول قد خصصه الأمناء للتحدث عن: الوسائل والسبل التي تخدم أهداف نشر اللغة العربية، والثقافة العربية الإسلامية خارج العالم العربي.

وقد انطلق الحوار ـ يومها ـ من قاعدة هامة ذات خصائص مميزة، ركَّزت على أن "اللغة العربية خُلقت لتكون لغة عالمية"!!!

لكنّ هذه اللغة العظيمة. . لابد لها أن تستلهم دورها الموصول، وتتفاعل مع الدور الحضاري لها، وتتصدى لمخططات الغزو الثقافي في هجمتها على: (قضية الهوية الثقافية العربية)!

وكانت "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" قد طرحت برنامجاً هاماً، في أيام نشاطها، وارتفاع صوتها. . . زمن خلال المؤتمر العام للمنظمة في دورته التي عقدت في تونس/ شهر ديسمبر ١٩٨٤م، وشارك الأمين العام لجامعة الدول العربية بكلمة. . . شدد فيها على: معطيات الوحدة العربية، وعمق دور العمل الثقافي العربي الذي يتزامن وينسجم مع العمل الاقتصادي.

يومها أيضاً: احتفل "الشاذلي القليبي" ـ الأمين العام ـ بهاجس (قضية الهوية الثقافية للعرب)، وأشار إلى الأخطار التي تحيط بهذه الهوية... ومما قاله:

* "إن هذه القضية تستوجب على العرب أن: يهتمُّوا بضرورة دعم العمل الثقافي العربي، وتأهيله، وحماية أريحية الثقافة العربية، حتى لا نصبح ذيلاً للثقافات الغربية ـ كما نحن الآن!! ـ وأن يعالج العرب: تشتيت الجهود العربية، وعدم التنسيق بين المؤسسات التي تُعنى بالتعليم، وبالتثقيف... لأننا أمة واحدة، ولكنها موزّعة عبر اثنين وعشرين قطراً"!!

* أما المدير العام "للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم"/ الدكتور محيي الدين صابر.. فقد ركّز على ضرورة بناء الإنسان العربي، وتأهيل قدراته وقيمه.. وخصوصاً أننا نواجه مناً أُوْجد لنا أعداؤنا، لاستنزاف تلك القدرات، ولطمس تلك القيمة والقيم!

وكنت في ذلك الاجتماع الأول قد طالبت: بحماية اللغة العربية داخل الأقطار العربية أولاً.. وكانت ملاحظتي تنصبُّ على: واقع اللغة العربية داخل بعض الأقطار العربية التي مازالت إلى اليوم تكتب مذكراتها الرسمية وخطاباتها بلغة أجنبية (الفرنسية بالذات)!!!

ولقد ضحكت يومها عندما طرحت ملاحظتي على السادة الأمناء في اجتماعهم الأول عن حماية اللغة العربية... وسبب ضحكي: أنني وجدت بعض الأعضاء في الجلسات (يستعينون) باللغة الأجنبية ـ فرنسية وإنجليزية ـ لتوضيح فكرتهم التي يطرحونها لنشر اللغة العربية في الخارج... وقد كان الاجتماع مخصصاً لحماية اللغة العربية ونشرها (!!).

وقد اهتم المدير العام للمنظمة يومها "الدكتور محيي الدين صابر"

بتلك الملاحظة التي أبديتها. . . لكنه أوضح يقول:

* "إن تنمية اللغة في الداخل: مهمة قومية خارجة عن نطاق هذا الجهاز. . . وهي تأتي ضمن مسؤولية القطر العربي داخلياً، ولابد من الاهتمام بهذه الملاحظة. . . ومنظمة "الالكسو" لم تهمل هذا الجانب في خططها العديدة، ولديها مشروع ضخم يُسمى: الرصيد اللغوي. . . وتشتغل المنظمة أيضاً بتعريب العلوم، والتعليم العالي. . . وهذه المهمة ترجع إلى ظروف كل بلد، وإن كنا نعتقد: أن التعريب يأخذ طريقه مع الوعي ووسائل الإعلام" !!

كان ذلك النشاط، وتلك المشاريع في الثمانينات، يوم كان هذا الرجل العالِمُ التربوي، الشاعر، المؤرخ "محيي الدين صابر" رئيساً لمنظمة التربية والثقافة والعلوم. . . فأين هو: صوت، ونشاط، ومشاريع المنظمة، منذ تركها الدكتور "محيي الدين صابر" وحتى اليوم ؟!!

من حقنا ـ كمواطنين وكمثقفين من الوطن العربي ـ أن نوجّه هذا السؤال الهام إلى: الأمين العام لجامعة الدول العربية، طالما أن المدير العام للألكسو لا يجيب، ولعله لا يسمع!!!

أحسب أن "ظاهرة" التخلي عن اللغة العربية الأم داخل الأقطار العربية: تستوجب العناية من الحكومات العربية. . ولا بد لها من: جهة ركيزة في القطر العربي الذي يعاني من سيادة اللغة الأجنبية على لغته العربية الأصلية والأصيلة!!

(٧)

* أصعب ما يواجه الطفل اليوم في مرحلته الابتدائية/ التأسيسية. . .

يتمثل في هذا (التحشيد) للمواد أو للمناهج، وذلك بنسبة تتجاوز حدود قدرته على الاستيعاب، وعلى الفهم.

وهذا (التحشيد) في ذات الوقت... يدفع المدرّس بدوره إلى: السرعة في صبّ المعلومة أو المنهج.. حتى يستطيع أن يُنهي المقرر في الوقت المحدّد له/ مُدة العام الدراسي... لئلا تطاله المسؤولية، ودون النظر إلى: إمكانية مجاراة الطفل لهذا (التحشيد) في المواد، والإسراع في الوقت!

وهناك بعض المدرسين الذين لا يهتمون بالتحضير لمادة اليوم التالي..

وهناك البعض الآخر الذي يقف مستوى استيعابه هو نفسه عند حدّ معين من القدرة على إيصال المعلومة إلى إدراك وذهن الطفل... مما يشير إلى تدني المدّ الثقافي في شرائح المجتمع، خصوصاً هذه التي نضع على عاتقها: مسؤولية إعداد، وتعليم الأجيال، وتهيئتها وتقديمها إلى (التثقيف) الذي يتطلع إليه كل مجتمع في أفراده، وجماعاته!

وكثيراً ما يكتشف "الأب" وهو يطالع كُرَّاس طفله أو طفلته: أن مدرّس أو مدرَّسة المادة قد وضعا في كُرَّاس طفله أو طفلته: تقديرات عالية، وكلمات: أحسنت، ممتاز... بينما يكون الطفل، أو الطفلة قد دوَّنا في كراستيهما: معلومة خاطئة!!

لذلك... فإن مستوى بعض مدرّسي المرحلة الابتدائية/ التأسيسية، يبدو متواضعاً جداً، ويعكس حقيقة (التراجع) الثقافي والمعرفي في هذا الوسط على وجه الخصوص، وفي المجتمع عامة!

وقد حاورت يوماً مربياً فاضلاً، مسؤولاً حول: تدنِّي مستوى (المعلّم) في مدارسنا، وابتعاده عن مناخ التثقيف حتى له ... فأجابني يومها:

وما حيلتي. . إذا كان النقص يتصاعد في الأعداد المطلوبة من مدرسي الابتدائية ؟!

وإذا كان هذا هو مستوى المدرِّس الذي يوُجِّه للتدريس (حتى على المستوى الجامعي اليوم بكل أسف) فإننا نضطر إلى قبول هذا المستوى بدون اشتراط، في قمة خوفنا على إعداد الجيل الصاعد. . . والأكثر ألماً: أن تجد مدرساً "محاضراً" في الجامعة، يخطئ في "الإملاء"، وفي النحو، فكيف تستنبت جيلاً (مثقفاً)، وحتى تستنبت (الثقافة) وتوجّه المجتمع إليها ؟!

يُضاف إلى هذا الواقع. . . واقع آخر لا يقل خطورة، ويتمثل أيضاً في هذه "الظاهرة" التي تفشت في مجتمعنا، إن لم يكن على مستوى الوطن العربي الكبير. . . وهي ظاهرة: إلهاء الجيل الجديد عن (القراءة)، وعن تثقيف عقله ووعيه. . وذلك بواسطة تكثيف (الحض) والاندفاع إلى كرة القدم. . وإهمال تربيته، وتوعية مداركه، ليبدو: جيلاً أقرب إلى التفاهة من خلال ما نراه اليوم من ممارسات أقل ما توصف به: أنها طائشة أو غير مسؤولة. . . ترتبط بالتربية أولاً، وبالتوعية، وبالترشيد إلى القراءة!

وبكل أسف. . فإن وسائل الإعلام التي تحتفي بمباريات كرة القدم: تُهمل تماماً إبراز الأنشطة الثقافية، ومتابعتها، وحتى لو قدَّمتها. . فإن تقديمها ينحصر في (الإعلام) أو الخبر الموجز. . . بينما قامت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم على كلمة: (اقرأ). . . فالقراءة: خروج من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التفاهة إلى القيمة!!

* * *

* قلت لهذا المربِّي الفاضل: إن المرحلة الإبتدائية أخطر مما يليها. .

فهي: الغرسة، والنواة، والتشكيل، والإعداد... فكيف نُسقطها في اللامبالاة ؟!!

ـ قال: إن الإقبال على كليات التربية أيضاً لا يتفق ونسبة الاحتياج إلى الخرِّجين من المعلمين والمعلمات... وبالتالي: فإن المدرِّس المتمكن والملم بمادته يُعتبر عملة نادرة وثمينة.

* قلت: لعلك تعرف أن المعلم للابتدائي في بريطانيا مثلاً.. لا يمكن أن يسمح له بتدريس الأطفال إلا بشرطين:

ـ أن يكون صاحب خبرة في طريقة التدريس للأطفال، وصاحب دراية في إلمامه التام.

ـ أن يدرس هو ضمن مجموعة لمدة ستة شهور: علم التربية، وكيفية معاملة الطفل، والتحدث معه، و"تفهيمه"... فلماذا لا نبدأ نحن ؟!

* قال: ليست مسؤوليتي... لكنني أنبه إلى خطورة اللامبالاة (بالتثقيف).. وهناك فرق شاسع بين "الإعلام"، و"لتعليم".. بين "النصيحة"، و"لتوعية"...بين نسج الأحلام، وتحقيقها.

مسئوليتنا خطيرة وإلزامية نحو "الجيل" من الطفولة مروراً بالشباب الطامح.. حتى النضوج/ رجلاً وامرأة... فإذا لم يكونا قد نهلا من الثقافة، فإن مجتمعهما سيبقى:

مكانك سر في التطور، وفي التنمية.. لأن "الاقتصاد" لا يمكن أن يكون فوق ثقافة "العقل"، وتهذيب الروح.

وإذن.. الاهتمام بـ (الطفل)، ورعايته منذ قدومه إلى الدنيا.. يُعتبر: أولى الخطوات الإيجابية على درب (الثقافة) التي تطمح إليها الشعوب، وتُفاخر بعد

ذلك (بعقول) شبابها، وعلمائها، ومبدعيها، وفنَّانيها. . إذا ما آمن كل شعب بفعل (الثقافة) المؤثر على: تطوره، وتنميته، والارتقاء بقيمة الإنسان فيه!

* * *

* قلت: نعود إلى ما بدأنا منه. . . كثرة المواد والمناهج التي تُقرر على الأطفال أولاً في المرحلة الإبتدائية، وتراكم. . . فلا يقدر الطفل أن يستوعبها، ولا يُلم بها، ولا. . . . ينجح فيها ؟!

ـ قال المربِّي الفاضل: تحتاج العودة إلى المواد والمناهج في نسبتها وأهميتها أيضاً، وحتى في مضمونها الذي ينبغي أن يتماشى ونهضة البلد في حقوله المتعددة. . والعودة إلى مستوى المناهج وكمّيتها تتطلب: تكليف خبراء في التربية والتعليم، ليقرروا في وقت أقصر. . قبل أن يتردى مستوى (الطفل) التعليمي وهو في بدايته.

وهناك جانب آخر يخص الآباء والأمهات لرعاية أطفال في عمر الورود، نلاحظ أنهم يفقدون تدريجاً: رعاية واهتمام الأب بالذات الذي يكون مشغولاً أو منشغلاً بعمله، وبمهمّاته الوظيفية، وذات الطموح الشخصي.

إن هذا الطفل يحتاج إلى مزيد من : الرعاية والعناية بتنشئته، وإلى المزيد من التنوير والتوعية، وفق منهج الدراسة الذي ينبغي أن يكون متلازماً مع التربية. . . بما يجعل الطفل منذ نشوئه أكثر التصاقاً بعقيدته، وبانتمائه الوطني، وبروابطه الاجتماعية، وبإصراره في نضجه على (قيمة) الإنسان فيه وفي الآخرين!

إن هذا الطفل إذا اكتشف: أن البيت من الداخل يتعرض للبعثرة، ولإهمال الأب، ولتسيب الأم. . . فلا بد له أن ينساق وراء ما يجذبه،

ويدخل ـ وهو ينشأ ـ في الضياع لا ينتهي!

إن "المدرسة": تُغذِّي بالعلم وبالمعرفة، وتصقل الشخصية بالتربية وبالتوجيه... لكن هذه المكاسب كلها يخسرها الطفل... إما في بيت غير مترابط، أو في البحث عن (وجود) الأب... وإما في مدرسة تضم معلِّمين غير أكفاء، وليسوا ملمِّين بالتربية والتوجيه، أو منشغلون بمصالح خارج أسوار المدرسة... وإما أن الطفل يخسر هذه المكاسب في الفراغ، واللعب غير المنظَّم، وفي حقيقة الإهمال لرعايته.

إن "المسؤولية" هنا تتركز على البيت.. وعلى: غياب "التربية" في المدرسة.

ولو أن كل أب لهؤلاء الأطفال، وكل معلم في المدرسة.. كانا على مستوى مسؤولية (التربية)، والرعاية...

ولو أن كل "أم" بنفس مستوى المسؤولية... لما ينحدر أي مجتمع بجيل الغد إلى: أخطار تُضخِّم انفصام العلاقة بين: الأب والابن.. وبين التلميذ والمعلِّم.. وبالتالي إلى: انفصام المجتمع في تضاعيفه.

وإذن... فإن تركيز ولاة الأمر على التمسك بهدْي العقيدة، وترسُّم صوى التربية الإسلامية الصحيحة... يتبلور هدفه من: الرغبة في توفير (العناية) التامة بتنشئة جيل قوي، متماسك، ناضج الرؤية، مسلح بالثقافة، ملتحم بأسرته في بدء الحياة، ثم هو ملتحم بمجتمعه طوال الحياة!

* إن الاهتمام بالطفل.. هو: حفاظ عملي على ركائز أساسية هامة تأتي في مقدمتها:

* الأسرة المترابطة: التي يشد بعضُها بعضاً.

المجتمع: الذي يبني إنجازاته، ويحقق أحلامه بشباب تحصَّن بالتربية الرفيعة، وتشذّب بالعلم، وتخصص في مجالات عديدة. . يتحقق التطور بواسطتها.

الثقافة: التي تبلور ملامح الأمة، ومواهبها، وعطاءها، وإبداعاتها!!!

ولعلنا لم ننسَ بعد (حصيلة) رائد الفضاء المسلم، العربي، السعودي الأول: (سلطان بن سلمان) الذي أعلن: حصوله على قدر هائل من المعلومات الفنية والتقنية يوم صعوده إلى سطح القمر، وعودته. . وقد منح مجتمعه بطاقة انتماء للعالم المتقدم، والطموح إلى الغد (الثقافي). . . ومنح (الشباب) في وطنه: فرصة أن يُقبلوا على العلم والبحث، والدراسات، والتخصصات. . ليكون لكل شاب في هذا الوطن شأن عظيم، مثلما حقق الشاب (سلطان بن سلمان) لبلده يومها ذلك الاعتزاز الذي فاخرت به العالم من خلال (عقل) شبابها الذي تمثل في (سلطان بن سلمان)، ومن شاركه البحث والدراسات من زملائه الشباب السعودي المميَّز!

أفلا يطمح كل "شاب" سعودي إلى مثل تلك القيمة لعقله، ولوعيه. . وقد استمد القيمة من (الثقافة) التي نهل من معينها. . فصاغته إنساناً منْتجاً، وفعّالاً، وعَالِماً، ومثمراً للوطن ؟!!

أحسب أن شبابنا يطمحون، ويأملون، ويحملون. . . فلنحسن أساليب (التربية) وتواجدها في البيت والمدرسة. . . ولنركِّز اهتمامنا على (مضمون) هذه المواد أو المناهج الدراسية التي أكل عليها الزمن، وشرب، و(تكرّع)، أو تجشَّأ، وتمدد بنا، و. . . نمنا معاً!!

ومازلت أحتفظ بكلمة صفقت لها طويلاً. . حين أطلقها رائد الفضاء

(سلطان بن سلمان) بعد عودته من رحلة الفضاء... فقال ملخصاً، وصادقاً، ومحتفياً بالمستقبل:

* "آمل أن تفتح الرحلة الفضائية آفاقاً جديدة للشباب في بلدي، وفي العالم العربي... وتثبت لهم أن هناك ما هو أهم من كرة القدم، والفيديو، والنفط"!!

وهذه العبارة: مخلصة لتربية عقول ونفوس الشباب، ولإنضاج وعيهم.

ولكن... من أجل فَتْح تلك الأفاق الجديدة للشباب: ينبغي علينا أن نترسم هذا الدرب:

* أن نعيد النظرة في المواد والمناهج الدراسية التي أصابها الوهن، والتراكم والتجمُّد.

* أن نلتفت إلى (التربية) باعتبارها القطب الآخر في معادلة (التعليم).

* أن نعتني (بالكتاب)، وبالمكتبة... ويستيقظ الإعلام للعناية بهذا المطلب الهام، تماماً مثل عنايته بكرة القدم.

* أن تكون (الثقافة) هي: مرتكز محور الشباب الذي يقف على قاعدة (القيمة) للإنسان... هذه التي نؤكد عليها دائماً!!

(٨)

مزاج العالَم: منطفئ، ومُتْعب، ومسكون بالخوف!

وهكذا... لم يعد (للثقافة) ولا للفنون: أي دور يمكن أن يخرج بإنسان هذه المرحلة من الانطفاء، والتعب، والخوف!

وفي أصداء كل هذه: المهرجانات، والندوات، والأمسيات، واللجان الثقافية. . . لم ينبثق "ضوء" ينير للإنسان: درب الحقيقة، ومواقف العدل، و . . . . قيمة الإنسان!

* وهكذا ـ ثانية ـ ينطرح مزاج العالم فوق مشكلاته، وتناقضاته، ومضحكاته المبكيات.

صار ما "يريده" . . لابد أن يحققه بالعنف، وغالباً لا تتحقق الأماني، ولا الأفكار السويَّة . . بل تربّع مكانها: الانحراف، والرغبة في العنف، والانفصام في السلوكيات.

* وهكذا ـ ثالثاً ـ غاب دور وفعل : الثقافة والفنون عن التأثير في (مفاهيم) هذا الجيل، وفي قناعاته، وفي قلقه الذي صار يهيمن على عواطفه . . . فيندفع بها إلى مزالق من انعدام الرؤية، وإلى ضباب من إحباط الرؤى!!

أصبح "ما يريده" الإنسان اليوم . . يجلبه بالاستحلاب، وربما يتعامل به عبر إسقاطاته واستهجانه بعدالة التحكيم أمام قيمته كإنسان!

* * *

* ومزاج القطط هذه الأيام : التوقف عن (الخربشة) . . لأنها قطط (مثقفة)!

بمعنى : أن الحيوانات كادت أن تعقل . . . وفرّط الإنسان الذي كرّمه الله عز وجل فوق سائر مخلوقاته بالعقل، فأهان عقله، وفهمه، وتأثير التعليم والتثقيف فيه!

صار البشر يفعلون ما تُعبِّر عنه (الخربشة) القططية بأسلوب العنف . . .

إنهم يخربون بالقنابل، وبالرشاشات.. ويهدِّمون بناء العلم والحضارة بدعوى : تنظيف صدور الناس مما علق بها من منكر، وزيغ (فكري)... بينما يستكنّ المزاج القططي في هذه (القرفصة)، وتفرج على البشر: المنطفئين بقلقهم، والمُتعبين بحيرتهم، والمسكونين بالخوف من اللحظة القادمة.. لأن مساحة الأمان في النفوس : عتّمتها قسوة الإنسان على فرحه، وعلى ابتسامته!!

حتى الموسيقى الراقصة، والموسيقى الهادئة الحالمة .. فقدت مزاجها، طالما أن كل سفاح صار يدّعي (الثقافة) في برنامجه الهادف إلى: تجهيل شعبه .. وهو يحتفل بسلطته وبتسلّطه على صوت موسيقاه المفضّلة: القنابل، والرصاص، والرشاشات.. ويشرب نخب ذلك في جمجمة إنسان، ومن دماء الناس البسطاء.

ومازال العرب يدّعون انتعاش المزاج ... في الوقت الذي تحوّلت فيه أغانيهم إلى نواح متواصل، أو إلى ألحان (تنخع) أجسام الشباب بدون أن ترقِّصها .. ولكنه (النخع) الذي يشير إلى ضياع الإجابة عن السؤال الدائم: ما الذي نريده .. وماذا نفعل؟!!

والموسيقى: ثقافة... وما زلنا هنا في عالمنا العربي نبحث عن (فيروز) بديلة، وعن (أم كلثوم) أخرى تُجمِّع العرب، وعن (عبد الحليم) جديد... يُذكِّر الناس بالحب الحالم، وليس بـ (الحلم الحاقد) باعتبار أن: الحقد عاطفة!!

ونسترجع صوت (فيروز): من الزمن القديم، عندما كان المزاج: متوهجاً، شجياً راكضاً... يغزل صوتها الشباب والحب:

ـ "بيغزلوا، ويروحوا يِلَمْلِموا أعياد"!

❊ فهل ما زال صوت (فيروز): يغزل الحلم، ويلملم في نفوسنا تلك اللحظة/ العمر؟!!

❊ ومن بقي ليلملم الأعياد القادمة. . . إن كل شيء قادم من خلف هذا الغبار، والدخان، والضباب ؟!!

❊ وماذا تبقّى من أعياد العالم العربي، ومن "مزاجاته"؟!

❊ وماذا سيعطي العالم الأممي / الحضاري لمحنة العرب، ومزاجهم المفقود؟!

إنهم يحاولون اللجوء إلى صفحات كتاب، وإلى أجواء موسيقى. . . فيجدون الكتب قد غرقت في موجة: التشريحية، والتفكيكية. . المعادة من زمن انطوى!!

❊ هل قلت لكم: العالم الأممي / الحضاري؟!

فلتلتفُّوا ـ إذن ـ نحو هذا العالم المنقذ:

❊ في طوكيو: قامت مظاهرة ذات يوم من هذه المرحلة، تضم أكثر من ألف شخص من محبي (الكلاب). . وذلك للإعراب، وللاحتجاج الصارخ على (اعتقاد) بريطاني قديم يقول:

ـ إن الإنجليز يتهمون اليابانيين بإساءة معاملة الكلاب!

إذن. . فهذه هي: ثقافتهم التراثية، أو تراثهم الثقافي المتجدد!

وفي طوكيو: وُصِفت تلك المظاهرة يومها باصطلاح: (وان. . وان)، باعتبار أن الكلاب اليابانية بالذات حينما تنبح تقول: (وان. . وان). . . وألّف أحد الموسيقيين لديهم مقطوعة سمّاها: "وان. . وان". . . فقد كان ذلك يدل على: ثقافتهم الحديثة، أو حداثة ثقافة العالم!

لكن اليابانيين عتبوا يومها على الإنجليز، للتقليل من قيمة تلك المظاهرة (الثقافية/ الفنية)... لأنهم أرادوا بها مشاركة: الإنسان العربي في التعبير عن احتجاجهم على القتل الذي يمارسه اليهود ـ إلى اليوم والغد ـ في العرب... بواسطة: كلاب العرب (!!) من أمثال: صدام حسين، الذي احتفى في عام ١٩٩١م بنشيده الياباني المفضل: (وان.. وان)، وأدخل مهرجانات بغداد المسرحية الثقافية، ومهرجان (الأمة الشعري): إلى عصر جديد، يُكرم المثقفين بسجنهم وتعذيبهم.. ويحتفي بالثقافة (الفردية)!!

***

* وفي أوروبا: اكتشفوا أن الكلاب هنالك تقول: (باو.. باو)!!

وذلك هو الفرق ـ فيما يلوح ـ بين الثقافتين.. وهو سبب الاحتجاج الياباني (الباو.. باو) الإنجليزي.

وهكذا.. ضاعت القضية العربية بين: "وان.. وان". و "باو.. باو"!!

وذلك هو: منتهى المزاج الحضاري الأممي.. الذي يعكس لنا: كيفية، ومضمون (الاهتمام) الحضاري الأممي بحرِّية الإنسان، وبعدالة قضاياه.. خصوصاً: الإنسان العربي، والإنسان المسلم.. بدليل تعامل: "وان.. وان"، و "باو.. باو" مع أزمة الضمير العالمي مع مأساة شعب البوسنة المسلم!

* ونذكر من عام ١٩٨٥م: أن صحيفة عربية، نقلت خبراً من الولايات المتحدة الأميركية، يعلن عن: "ترمومتر" جديد للعلاقات الإنسانية.. أو لعله كان "يبشر" بعودة عقلانية ووجدانية إلى: الروابط الاجتماعية، وإلى الحب.. عبر (الإبداع) الفكري، والفني، والثقافي!

ـ وقالت الصحيفة: إن هذا العام ـ ١٩٨٥م ـ سيكون: عام العودة إلى الرومانسية!!

وباعتباري (متهم) بالرومانسية. . فقد اغتبطت جداً لتلك البشرى القادمة من الولايات المتحدة الأميركية بالذات. . . ولم أدْر: أنها دعوة خاصة موجهة للعالم العربي. . ليغرق في الرومانسية، ويترك (الغرب) كله يرسم: واقعية العالم. . . حتى الثقافية!!!

ولكن. . كيف كان عام (٨٥) رومانسياً ؟!

أشاروا لنا إلى ما وصفوه بالدلائل من عدة متغيرات حدثت حينذاك، ومن أهمها:

* **أولاً**: طلع الموسم السينمائي والتلفازي بطرح جديد في مضمون ومحتوى المعالجات السينمائية والتلفازية. . كان يختلف تماماً عن موجة السبعينات، وبداية الثمانينات، التي شهدت هجمة من أفلام العنف، والإثارة، والجنس!

وقدم ذلك الطرح لعام (٨٥): معالجات اعتمدت على (الرومانسية)، والعلاقات العاطفية المستقرة. . وقد قصدوا بها: الأسرة، والأطفال، والزواج!

وبهذه المناسبة: نعود إلى "محاولة" حدثت في السبعينات لكسر نطاق أفلام العنف، والجنس، والجريمة. . عندما أنتجوا قصة "إريك سيجال" التي ذاعت، وعُرفت باسم: (قصة حب)، ونجحت موسيقى ذلك الفيلم نجاحاً باهراً. . . فكانت تلك المحاولة: استفتاء لما يريده الناس، أو لما يتعطّشون إليه. . . وحقق الاستفتاء تصاعداً مذهلاً بالإقبال على الفيلم.

لكنَّ تلك المحاولة بقيت يتيمة.. ما لبثت أفلام العري والإثارة أن طغت عليها، وبددتها!

* **ثانياً**: تحدث المسؤولون عن شبكات التلفزة في أميركا.. فأكدوا: أن الاتجاه إلى إنتاج الأفلام العاطفية، أو الرومانسية (بعكس الرغبة السائدة عند مشاهدي التلفاز والسينما ـ يومها ـ لرغبتهم في عودة المجتمع الأميركي إلى تقديس العلاقات الأسرية الثابتة)!!

وقد أكد ذلك الاستفتاء على: المدى الذي بلغه الشعب الأميركي بالذات، وكل الغرب.. في تصاعد الخلخلة داخل المجتمع أسرياً وعاطفياً، حتى شمل "القرف" نفوس الناس من: الاستغراق في الجنس، وفي العنف والجريمة، وفي المخدرات.. وهو ما لا ينسجم مطلقاً مع تطلعات ومستوى أي شعب حقق قدراً هائلاً من الانتصارات العلمية، ومن الحضارة والتقدم!!

* **ثالثاً**: أثبتت إحصائيات المركز القومي للصحة بالولايات المتحدة الأميركية، المعلومة التالية:

ـ "هناك تيار انتقالي هادئ، يعوزه الحماس للعودة إلى الاتجاه التقليدي المحافظ على القديم، وعلى القيم... فقد ارتفعت معدلات الزواج، وولادة الأطفال الشرعيين، بينما انخفضت حالات الطلاق"!

ويعني ذلك: أن تجربة التسيب الاجتماعي، والانحلال الخُلُقي.. كانت سبباً في غربة المجتمع داخلياً، وسبباً أهم يؤدي إلى تفتيت وحدة الأمة على المدى الطويل... بينما تفخر الولايات المتحدة بالذات: أنها قدّمت للتاريخ الحديث تجربة فريدة ومتفوقة لوحدة وطن، أو لإقامة وطن تكوّن من فئات متباينة.. فإذا استمر الفساد الأخلاقي، والفساد

(العاطفي) . . فلا بد أن ينشأ تبعاً لذلك: الفساد العقلي، أو الفساد في الثقافة!!

* **رابعاً**: في تلاحق موجات الفكر، عبر انحراف العاطفة والسلوكيات. . نجح (المتطرفون) مع المنادين بالثقافة المضادة في: تهديم العلاقة العاطفية الإنسانية. . . فقد كانوا يسخرون من القيم الاجتماعية التقليدية: من الزواج، والأمومة، والرومانسية. . . وجاء المتطرفون ليهدموا كل ما نشأ عن المنادين بالثقافة المضادة، وهم يطلبون بلا عودة إلى بدائية الحياة، والعزلة، والتحريم لكل شيء متطور، حتى التحريم للرومانسية أيضاً (!!) باعتبار أن: هذه الصفة (الرومانسية) تطوح الإنسان في الخيال، والتأمل، والعاطفة الرقيقة. . وهم اتفقوا ـ المتطرفون والمنادون بالثقافة المضادة ـ على فرض عصر مشاكس، ومضطرب، وراكض، وعنيف، ودموي، وهجومي، وتحطيمي. . أي العصر المادي الذي لا يقوم على: القيم، والمُثُل، والروح. . ولا على الروابط الإنسانية والعاطفية الحالمة. . بل هو عصر: خذ ما استطعت، ولا تُعْط إن أمكنك ذلك!!

* * *

* وها هي نداءات جديدة تتصاعد، مطالبة بالعودة إلى الاستقرار الاجتماعي والعاطفي. . . ومطالبة بمقاطعة ثقافة الـ (بلاي بوي)، والأفكار والشعارات التي تنادي بالعنف، وباغتصاب كل شيء جميل، وبسيط، وعفوي. . في حياتنا!!

(٩)

* في عام ١٩٨٢م. . . اختارت مجلة "التايم" الأميركية: الكمبيوتر. .

ليكون هو رجل ذلك العام!!

وبذلك... فقد أقدم العالم على "تعميد" الآلة، لتكون هي المستقبل، وهي سيقان الحاضر إلى الغد!

بل ـ أكثر من ذلك ـ : لتكون الآلة هي (العقل) الذي يفكر عن الإنسان، والذي يسود ويتحكم، ويفعل ويطور، و... يكتب الشعر!

بمعنى: أن هذه الآلة (الكمبيوتر) ستكون هي ثقافة العصر، أو: المؤثر الثقافي على عقل وتفكير الإنسان.. ومن لا يعرف كيف يتعامل معها، فهو: أمّي!!

وبذلك ـ أيضاً ـ تمّ إدخال العالم إلى عصر الآلة.. دخولاً تاماً.

وتمّ ربط العالم، ومقوماته، وثقافته، وحضارته، وفكره.. بفعل الآلة!

وقال العالم في ذلك العام / ١٩٨٢م: إننا سنستقبل الجيل الجديد الذي يبتكر اسمه وصفاته من هذه الآلة.. وليكون: جيل الكمبيوتر، وثقافة الآلة!

وليكون: جيلاً إلكترونياً.. في الحرب، وفي السلام... في الثقافة، وفي الوجدان!!

وكنت قبل عدة سنوات: أضحك أمام "إبداع" أحد الرسّامين المصريين الكبار... الذي كان يطلع على القارئ كل أسبوع بصفحتين للكاريكاتير.. جعل عنوانها الساخر والطريف: (جيل تلفزيونجي)... وكان أستاذي "الزيدان" يرحمه الله يضحك معي، ويقول لي مصححاً:

ـ بل لنقُل: جيل تلفازي!!

فقد كان التلفاز يومها جديداً، وباهراً، وسريع التأثير، و.... مشوقاً

غير مملّ مثلما هو الآن (!!). . كأن تلك الصفات فيه قد بردت، أو أصبحت شيئاً عادياً. . مكروراً، وسخيفاً، وممجوجاً!!

لكنّ رسّام الكاريكاتير يومها. . كان يركّز في خطوطه ونكتة الرسم: على وجه الطفل، وحركاته الجديدة، وشقاوته المبتكرة والمقلِّدة لمواد التلفاز. . خصوصاً الكرتون (غير المدبلج)!!

ويبدو أن حركة التطور: أكثر سعة من تلفُّت الإنسان، ومن متابعاته. . فنحن في ركض دائم لا يتوقف، والآلة تتقدم نحونا، أو تقتحمنا وتلفُّنا، وتسحبنا، وتأخذنا إلى عوالم جديدة، ومنطلقات متعددة. . وتنطلق بنا إلى (ثقافة) الآلة، حتى انعكس تأثير ذلك كله على الإنسان نفسه. . في تصرفاته، وفي طموحاته، وفي تعامله. . وحتى في عواطفه، وحميمياته، وروابطه!

❊ ❊ ❊

❊ لكن "الكمبيوتر" ـ أو الحاسوب مُعرباً ـ هو هذا الشأن العظيم. . وهو هذا التقدم المثير بلا جدل.

ولا مجال هنا ـ في هذه المساحة ـ أن نُعدِّد حسناته، وقد صارت شائعة في معرفة الناس. . لأن حسناته هذه هي التي أصبحت تشكل: ثقافة العصر.

ولا مجال أن نقدم تعريفاً علمياً شاملاً ومستفيضاً بوظائفه، وبمهامه، وبإنجازاته، وبتنظيمه، وبتوحيد الوقت فيه.

يكفي أن يكون "الكمبيوتر"/الحاسوب: هو رجل العام، وكل عام. . المهاب، المرغوب، القائد، المنظِّم. . . وقد تمَّ الاعتراف بدولته، وبهيمنته منذ سنوات قريبة (١٩٨٢) م.

وفي هذا الاعتراف العالمي والعملي.. أصبح لزاماً علينا: أن نُجسد، ونبلور الاعتراف في شكل تعامل فعلي.. طالما أن العالم الحضاري قد اعتمد "الكمبيوتر": ثقافته الجديدة، واستخدمه في كل شيء.. حتى في (قلي البيض)، وفي التعامل بعمل الخاطبة واختيار عروس أو عريس (!!).. وطالما أننا نتطلع إلى مزيد من التقدم، ونستنهض كل الوسائل الحضارية لمواكبة مسيرة الحضارة، والمدنية، وإثراء العقل الإنساني بالثقافة!

والتعامل الفعلي.. يلح علينا ـ بإصرار، وبمنطق ـ أن نضع "الكمبيوتر" كمادة رئيسية ضمن مواد الدراسة.. فهو منهج أساسي نستفيد منه حين نغذيه، بل ونوظفه لتوعية الطفل الذي يجد (أماً) تتردد في تغذية فهم طفلها بالمعلومة التي يأتي في مقدمتها سؤال الطفل: من أين جئت؟!.. فيكون "الكمبيوتر" أكثر جرأة في الإجابة!

وهكذا.. أخذت (الثقافة) تدخل إلينا من كل جانب، أو تدخل على من يريدها، ويخطبها: من الباب، والنافذة، والهواء... والثقافة: أثمن وأعظم عضو يضاف إلى كل أسرة... و"الكمبيوتر" صار ضروباً ليكون عضواً هاماً أيضاً في كل أسرة، بشرط أن نحترس في "تغذيته"!!

* * *

* وفي الجانب الآخر: توقفت عند خبر قادم من اليابان، يقول:

ـ أصبح اليابانيون يقرؤون للتسلية..... فقط!!

وقد أضحكني هذا الخبر أيضاً، بقدر ما هو مؤلم لأي شعب يهين القراءة/ وعاء الثقافة إلى درجة استخدامها: تسلية!

وضحكي كان بسبب: هذه الحصيلة المكتسبة من الركض وراء زهو

نجاح سياسة التصنيع. . واليابانيون احتفوا بهذه الآلة (الكمبيوتر) إلى أبعاد أخطر. . جعلت الكتاب في حياتهم لمجرد التسلية!

وضحكي كان أيضاً بسبب: تمثّل في انحسار الزمن، وتقليص الوقت الذي لم يعد يكفي المواطن الياباني ليجد فيه ساعة واحدة يقرأ فيها الكتاب الجاد، أو قصيدة الشعر!

مثلما تماماً ـ مع الفارق ـ أننا لم نعد نجد الوقت الكافي، حتى ولو ساعة واحدة، لقراءة كتاب. . . لأننا مشغولون بالفلوس، وبالركض بسياراتنا الفارهة أحدث موديل، وبالترصيد لنجاحات الآخرين، وبالسفر!

ولماذا أضحك بعد ذلك كله؟!

* قيل عن اليابانيين: إنهم برعوا بشكل ملحوظ في إجادة سرقة الصناعات من أميركا ـ وهذه ثقافة عملية! ـ ثم تطورت براعتهم حتى تمكنوا من سرقة التقنية كلها من العالم. . . فإذا هم اليوم يتميزون ـ منفردين تقريباً ـ بالصناعات الخفيفة، وبالتخصص في ابتكار وتطوير صناعة "الترانزستور" . . وهذه ثقافة اقتصادية!!

وإذا كانت الولايات المتحدة الأميركية، وما كان يُسمى بالاتحاد السوفييتي، قد سبقا إلى: توظيف "الزر" الصغير لتفجير قنبلة من مسافات تكاد تكون خيالية. . . فإن اليابان قد توصلت إلى توظيف "الزر" نفسه، وربما بحجم أصغر وبتكلفة أقل، لتفجير ضحكات الناس بالتسلية والترفيه. . ولتفجير مغالق العقل الإنسان في مجال توفير الأدوات الصغيرة جداً التي تقوم بأعمال عظيمة وهامة. . . وذلك هو فخر اليابان، وانتشاؤها، منذ نفضت عنها بقايا غبار القنبلة الذرية على "هيروشيما" و "ناجازاكي" . وانبعثت من ذلك الموت لتصنيع حياة مبهرة. . ينبغي على كل شعب أن

يسعى إلى ذلك الانبعاث من الدعة، والخمول، والتسيب، واللامبالاة، والاستغراق في تفاهات الجهل.. للحفاوة بالثقافة في أشكالها المعاصرة والحديثة!

وهكذا... لم تعد اليابان اليوم في حاجة لأن تسرق من أميركا أي اختراع، أو ابتكار، أو فكرة... لأنها أصبحت تُصدِّر إلى أميركا ما يعينها على احتمال إيقاع السرعة والزحام فيها!

* فما هو شعور المواطن الياباني في غمرة هذا الفخار التقني والصناعي، والتقدم الاقتصادي الهائل!!

أصبح الياباني مثقلاً بهذه الجدية في المسيرة الاقتصادية، والصناعية، والحضارية.

أصبح ـ كذلك ـ مرهقاً (بنظام) الساعة القاتل.. حتى سرى هذا النظام فشمل: الترفيه، والتداخل في عواطفه!

ولا ينبغي للثقافة أن تنفصم عن وجدان الإنسان.. حتى لا نستغرق في (ثقافة الآلة) التي تكاد أن تسود العالم اليوم بدعم مؤزر من التوجُّه المادي!

إن أحلام الإنسان الياباني اليوم.. هي أحلام (مضبوطة) على توقيت محدد، كعقربيّ الساعة.. ومن أجل ذلك: بدأت أسئلة معينة تطرح نفسها على واقع الياباني.. وأهمها هذا السؤال الذي رددته الصحافة قبل فترة، كخلفية لخبر له دلالة:

* "هل هناك صلة ما بين التقدم العلمي الرهيب ـ وهو ثقافة ـ وبين ظاهرة تراجع الأدب الجاد في البلدان المتقدمة صناعياً، وقد كان الأدب ثقافة الأجيال الماضية" ؟!!

إن الظاهرة المجسّدة في أبعاد هذا السؤال عن الشعب الياباني، وهو النموذج الأعلى للبلد المتقدم صناعياً. . لا بد أن تتضح في (ندرة الأعمال الإبداعية الكبرى في مجالات الآداب والفنون)!!

* لماذا ؟!!

لأن اليابانيين اليوم ـ بحسب رواية الخبر ـ يطالعون أكثر من مليار كتاب؟!

نعم. . أكثر من مليار كتاب، ولكن. . . . . . ما نوع تلك الكتب ؟!!

إنها كتب: فكاهية، وكتب تسلية.

ولديهم مجلة أسبوعية فكاهية، اسمها (مانجا). . كانت توزع أكثر من ثلاثة ملايين نسخة. . ومجلة (القطة الآلية) وتوزع خمسة ملايين نسخة!

ولا أدري. . هل ما زالت تصدر هذه المجلات. . . أم أضيفت إليها مجلات جديدة مثلها ؟!

* * *

* ذلك يعني في الخلاصة: أن الحضارة الصناعية أعطت تأثيرها العكسي الخطير على (ثقافة) ونفسية الشعب الياباني. . فملأتهما بالصدأ. وهرع اليابانيون إلى الفكاهة والنكتة، ليعوّضوا ما يفقدونه من روح المرح والألفة!

* وهناك أمثلة مختلفة ومتضادة لشعوب تستخدم النكتة في أكثر الأوقات: معاناة وقهراً، ونحتاً في الصخر، لبناء تنميتها. . وعقل إنسانها!

* وهناك شعوب سلمت من القراءة الجادة، وبرد استقبالها للطرفة وللفكاهة. . فكأن إحساسها بالزمن، وبالتطور، وبالإبداع. . قد ترمّد

وتكلّس، وأصبحت تعيش اعتيادياً مثل تروس الآلة.

* وهناك شعوب لم تعد تقرأ الجاد، ولا الطريف.. لأنها انشغلت بالوقت، بسبب استغراقها في ماديات الحياة!

* فأين نحن... أو مَنْ نحن في هذه الشعوب ؟!!

والسؤال الضروري... لنتلفَّت، ونستيقظ، و... نحتفي بالثقافة!

وربما كان التقدم العلمي الكبير سبباً في تراجع الأدب الجاد، وفي انكفاء الثقافة الإنسانية الشاملة!

وربما ـ أيضاً ـ يكون التأخر سبباً لذلك.. مثلما تكون الكآبة، والإحباط من الأسباب!!

(١٠)

* في حوارنا المتصل عن: "الثقافة ما هي... والمجتمع"، لا بد لنا أن نناقش مرتكزاً هاماً في قاعدة التثقيف، والتوعية، والتطور الحضاري.. وهو مرتكز: (المتلقِّي).

المتلقِّي: هو "القارئ" الذي يتلقف ما تصدره المطابع من مؤلفات، ومطبوعات...

وهو: ليس (الناقد) المتخصص، الدارس لهذا الفن... بل هو: المتأثر المباشر بما يتلقاه من: فكر، وفكرة، ورأي، ورؤية.. من عطاء: المفكر، والفيلسوف، والكاتب، والمبدع.

وهو ـ أيضاً ـ المؤثِّر في عطاء المثقف هذا، وفي تحريض دوره على: استشراف الوعي، والتنوير.

وفي المصطلحات الفكرية: مصطلح مُجيَّر من ثلاثينات هذا القرن. . كان قد أطلقه علماء الاجتماع في بريطانيا تحت اسم: (الاتصال الثقافي Culture Contact)، وعرَّفوه بقولهم:

* (إن مصطلح: الاتصال الثقافي، هو للإشارة إلى عملية اكتساب الفرد أو الجماعة ـ أو حتى المجتمع بأسره ـ الخصائص الثقافية لجماعة، أو لمجتمع آخر من خلال الاتصال والتداخل).

وجاء في ما نشر ضمن تعريفات المصطلحات الفكرية: هذه المتابعة التاريخية لتطور الفكر العالمي. . . فقد خرج علماء الاجتماع في أميركا على المصطلح الذي أعلنه علماء الاجتماع في بريطانيا، وجاؤوا برؤية أخرى، ومصطلح سمُّوه: (التفاعل الثقافي Acculturation)، وقالوا:

* (إن تعبير ـ الاتصال ـ بالمعنى البريطاني يعني: تأثر الطرف الأضعف بثقافة الطرف الأقوى. . لذلك نرى أن مفهوم ـ التفاعل ـ بدلاً من: الاتصال. . . يعني تبادل التأثر بين مختلف الجماعات أو المجتمعات!

وقد تؤدي عملية التفاعل إلى: صراع ثقافي بين قيم ومؤسسات وأساليب عتيقة، وإن كانت أصيلة، وبين الأخرى الجديدة المكتسبة). انتهى النص، كما نشر في صحيفة "الأهرام".

وهكذا يتأكد لنا: أن أميركا أرادت إحداث "الصراع" حتى في الثقافة، وبين المثقفين. . وذلك من بدء دخولها في وحدة "الولايات"!

* * *

* ذلك على مستوى الطرح الفكري والإبداعي. .

ثم... ندخل إلى محيط الكتابة اليومية، والأسبوعية.. مما يؤثر في (المتلقِّي) مباشرة، أو يؤثر في المجتمع: تطوره، أو تقهقره... طموحاته، أو إحباطاته.

وإذا كتب الكاتب فكرته... فلا يعني أنه: يكرس معاناته الخاصة ولا تعبه الملاصق، ولا مشكلاته الملامسة لظروف حياته... ليدلقها على القارئ / المتلقّي، ويستريح!

الكاتب: ورقة كربون للناس ـ يختلف كل واحد عن الآخر في درجة جودة ورقة الكربون واستهلاكها ـ إنه يطبع كل ما يمر عليه، وما يُحفر فيه، وما يتأثر به، وما يشاهده، وما يعانيه أيضاً... باعتباره جزءاً من شريحة في هذا المجتمع.

والكاتب اليومي: لا بد أن يكون التصاقه ـ هو بالذات ـ حميمياً، ومتضامناً، وتأثرياً.. ومرآة عاكسة بدون شروخ ولا أضلاع!

ولعل بعض القراء / المتلقِّين ـ الذين يشدهم أسلوب كاتب ما، وطريقة طرحه ـ يرفعونه في تقييمهم له إلى مصاف الحكماء الذين لا يخطئون وهو بشر... لكنها الثقة من القارئ للكاتب الذي لا بد له حينذاك أن يكون: في مستوى هذه الثقة، وتلك القناعة (بتأثيره)، وبمعنى: التفاعل الثقافي بين الكاتب والمتلقّي!

ومن الجور أن يحكم بعض المتلقِّين على كاتب بتهمة: مخاطبة ذاته، والاهتمام بالتعبير عن مشاعره الخاصة في كل ما يكتبه... فإذا كان المتلقِّي/ القارئ: لا يتابع كاتباً، ثم يحكم على ما يكتبه بالسطحية، أو بالغموض... فذلك حكم غير اعتباري!

إن مشكلات البشر تتشابه، وتعاملاتهم في الحياة اليومية تتلاقح وتترابط . . .

إن معاناة هؤلاء البشر . . . تلتقي في خطوط رئيسية، اسمها: الإحساس، وملامحها: المناخ الاجتماعي والثقافي أيضاً أو التوعوي . . ونسبتها إلى: الارتباط الإنساني.

* * *

* وهناك أمثلة على ذلك (الفهم) في شرائح تتأثر بالعكس، وترفض التأثر بالمضمون في كل أبعاده الإنسانية.

ومن هذه الشريحة: قارئة / متلقِّية . . قررت يوماً أن تلوم كاتباً على ما يكتبه من حوار نفسي ووجداني . . . فكتبت إليه مهتاجة فيما لاح من سطورها:

* "لماذا نفرض على القراء جميعاً أن يقرؤوا مشاعرك الخاصة . . فلعلّهم نفسياً: غير مهيئين لقراءة رومانسياتك وحميمياتك في عصر شديد الواقعية والمادية . . لأنه يطفح بالهموم اليومية المضَعْضِعة"؟!!

ولم يغضب ذلك الكاتب من تهيُّج الحوار لدى قارئة/ متلقِّية . . حصرت فهمها بما يكتبه في (المباشرة) للكلام، وألغت: التفاعل الذي يعني: (تبادل التأثر بين مختلف الجماعات)!!

* ورد عليها يقول: سعدت بغضبتك / الأنثوية في إلغائك لشعور الأنثى الإنسان، لأنك ارتبطت ـ صادقة ـ بعصرك المادي، الواقعي، الطافح بالهموم وبالمعاناة . . وبذلك احترمت صدقك جداً، وأضيف لك:

ـ ليس شرطاً أن يكتب الكاتب إبداعه، أو يلوّن فنّه بتوجُّه خاص

وذاتي، وإن كان هذا "اللا شرط" لن يكون عيباً، ولا منقصة، ولا تهويماً، ولا ابتزازاً لمشاعر الناس أو إثارتها.. فالكاتب ينضح بوجه من مشاعر ذات ارتباط وثيق بالناس، وللناس!!

* ربما استخلصت فكرة، أو صورة العبارة الموصوفة بالرومانسية منك.. من رسالة قارئ أو قارئة، لم ينفصلا عن أحاسيسهما بمثل ما فعلْتِ أنت!

* وربما "هضمت" وتأثرت ببوح إنسان، في لون من التفاعل الثقافي ضمن دور الكاتب، ومسؤولية المثقف، وانتمائه العاطفي!

* وربما أنني ـ ككاتب ـ أردت الوقوف أمام قارئ / المتلقِّي مني: إنساناً يحب، ويعشق.. و...... يبوح، والبوح ليس سُبَّة، ولا مرضاً، ولا عاهة!

إن قصائد الشعراء.. هي خلاصة تجربة إنسانية، ومعاناة.. وهي قطرات إحساس، وعاطفة، وتأثُّر بالناس وحكاياتهم المتشابهة!

وكذلك: القصص، والخواطر الوجدانية، والإبداع بالكلمة.. وبمختلف ألوان الفنون!

* * *

* وهكذا نجد: أن الكاتب يتناول كل يوم، أو فيما يكتبه... زاوية جديدة في قاعدة الناس في زحامهم... ويلقي عليها الضوء، وقد يكون هو: أحد الجالسين في تلك الزاوية، أو المقصورة!

وقد يكون هو: أحد المندسّين في زحام الناس والحياة.

وقد يكون: أحد المرتبطين بالموضوع الذي تناوله.. أو أحد المعانين في الفكرة التي طرحها!

* ومن قديم، قال (طاغور): نحن نكتب، والقراء يضعون المعاني.

والقراء ـ دائماً ـ يضعون المعنى الذي يبدو قريباً من فهمهم، أو مخاطباً لمشاعرهم، أو ملتصقاً بمعاناتهم، أو مزركشاً بأحلامهم وأمانيهم.. وذلك من خلال استخلاص معنى عبارة واحدة، قد لا يكون الكاتب قصد بها ما فهموه، أو ما لامس وجدانهم، أو ما كوى ضمائرهم!!

وكثيراً ما كتبنا... وجاء من يُفسر المعنى وَفْق هواه أو فهمه، أو... حتى أمانيه!

* وقد أشار "يوجين أونيسكو" إلى مثل هذه الصورة، أو إلى مثل هذا المتلقِّي... عندما جاءه قارئ، شاهد إحدى مسرحياته ولم يفهمها، أو لم يفهم شيئاً ولو بسيطاً منها، كما أفاد... فقال له "أونيسكو":

ـ إما أنك دخلت المسرح هرباً من سأم لازمك، فغفوت في الظلام.. وإما أنك منشغل بالتفكير في همٍّ يخصك، فلم تسمع ولم تر شيئاً من المسرحية!

* قال القارئ / المشاهد للكاتب المسرحي:

ـ لكني أعرف: أن الكاتب ينتشل القارئ أو المشاهد من همومه.. فإما يرفِّه عنه، أو يشدُّه إلى معاناة لما يمرُّ به!!

* أجاب "أونيسكو": لا أختلف معك في هذه الرؤية لعطاء الكاتب... ولكن لا تنسَ ما هو مطلوب منك كمتلقٍّ، وأوله: الاستعداد لأن تقرأ، أو ترى، وتتفاعل... بمعنى: أنك جئت إلى مسرحيتي لتستفيد،

أو لترفِّه عن نفسك، وليس مجيئك بغرض الانفصال عن العمل المسرحي، والنوم على الكرسي الوثير!!

إن المتابعة في "المتلقّي" لما نقرأ، ونشاهد.. لا بد أن تُطوّع استيعاب المتلقِّي، إذا سمح لمشاعره أن تتحول إلى وردة تتفتح، وتبعدها عن شجب البوح الإنساني... وإذا سمح لعقله أن يصغي قليلاً، ويتأمل، ويفكر في ما تلقَّاه!

(١١)

* في استطراد حوارنا عن: دور "المتلقي" المؤثر... أتوقف بكم عند رسالة من قارئ/ متلقٍّ، تدلّى من بين سطورها لسان ساخر.. وحفلت بتعبيرات غريبة، ولا أقول جديدة... كتبها هذا القارئ / المتلقي ـ الذي لم يخرج من البيضة إلى فضاء الكتابة الرحب ـ بحسب توصيفه لنفسه... وأحسب أنه لو كسر جدار البيضة من الداخل، فقد يُسلق، أو "يُطجَّن" كما هو واقع بعض من ظنوا بلوغهم وطن الإبداع الكتابي!

وهذا هو: كل خوف القارئ / المتلقي، صاحب هذه الرسالة.. مما حدا به إلى حجب اسمه!

ولكني لا أحب الإنسان "المسلوق"، ولا الأفكار "المطجَّنة"... بل أفرح كثيراً بحوار كل قارئ ناضج، فاهم، موضوعي... لا يندفع بسبب ذاتي، كما هي تهمة الصحافة اليوم... ولا تتوسط الفهم: مشاعره الخالية من التفكير!

* * *

* في البدء.. يطرح هذا القارئ / المتلقي سؤالاً في رسالته،

بعبارات سريعة ومباشرة. . . فيسألني، أو يشرِّح عطاء الكتابة، فيقول:

ـ أعلم أن من ينتقد، ويدلي برأي أو فكرة. . لا بد له أن يتابع، ولكني أشعر ببعض الكُتَّاب: يجري وراء القارئ ويتعقّبه لتضيع منه الفكرة، أو يتخلخل الرأي. . . وليقول لي هذا البعض من الكُتّاب: عيب. . لا تفعل هذا، وليقول مرة أخرى: هذا أفضل، ومرة ثالثة: أخطأت، ومرة رابعة: أحسنت. . . كأنّ هذا الكاتب: ضمير، أو كاميرا خفية!

حقاً. . . لا نختلف في هذه النقطة، فالكاتب: ضمير، وكاميرا خفية تلتقط أدق حركة وسلوك من داخل النفس البشرية، ولكن. . . أي كاتب ؟!

كقارئ متلقٍّ. . لا بد أن يقنعني كاتب حر، ونظيف، ومتفوق على عنعنات النفس!

* * *

* في الالتفاتة الأخرى، التي أخصُّك بها ككاتب. . . يخيَّل لي أحياناً أنك: تقذفني بالطوب أنا القارئ / المتلقي. . . هكذا (شطراً بطراً)، ربما لأنك كأي كاتب يومي، يحاصرك الملل، أو تكون خالي الوفاض من الفكرة التي لا بد أن تفيد بها هذا القارئ / المتلقي!

وأحياناً أخرى: أجدك متدفق العاطفة. . حنوناً، مواسياً، قريباً إلى نفسي أنا هذا المتلقي / القارئ. . . فأحتضن كلماتك، وأسترخي. . كأنها خطاب غرامي. . وتكون فيها تعالج مشكلة نقص المياه في جدة مثلاً!!

ولكن. . . رغم ذلك كله، فإن القارئ / المتلقي، وليس لكم غيره: يطالبكم أيها الكُتَّاب بالكتابة المفيدة التي تعرضون فيها مشكلاتنا، وهمومنا، وأمانينا. . وتنغِّمون لنا أحلامنا!

لا نرفض بالطبع: كلمات التأمل، والوجدانيات التي نتلقَّاها كالنغم بعد الصخب... لكننا نرجوكم أيها الكُتَّاب: كُفُّوا عن هذا (الرغي).. فإننا نجد في كثير مما صرنا نقرأه اليوم: تنظيراً، "وهلوسة" كتابية، وادّعاء بالعلم وبالمعرفة، وبالمعلومات ـ خاصة في أمور السياسة والاقتصاد ـ فنحن نعرف أن عالمهما: شائك وعميق الغور.. وأن "كواليسهما" ثقيلة وداكنة غير شفافة.. ولا يمكن لكاتب صحافي في كثافة هذا الوجع والمتغيرات المحبِطَة: أن يخترقها.. وهو قابع خلف مكتبه الأنيق!

وكنا في الماضي نسمع عن: المراسل الحربي... صحيح أن الحرب لا تحتاج إلى مراسل الآن، ولكن أكثر الكُتَّاب في الصحف والمجلات العربية... أصبحوا "يتعاطون" الكتابة السياسية، بينما خلفياتهم المعرفية عن قضاياها، وعن كلماتها المتقاطعة: محدودة جداً!

لا تغضب مني، انتصاراً لزملائك أو أترابك، ولكني أقول رأيي ـ كقارئ / متلقٍّ لكل ما ترموننا به كل صباح.. وإن كان ما أقوله مجرد "فش خلق" فقط... احتملني لتكون أنت الكاتب في هذه المرة: القارئ/ المتلقي، ولو لمرة واحدة!!

* هناك أيضاً لون آخر من الكُتَّاب ممن يشعرون أن نفوسهم تؤلمهم، فيصبُّون على القارئ / المتلقي سوط عذاب من ألم نفوسهم، أو من فشلهم الشخصي!!

لكننا ـ يا سيدي ـ قد مللنا من السفسطة والهامشية، ومن نُواح الكلمة العربية، ومن تقريعها للاستعمار، والامبريالية، والانبطاحية.. دون أن يشير الكاتب العربي منكم إلى نقطة الجرح التي تنزف: خوفاً، أو تطلباً للسلامة، أو.... ليس هذا دوره (!!).

ولو كانت الحرب بالكلام.. لانتصر العرب، كما قال "تشرشل"!

ألا يمكن لكاتب عربي أن يكتب لنا اليوم في هذا الاختناق النفسي عن: القدرة، والإرادة، والأمل... بأسلوب يشحذ عزائم الرجال، أو يفتش عنها في هذا التيه، ويعالج نفوس الشباب الذين باتوا يفتقدون القدوة الحسنة؟!

قولوا لنا: إلى أين وصل بنا السباق على الأرض، قبل أن تصفوا لنا السباق في الفضاء وإليه؟!

* * *

* انتهت سطور الرسالة العنيفة، الطريفة من قارئ / متلقٍّ غاضب، ولكنّ أصداءها لم تنته عندي... فقد أعجبت بصراحتها، وبعفوية كلماتها، وبسخريتها.. ورغم أني لم أفقد الثقة في القارئ / المتلقي، إلا أن "احتراف الكتابة فيما نقرؤه حتى لغير المتفرغين لها، أو المبدعين فيها... يصبح هو الدوامة التي تلف هذا الكاتب العربي المُتْعَب الذي يتصبب عرقاً، وأحياناً: خجلاً وهو في زمهرير المعايشة!

ولا بد أن تكون هذه الرسالة بمثابة: (حادثة النصف ورقة) في أعماقي.. وقد أفقت بعدها بدقائق لأتناول فنجان قهوة مضبوطاً، وأتأمل، وأقول لنفسي بدون فلسفة، ولا سفسطة:

ـ بمقدار ما تكثر الحوادث على وجه الأرض، وفي أعماق البحار.. كذلك لا بد أن تتنوع الحوادث في أعماق النفس البشرية!

هناك حادثة: "النصف متر". وهناك حادثة: "النصف عقل".

وهناك حوادث: "المتر" كله.. في غياب العقل كله!!

* * *

* وتخرج إلينا فتاة من بين سطور رسالة تَعْقب رسالة القارئ أعلاه، وقد وقّعتها باسم: "شهرزاد".. كصوت يقابل صوت الرجل من المرأة.. لكنها لا تحكي في رسالتها حكاية من ألف ليلة وليلة، ولا أحد سيقطع رأسها مع انبلاج نور الصباح.. فالرؤوس المقطوعة في هذا العصر هي التي تدّعي العلم بأبعاد الحقيقة، وهي جاهلة!

ـ قالت هذه القارئة / المتلقية: لا بد أن نعترف بدءاً بأن لدى الفتاة مشكلة اسمها: الفراغ في مجتمع لا يستثمر عقل المرأة وثقافتها.. ومثلي مَنْ تقبع خلف جدران أربعة، قد تؤدي إلى نشوء حالة نفسية!

قد تتهمني بالمبالغة، فتقول: لا أحد يقبع اليوم خلف الجدران الأربعة، خاصة بعد تفشي ظاهرة (السائقين) المستقدمين شتى!!

هناك بعض الأسر ممن يسافر مع بدء العطلة الدراسية، ولكني لا أنظر إلى هذه المشكلة برؤية محدودة، فأحصر حلّها في السفر.. ولكني أطرح مثالاً، وأنتم ككتّاب سادرون عن مناقشة ما يطرأ ويُغيّر في المجتمع، وفي التربية.. حتى التأثير على السلوك!!!

* والمثال: لفتاة تحاول أن تملأ فراغها بالالتحاق بإحدى دورات الجمعيات أو المعاهد، مثل الكمبيوتر: ثقافة العصر الجديد!!

ولكن.. دعني أذكّرك بالنكتة التي صارت مشهورة جداً، وربما قديمة: من مشكلة إلى مشكلة أخرى، فتتفرع إلى مشكلتين!!

* بمعنى: أن المشكلة لم تعد في إطارها.. بل تنشق إلى مشكلتين، والمشكلتين إلى ثلاث، وهكذا!!

* وأسأل كقارئة متلقية لكل ما تنشره الصحافة المنشغلة عن معالجة

أهم المتغيرات والمشكلات:

* لماذا لا تفتح المعاهد، والمدارس، والجامعات أبوابها خلال العطلة الصيفية للنشاطات، وتُنظِّم دورات، وأنشطة ثقافية واجتماعية، وندوات أدبية، وفنية، ودورات لتعليم الخياطة، وللرسم، وللرياضة، ولتعليم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، والكمبيوتر. . . وذلك بمبالغ رمزية؟!

* لماذا لا توسع الجمعيات نشاطاتها طوال العطلة الصيفية، بدلاً من تعطيل نشاطاتها في الفترة الهامة جداً، نظراً لسفر المسؤولات فيها ؟!

إن مثل هذه الجمعيات بفتح أبوابها. . إنما تستوعب: مواهب، وأشغال، وأنشطة الفتيات، بدلاً من جولات الأسواق. . ومَلْء وقت فراغهن بإقامة: دورات، ونـدوات، وأنشطة متعددة؟!

انتهت رسالة الفتاة: القارئة / المتلقية!

* * *

* وتبرز هنا نقطة. . نود أن نتطرق إليها، وهي تتركز في: ضعف مستوى الثقافة العامة لدى الطالب أو الطالبة الجامعيين!!

والملاحظ: أن هؤلاء الطلبة والطالبات ـ الجامعيين والجامعات ـ لا يعرف أغلبهم سوى تخصصاتهم. . أما بقية العلوم والمعرفة، فلا يعرفونها. . لأنهم خلّفوها وراءهم عند فترة الدراسة الثانوية!

ولا بد أن تأخذنا الدهشة والمفاجأة عندما يتعرض شاب لسؤال، فلا يعرف إجابته التي غالباً ما تكون بسيطة!

ونحن لا نهدف إلى: التقليل من قدرات وتفوق طلبة وطالبات برزوا في مجال الثقافة. . ولكننا نتحدث عن (المستوى) العام لثقافة شبابنا!

* فما هي الوسيلة ـ إذن ـ لرفع مستوى الثقافة العامة لدى الشباب الجامعي.. بما يليق بمستواه العلمي ؟!

قد نقترح: تدريس مادة (ثقافة عامة) تشمل:

* أهم القوانين الفيزيائية، والكيميائية، والجبرية، والهندسية، والجغرافية.

* أهم المعارك في التاريخ.. والمتغيرات التي حدثت سياسياً واقتصادياً.

* أهم الأعمال في الأدب، والفكر، والفن.. وأهم الشخصيات.

وقد لا يكون الاقتراح منسجماً مع أفكار الذين يضعون برامج التعليم.. ولكنه: (فكرة) نحاول بها أن نعثر على وسيلة لرفع مستوى الثقافة العامة، وبالمضمون الثقافي لدى الشباب... وأن نهتم بهذا الوقت المهدر!

والشباب ـ كما نردد دائماً دون ملل ـ هم: ثروة كل أمة... وليست هناك أمة طموحة تهدر ثروتها الأهم، وإنما: تحرسها، وتواكبها، وتطوِّرها، وتنمّيها بالعلم، والثقافة!!

المثقفون إلى أين؟!

عندما نتحدث عن شروط اجتماعية وتاريخية لتكون نظام العقل، فهذا يعني أن العقلانية، ليست مطلقة ولا حيادية، فهي تعكس تنظيم الجماعة لواقعها في الذهن. أي إعادة تركيبه في مسائل كبرى وإشكاليات قابلة للحل من أفق الشروط التاريخية القائمة. . وهذا يفترض أن المعقولية لا يمكن أن تكون مستقلة عن الوضعية الخاصة بكل جماعة ومكانتها في الحضارة، ولا عن القيم الأساسية التي تدافع عنها.

د/ برهان غليون

(١)

حملت سؤالاً ضخماً له أصداء من عدة جوانب!

حاولت الطواف به على العقول المتفتِّحة في هذا المجال بالذات. . . حتى تمدد السؤال بكل أصدائه يقول: المثقفون. . . إلى أين؟!

وتمددت بعض العقول، وتواصلت بعض الأفكار.

لكنَّ ذلك كله. . كان يخضع لموضة ـ كانت حداثة السبعينات/ ربما ـ اسمها: (الميني سكريت) حتى في الكتابة، وفي الفهم، وفي المفهوم الحواري. . . ولا أظن أن جيل التسعينات قد تخلص منها تماماً، إن لم

يكن قد أدخل موضات "أحدث" وأقصر من "الميني"!

وكلنا ندَّعي: رحابة الحوار، وتقبُّله طالما كان يحتوي على موضوع.

وفي أحيان أخرى.. كنت أبلور نقاشاً، أحرص أن لا أجعله (مُحزَّقاً)، وأجلس بعد ذلك في انتظار الصدى!

وحفظت في صباي وأحلامي، وفي نهدة شبابي: أبياتاً من المعلَّقات.. وردَّدت مجموعة أقوال لنجوم تلك الحقبة، وما قبلها مما يعتبر تراثاً، أو نافذة على الفكر العالمي.. فحفظت من أقوال: "أبو حيان التوحيدي"، و"ابن رشيق القيرواني" ومقامات الحريري، وجواهر الأدب، وعبقريات العقاد، ومنطلقات طه حسين، وجنون جان جاك روسو، وإبداع بودلير، وشرائح إنسانية صورها آرسكين كالدويل!

وكانت النتيجة ـ بعد ذلك أو إثر ذلك ـ تفسيراً للمثل الشعبي القائل: "......... كلام الناس ثلاثة أيام"!

أو كأن كل هذا العمر، وهذا التحصيل، وهذا الوعي والنضج، وهذا الاختزال العقلي... قد انحصر في تلك الأيام الثلاثة التي يلوك فيها الناس أتفه القول، و...... ينامون!

فهل أصبحت "الثقافة" في العالم العربي تقوم على قاعدة هذه الأيام الثلاثة؟!

وهل تحوّل المثقفون العرب إلى "لُوّاك" لأتفه القول، ليناموا بعد ذلك "عن شواردها، ويسهر القوم جرّاءها ويختصموا"؟!!

* * *

المثقفون. . . إلى أين ؟!

أذكر أن أستاذنا "المثقف" بحق/ عزيز ضياء: قد اهتم بهذا السؤال قبل سنوات، حتى شاهد (الأغلبية) قد ناموا عن شواردها، وردّد افتتاحية حواره الدائمة:

ـ أحسب أن. . . . الناس صاروا في هذا العصر ضد الشوارد، أو لا يفهمون أبعادها وخلفياتها!!

والأستاذ/ الرائد "عزيز ضياء": قارئ ذكي، وعاشق للمعرفة (بأبعادها الشاسعة)!!

فهل ما زال أستاذنا "عزيز ضياء": يحسب أن الثقافة في أزمة. . أم هم المثقفون الذين جلبوا هذه الأزمة، وجلسوا يتباركون على حالهم، وقلة حيلتهم، وسوء مآلهم؟!

● إذن. . . لم يعد السؤال واحداً، بل تفرع منه سؤال آخر، لنقول:

● المثقفون. . إلى أين؟!

● هل القراءة: أزمة. . . أم غياب الوعي هو الأزمة، رغم انفتاح الفضاء على زحام عجيب من وجوه النساء الجميلات، الملوّنات ما بين: شقراء، وسمراء، و. . . . "لونها قمحي"؟!

ونستخلص من هذين السؤالين ـ وأمرنا لله! ـ سؤالاً ثالثاً يقول:

● ما هي أبعاد، وخلفيات، وتأثير هذا "التدفق" الكلامي عبر القنوات الفضائية العربية؟!

أليس أكثر ذلك "كله" ـ أكثر، وكل! ـ يغلب عليه: التفاهة، وإضاعة وقت المشاهد لتسليته في أقل التوقع والاحتمال؟!

ولو أردنا عمل "إحصائية" للبرامج، والمسلسلات، والأفلام التي تتسابق إلى تقديمها هذه المحطات الفضائية العربية. . لخرجنا بنصيب الفقير المدقع في محصّلة المفيد منها، أو حتى المسلي والممتع!

والمضحك: أن المشاهد العادي عندما يشاهد برنامجاً، أو مسلسلاً عربياً. . كأنه شارك في إعداده وكتابته. . . فهو يعرف ماذا يحتوي هذا البرنامج قبل إعداده، والأجوبة عن أسئلته التافهة، ولوازم الحوار في المسلسلات!

ورغم هذا "المضمون" الضعيف في طرحه، وفي معالجته، وفي موضوعه. . . فهناك محطات فضائية تصرُّ على (تشفير) إرسالها، والبعض يفكر في هذا التشفير، وذلك لاستنزاف المشاهد: المزيد من الفلوس، والمزيد من الوقت الضائع في التفاهات والضحك على العقول العادية!

● ويعرف هذا المشاهد حقيقة ماثلة (مدوّرة) تقول:

ـ إن أكثر ما تعرضه هذه المحطات: متشابه، أو مكرر. . . فأنت ترى الفيلم القديم الليلة في محطة فضائية عربية، وفي الليلة القادمة تعرضه لك محطة أخرى. . . إن لم يُعرض في المحطتين في نفس الليلة أو السهرة!!

بمعنى: أنه لا جديد قد (تفتَّق) عنه ذهن المُعدِّين لهذه البرامج، والمتاجرين بهذه الفضائيات على حساب (قوت الناس)!

ونقول: "قوت" . . . لأننا نعرف عوائل أصرت على كل عائل لها على توفير "الدش"، وربما جهاز التشفير، واضطر أن يقترض ليرضي عائلته، أو فلذات كبده الذين يشقى ويكدح من أجلهم!

ولو كانت هذه "الفضائيات العربية قادرة على تقديم: الجديد،

والمبهر، والمفيد والمغذي لعقل ولروح الإنسان. . فإننا نطالب بالإقبال عليها، وتحمل النفقات الباهظة أثماناً، لمشاهدة برامجها!

❊ ❊ ❊

● وبهذه الرؤية المستمدَّة من الحقيقة المحزنة. . لا بد أن ينطلق سؤال هام، يكاد يضيع في كل هذا اللغط، والفوضى، هو:

ـ الكتاب. . . إلى أين؟!

هل هذه مهمة، أو رسالة "المثقفين" الذين نعتقد أنهم هم أيضاً: غير متواجدين على الساحة الحقيقية لنشر الرسالة المطلوبة منهم. . . ولكنهم يتناثرون في أزقة، وحواري الثقافة (المترجمة)، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم (يتعاطون) وعياً لا يخدم رسالتهم في نشر الوعي داخل الوطن العربي، وفي عمق أفكار وفهم: شباب أمّتهم الذين من المفروض أنهم يمثلون المستقبل القادم: الغامض، والبعض يتوقعه، مخيفاً!!

● الكتاب: مُهمل، وتضطهده هذه "الفضائيات" العربية لتقضي عليه تماماً!

● والكتاب: مستباح من بعض دور النشر التي تنشر ما يعود على مكاسبها المادية، ويزيد الكاتب: فقراً، وإذلالاً (!!) أو تنشر ما يتّفق و. . . . . "شعارات" دار النشر هذه، مما نراه يتنامى في لندن بالتحديد!!

وكل هذه الكتب لا تخدم "عقل" الإنسان، ولا مَنْح الحوار حريته، ولا تُعلّم القارئ: كيف يستخلص رأياً خاصاً به. . . بقناعاته، وبفهمه، وبمبادئه التي يُنمِّيها فيه: الكتاب الجيد!

● والكتاب: مجْني عليه من (الرقابة) التي تطارده في مناطق معروفة

من العالم... البعض بحجة: التأثر على تفكير الإنسان، أو العبث بعواطفه.. والبعض بحجة تناقضه لمبادئ ولشعارات قام نظام هذا البعض عليها!

● والكتاب: ارتفع ثمن بيعه أو تسويقه... فكيف للشاب أن يحصل على كتاب قيمته (٣٠) ريالاً، وهناك كتب تافهة جداً، باعها مؤلفوها بمبلغ (١٠٠) ريال، وهي بمضمونها تُشكل سخرية على ما آل إليه حال الثقافة، ورسالة الكتابة في هذا الوقت!

● ● ●

● ونعود إلى السؤال / الافتتاح هنا: المثقفون... إلى أين ؟!

الكثير من شرائح المثقفين ـ بكل أسف ـ مستلق، ينتظر من يُخطط له ويوفر المناخ المطلوب للوعي، حتى (يقدر) المثقف على أداء رسالته نحو مجتمعه، والشباب المؤهل للغد!

والبعض: حوّل رسالة الثقافة إلى مجرد "مقالات" في الصحف، وتنظير، وبحوث أكاديمية، ودراسات تحتاج إلى دارس.. ونحن لسنا ضد هذه التخصصات العلمية، ولكن لها أوْعيتها من مطبوعات متخصصة!

ولكننا نشير بالتخصيص إلى ما تُفسح له الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية صفحاتها لنشره، و... بكل أسف: يتجاوزه القارئ العادي الذي نريد الوصول إليه بأهداف الثقافة والوعي، فلا يقرؤه، ولا يعيره التفاتاً، وبعض من يكتب وتنشر له الصحف، يقرأ ـ لوحده ـ مقاله بعد النشر!

ونشير أيضاً إلى: دور النوادي الأدبية التي تقيم ندوات وأمسيات لنجوم الثقافة والإبداع الذين يرتقون المنصة طوال وقت الندوة أو الأمسية، في

شكل ديك، أو طاووس. . يتعالى على الحضور، أو يتلو عليهم: رموزاً، ومصطلحات من مدارس نقدية في الغرب، وتهويمات.

فما هو تأثير هذه النوادي، وهؤلاء المتنادون فوق منابرها. . مما ينعكس على: وعي الناس، وما يشغلهم، وما يتوقون إلى معرفته، وتعلُّمه؟!

لا شيء أبداً!!

• • •

● تلك هي أهم الملامح التي تكاد تبهت اليوم في قضية: "الثقافة والمثقفون".

وعندما نطرح موضوعاً يتصل بعقل الإنسان، وبالتوسع في مساحة وعيه. . فإن الكلام يطالبنا باستخدامه لأغراضه الهامة والطليعية. . وحتى لا يتحول العطاء الفكري والإبداعي للمثقفين إلى مجرد: "فهرسة" لمرحلة زمنية، أو إلى: عناوين بلا موضوعات.

وإذن. . فإن "الثقافة": تشكل قضية هامة لدينا، لأن الأمة التي لا تهتم بوعيها، ولا بتطور فكرها. . لن تكون مؤهلة لأداء رسالتها الإنسانية، والإنتاجية، والحضارية في زحام هذه الأمم التي قطعت أشواطاً بعيدة على دروب الوعي، والإنتاج، والحضارة.

وبالتالي. . فإن "المثقفين": يتبلورون على شكل أثافي لهذه القضية، أو القاعدة الأساسية للثقافة في كل بلد. . فإذا تعطل دور المثقفين، وإذا ما انشغلت هذه (الصفوة) في البحث عن ذاتها، والتقاعس عن إثبات أو تعميق هويتها. . فإنها غير مؤهلة أبداً للقيام بأي عمل قيادي: يوجّه، أو يرشدّ،

أو يُعلّم، أو يساهم في حركة التنمية الجادة!

• • •

● وزارني "صديق".. ليبلغني برد الفعل فقال لي في مدخل حديثه:

ـ إن الكثير من المثقفين، ومن الجامعيين الأكاديميين: يلاحيك، ويشجب كلامك، ويجد دحضاً لكل ما طرحته، ويتساءل: من أنت.. حتى ترفع أصابع الاتهام في وجه هؤلاء الصفوة أو النخبة؟!

● قلت: أنا مجرد "قارئ" نهم، متولّه بالكتاب.. أطرد وراء الكلمة / القيمة التي تزيدني نضجاً ولا تسقط بي في هاوية أو حيرة.. وأريد من هؤلاء المثقفين: أن يتوقفوا عن التنظير، وعن تجليخ الكلام، وعن المقالات البكماء التي لا تحمل من ورائها سوى هدف تلميع هذا الكاتب / المثقف، أو الأكاديمي إعلامياً.. في الوقت الذي لا يستفيد القارئ العادي، ولا حتى المثقف / ربما، من هذا الذي يكتبونه وينشرونه!

ونحن نعرف أن العالم كله ينتقل من حقبة إلى حقبة، ومن نظام عالمي إلى نظام جديد، وحتى التركيز على القوة الاقتصادية القادمة التي ستتحكم في القوة العسكرية، وتوظف التكنولوجيا لها... وهذه (النقلة) خطيرة جداً، لأنها تنعكس على ذهن الإنسان، وعلى مصدر رزقه ومعاشه، وعلى تطلعاته وطموحاته!

فإذا صار "الكِتَاب" في بدء هذه النقلة: لا قيمة له في واقع الغزو الفضائي، ولا أقول: الغزو الثقافي، لأن الواقع يقول أيضاً: إننا نحن العرب الذين نغزو أنفسنا بأنفسنا!

فإذا كانت المحطات الفضائية العربية / المتشابهة في مادتها التافهة..

قادرة أن تسرق الإنسان من الكتاب، أو من القراءة. . فكيف يصبح هذا الإنسان المسروق إذا ما تدجّن في مثل هذه التفاهات؟!

لقد شعرت بغبطة بعد قراءتي لخبر: اجتماع وزراء الإعلام العرب، ليكون على رأس جدول مناقشاتهم: التنسيق والتخطيط لما تعرضه القنوات الفضائية العربية: (بتاعتهم)!!

ولكنَّ هذه القنوات لن تكون ـ كلها ـ رسمية تابعة لأجهزة الإعلام في الوطن العربي، ولكنها: شركات تبحث عن الربح، وإغراء المشاهد وجذبه ـ حتى لو تحكمنا في القليل القليل من الوقت في منع إرسال هذه القنوات مؤقتاً ـ وحتى لو عمد بعض هذه الفضائيات إلى "تشفير" إرسالها. . لكنَّ "الغزو" قد وقع، والجاذبية إلى هذا (الشيء) المثير قد انتشرت حتى إلى بيوت الفقراء. . وهذه (الحقيقة) تدعونا كأجهزة رسمية إعلامية إلى المبادرة لمواجهة هذا الغزو بما يماثله ويتفوق عليه، وليس بالمنع، والتقفيل، ومحاولة السيطرة الصعبة جداً على الفضاء!

• • •

● وفي هذا الزحام الفضائي، واللغط المتوقع في اجتماعات وزراء الإعلام العرب. . لا بد لنا أن نتساءل:

ـ أين هو المثقف العربي. . وما هو دوره ؟!

بالصدفة. . شاهدت على شاشة التلفاز: طرحاً (ثقافياً) قدمته إحدى الفضائيات العربية ـ ما غيرها! ـ من خلال استضافتها (لمثقف) أديب. . فما هي الحصيلة التي خرجت بها من هذا اللقاء، أو الحوار؟!

تحدث هذا المثقف العربي عن نفسه، وكتبه، وما يتأمله. . وتحدث ـ

بالأقل ـ عن الواقع العربي، ولم يقل شيئاً له القيمة الفكرية، أو الرؤية المنطقية.. إما خوفاً من نظام بلده، وإما (فراغاً) في المضمون!

أكثر من ساعة وهو (يرغي).. والنهاية: وضعوا له أغنية لراغب علامة أيضاً!!

ـ (على فكرة: راغب علامة، وعمرو دياب.. صرنا نراهما على شاشة الفضائيات العربية ونسمعهما أكثر مما نرى أولادنا وأهلنا)!!

● وعدت إلى سؤال الصديق الذي زارني، واستفزني باسم المثقفين بقوله: من أنت حتى تتهم الصفوة والنخبة؟!

واستطردت في الإجابة، فقلت له: أنا.. لستُ إلا هذا السؤال الساخن جداً الذي كان يترسب في "قعر قدْر" بارد مدة طويلة.. فأصابتني حرارة العصر والأرض وفجائعهما، ومتغيراتهما.. فتفاعلت، و (غليت)، وارتفعت أسئلتي إلى فوهة "القِدْر" متسائلاً، منادياً!

أنت الآن نقلت إليَّ ردود فعل غاضبة وليست "مُحاورة"... فهل هذا مناخ ثقافة؟!

وهناك ـ يا سيدي ـ من يجسد في مثل هذه المواقف، أو الطرح: لا مبالاته من استعلائه!

إنّ التساؤل ضروري، ومن واجب الوسائل الإعلامية، ومن واجب المؤسسات التعليمية / الجامعات، والأدبية / النوادي: أن يهتموا ببحث هذه القضية.

ونحن في وطننا الأغلى / الكيان الكبير: نحتاج إلى وعي، وعقل، وإبداع، وإنتاج كل شاب وشابة، وكل تخصص، وكل كفاءة، وكل فكر

رائد راجح: يعد جيلاً قادماً يكون قادراً على تحمُّل المسؤولية في المستقبل الذي تلوح طلائعه ويشير إلى: أنه غد صعب المراس، مزدحم بالأحداث!!

• • •

*** المثقف، والجامعي:**

● واتصل بي "شاب" . . هو مميّز في صف المثقفين، يحمل الدكتوراه بتقدير عال ومتفوق. . وفي البدء لم يفاتحني في هذه القضية / المثقفون، والثقافة. . ولكن الحوار كان يعبر فوق الحفافي، حتى قال كلمة تتخطى اللحظة تلك:

من واجبنا، قبل النقاش، أن نَفْصل بين: المثقف، وبين: الجامعي. . فبعض الجامعيين لا يمكن أن تطلق عليه: مثقف. . خصوصاً ذلك الذي تكتشف أنه يخطئ في القواعد، بل وفي الإملاء (!!)

● قلت له: هذا الرأي يتمتع بصحة ذهنية، وعندما كتبت لم أكن قد خلطت بين المثقف، وبين الجامعي. . ولكنّ "الأكاديمي" يعتبر نفسه هو: صفوة المثقفين، بحكم إثباتاته التي تخرجه غالباً!

لكني تساءلت عن / المثقفين والجامعيين، وقلت: إن المثقف يتوارى خلف نظرية نقدية أو فلسفية غربية أكل عليها الدهر وعطش. . . أو يتوارى خلف مكتب «دوار» لا يدوم له. . . وفي أحسن أحواله: يتوارى في الصمت!

ـ وقلت أيضاً: إن الجامعي يجري إلى الوظيفة حتى يجف ريقه، أو أن «الوظيفة» تصبح قضيته. . . وهو معذور في ذلك، لأنه يبحث بعد سنوات التحصيل المضنية عن: فرصة يفرغ فيها ثقافته أو ما تعلمه. . . أو لأنه يريد

تأمين مصدر رزقه ومعاشه هو وأهله... فكيف يلتفت إلى (قضية) الثقافة، ورسالتها.. وهو مهيأ بهذا الاحتياج أو الاضطرار إلى: التخلي عن التزامات مطلوب منه الإسهام فيها لخير الوطن؟!!

إن هناك فرقاً بين المثقف، والجامعي.

● الجامعي: إذا لم يكن مثقفاً.. فقد أهدر جامعيته، بل وقيمته المتمثلة في (علمه)!

● المثقف: ليس شرطاً أن يكون جامعياً!

لكنّ دور كل منهما يتلاقى في جوانب كثيرة من حياتنا، ويتشابه فوق ملامح كثيرة لأوْجه نهضتنا وتقدمنا.

إن الأمم لا ترتقي إلا بعقول أبنائها.. فإذا تقاعست تلك العقول عن أداء مهمتها وواجبها، فسوف تتجمد ارتقاءات كثيرة، وسوف تدور أشياء كثيرة حول نفسها!

و... لهذا النزف بقية!!

● ● ●

*** هل المثقفون: أمزجة ؟!**

● طرحت هذا السؤال في أعقاب "تصريح" قرأته للشاعر، وللكاتب السوري المسرحي/ "ممدوح عدوان"، قال فيه:

"نحن نكتب كلنا بلغة عربية واحدة، ولا يستطيع مثقف عربي أن يعرف ماذا يكتب المثقف الآخر في البلد العربي الآخر.. بالصدفة، أو بالتهريب؟!

الحالة الوحدوية الوحيدة الموجودة في أمتنا العربية هي: مزاج

المثقفين، والعواطف الشعبية. . ونرجو أن يصمد هذا المزاج وهذه العاطفة أمام: ضراوة الاستفادة من التشرذم الذي يزداد وقاحة تحت ذريعة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد!

أوروبا بأكملها تعيش وحدة ثقافية، ولا يكاد يمر عام على صدور كتاب حتى تتم ترجمته إلى اللغات كافة" . . . انتهى!!

هذا "الكاتب" ـ في كل مكان ـ قد جعل من فنه، وإبداعه، وفكره: إحساساً، وضميراً، وإيماناً، ورؤية. . . وهو الذي يحرص على شيء مهم جداً: أن تكون نفسه في نفوس الناس حتى يصل بفكرته، وبإبداعه إليهم. . وأن تكون نفوس الناس في نفسه، حتى يُعبر عن معاناتهم وهمومهم وأحلامهم!

إنّ حب "الكاتب" يكبر في الناس وبهم، ويتلاشى بعيداً عنهم وعزلة دونهم.

ولا يمكن أن يكون "الضنا" منفرداً، أو المعاناة: نبع تخيُّل. . وإنما هي أشياء مكتسبة مما نعيشه، ومن الناس، ومتطبع عنهم ولهم!

• • •

*** لمن يتوجه المثقف:**

● إذن. . . لمن يتوجَّه المثقف، أو الكاتب / المفترض فيه أن يكون مثقفاً ؟! في البدء. . . لا بد أن نتوقف عند ظاهرة (تمدّدت) على صفحات المطبوعات العربية، والمحلية لدينا، وهي: تفشي القلم، الذي هو "من علامات الساعة"!!

وتفشِّي القلم: أساء إلى هذا المنبر الخطير والهام / الصحافة. . فاختلط

الحابل بالنابل، والمثقف المتميز بطالب الشهرة والذيوع ولمعة الاسم.. ليكون له من يخدمه بهذه (الصفات) التي هي في الواقع: منتحلة!!

وعلى امتداد شمس الكرة الأرضية، وضياء قمرها: صارت الكلمات تتاخم الشفق، لكنها لم تعد لذلك التأثير القديم.. وصارت الأفكار تجرح الأبعاد، ولكن بغير قدرة على التغيير من داخل نفوس الناس، وعقولهم، وسلوكياتهم التي تزداد تردّياً كلما استغولت الماديات في هذه العقول، والنفوس، والاحتياج!

وصارت الكلمات: تُصيِّر المسافات وجعاً للكشف عن الآلام، والمعاناة، وألماً في الامتلاء بمعانيها!

● والمطلوب في البدء: أن نطرح هذا "الزيف" الذي يكاد يُصبح اعتيادياً، ويلوح في عيوننا بديلاً عن ألوان الطيف، حتى نحسبه هذه الألوان!

وهناك اتهام يتمحور، فيقول:

● هذا إغراق بالذات، أو في النرجسية، أو... في الحدود الإقليمية للنفس!

نحن لسنا مع الاتهام بالتعبير، ولسنا ضده...

نحن صرنا نجحف فعلاً إذا عرَّينا العبارة المكتوبة، ودفعنا عليها أو إليها: شهواتنا، أو ذاتيتنا المجردة، أو سلوكياتنا الجديدة مع متغيرات واحتياجات العصر... حينئذٍ: نحن لا نحيا وإنما نرتمي، ونبهت، ونطمس!

من الصعب: أن نُزيِّف أحلامنا بالمتاه.

ومن الأصعب: أن نُزيِّف جمر الناس بالشرارة الصغيرة والسريعة التي ما تلبث أن تنطفئ في لحظة اشتعالها!

إنّ الناس يمضون نحو: التخثُّر، والصقيع، والدروشة العاطفية.

إنّ حشود الرياح تفطن النهارات من أثداء الفصول!!

• • •

*** كاتب عربي. . . وكاتب محلي:**

● والتقيت بمثقف عربي كبير في بدء هذا العام الميلادي ١٩٩٤م في مصر. . فبادرته يومها بسؤالي:

ـ ما الذي يشغل ذهنك هذه الأيام، ويستفزّ أفكارك ؟!

● أجابني متأوِّهاً: إنني أفكر كثيراً، لكن ـ صدقني ـ إنّ اختلاط الأفكار يجعلني لا أعرف: في ماذا أفكر ؟!

ـ سألته: هل هذه فلسفة ؟!

● أجاب: أبداً. . . إنّ الكثير من الكتب التي أجدها على واجهة المكتبات. . لا تشدني ولا تحُضُّ لهفتي وعشقي للقراءة والمعرفة. . . . . . بعد أن عرفنا دوافع كتابتها!!

• • •

● وعدت إلى وطني الأغلى، وجمعنا مساء بصحبة نضرة من الأصدقاء، وفيهم ـ بالطبع ـ بعض الكتاب. . . فطرحت نفس السؤال على واحد من هؤلاء. . فأجاب:

ـ لا أدري. . . صدقني!

● ضحكت، وقلت له مندهشاً: لا تدري عن الذي يشغل ذهنك ويستفزُّ أفكارك ؟!

قال: هذا أنت تستغرب.. لكن اختلاط الأفكار، وغربة بعضها، وعجز البعض الآخر عن الإعلان عن نفسه: كلها يجعلني لا أعرف في ماذا أفكر؟!

المكتبات ـ هنا ـ لم تعد تهتم بجلب "الجديد" من الكتب الصادرة في الوطن العربي على الأقل، بينما نقرأ في المجلات والصحف الوافدة إلينا من جيراننا: الكثير من الإعلانات عن كتب جديدة.. لا نراها في مكتباتنا، حتى هذه المكتبات التابعة لشركة النشر والتوزيع، والتي تدّعي أنها توفر أحدث إصدارات الفكر والإبداع العربي.

قلت: وفي هذه الحالة.. لم تعد تقرأ، أم تترك ذلك لموسم السفر، و (تلقيط) الكتب من مكتبات القاهرة ولندن ؟!

قال ضاحكاً: حتى هذه لا أضمنها.. لأن موظف الجمارك الذي يفتش حقائبي ـ وهذا حق للأمن ـ يعتبر الكتب من الممنوعات.. حتى لو كانت لمكتبتي الخاصة / أنا الكاتب الذي يسمونني (أديباً!!)

● ● ●

*** حقيقة أخرى... خطيرة:**

● والحقيقة الأخرى التي تتفشى داخل كل وسط بلا تمييز: أن المواطن بمختلف مستوياته الفكرية والثقافية، يقرأ (بالاختزال)، فلا وقت لديه لكي يجلس ساعة متفرغاً لكتاب، ولكنه يسهر أكثر ليله أمام شاشة التلفاز، حتى لو كانت البرامج والأفلام (تجارية) تنتجها شركات تعلن عن:

"بامبرز، و. . . أولويز"!!

أكثر القراء اليوم: يطالعون في الصحيفة اليومية عناوينه ـ الكبيرة "المانشيتـات"

والفقرات المضغوطة التي لا تأخذ وقتاً، وحبذا. . . لو كانت (مضحكة)!!

وتجذبهم أغلفة المجلات الأسبوعية والشهرية الملونة، و. . . صور الغيد الحسناوات بالماكياجات، وغير ذلك بدون هذه الأصباغ!

● ثم يقتحم قارئ ما: تأمل كاتباً، ويسأله مستفزاً له:

ـ أنت. . ماذا تكتب. . إنك لا تقول شيئاً يهم الناس. . كلامك غير مفهوم ؟!

فهل كلام الكاتب: غير مفهوم. . أم استيعاب هذا القارئ، غير فاهم؟!

● والسبب: أن مثل هذا القارئ. . لم يقرأ المقال كله الذي تعب الكاتب في صياغته، وبنائه الفني، ولم يفكر في خلفيات هذا المكتوب لديه. . . والذي لم يُحسن قراءته!

والكثير من القراء اليوم، أخذوا ينحدرون إلى (أُميّة المزاج). . . فكما أشار "ممدوح عدوان" إلى: مزاج المثقف، فهنا أيضاً: مزاج القارئ أو المتلقي لأفكار ولإبداعات هذا المثقف! إنّ القارئ اليوم ـ بما فيه المثقف! ـ قارئ: مزاجي، ملول، قلق. . يطالع بداية ما يقرأ، ثم يمارس التزلج بنظراته على الحروف، ويقضم سطراً من الوسط، و "يُعضْعِض" فقرة كاملة. . ثم يصل إلى السطر الأخير، وبالطبع: لم يكن قد فهم شيئاً. . فيقذف بالصحيفة، أو بالمجلة، أو حتى بالكتاب. . . وهو يردد متأففاً:

ـ جديد في ما قرأت.. لا شيء فيه أبداً!!

فهل هي: أزمة قُرّاء؟!

أم أزمة نُقَّاد محايدين، وإذا وجدوا فإنهم لا يتناولون إلا أعمال المنتمية إلى مدارسهم النقدية، لكُتّاب من نفس الانتماء بأسلوب الشللية؟!

(٢)

● هل هي أزمة "قُرأَّء" بالفعل؟!

والسؤال يتبلور مما يقال عن "القارئ" الذي صار: ملولاً، لم يعد يتحلّى برحابة الصدر، لأن القراءة تحتاج إلى تركيز، ومتابعة، وقبل ذلك إلى عشق لها يؤكد إنتماء القارئ إلى المعرفة، أو بحثه عنها!!

ويقال عن "القارئ" اليوم أيضاً: إنه لم يعد قادراً على التحكم في "الوقت" ليجلس، ويلتحم بالقراءة، ويهتم بكلمات تشده أو تلفت انتباهه.. لأن انتباهه أصلاً منشغل بأشياء مادية مما هو مرتبط بالطموحات المادية، أو بالمعاناة وبالهموم!

● وهل هي أزمة "نُقَّاد" يُهمهم العمل الأدبي قبل الشخص / كاتبه، والسؤال عن انتمائه الفكري، وأسلوبه الكتابي، وإلى أيّ مدرسة ينتمي؟!

كانت دوافع النقد للأعمال الأدبية قد ترمدت لدينا من منتصف الستينات إلى منتصف الثمانينات.. حتى انبعث نقاد أكاديميون، لم يكونوا محايدين ولا منزّهين، لأن (ميولهم) كانت تسرقهم إلى المدارس النقدية التي انتموا إليها إلى درجة استعباد تلك المدارس ذات الشعارات لعقولهم.. فأصبح ـ في رأيهم ـ قلة قليلة جداً في هذا الزحام من الكاتبين، والمبدعين، والقصاصين والشعراء.. هم الذين يستحقون الالتفاتة النقدية منهم،

وإبرازهم، وتلميعهم. . لأن هذه "القلة" تكتب، أو تمتح من تلك المترجمات (تقليداً لها وليس ترجمة. . فصار التقليد في تقييم هؤلاء النقاد هو: الإبداع، والحداثة أو التحديث، وهو الجدير بالالتفات. . وما عدا ذلك في اعتبار هؤلاء النقاد: يشبه العملة القديمة التي غذَّ بها الزمان، فلم تعد تُصْرف!!

إنّ الاهتمام "بكل" ما تصدره المطابع لكُتّاب محليين لم يعد فعالاً، وليس له أثر في ذات، ولا في حفاوة هؤلاء النقاد الذين ـ خلت لهم وباضت ـ فتربعوا فوق منصة الحكم على إنتاج وإبداع "الآخرين" من غير شيعتهم. . ليصدروا أحكاماً متسلطة من سلطة البعض منهم على منابر الإعلام كالصحافة، والأندية الأدبية!

• • •

*** قُـرّاء. . ونُقّـاد:**

● فهل هذه أزمة "قراء" أم أزمة "نُقّاد" محايدين غير متسلطين ؟!

القراءة هي: القاعدة. . والأمم التي لا تقرأ: لا تفهم، ولا تعي، ولا تتطور!

والقُرّاء هم المتلقِّين الذين يسيرون مظاهراتهم خلف "النقاد" تأييداً، أو شجباً!!

والأمم التي تستهين بالأفكار الجديدة، وبالكلمة اللافتة. . تعكس عدم اهتمامها بعصرها، وبثرواتها الإنسانية!

إذن. . . فالأزمة قائمة تراوح ما بين فعالية القارئ، وحضارة الناقد ورقي هدفه!

وكنت أقرأ دراسة عن: "أزمة القراءة"، تقوم على أفكار كتبها "نورمان لويس" وضمَّنها كتابه المعروف: "كيف تقرأ" ؟!

● قال نورمان لويس: "إن القارئ البطيء، هو قارئ رديء.. وإن معظم الذين يقرؤون بسرعة يستوعبون أكثر من القراءة المتثاقلة.. والطفل الذي لا يجيد القراءة: يكون دائماً متأخراً في الدراسة"!

إنّ الذين لا يقرؤون: لا يستحقون التطلع.. والذين يهدرون أوقاتهم دون إشغال ساعات منها بالقراءة: لا يجيدون معرفة الحياة، ولا يتفهمون كيفية معاشهم!

وعرفت أن أغلب الذين يقرؤون: بطيئون.. في القراءة، وفي حوافزهم للاندفاع إلى القراءة!

وعرفت أن أغلب هؤلاء الذين نراهم يقرؤون، ينقسمون إلى هذه الشرائح:

● قُرّاء للمجلات الملونة، المصورة، "المزغللة" بصور الممثلات، والمطربات، والمذيعات الفاتنات... والبعض ـ كما قال ـ يشتري المجلة من أجل الغلاف... ولا يعنيه ما هو مكتوب في داخلها!

● وقراء للصفحات الرياضية ـ وهم الأغلبية! ـ ممن ينجذبون بجنون إلى كرة القدم، ويرددون أقوال "نجومهم" في الكرة.. حتى لو كان ذلك النجم لا يجيد تركيب كلمتين!!

● وقراء للأخبار ـ أياً كانت ـ وذلك من شدة متابعتهم للأحداث، وإشغال تفكيرهم إلى درجة الإرهاق بالمتغيرات السياسية، وأبعادها وخلفياتها!

● وقُرّاء ـ قلة ـ من هؤلاء المثقفين الذين. . . (يقرؤون مقالاتهم المنشورة. . قبل كل شيء). . . ويتوقفون عند مقالات الآخرين للقراءة بالاختزال: سطور من المقدمة، ثم من الوسط، ثم. . . "القفلة" ليعرف ماذا أراد الكاتب أن يقول!

● وقراء من ـ قلة القلة ـ أولئك الذين (يجلسون ركبة ونص) ويفلُّون كل مقال، وموضوع، ودراسة، ورؤية، وحوار!

● أما قُرّاء الإبداع من: قصص، وروايات، وشعر، ومسرح. . . فهؤلاء لا يعلنون عن أنفسهم بسبب عددهم المحدود، ولا يجدون المجال للتعبير عن "انطباعاتهم" على الأقل نحو ما يعكفون على قراءته!!

● ● ●

*** حصص القراءة في المدارس:**

● وهناك رأي آخر من أقوال "وليم تل" في القراءة وعن القراءة، قال فيه:

"إن الذي يقرأ الكتاب بطريقة التهام الساندويتش: يجوع بسرعة، أو لا يشعر أنه قد تغذى"!!

والغريب أن القُرّاء هنا يخضعون للتناقض بين كلمتي: نورمان وتل. . فهم يقرؤون ببطء، ولا يستمرون. . وإذا قرؤوا بسرعة: قضموا الكلمات من رأسها، ومن خاصرتها، ومن قدميها، ثم. . . لا يفهمون، ويحتجُّون على الكاتب متسائلين: ماذا كنت تقول ؟!

● وفي جامعة نيويورك، قامت الدكتورة "ستيلاسنتر" قبل أعوام،

بدراسات عن: حصص القراءة في مدارس الأطفال.. فاكتشفت هذه المعلومات:

● **أولاً**: أن حصص القراءة هي أقلّ الحصص جدية في برنامج التدريس، حتى أوصلوا عدم الجدية إلى ذهن التلميذ، حتى الأوائل منهم ـ وهذا ليس عندنا أيضاً بكل أسف ـ!!

● **ثانياً**: أن المعلّمين المشرفين على هذه الحصص دائماً هم من معلّمي اللغة العربية الذين يهتمُّون كثيراً بعلم صوتيات اللغة كنطق سليم أولاً... بينما المفروض ـ بجانب هذا الاهتمام ـ أن يتولى حصص القراءة: أساتذة المكتبات ـ وهذا عندنا أيضاً بكل أسف ـ !!

● **ثالثاً**: لا توجد مسابقات في القراءة الحرة داخل معظم المناهج الدراسية كعلم أساسي.... وهذا عندنا أيضاً بكل أسف!!

وبنظرة داخلية إلى مجتمع القارئين عندنا، نجد: أن الطالب لا يقرأ إلا كتاب المطالعة المقرر عليه ضمن مناهج العام الدراسي ليؤدي فيه امتحاناً لا يؤثر على تقديره في النجاح أو الإخفاق!

● ونجد: أن الموظف يمسك بالصحيفة، ولا يقرؤها كلها... ولكنه يبحث عن خبر إجتماعي، أو مما يهم مجال عمله ترفيعه أو مرتبته، أو عن الكرة، أو.... عن خبر طريف يحكي أغرب حادثة في العالم.. ليضحك فقط!!

● ونجد: الجامعي.. يتوصل إلى الأشياء التي بداخله، ويهمل الكتاب أغلب أيام السنة، ويلوي عنقه عن الأماكن التي يمكن أن يعطي فيها من ثمار ما تعلمه، ومن معلوماته!

حتى الطبيب الذي من المفروض عليه بعد تخرجه، ودخوله إلى معترك الحياة العلمية والتطبيقية لما درسه: يهمل الكتاب أو القراءة. . ومفروض عليه أن يتابع كتب الطب الحديث وأخباره على الأقل!

(٣)

● ولا بد أن تتقدم الأسئلة نحو كل الذين يكتبون اليوم، أو (يمارسون) الكتابة في وطننا العربي. . نحو ما تبلوره أفكارهم، لكي يخدم: فكرة الحياة، ويبسّط هذه الحياة. . ولكي يرتفع بهموم، وبقضايا، وبأزمات الإنسان العربي ـ حتى النفسية ـ إلى ما فوق الشعور بالإحباط أو بالظلم، أو بالعجز. . ليستجلي الإنسان بفكره: قدرة التفوق على العجز، أو على الخوف، أو على الضعف النفسي أو العاطفي!

إن أكثر ما يقدمه "المثقف" العربي اليوم هو: شيء يدور في دوامة من القلق، والحيرة والتشتت الذهني، واضطرابات التصوير للمعاناة، ومحاولة الانعتاق من تراثه ليستغرق في هموم غيره!!

إنّ دور "الفكر" العربي، و"الثقافة" العربية: يتعثر ويعجز حتى الآن.

ولا بد أن يبدأ مشوار جديد: أكثر قدرة، وتقدماً، ومنطقاً، ورؤية. . متلاحماً مع أبعاد وخلفيات معاناة الإنسان العربي.

والخطوة الأساسية الأولى: أن نُعمّق الروابط بين (الإنسان) العربي وأخيه، فوق أيّ بقعة من الوطن العربي. . . خاصة في: حصيلة ما فعلته الحرب العراقية ضد الكويت، والحرب اليمانية/ اليمانية، والحرب اللبنانية الأهلية من تمزق في بنية الإنسان العربي، وبالتالي: ثقافته، وفكره،

وفنونه. . . حتى اعتدت على أحلامه. . وحتى أوغرت صدر العربي ضد أخيه العربي!

• • •

*** على خير ما يرام:**

● ونعود قليلاً إلى المرحلة التي لم تبعد كثيراً. . . حين أصدر الكاتب المسرحي الأميركي (إدوارد البي) مسرحيته عام ١٩٦١، بعنوان: الحلم والكابوس!

في ذلك الوقت. . واجهت الكاتب موجة عنيفة من النقد القاسي، وكانت الصحف الصادرة في الصباح: تندد بذلك الكاتب، جارحة تدمي صميم فؤاده، جزاء له على عمله الأدبي ذاك!

لكنّ قراء "إدوارد إلبي": رفضوا كل رؤوس السونكي التي سُدِّدت إلى كاتبهم المفضل، وأقبلوا على مسرحيته، ونفدت الطبعات، وطالبوا المؤلف والناشر بطبعات جديدة، وبمسرحيات متوالية:

هذا هو "عطاء" الكاتب، وتوحُّد فكره مع القراء.

● فما هي الأسباب. . وما هي أبعاد النظرة إلى ما حدث يومها؟!

● وأين هو الكاتب الذي يثير، ويجرح، ويحرك وجه الماء الراكد؟!

نحسب أن النظرة إلى ما حدث: تتلخص في ثلاث وقفات، ما زال الإنسان العربي ـ والمثقف بالذات ـ بمعاناته، وبفكره، وبقلقه. . يمارسها ويتَّصف بها، وهي:

● **أولاً**: أن كل ما يُسدّد إلى تعبنا وأمراضنا النفسية والاجتماعية، واضطراباتنا السياسية التي لا يمكن أن نسميها: "متغيرات". . . وكل ما

يكشف خداع الإنسان لحياته، ولقيمه، ولتناولاته اليومية فيعرفها ويفضحها. . هي أمور على درجة بالغة من الأهمية!

إنّ الإنسان يُفضّل الاستماع إلى الصراحة. . . ولكن الكثير ـ ومن المثقفين بالذات! ـ لا يجرؤ على ممارستها، والتصدي بها للسلبيات!

والإنسان يرغب في تلمس جروحه وأخطائه، ويعجز أن يعلن عنها. . فإذا اضطر إلى الإعلان عنها ـ خارجاً عن ذاته ـ فهو يصغي باهتمام ويتعاطف معها، ولكن. . . في داخله!!

● **ثانياً**: إن كل ما يمارسه الإنسان في نهاره وليله، لا يفصح عنه، ولا يرغب أن يوصف به. . . فالازدواجية هي مشكلة إنسان هذا العصر الذي يتشكل في النهار بشخصية دكتور جيكل، وفي الليل "مستر هايد"!

وما يُفرض على الإنسان مثل هذا السلوك هو: تعامله مع الآخرين، ومصالحه المرتبطة بهم. . . ثم أحلامه المتوارية في اضطراباته النفسية، وعلل وشرور هذا العصر!

والمثقف ينطبق عليه / كإنسان أولاً. . . وكإنسان متميز بالوعي، وبالتأمل، وبالثقافة، وبقدرته على التوجيه: كل ما يُشكّل قدراته، وحقوقه!

● ● ●

*** اللغة الشاعرة:**

● وأسترجع في هذا الاستقراء لدور "الكتاب"، والمثقف: حواراً أقمته ذات يوم مع أستاذي، ومعلمي (محمد حسين زيدان) ـ يرحمه الله ـ وقد افتتح هو الحوار عن الكلمة ومعطياتها، ودور المثقف. . فقال:

ـ ينبغي على القارئ ـ أولاً ـ أن يعلو بأسلوب اللغة الشاعرة، لا أن

يحارب لغته: مُظهراً عاطفة تدّعي التفهيم!

إنّ القارئ العربي يفهم الكلمة القرآنية.. وليس هناك "بيان" أعلى منها.

فكيف ندّعي: أن الأسلوب المشرق، السلس.. لا يفهمه العربي ؟!

إنّ الفسولة والضحالة.. هما: الانحطاط من الكاتب، أو مدّعي الثقافة، بالقارئ العربي إلى لغة عامة... بينما من حق "القومية العربية" لمن كانوا ينادون بها! ـ أن تكون لغتها الشاعرة: في أسلوبها العالي.. فكل الذين عابوا على "الرافعي" بيانه لم يزالوا يكتبون بأسلوب بياني على طريق لا أزعم أنه قد انحط، وإنما هو في الواقع من السهل.. قد استطاع به كُتّاب صحافة اليوم أن يكونوا الوسيط بين لغة الرافعي وأمثاله، ولغة الأبنودي وأمثاله!!

● سألته: ولماذا أسقطت تأثير أولئك "المثقفين" الذين بلوروا فكرهم في "اليسار".. حتى كأن كتاباتهم صارت: لغة عربية لكنها ليست شاعرة بقومها، وغير مفهومة.. أو أنها شديدة "المداراة"، وذلك لإغراقها في المصطلحات، وفي الخروج بها من (البيان) إلى: استبيان الشعارات ؟!

ـ أجاب: أحسب أن هؤلاء قد صاروا عبيداً لتلك المدارس الغربية الإلحادية، أو اليسارية، ولتلك الشعارات.. فهم لم يكتبوا "اللغة الشاعرة" بل: اللغة الشاعرة من انتمائهم: عقلاً عربياً، وروحاً إسلامية، وارتباطاً بالأرض!

● قلت: هل تعتقد أن المثقف غائب، أم أن الثقافة هي الغائبة عن ذهب ونظر القارئ العربي؟!

ـ قال: ليس هناك، "مثقف غائب"، ولا «ثقافة غائبة». . . . وإنما الغيبوبة تلاحق القارىء فلا يقرأ، وإن قرأ: سئم. . . لأن طابع العجلة، وتكالب القلق، والغزو الفكري بالقليل القليل من الثقافة الذي يُنشر على الناس في الإذاعة والتلفاز. . . . كان هو: المخدر، ليكون القارئ العربي في غيبوبة!

قلت: والعلاج كما تراه، أو تطالب به مؤسسات التعليم والثقافة العربية؟!

قال: أن يقرأ العربي، بل ويُحضّ ويُجرّ إلى القراءة. . ولا يكتفي بالسماع ولا بالرؤية، ولا يقتصر على الكتاب الرخيص، وعلى المجلة التافهة (الملونة). . وإنما ينبغي أن يكون النهج في: أن يقرأ العربي كل جديد وكل قديم. . لا تضع على الكتاب: قيوداً، وموانع، ونجعله من المحظورات أو الممنوعات. . فالقراءة الجديدة، طرقات على الفكر تفتح كل باب له. . والقراءة القديمة: ذخيرة للفكر، حين يفتح الجديد: الأبواب القديمة، يجد الكنز الدفين من الثقافة القديمة. . فيكون المزيج: فكراً عربياً اختزن القديم من التراث، واحتاز الجديد من كل ما تورِّثه الإنسانية!

لقد كانت الترجمة معدومة في العالم العربي، وذلك قصور مؤسسات التعليم والثقافة وأجهزتها.

إنّ الترجمة تصنع جامعة جديدة لفكر العربي. . بشرط: أن ننتقي ونختار الذي نترجمه لغير الناطقين بلغة أجنبية!

لقد كان جهد أفراد مثل: فتحي زغلول، وعجاج نويهض، وعادل زعيتر، وخيري حمّاد، ومنير بعلبكي: جهداً فائقاً أعطى القارئ العربي الأفكار التي ترجموا كتبها. . وعيب أن يكون جهد الأفراد أقوى من جهد

الدول، والجامعات، والمؤسسات الثقافية!!

سألته: هل أنت أديب، أم مفكر ؟!

ـ أجاب: أما أنني مفكر لا أديب ـ كما اتهمتني مراراً! ـ فهذه تهمة لا أدفعها، وشرف لا أدعيه، كما قال سعد زغلول... فالمفكر في معيار الأمم: أديب، ومثقف.. كاتب تحصره الشعوب الحافلة بالفكر وبالثقافة في قليل من رجالها!

والأديب: قد يكون لديه فكر، لكنه لم يصل بعد إلى هذه الدرجة.. ويفرض على نفسه أن يكون: فكراً لغيره أكثر من أن يكون: فكراً لنفسه!!

المفكر: من يقسره التفكير على العطاء... وهذا ما نفتقده في زحام المثقفين العرب لدينا.

(٤)

من داخل صدور الرواد / جيل التجربة... نتصدى نحن: جيل الصهر الذي مارس التجربة وتواصل بها، لنحصد شواهد جيل يُكمِّل الآخر ما بدأه الجيل الأول!

من سمات ومميزات جيلي "التجربة والصهر": قرار خوض محيط الثقافة، وارتقاء ذرى الفكر، ومضاهاة نهضة باهرة في جوار الأرض، وداخل أقطار سبقت إلى التقدم نحو العلم والثقافة... فكان هذا الجيل / الصهر: يعرف أن (اقرأ) قد انطلقت من هذه الصحراء، فهي أولى ترشيد الإسلام لبناء شخصية المسلم: القراءة.. أي الوعي، والمعرفة.. وقد ترددت هذه الكلمة / التوجيه الإلهي للنبي العظيم ﷺ، منطلقة من بين أرجاء الصحراء حتى عمّت العالم!

إن جيل الرواد: كان يقرأ على الشمعة قبل أن يعرف الكهرباء. . وكان ينطلق إلى المعرفة تحت ضوء "اللمبة" . . وكان يقتصد لشراء الكتاب، مضحياً بالغذاء للجسم من أجل غذاء العقل!

كان جيل الرواد يُعلِّمنا، ويضيء الصوى لنا وأمامنا. . فيقول لنا:

ـ كان زحام الثقافة من حولنا في بعض أقطار الوطن العربي: يتزايد، ولم تكن لنا قاعدة ثقافية بالمعنى الدقيق وبعطاء الثقافة. . بل كنا نقرأ كل شيء مما يصلنا، ومما نفتش عنه حتى نوفره!

إنه جيل الرواد الذي يمثل النهج العصامي في الجزيرة العربية، منذ إطلالة الثلاثينات أو نهاية العشرينات من هذا القرن. . . وقد اطلع: شعراء، وقصاصين، وكتَّاب مقالة نقدية في طابع ملحوظ من تناول الذات إلى حد ما. . ثم تبلور النقد بعض الشيء، ولكن بقيت فنون الكتابة، ومؤشرات الثقافة: هما هاجس هؤلاء الرواد المندفعين إلى الرؤية. . وبقيت المعرفة هي: الهدف لصياغة الإنسان الراقي.

وقد حفلت صحيفة "صوت الحجاز" ثم البلاد السعودية" بأسماء بهرت بعد أن سطعت. . لأنها أعطت ومنحت من محصول الوعي، والقراءة، والثقافة. . فكانت القاعدة الإيجابية التي تأسس فوقها جيل التجربة، ثم جيل الصهر. . حتى هذا الجيل الذي يوصف ـ في الغالب ـ بأنه: جيل الحيرة والقلق، في انفتاح العديد من قنوات التوصيل إلى انتباه القارئ، والمشاهد، والمستمع في ثلاثيات الإعلام الحديث. . . فأخذ هذا الجيل: ينهل من الوافد، ويقلد أو يتشبّه، وينبهر إلى درجة أن البعض فقد ملامحه!

• • •

*** جيل الريادة المؤسس:**

● وإذا أردنا أن نتحدث عن المثقفين والثقافة في بلادنا... لا بد أن ننطلق من ذلك الجيل الرائد، التأسيسي!

لقد تبقّى لنا منهم قلة بسيطة.. نخاف عليهم، ونعرف النهاية المحتومة لكل ابن آدم.

وهؤلاء البقية من روّادنا: لهم دَيْن علينا لا بد أن نوفيه، ونوفيهم ولو جزءاً من حقوقهم علينا... بعد أن ودَّعنا الكثير من فرسان جيل التجربة، ولم يقدر جيل الصهر، ولا الجيل الرديف المنبثق من حيرته: أن يمنحنا بديلاً أو شبيهاً في غزارة ثقافة جيل التجربة المؤسس.

جميعهم: محفورون في دفاتر تاريخ الثقافة لهذا الكيان الكبير / المملكة العربية السعودية.

إنهم جيل: التجربة، والإصرار، والصلابة، والندوب، والحب، والأحلام... منذ بدأ إنسان هذه الأرض مسيرة الحياة الثقافية في جيل تفتحت مداركه يوم اشتد عوده على بصيص من التطور / الأمل، وعلى وميض من وهج العلم الآتي إلى منطقة كانت تعاني من الإمكانات المتواضعة، ومن مشكلات بناء الحياة والتنمية وترسيخ الاستقرار.. وفي الوقت نفسه كانت: تترعرع في كنف الحب، ووحدة المجتمع، وتآلف الأسرة في زمان أجمل وأكثر عمقاً... فانبعثت مواهب هذا الجيل، وعطاءاته الفكرية بأسلوب: نحت الصخر، وتحقيق المستحيل.. فكانت صفة "الانتماء" فيه: قدرة على الإدراك، وعلى بناء الشخصية، وعلى إضاءة العقل.

هذا هو فعل جيل التجربة الرائدة.. جيل الصخر الذي فجر ينابيع

المعرفة، ومهّد الطريق لأجيال جديدة بعده.. جاءت ووجدت: رفاهية المدنيَّة، وتقدم الحضارة، وجسور التنمية، وجسارة الحوار.. ووجدت: الكتاب الصقيل، والكاسيت، والتلفاز، والمحطات الفضائية، والتكنولوجيا المتقدمة!

وعبّر جيل التجربة والصخر عن مخاوفه حين تلفَّت إلى بوادر فقدان الروح في عصر الماديات والقلق... وكانت لهذا الجيل: شمس نزفت كفاحاً ومعاناة، وتفصَّدت منها الجباه عرقاً.. نزفت إرهاصات فكرية، وطموحات، وانفتاح على ثقافة العالم.. حتى سطعت ـ في الأقل من حصادها! ـ بالأماني المتفائلة المجيَّرة للجيل التالي / جيل الصهر، وبالرؤية الواقعية لمطالب الحياة.. وأيضاً: بالرفض (المعقول) لأشياء جدَّت فكان جديدها: مثار جدل، وإيجاب وسلب، في تصاعد الوعي، وتلاحق الأجيال، ومخاض الأفكار!

• • •

*** جيل الحيرة والقلق:**

● وبدون أن نربط تعاقب الأجيال تاريخياً.. نود ـ هنا ـ للمقارنة: أن نتوقَّف أمام تجربة جديدة لجيل نابت، نُسميه: جيل الحيرة والقلق... وهو الذي يعاني من المتغيرات السريعة حتى لفكره بسبب هجمات الحيرة والقلق!

ولهذا الجيل وقفة.. استخلصتها من مضمون أو ترميز صحافي نشرته صحيفة "البلاد" بتاريخ ١٤١٥/١/٢٨هـ ، عن: اختفاء الكِتَاب.. وجدت في بعض أجوبة الشباب التفاتة إلى: داء بلا دواء حتى الآن، ولعل المجتمع ينساق إليه، ويمارسه وكأنه: عقل مسروق:

● قالت أمينة مكتبة المدرسة المتوسطة الثالثة والثلاثين "آمال عيسى" :

ـ إن مشكلة انصراف الأطفال عن القراءة: مشكلة جوهرية وهامة، وجذورها تتعمق يوماً بعد يوم، وعواقبها وخيمة على الأجيال والمجتمع بكامله. . وأسباب المشكلة تتمثل في:

١ ـ عدم تعويد الطفل على حب القراءة والكتابة منذ الصغر، وهنا تتركز المسؤولية على الأسرة بصفة عامة والأم بصفة خاصة.

٢ ـ عدم تشجيع الطفل على شراء الكتاب المناسب وعدم مساعدته في الاختيار.

٣ ـ عدم الوعي الكامل بأهمية القراءة في حياة الإنسان.

٤ ـ اعتماد الطفل في المدرسة على اكتساب المعلومات من الكتاب المدرسي فقط دون اللجوء إلى كتب أخرى خارجية مساندة لفهم المنهج واكتساب المعلومات.

٥ ـ عدم قدرة الطفل على الاختيار من هذا الكم الهائل من الكتب المطبوعة، وعدم وجود من يسانده في ذلك.

٦ ـ استغناء الطفل عن الكتاب، وشغل أوقات فراغه بالوسائل السمعية والبصرية باعتبارها جاهزة ومتوافرة أمامه بين يديه دون بحث وعناء.

٧ ـ انعدام الدعاية والإعلام عن الكتب المفيدة، وقلة تنظيم معارض للكتب التي يرتادها الأطفال ويستفيدون منها.

● وطرحت هذه المربية سؤالاً وجَّهته إلى الأمهات / مربيات الأجيال، فقالت:

ـ لا بد أن كل أم اصطحبت طفلها أو طفلتها إلى ملاعب الأطفال ـ

المنتشرة ـ فهل اصطحبته ولو لمرة واحدة إلى: معارض الكتاب، أو إلى مكتبة بقصد تشجيعه ومساعدته على شراء كتاب مفيد ؟!

● وقالت الدكتورة "شادية كعكي" / جامعة الملك عبد العزيز:

ـ للأسف. . نجد أن أطفالنا لا يقرؤون، حتى بعض الكبار إن لم نقل معظمهم لا يقرؤون ومن الأسباب التي تُلهِّي الأطفال عن القراءة: التلفاز، والأتاري، وغيرهما من الألعاب الإلكترونية!

● إذن. . . فإن المسؤولية الأولى تقع على المنزل ـ الأم والأب ـ ونحسب أو وجود مكتبة في كل بيت إلحاح ضروري، مثل وجود: صيدلية صغيرة، ومطبخ للأكل، وباقات من الزرع!

● والمسؤولية الثانية: تقع على المدرسة التي من واجبها أن تُنمِّي حب القراءة لدى الطفل، ثم الفتى. . والجامعة في استقبالها للشباب ودفعهم إلى تخصيص وقت محدد ومُلزِم للقراءة.

● والمسؤولية الثالثة: تقع على مؤسسات الثقافة والشباب، والأندية الأدبية التي تهتم بالأكاديميين وإهمال النشء والغرس.

● والمسؤولية الرابعة: تقع على وسائل الإعلام التي أهملت هذا الجانب تماماً، وبالتحديد: التلفاز الذي يدخل كل بيت!

(٥)

● في إحصاء لأحدى المؤسسات العلمية عن القارئين والقارئات. . جاءت هذه المعلومة:

ـ "يقرأ الشخص المتوسط نحو (٥٠) كلمة في الدقيقة، وبعد التمرين يستطيع أن يقرأ من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ كلمة في الدقيقة، والقاعدة الوحيدة

للتمرين هي: أن تجبر نفسك على القراءة كل يوم لمدة خمس دقائق"!

والسؤال الموجّه إلى القارئ اليوم هنا:

ـ كم تقرأ من الكلمات في الدقيقة ؟!

● أحد الذين سمعوا سؤالي، قال لي ضاحكاً: قل كم تسمع من الكلمات في الدقيقة ؟!

وهذا صحيح.. فعدد الذين يتكلمون "أي شيء": يفوق الذين يقرؤون، ويتأملون، ويفكرون في عبارة واحدة بين دفتي كتاب، أو على عمود صحيفة!

وفي هذه الدراسة التي قرأتها عن: أزمة القراءة.. يقول الكاتب:

● "يهبط مؤشر القراءة قليلاً عندما ننتقل إلى فئة القرّاء اليوم.. فنجد أن مشكلاتهم تتضخم، والعالم يواجه مزيداً من المعلومات، والآراء في جميع فروع المعرفة.. حتى إنهم أطلقوا على هذا العصر صفة: عصر انفجارات المعلومات، وأصبح من الصعب على القارئ العادي أن يتحول إلى عقل إلكتروني قارئ"!

إن الكتب في تزايد.. والمعلومات في كثافتها تشكل إحدى متطلبات العصر، وما فيه من: ابتكارات، واختراعات، ومشكلات تتطلب الحلول، وآراء جديدة تستدعي التأمل، والفهم، والاستيعاب.. ولا يمكن أن يقبل الإنسان ببقائه جاهلاً بما حوله، ولا بانعزاله عن حركة "الوعي" في العالم!

إذن... ما زال السؤال مطروحاً:

● ماذا تقرأ... لو قرأت ؟!

وطرحته على مجموعة من الشباب... فكانت الإجابات تتشابه وتتنافر

أحياناً، لكنها اتجهت كلياً إلى نقطة مهينة، معناها:

ـ إننا نقرأ أقل مما نفكر.. ونفكر في حدود ما نرغب ونطمح.. فكيف نفهم إذا لم نعرف، ونتعلم!

• • •

*** التعليم. . هو الأساس:**

● الأساس في الثقافة، وفي النضج، وفي تطور الشعوب وتقدمها هو: التعليم.

والتعليم في أسباب نجاحه، يعني: المناهج التي ينبغي أن تكون مشجعة على الاستمرار في البحث عن: الكتاب، والمعلومة، والفكرة، والتحليل، والتسجيل، التاريخي والعلمي، والإبداع!

وهذه الركائز التي تجعل "القراءة" ناجحة وذات عطاء للإنسان.. نفتقدها في المناهج الدراسية، ربما بسبب كثرة هذه المناهج التي تضغط على عقل الطالب والطالبة، وعلى وقتهما، وعلى استيعابهما.. وبالتالي: تنفرهما من متعة القراءة، والمعرفة الحرة من خارج الكتاب الدراسي أو المنهجي.. فليس في المناهج: تشجيع على القراءة الحرة، والتأمل، والحوار مع الفكرة الأخرى.. ولكنها أفكار ومعلومات محددة مكررة بدور الطالب والطالبة في فلكها، ليؤديا الاختبار فيها فقط وينجحا!!

وهذه الركائز أيضاً ـ الكتاب، والمعلومة، والفكرة، والتحليل، والإبداع: تتطلب إيجاد مكتبة كبيرة في كل مدرسة وجامعة ـ يُلزم الطلبة والطالبات بارتيادها ـ وفي كل حي من أحياء المدينة، وفي المدن الصغيرة والقرى.. فالمكتبة: ضرورة ملحة لإفساح المجال لكل الذين لا يقدرون

على شراء الكتب، وللذين قالوا: إن المكتبات المنتشرة تهتم أكثر بالقرطاسية، وبالصحف اليومية، والمجلات، وبالأدوات المكتبية.. ولا تلتفت إلى ضرورة توفير الكتب الجديدة الصادرة!

● والسؤال: كيف ننمي القراءة الحرة.. وكيف نشجع الناس عليها ؟!

هناك فكرة من عشرات الأفكار.. وهي: المسابقات في الإجازات.. إقامة مسابقات للقراءة الحرة: تضطلع بها وسائل الإعلام: التلفاز، والإذاعة، والصحافة.. والأندية الأدبية، والأندية الرياضية في فترة توقف النشاط الرياضي!

● وبالمناسبة نسأل أيضاً: هل اهتم نادٍ من هذه الأندية الرياضية ـ رياضة كرة القدم ـ بإقامة مكتبة كبيرة في مقر النادي: مفتوحة للقراءة الحرة؟!

إن "القراءة" هي: العطاء لثروة الإنسان الأولى والهامة: العقل.. فإذا أهملنا العقل / هذا العطاء المميَّز لقدرات الإنسان، فلا يمكن أن نحقق المكاسب التي نتوخاها من وراء أي عمل يستهدف الارتقاء بالإنسان، والنهضة للوطن.

إن الجهل هو: الذي يفصل بين العقل والنفس.

أما الثقافة فهي: التي تجعل من الإنسان نفساً عاقلة، وعقلاً نفسياً!

● ● ●

✻ الحقيقة.. هي: القراءة:

● وانطلاقاً من هذا البحث.. وتواصلاً مع: فكرة العثور على فعاليات فكرية، فهناك حقيقة أخرى تعتبر: القاعدة، أو الجذور لكل سؤال يستنهض

دور المثقف، ودور الجامعي الأكاديمي!

تلك الحقيقة. . هي: القراءة!

وبدون افتئات ولا تجنٍّ: نعتقد أن الكثير من الخريجين الجامعيين، لم يفكر في متابعة الدراسة الحرة، ونقصد بها: القراءة لكتاب في مجال التخصص، أو في مجال بحث القضايا والمستجدات المعاصرة، مما يدخل في نطاق القضايا السياسية، أو الاقتصادية، أو الثقافية، أو الفنية، أو الاجتماعية. . التي تهتم بارتقاء الإنسان، وبتطور المجتمعات، وبنهضة الوطن.

● لقد سألت أحد الشباب الجامعي المتخرج حديثاً عن: أحدث كتاب بين يديه للقراءة ؟!

ـ وجاءت إجابته مفجعة: لقد أمضيت أكثر من شهرين لم أفتح كتاباً. . كنت منهمكاً في ترتيب الحياة المستقبلية ـ وهذا حقه الطبيعي ـ وكنت أدرس ما يتصل بطبيعة العمل الذي سأؤديه وأشغله!!

● سألته: ووقت الفراغ ؟!

ـ أجاب: أنام، أو أشاهد المحطات الفضائية. . لقد تعبت سنوات طويلة من التحضير والمذاكرة.

● قلت: والكتب الجديدة التي تتدفق من دور النشر. . ألا يزعجك أن تفوتك قراءة كتاب منها؟!

ـ قال باستخفاف: لن يكون فيها جديد. . إن ما تعلمته يكفي لتصنيفي في عداد المثقفين!!

● ● ●

*** الثقافة . . روافد :**

● الثقافة في ذاتها: ليست أساساً . . وإنما هي: روافد!

هذه الروافد: تتنوع بتعدد أسباب الحياة، واحتياجات الإنسان في حياة لا تبقى راكدة كالماء الآسن.

بما يعني: أن محاولة فصل الثقافة عن المعايشة الاجتماعية . . يجعل الحياة نفسها متناقضة، أو جاهلة، أو يعاني الإنسان فيها من الانفصام . . فلا يمكن فصل الفكرة، والتأمل، والمعلومة عن: واقع الإنسان، وعصره، ومعايشته، ومتغيرات جيله، ومستجدات عصره . . ومن هنا: تحدث الخلخلة في عمق المجتمع الذي يرتكب هذا الخطأ الجسيم بفصل الثقافة عن الواقع اليومي، أو عن معايشة الإنسان . . لأن الكثير من الأدوات التي يستخدمها الإنسان، ويواجهها: مرتبطة بالثقافة . . أي بالمعلومة، وبالجديد، وبالتطور.

وما هي أسباب تكريس هذا التغريب الخطير بين الثقافة ومعايشة الإنسان؟!

ـ تقول الناقدة المصرية الدكتورة نهلة صليحة: "ما نشهده في عالمنا العربي الآن هو السيطرة الفوقية عن طريق أجهزة الإعلام . . سواء كانت عربية أو أجنبية، وهذا النوع من البث الإعلامي والثقافي: لا يتجاوب في أحيان كثيرة جداً مع حقائق الواقع الذي يعيشه المواطن في حياته اليومية"!!

الثقافة: ألوان . . وتعني شمولية العلم بالأشياء الأساسية في حياة الإنسان!

الثقافة: ليست وقفاً على المتعلم فقط . . بل هناك ما نسميه: (ثقافة الأميّ) . . ذلك الذي يتكلم مما في فكره وخاطره، ويرتبط باهتماماته المعاشية!

وإذا كان هناك بعض الدارسين يؤكد وجود: (أمية القراءة والكتابة، والأمية الثقافية المتفشية في الوطن العربي). . فإن من أهم أسباب ذلك يكمن في: المناهج التعليمية التي أكل عليها الدهر وشرب. . وهي مناهج تُعمق ذلك الانفصال الذي أشرنا إليه: ما بين الثقافة، ومعايشة الإنسان!

(٦)

● من يجيب اليوم عن الأسئلة ؟!!

ما هو لون "المضامين" التي تدور حولها هذه الأسئلة ؟!

ما هي أبعاد "المعاني". . في تضاعيف كل إجابة: نحاول بها أن نسقط سؤالاً ؟!

هذه الأسئلة الثلاثة. . تبدو كما الأثافي الثلاث!

أردت أن أبدأ بها الخطوة. . فأجعلها كأنها قرع على بوابة العقل العربي، وكأنها ـ أيضاً ـ لمس منبه للوجدان!

وفي البدء. . . هل تتفقون معي بأننا صرنا: أسرى الأسئلة ؟!

وهذا السؤال أحسبه عبارة كاملة، في البحث عن محاولة للتوازن بين ما ضاع من مواقف، وبين ما هو باق. . يتمزق في شعور الإنسان الذي ينتمي إلى هذا العصر، ويعجز أن يخالفه!!

ودعوني أتقهقر إلى سنوات ليست بعيدة. . وأركز هنا عبارة عن: "الناس أسرى الأسئلة". . وقد قالها روائي فرنسي، لم يصدر سوى رواية واحدة. . وقيل إن رواياته الأخرى ظلت حبيسة داخل صندوق مقفل، وكأنه حكم عليها بالصمت حتى يموت!

ـ قال ذلك الروائي: "إذا مت. . يمكنكم أن تخرجوها، وحينذاك لن

أكون في حاجة إلى سماع كل الأسئلة"!

وقد يتهم البعض ذلك الروائي بالخوف من النقد، أو بالجبن والتستر خلف الموت!!

ولكن.. لا بد أن يكون هذا الروائي قد قال شيئاً من أجل "المعرفة"، أو "الإجابة".

● وقد قيل: "لكي تعرف.. فلا بد أن تسأل"!

والسؤال يبدأ في الإنسان.. مع بداية حياته، وتبلور وعيه.

ولكن أتفه الأسئلة.. هي التي نقف أمامها حائرين، عاجزين عن الإجابة.

وأسئلة اليوم ليست غريبة.. لأنها مستخلصة من أحداث العصر، ومن مشكلات الإنسان، وحول أحاسيسه، ورهناً لمتطلباته ورغائبه.

فنحن الذين نضع الأسئلة دائماً، ونطلقها.. لنحرج بها أنفسنا أحياناً.

وتضيع منا الأسئلة.. لأنه ليس هنالك من يجيب عنها!!

ونكتشف ـ فيما بعد ـ أن ما نتوقف أمامه من إجابات.. يأتي مفاجأة، أو تصادماً، أو استغراقاً في شيء آخر.. ذلك لأن الإجابة، ليس شرطاً أن تكون نتيجة، وإنما هي ـ في الغالب ـ توضيح أو تفصيل.. يسوقنا إلى طرح الأسئلة مجدداً!!

● ● ●

● وأعترف لكم أن هذه المقدمة.. جاءت طويلة!

لكني استهدفت مضموناً.. ينبغي أن لا يكون الدخول إليه، والحوار عنه: بطرح الأسئلة!

لقد رغبت أن نتوصل إلى نتيجة. . ربما وجدنا فيها "بعداً" لمعنى واحد من مجموعة معان ضائعة في زحام البحث عن الأجوبة!

إنني ـ هنا ـ أحاول أن أكتشف شيئاً!

وأحاول أن أقرع ـ برقة! ـ على بوابة العقل.

وأحاول أن ألمس الوجدان. . . دون أن أجرحه!

إنني أتداخل في العبارة التي خلّفها وراءه الروائي الفرنسي، وأنبش الصمت المخيف الذي يخيم على الفكر العربي، منذ أن أخذتنا دوامة الهموم السياسية، وحلقات الإرهاب، والعدوان، ومحاولات التدمير لروح الإنسان العربي.

ولا بد أن أنبش هذا الصمت. . الذي يخرس العاطفة في وجدان المفكر، والفنان، والشاعر، والأديب العربي. . منذ أن تحولت الكتابة، وتحول العمل الفني والإبداعي. . إلى: هواجس، وارتدادات، وتخويف، وتأليم. . . وإلى ساحة تجارية باهتة!!

إنني استخدم هذا التداخل. . عبر سؤال يضج قائلاً:

● ما هي الأسباب التي صدّعت الفكر العربي، وشرخت الكلمة العربية، وظللت وجدان "المبدع". . إلى درجة الذهول، والحيرة، وربما "الانفصام" أحياناً ؟!!

ويمتد السؤال أكثر، ويحتد ويستطيل!

وتكتنف السؤال أبعاد عديدة. . إذا اتفقنا أن المعاناة في إحساس الإنسان العربي عموماً. . هي معاناة تتعاظم وتتكثف بأسباب الألم الذي يتعرض له، ويكتوي بناره!

ولا بد ـ إذن ـ أن تصيغ هذه المعاناة إنساناً: بوّاحاً، فناناً، مبدعاً.. كثير العطاء، لأنه عميق الجراح.. متصل النزيف!!

فكيف يكون هذا حاله، ويغمره الصمت، ويغيبه الترمد ؟!!

ولو ألقينا نظرة على معارض الكتاب التي تقام في الأقطار العربية.. فإننا سنكتشف غياب الفكر الجديد.. وهروب الكاتب، وحتى القارئ العربي، إلى الكتب التراثية، ولعلهم يلوذون إلى الكتب الدينية!!

وليس في هذا الاتجاه ما يشكل معابة.. فالدين والروح، هما الملاذ، والشاطئ للنفوس، وللعقول القلقة.. في عصر يتسم بالقلق!

لكننا ـ بجانب هذا ـ نفتش عن الإبداع، وتجديد الفكر!

ونجد أننا قد استغرقنا في مناقشة موجة أطلقوا عليها: "الحداثة"!

وكأننا ـ بذلك نبدو مثل المأخوذين، أو المسيرين!!

إن "الحداثة" تخلو من هدف التطوير، أو معناه.. فهي لا أكثر من تقهقر إلى مدارس أدبية كاد الزمن أن يطويها.. وقد ظهرت قبل أكثر من سنوات صارت بعيدة، ومنها: البنيوية، أو الألسنية، وتفرعت إلى: بنيوية لغوية ـ ألسنية ـ وبنيوية ثقافية، وبنيوية نفسية أو سيكلوجية، وبنيوية أيديولوجية!!

وثارت الكلمات، واحتدم الجدل، وانشق الصف الأدبي العربي إلى: كتَّاب تقدميين وكتَّاب رجعيين، مثلما حدث في نهاية الخمسينات، وبداية الستينات في إلصاق مثل هذه التهم على الأنظمة السياسية! وانشق الصف الأدبي العربي إلى: خلافات... وحفل بإسقاطات عديدة!!

ولم يكن ذلك "التحديث" أكثر من محاولة: بعث لمدارس تجاوزها

الزمن والعصر، وكانت تشكل ظاهرة في حين طلوعها.

وهذا يعني شيئين:

● إما أن يكون المثقف العربي متخلفاً عن ركب الثقافة.. فلم يصل إلى هذه المدارس الأدبية، والفكرية، والأيديولوجية، والسيكلوجية، إلا متأخراً.. بعد زوالها، أو خفوت صوتها وفعالياتها!!

● وإما أن يكون المثقف العربي اليوم.. يعاني من الفراغ الفكري، والوجداني أيضاً، ومن التفريغ لإبداعاته، ولرؤيته، ولقدراته!

ولعل المثقف العربي مظلوماً إلى حد ما.. لأنه يمثل شريحة من شرائح الأمة العربية، التي اكتوت وما زالت بحرائق الخلافات، وبهجمات الأعداء الشرسة، وبتقلب الأنظمة العربية، وانفعالات بعض تلك الأنظمة!!

وكأن المثقف العربي يبحث في هذا الضجيج، والتلفت.. عن الخلاص، وعن الرؤية الثاقبة، وعن كل ما يفجر طاقاته وملكاته الإبداعية!!

● ● ●

*** وقفة.. يعقبها سؤال:**

● ونعرف أن نسبة المفكرين، والفنانين، عموماً.. تتضاعف، وتتوهج، كلما تضاعفت آلام الأمة، واشتعلت أحزانها.

وقد قيل: إنه من نتائج استطالة الزمان على الشعب الفلسطيني، وأرضه المحتلة: أن بزغ من أبنائه شعراء مقاومة، وأدباء القضية، وفنانو الألم والأحزان! ولكن... ما لبث ذلك البزوغ أن غرب، وترمد الوهج، واضمحل صوت شعراء المقاومة وأدبائها!

ولا بد أن يعترضني قارئ، أو مثقف.. ويسألني:

ـ وأين تختفي بشعر "محمود درويش" و "سميح القاسم"؟!!

ولا خلاف أبداً على موهبة الشاعرين، وإبداعهما، وحسهما الشعري والثوري!!

إن الخلاف هو على ما قدماه طوال نضوجهما الشعري؟!

وهذه الوقفة.. تجعلنا نبادر إلى طرح سؤال محوري يخص الشعر العربي المعاصر:

- إلى أين وصلت القصيدة العربية اليوم؟!
- إلى أين أوصلت القصيدة العربية قومها؟!

وستحدث في إثر هذا السؤال المشقوق إلى نصفين: ضجة، وخلخلة وتساقط بعض المقاعد!

إن الالتفاتة إلى "الواقع" الذي يكتنف العالم العربي ـ بكل ما فيه من تضارب، ومحن، وانفلاشات في الوجدان ـ تبلغ بنا إلى حقيقة مؤكدة ترتفع بدور الشعر، وبقيمته في التاريخ العربي، منذ الجاهلية، وكان الشعر أهم وأخطر تناول "إعلامي" واجتماعي... استخدمه العربي، وحقق عبره الكثير من مطالبه، ونشر أفكاره وسكب وجدانه!

وكان ذلك كله يلتئم في الصفة القائلة:

ـ اللغة العربية.. هي اللغة الشاعرة!

وقيل عنا: الناطقون بالضاد.. وقد استهلكنا حرف "الضاد" بكثرة وبتزاحم.. حتى وضعناه في غير محله!

وصار حرف "الضاد" في القاموس العربي الحديث.. يشكل هذه الكلمات:

● ضرورة. ضعف. ضرب. ضغينة. ضعضعة. ضمير. ضمور. ضحايا (!!) وكان يقودنا التحديق في معاناة الإنسان العربي إلى معايشة قضايا عصرنا، ومشكلات جيلنا، واضطراب أيديولوجية الإنسان المعاصر!

وفي الأدب والإبداع. . صرنا ـ من خلالهما ـ نمارس أشكال الرغبة الذاتية، وننساق وراء تركيبات تشمل: المجتمع، والتعامل، والفكرة، والنفس، والظن، وربما. . . الخيال!!

كان "المبدع" العربي اليوم يخبط رأسه في جدار الدهشة، وعاطفته مشغولة بتفاصيل ماديات الحياة، وعقله مشحون باستخلاص "الخلاصة" لكل ما هو جديد ومقتحم، وأخاذ!

وإذن ؟!!

يبدو أن الأديب العربي، والفنان، والمفكر، وحتى الدارس. . . يبحث كل منهم عن تطلع جديد يعرفه ويئن تحت مطارق المطالب، والظواهر، والتظاهر!!

(٧)

● أن تحارب، أو لا تحارب. . .

أن تكره، أو تصبح مكروهاً!

أن تحب، ولا تنتظر المقابل. . . أو تتحول إلى آلة بليدة!!

إنّ القتل. . طلقة رصاصة واحدة، تقضي على كل شيء. . أو طلقة كلمة ـ مجانية ـ أو موتورة، أو منحرفة، أو كلمة جائعة. . وينتهي كل شيء!

وإذن.. ما الذي يعطيه "الشعر" مثلاً في هذه القوانين البشرية؟!!

جاء شاعر حائر.. بين شيخوخة العالم، وبين شباب العلم، وقال هذه العبارة بصوت مرتفع:

● "إن القطاع الأكبر من شعرنا العربي التقليدي.. قد استهلك من القماش اللغوي ما يكفي لكساء كل سكان الصين"!!

وقائل هذه العبارة هو الشاعر "نزار قباني" ـ الذي نشتمه على صفحات الصحف، وندخل قصائده في مخادع نومنا ـ ونغار منه، ونصفق له، ويشتمنا.. ونقدم له نخبه!!

و "نزار قباني" شاعر مبدع، ومبتكر في قماش اللغة، وفي الصور الشعرية.

ولكن.. أين يقف "نزار" الآن، في تجديد التجديد... هذا الذي تفشى في السنوات الأخيرة، وهو "منثور" متورط في عدة مصطلحات، ومدارس غريبة ؟!

أم أن "نزاراً" ما زال يرتبط بذلك "التجديد" الإبداعي الحق، الذي أخرج فرساناً للشعر، بدءاً بالسياب، ونازك.. وتواصلاً بـ "عبد الصبور"، و "حجازي"، وحتى "أمل دنقل"؟!

قرأت أن "القباني" و "درويش".. ما زالا يقفان أمام باب "المتنبي" فتوناً، وانبهاراً!!

وهكذا... هناك من يتحدث، في الجانب الآخر، عن محاولة إنقاذ "دور" الشعر في عاطفة الجماهير العربية، وفي قضاياهم... لأن الإغراق

في الرمزية، وباللفظ "السريالي"، وبالصورة الشعرية ذات الشكل التكعيبي. . . هو لجة، واضطراب نفسي، يعاني منهما هذا الجيل!

لماذا ؟!!

لأن القصيدة. . لم تعد هي صدى الحدث، بقدر ما جعلها هؤلاء ـ بأقل أدوارها ـ : حدث الصدى!

ولأن القصيدة، من الجانب العاطفي، لا أكثر من "مناوشة" غرامية، مغرقة في سوداوية الشعور!

ورغم أن قضايا الإنسان العربي اليوم لا حصر لها، وبلغت درجة قصوى من الإرهاق. . . لكن الإنسان يتلمس جروحه بحثاً عن حدث، وعن إضاءة. . . أو ـ على الأقل ـ ظاهرة لا يتكرر فيها الموت، أو لا تتشابه فيها الحياة!!

صار الإنسان العربي يركب حصان "طروادة"، ويقتحم تجاربه، ومعاناته، وهمومه. . . من الداخل!!

وصارت تتركز في ذهنه صورة من رغبة "الاسكندر" التي تتطلب: (وجود عوالم أخرى. . . تمكنه من أن ينقل إليها فتوحاته العاطفية)!!

أو كما حاول شاعر أن يصف العالم، فقال:

● "عصرنا: نصفه قديم، ونصفه جديد. . . نصفه لم ينعدم، ونصفه لم يوجد على حقيقته الكاملة بعد"!!

● ● ●

*** الشعر . . والمسرحية:**

● وفي أصداء تلك الكلمة التي أوردناها ـ في البدء ـ على لسان روائي فرنسي. . . تتذكر أيضاً هذه الصورة، أو الحقيقة:

في تاريخ الشعب: الفرنسي: أن الأدب، والشعر، والفكر، قد ازدهروا إبان المحن، والقلاقل، وموجات الزيغ والتخلخل.

وخلّد تاريخ فرنسا: أسماء أولئك المفكرين، والشعراء، والفنانين. . . ومازالت أسماؤهم، وما زال تراثهم، متداولاً حتى اليوم!

ولا شك أننا نجد صعوبة، وتجنياً في استعجال "الأحكام" على شعراء هذا العصر العربي. . . سواء على شعراء الأقطار العربية، أو على شعراء المقاومة الفلسطينية بالذات!

إن "الاحتلال" لم ينته. . بل دخل العرب جميعهم في دهاليز أكثر ظلاماً.

لكننا نطرح الأسئلة على المسافة العربية الأطول. . ولا نحصرها في شعراء المقاومة. ولا نحصرها في الشعر العربي وحده.

إننا نتساءل عن الفكر العربي، وعن الإبداع العربي: شعراً، ورواية، وقصة، ومسرحية، وبحثاً، ودراسة، وكلمة إبداعية. . . تخرج من التأمل المذهول أحياناً، إلى نطق يدل على معنى جديد!

وإذا توقفنا أمام الشعر. . . فربما نقول: إنه مزدهر الآن، بنسبة عدد الدواوين والأمسيات الشعرية، والقصائد المنشورة في الصحف والمجلات!!

وكذلك القصة القصيرة. . تواجه المتغيرات، والتقليد للمدارس الغربية!

أما المسرحية. . . فإن ضآلة ما يصدر، لا يبلغ مستوى ذلك الإبداع الذي طلع به "توفيق الحكيم" وجيله عموماً!

والرواية ما زالت "تراوح" بعد صمت "الطيب صالح" وشيخوخة "نجيب محفوظ" الإبداعية. . . كأن على الساحة "عبد الرحمن منيف" و"حنا مينا" ومن بعدهما: الطوفان!!

وتبقى الدراسات ويغلب عليها الطابع "الجامعي" ولا نقول "الأكاديمي" . . . ولكنها تحدث أصداء!

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً أمام "ظاهرة" أخرى تطغى على اهتمامات وشعور، وتوجه الكاتب، والفنان، والشاعر، والأديب، وهي: الانشغال السياسي!!

ولا بد أن انسياق كل هؤلاء وراء السياسة، يحدث أحياناً، وكأنه "سوق" ويتمثل في كل ما تفرضه المتغيرات السياسية، أو عدم الاستقرار السياسي في العالم العربي. . . ويتمثل في تراكض الظروف التي تمر بها الأمة العربية، وتداخلها، وتمويهاتها!!

لم تكن السياسة في تاريخ الشعب العربي متسلطة على فكره وفنونه، كما هي في هذا العصر. . . بحكم المكتنفات التي وجد نفسه في وسطها. . . دفاعاً عن أرض سلبت منه، أو حرية غابت عنه، أو حواراً، يستشرف توضيح مطالبه وقضيته!

وتذكر كلمة قالها الشاعر الرقيق الراحل "كامل الشناوي" حينما سألوه:

ـ هل صحيح أنك شاعر مقل. . . لا تكتب القصيدة إلا بعد عام، أو في أقسى إحساس بالأسى والحزن ؟!!

ـ فأجاب: أما الأسباب التي جعلت مني مقلاً، فهي تكمن في السياسة، العنوا السياسة لأنها أفسدت أحلامنا، وشوّهت خيالنا، واعتدت على اطمئنان نفوسنا!

أما أقسى إحساس بالأسى والحزن.. فذلك شيء نحياه بلا انقطاع، طالما أن لنا أرضاً مسروقة، أو أخاً يذله احتلال المستعمر... فالقسوة تزيدنا نطقاً، وصهراً، وإصراراً على البوح... ولكن السياسة تسرق دموعنا إلى الصبر!!

• • •

وفي تاريخ الأدب العربي.. عرفنا أن أكثر الفنون قد تصاب بالذبحة، وتغيب زمناً، ما عدا الشعر... هو الذي يصمد، ويجول، ويُحدث الزحام الشعوري في صدور الناس!

حتى الشعر... هزمته اليوم هذه الظاهرة العصرية!!

والفكر.. أكثر تأثيراً، وكان من المفروض أن يؤثر في السياسة، بدلاً من أن تؤثر السياسة عليه وفيه.

وهذا يعني: أننا نعايش عصراً يرتكز على "فن السياسة".. لأن هذا "الفن" ـ إذا قبلنا بالتسمية تجاوزاً! ـ هو الذي يتحكم في مستقبل الشعوب... في حريتها وعبوديتها وحضارتها، ودمارها!

والسياسة العربية: مرتبطة بالسياسة العالمية التي تتضح قذارة، وبغضاء... ضد الشعب العربي!

وغالباً ما تفشل السياسة في هذا العصر، لأنها قفزت فوق إمكانية فنونها، أو فنِّها... وصار البديل لها: الصاروخ، والقنبلة، والقنبلة، والأسلحة التدميرية البشعة، والكيد للشعوب!

ونتيجة لذلك. . . فإن نفوس الناس وأرواحهم، قد بلغ التحول فيها إلى درجة الجفاف. . . فهي نفوس وأرواح: مكسورة، وكسيرة، ومدببة. . . ومن الممكن أن تجرحك، ويستعصي علاج نفسك أو روحك.

إن الأديب، أو المفكر، أو الشاعر العربي. . . في صورة يبدو فيها وكأنه يدخل رأسه في جحر، وخلفيته في العراء. . . ومن حوله: أعاصير، وشموس حارقة، وليل ممتلئ بالأشباح، وأصداء عنيفة. . . فلا هو قادر أن يخرج رأسه من الجحر، ولا خلفيته تدرك ما حولها!!

(٨)

● إن الأرض ـ حينما تكون بيتاً يأوي ـ تصبح هي قضية: "الخطوة الفاعلة" لتوسيع الحجم التاريخي. . لئلا يفقد الإنسان المواطن: تراثه، وقيمه، ومنجزاته. . ولئلا تبهت بعد ذلك حوافزه!

● إن الأرض ـ حينما تكون جسد الانتماء الذي تتعامل معه وسائل الحياة الإنسانية ـ تصبح هي قضية: الغذاء، والصحة، والوعي، والتنمية، وشرف القيمة الإنسانية!

ولا بد أن تتبلور هذه القيمة المرجوة في رأس المواطن: عاملاً، وموظفاً، ومنتجاً، وصاحب رأس مال، ومفكراً، وفناناً. . . لتأتي بحجم لا نذرعه لمعرفة مقدرتنا على المشي، وإنما لمعرفة إمكاناتنا التي تثمر ما نستطيع أن نبذره ونزرعه فوق الأرض، وفي ضمير الإنسان ووعيه.

● إن الأرض ـ حينما تكون برتقالة ناضجة ـ تصبح هي قضية "الأمل" التي نرفض عبوديتها وامتهان المصالح الشخصية لها. . ونتصاعد بها لتكون حريتنا!!

● ● ●

● من هذه المنطلقات.. تتجسد المتطلبات "الانتصارية" في رحلة الإنسان إلى الغد.. بكل طموحاته، وهمومه، وأحلامه، وأمانيه، وجهده، واجتهاداته.. فتصاغ في قالب المسؤولية، وتنتصب عهداً وعشقاً للأرض!

وبذلك... يفني الإنسان من أجلها نبضه، ويسفح عرقه، ويرخص دمه... ويتصاعد بهذا العشق إلى ذروة الإخلاص للتراب، والإخلاص للقيم وللمبادئ.

وحينما نتلفت إلى دور الفكر، والعلوم، والفنون.. لا بد أن نهتم "بأرضية"، ليس شرطاً أن تكون ممهدة.. بل هي بالغة الوعورة، لتكون هذه "الأرضية" تمثيلاً لانبثاقة نطق فكري وإبداعي.. نجعل الحوار عنه مستشرفاً أبعاد المصلحة الوطنية، والوفاء للتاريخ الحافل بأمجاد عريقة وتليدة.. أعطتنا غلاوة الحقيقة، وتمجيد الشعور الإنساني!

تلك "الأرضية" هي التي تحاور واقع الفكر العربي، والإبداع العربي.. على امتداد سنوات مزدحمة بالأحداث، وبالتحديات، وبالضنا لمشاعر الإنسان العربي، وبالتمزيق لإرادته!!

● ● ●

*** شعراء المقاومة:**

● ولعلني لا أرغب أن يكون البدء من صرخات "شعراء المقاومة" الذين تكاثروا بعد نكسة ٦٧، ثم تقهقروا!!.. فكأن هؤلاء الشعراء ـ اليوم ـ يلوحون بما يشبه "توصيات نضالية".. لها صوت محدود، ولكنها ـ في الغالب ـ تخطئ مرماها!!

إن "المرمى" لم يعد أمامنا: هدفاً محدداً. . . ورغم ذلك، فنحن نحاول أن نجعل لكل سهم نطلقه: نقطة يحفرها. . فلا تكون بريئة، ولا يكون الفكر أو الفن العربي: بريئين أيضاً!!

حتى اندلاع الحرب الرابعة في "العاشر" من رمضان. . كان شعراء المقاومة يتعاطون "سوائل" الثقافة، ويعطون للقارئ العربي: "طلقات" تحدث صوتاً، ثم تخمد. . . وتضيع في الصدى!

إن "محمود درويش" و "سميح القاسم". . لم يجدا وظيفة أخرى، سوى توجيه رسائل إلى بعضهما البعض!!

ونجد تلك الرسائل تفيض بالحزن وبالأسى تارة، وباللوم والتقريع تارة أخرى! كذلك. . فقد "أطلقت" تلك الرسائل: قذائف من الكلمات الثورية. . المبددة في مناخ الواقع العربي المؤلم!!

إن "درويش والقاسم". . جعلا من فلسطين: برتقالة حيناً، وجعلا منها: جمرة حيناً آخر، وجعلا منها أيضاً: أنثى فاتنة. . معتدى عليها!!

إنهما جعلا من فلسطين موضوعاً لتجربة "تأملية"!!

هذه التجربة فاضت من قصائدهما، ومن كلماتهما المتبادلة!

وليس هذا الرأي طعناً في شاعريتهما المتفوقة، ولا في ثقافتهما الباهرة. . ولكننا نطعن يومياً بكل كلمة تخرج وكأنها رصاصة فاسدة. . ترتد إلى صدور مَنْ أطلقها!!

ولقد قيل قبل الآن:

ـ إن شعراء المقاومة. . لم يكونوا أكثر من "ظاهرة"، برزت صحية

في البداية، ثم تراكمت عليها نفس القشور التي تراكمت على الفكر العربي، وعلى التحرك النضالي العربي (!!).

• • •

*** الأدب. . والإعلام:**

● بعد هذا. . سأتوقف عند نقطة حوار أخرى. . تلح على وجوب الفصل بين الأدب ـ كفكر وفلسفة وفن إنساني ـ وبين "الإعلام" المسؤول عن وضع الحقائق المباشرة. .

فنحن أمام إعلام مكثف، وذكي، وخبيث.

وتحت إمرة العدو الإسرائيلي الآن: أقوى، وأنجح وسائل الإعلام.

لقد اشترت إسرائيل العديد من الصحف العالمية ـ أميركية وأوروبية ـ والعديد من الفنانين: ممثلين، وممثلات، ومنتجين سينمائيين، ورؤساء دول كبرى كانوا ممثلين!!

وانتشرت دور النشر الناجحة في تصدير ملايين النسخ إلى العالم. . . وبهذا العمل، نجحت إسرائيل في تشويه عدالة القضية العربية عموماً.

فكيف يمكن الفصل بين "الإعلام" والأدب والفكر والفن ؟!

وأين هو الفكر، أو الأدب، أو الفن. . الذي ما زال ـ حتى الآن ـ بعيداً عن مطلب صبغه بالإعلام؟!!

وما هي الجدوى التي نبتغيها من وراء كتابة عمل أدبي رائع. . . إذا كان هذا الأدب بحثاً خالصاً، غير متفاعل مع الأمة ومصيرها؟!

● "برتراند راسل" ـ على سبيل المثال:

ـ كان يخرج من بيته مع ساعات الفجر الأولى، ليجد مجموعة كبيرة من العمال والطلبة والموظفين، في طريقهم إلى أعمالهم.. فكان يقتعد الرصيف في مدينة لندن، ويتحدث عن حرية الشعوب وعن السلام.. وكان ينجح في استقطاب كل هؤلاء العابرين من أمامه، ليتحولوا إلى مؤيدين له.. يشكل منهم مسيرة تطالب بحقوق الإنسان، وبالسلام على الأرض! وهذا العمل الذي كان يفعله "راسل" هو: إعلام ناجح ومباشر: وميداني.. ويبدو أنه أكثر تأثيراً وفعالية من كتاب يصدره، وفي محتواه أدب فني بحت.. مترف العبارة، أو مليئاً بالصراخ والانفعال!

● وموقف الشاعر الإسباني "فردريكو لوركا"... تبلور من خلال توظيف الكلمة من أجل الحرية، ومحاربة الفاشية، فكانت كلمته "إعلامية" أكثر منها أدبية، مخملية، أو حتى فنية!!

● والمواطن الأميركي الذي سمى نفسه: "مواطن العالم" ـ توم بين ـ أطلق كلمته المشهورة جداً:

ـ "والعالم قريتي"!!

وأصدر كتابه: "المواطن توم بين"... وقد جعل الفلسفة فيه إعلاماً، والأدب إعلاماً، والرواية إعلاماً.. وبرغم أنه "يهودي" لكنه لم يكن عنصرياً، ولا صهيونياً.. بل حقد اليهود عليه بعد ذلك، ونبشوا قبره إمعاناً في احتقاره!!

● ● ●

* مسؤولية المفكر والفنان:

● ولا ينبغي أن نحصر "الإعلام" الذي نتحاور عنه في معناه

المحدود، كوظيفة دعائية، رسمية.. ولكن المقصود بالإعلام هنا: كيفية النجاح في الوصول إلى فكر العالم وفهمه، وفلسفاته، وأدبه وحتى "مصالحه".. وذلك بواسطة نشاط مكثف يجعل للكلمات قسمات وانتماء وأبعاد تخدم قضيتنا في انطباع الآخرين وقناعاتهم.

إن مسؤولية المفكر والأديب والفنان.. تلح عليهم جميعاً أن يفكروا بضراوة، وأن يكثفوا الجهد، وأن ينطلقوا بأصواتهم إلى العالم.

لقد دخلت الكلمة العربية ـ بعد نكسة ٦٧ ـ إلى مرحلة: تقريع الذات العربية.. أو ما وصفوه باسم: النقد الذاتي، الذي تحول فيما بعد إلى "ماسوشية" تمارس ضد فكرنا وحوافزنا العربية.. تلك "الماسوشية" التي تبنتها بعض الصحف العربية التي عمدت إلى ستر الأخطاء، والأخرى التي ركضت وراء تضخيم السقطات.. لتروج نسبة مبيعاتها!

واليوم.. تتطلب منا التحديات، أن نتحدث عن إيماننا بقضيتنا، وبعقيدتنا، وبأرضنا.. وذلك بالتخلي عن خصومة الذات، إلى خصومة الانخذال!

وأكثر ما نتطلبه هو: وضع الحقائق أمام العالم، وإبداع أدب يحمل إرهاص أمة لا تخنع، ولا تلين، ولا تركع ولا تلين، ولا تركع داخل التمزق والخلافات، ولا تنشغل بسفسطات يسميها طلاب الشهرة والظهور: تطوراً، وتحديداً!!!

وليأذن لي ـ أي محاور ـ أن أطرح سؤالاً هاماً... هنا:

ـ ما هي الطريقة المثلى لكتابة أدب جديد.. يحقق أهدافاً جوهرية نتطلع إليها ؟!!

أحسب أن الطريقة المثلى.. تتوافر في كتابة: أدب حقائق، يصور مراحل نضال الأمة العربية ـ من المحيط إلى الخليج ـ وصمودها أمام الاعتداءات والمؤامرات، ودفاعها عن عقيدتها وأرضها.. وأنها أمة لن تموت!!

ونعني بذلك: إعادة الثقة إلى نفسية الإنسان العربي، وإلى مفاهيمه.

ونعني بذلك: إقناع الرأي العام العالمي، وهيئاته، ومفكريه.. بأحقيتنا للأرض التي لنا وللمطالب المشروعة!

فكيف نصور ذلك ؟!

وما هو "التقييم" كمعنى.. حتى يمكن أن نصف به ما سنكتبه؟!

إن رواية مثل: "لا تبك يا بلدي الحبيب" القديمة التي كتبها أديب "زنجي".. استطاع كاتبها أن يصور فيها أبشع ألوان الاضطهاد العنصري.. وحملت بكل ما فيها من تكنيك قصصي: عملاً إعلامياً ذكياً وباهراً، وإبداعاً للوطن وللقضية!

ونقف أمام روائي معاصر، مثل: "جابريل جارسيا ماركيز".. فنجد النقاد ينظرون إلى عمله الأدبي الرائع، الذي فجر اسمه في العالم، وهو رواية "مائة عام من العزلة".. فيتهمونه بالانتماء إلى: "أدب الهروب من الواقع"!!

بينما القضايا الإنسانية في عصرنا هذا... تتطلب المزيد من الالتحام بالواقع.

ولكن "ماركيز" يعلل ذلك بقوله:

ـ "ليس قول الناس... إننا نتهرب من الواقع معقولاً، فمن يطالع

إنتاجنا في روية.. يعرف أننا مسيسون، ومتورطون أكثر من أسلافنا"!!

(٩)

● السؤال الحاد والمباشر.. يصرخ:

ـ ترى .. ماذا يقول الأديب العربي ؟!!

ـ كيف يجيب، ويبرر، ويعلل، ويفسر: غياب الأعمال الأدبية التي تلتحم حقيقة مع قضايا الإنسان العربي، وآلامه، وهمومه، ومعاناته ؟!

وما لون هذه الأعمال الأدبية: رواية، وقصة، وشعراً، ومسرحية، ونثراً؟!

إن الإجابة عن هذه الأسئلة.. تتطلب: صدقاً، وصراحة، وانتماء شديداً!!

● في الجانب الآخر.. هناك رؤية شاملة لهذا "الكاتب" المتْعَب في كل العالم!

إن خياله.. يقضُّ مضجعه، ويرميه في ألوان من القلق!

إن الكاتب يتصور الناس ـ أحياناً ـ في غرفة خافتة الضوء.. كأنهم رؤوس بلا أقدام، أو كأنهم أقدام بلا رؤوس!

إن شيئاً كما تبكيت الضمير.. يلحُّ في ذهن الكاتب، وذلك عندما يفكر في قصة، أو رواية، أو قصيدة، أو مقال يتعاطف مع شجون الناس!

والكاتب الذي يقدر أن يتخلص من ضميره.. يتحول إلى "بائع" لا أكثر!

والكاتب الذي يأخذ ضميره، ويضعه تحت المجهر.. لا بد أن يكون

"كاتب التاريخ" الذي يرصد أحداث التاريخ ووقائعه، ويُبرز "الضمير" لأبطال ذلك التاريخ الذي يكتبه، أو ينقله بأمانة من أجندة الزمان!

● وفي وقتنا الحاضر. . تقذفنا المطابع بالعديد من الكتب التي يحاول أصحابها أن "يطبعوها" بصيغة الدلالة، أو الشواهد التاريخية. . وإن جاءت مكتوبة بشكل مذكرات عاصرها الكاتب، أو كان على هامشها!!

وفي باريس ـ قبل أعوام قريبة جداً ـ أعلنت نتيجة استفتاء أجرته مجلة "إكسبريس" وصعدت بهذه النتيجة قيمة الرواية التاريخية التي نالت الفوز في الاستفتاء!

ـ وقالوا: إن رواية تاريخية واحدة، اسمها "ليل السلطان" قد بيع منها "١٨٠" ألف نسخة. . أما الروايات الأخرى التي تلت هذه الرواية التاريخية في الرواج والانتشار، فقد كانت: رواية للكاتبة الفرنسية "ناتالي ساروت" بعنوان: "طفولتي"، ورواية الكاتبة "مارغريت دورا" بعنوان: "مرض الموت"، ثم مذكرات الفيلسوف "جان بول سارتر"!!

ولكنَّ كل هذا الزحام ـ غير الشديد ـ في المكتبات، هل هو المطلوب ـ فعلاً ـ لقراءاتنا. . أم أن المطلوب هو: الاهتمام بروايات الخيال العلمي مثلاً، أو بحكايات السحر والجان ؟!

ولقد قدَّمت المطابع في فرنسا أحدث كتب الخيال العلمي، للكاتب الأميركي المعاصر: "جاك فالانس" بعنوان: ثلاثة آلاف عام. . . وهذا الكتاب يعتبر امتداداً للنهج وللتكنيك في القصة الخيالية التي ابتدعها وأجاد فيها العالم الفرنسي "جول فيرن"!

لكنَّ "فلانس" زاد على "فيرن" بأن أدخل التكنولوجيا الحديثة، والعلاقات الدبلوماسية في مضمون وبناء قصته الجديدة.

وقبل ذلك.. أصدر هذا الكاتب الأميركي كتابه باسم "الأحلام" الذي يتخيل فيه تحرير العالم من الخطر النووي!

ولكننا هنا ـ في الوطن العربي ـ لا نترجم مثل هذه الكتب الجديدة في مضمونها.. لأننا ننشغل بالجدل في قضايا بليدة، أو قضايا تعتبر من المسلَّمات، أو تثير زوبعة في فنجان... ولأننا ـ أيضاً ـ نحظر الاطِّلاع على الجديد.. بدعوى الحماية من التأثر بالفكر المنحرف (!!).

• • •

*** خيال الكاتب:**

● لقد حاولت أن أسترجع مشاعر وانفعال كاتب، مثل: "شارلز ديكنز" عندما كان يكتب روايته الشهيرة: "قصة مدينتين"، وتدوين تلك الأحداث المتلاحقة، والمأخوذة من تاريخ معروف، ومن أحداث حقيقية... ولكنَّ خيال الكاتب، وجمال العرض منه والطرح... جعلا كل قارئ لهذه الرواية يلهث وراء فصولها، ويمتزج خيال الكاتب بتخيُّل القارئ، ليتبلور عام متكامل.. يضجُّ بالمعارك، وبالصراع، وبالحب أيضاً!

ثم نأخذ لوناً آخر من التصوير!

وفي هذه المرة.. يختلف فلا يكون تدويناً للتاريخ، وإنما هو تشريح وتدوين للنفس.. يدخل به الكاتب إلى أعماق الإنسان، ويفتش حتى عن الأشياء الصغيرة.. مع الاحتفاظ بطابع العصر الذي حدثت فيه فصول الرواية، وبملامح البلد أو المدينة، وأهلها.

لنتصور ـ هنا ـ مؤلف رواية "لوليتا" الشهيرة: باسترناك!!

لقد كان خياله يتلوّن، ويتقمص.. فيبدو في موقف ما مراهقاً، وفي

لحظة أخرى رزيناً حكيماً، و "لوليتا" كيان تجسد بخياله ومنه، أو لعله رمز إلى معنى، أو حياة، أو معاناة في شخصية "لوليتا" . . ولكنه أبرزها وانساق وراء طبيعتها وكيانها!

حين ذلك. . يصبح صعباً جداً، عندما يكتشف الكاتب أن خياله هو قائده!

صحيح. . أن في الرواية جوانب عديدة من الحقيقة التي عايشها الكاتب، أو سمع بها، أو جربها. . لكن اللحظة التي يعبر فيها الكاتب عن تلك الجوانب، والتي يكون فيها قسمات وشخصية أبطال قصصه. . هي لحظة توقد الخيال وعبقريته!

إن مسؤولية كاتب الرواية والقصة، وعمل الفكر الإبداعي: أن يواكب التغير، وحركة مجتمعه، والنفاذ إلى نفسيات جيله وما قبله، ومحاولة تسديد الرؤية إلى عطاء الجيل الذي يليه: بيئة، وإنتاجاً، وعاطفة، وفكرة للحياة الأجمل!

• • •

*** مبدعون. . أم أصنام:**

● إننا لا نريد أن يتحول المبدعون من كتّاب الرواية في وطننا العربي ـ على قلتهم! ـ إلى: أصنام. . لكثرة ما نشيد بأعمالهم. . بينما البعض منهم في المضمون، والطرح، وحتى في الإسقاطات. . لم يقدم قراءة جيدة ودقيقة لمعاناة الأمة، ولهموم العصر، ولكل المراحل التي اكتوى فيها هذا الشعب العربي من المحيط إلى الخليج. . ولم يصوروا حتى "المتغيرات" التي حدثت. . إلا بقدر ضئيل، ينحصر في إقليمية القُطْر، كما "رمز" إلى ذلك "نجيب محفوظ"!

دور المبدع العربي: أن يرصد هذه المرحلة، أو الفترة، أو الزمن.. مما يعيشه العالم العربي: سهداً، وقلقاً، وعذاباً، وطموحات، وآمالاً.. بكل ما ينعكس على الإنسان!!

إنها فترة قاسية.. لا بد أن يتحرك فيها: عظماء الرواية العربية بالذات.. هؤلاء الذين يقفون كالأصنام، بعد أن ألّهم النقاد.. ليسجلوا الانطباع النفسي، ورد الفعل السياسي، وبواعث القلق، ومآسي الحروب.. على العاطفة العربية المجرّحة، والتي لم تعد تحتمل المزيد من الخيال القاسي، أو الخادع!

إننا نبحث عن تلك "الأرضية" المفقودة.. لتكون انبثاقة نطق فكري، وإبداعي.. لتلتحم بالأرض: بيتاً، وانتماءً، وقضية للأمل!!

الكاتب والجنرال!

كان غرض النقد الحديث أن يعيد الأدب إلى مكانه الصحيح من التجربة الإنسانية، ويحرره من سيطرة الحقائق الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية، والمعرفية، والتاريخية. . ولكن المغالين في هذا الاتجاه هم الذين فصلوه عن الرحم الاجتماعي الذي ينشأ فيه وإليه يعود. . . فزاد عندهم الاهتمام بالخصائص على حساب الفرض، وتجاهلوا اتفاقاً قائماً لا يحتاج إلى التصريح به لنقر بقيمته النقدية. . ألا وهو: عدم فصل الأدب عن بيئته مهما اختلفت نظرتنا حول تقويمه أو تناوله!!

د. محمد أحمد حمدون

● ما الذي يريد أن يقوله هؤلاء الأدباء والمفكرون عن عصرهم، وما وراء عصرهم. . . وعن حصيلة هذا العصر التي ستبقى لجيل آخر؟!

وما الذي تريد أن تدينه، وأن تبرِّئه. . هذه الكتب الكثيفة والمتناقضة والعظيمة؟!

إن انطباع الجيل القادم غير معروف بعد. . كما أن الجيل القادم نفسه غير معروف بعد!

ولكنَّ قارئ اليوم من هذا الجيل. . مطلوب منه أن يجيب عن سؤال ينتصب دائماً، ويتردد هكذا:

● ما الذي فهمته مما قرأت؟!

وما الذي تريد أن تفهمه، باعتبارك قارئاً شغوفاً ومدمناً، وشقياً بالفهم؟!

● يقول ـ ويل ديوارنت ـ في عبارة مباشرة، و "مفهومة":

"إن الآثار تنهار، والأمم تفنى، والحضارات تتهدم وتموت.. وبعد عصر من الظلام، تجيء أجيال أخرى لتشيِّد حضارات جديدة.. أما في عالم الكتب، فهناك مجلدات شاهدت الأحداث وهي تقع المرة تلو المرة.. بينما ظلت هي حية وشابة وجديدة كاليوم الذي كتبت فيه، ولا تزال الكتب تتحدث إلى قلوب الناس عن قلوب أناس ماتوا منذ قرون عديدة"!

ولكن.. يبقى اشتراط هام ومنتصب.. يلح على أن تكون تلك الكتب انعكاساً لحقيقة الحياة التي كانت، أو شواهد على الأحداث التي صنعت أمة وأوجدت حضارة إنسانية.

وقد عبر في ذهني بعض عطاءات الكلمة.. حينما كنت أعود إلى فصول من كتاب للأديب المجري "جورج بالوشي هورفات" الذي قدم لطبعته العربية "قدري قلعجي" قبل سنوات، فقال عنه:

هذا الكتاب.. هو صرخة أديب هزه مصير زملائه في البلدان الشيوعية، فعرض بعض ما يعانونه من اضطهاد ويتعرضون له من إذلال.. ابتداء من الاتحاد السوفيتي، حتى فيتنام. وهذا الأديب يصف نفسه بأنه ينتمي إلى ـ الأخوة العالمية للمنفيين وخريجي السجون ـ وكان يعيش حياة المنفى ويضع موهبته في خدمة الكفاح ضد الشيوعية!

هذا الأديب المجري الذي أصبح قديماً الآن، وقد مات لتقادم النسيان

على اسمه. . يذكّرنا بأسماء العديد من الأدباء والمفكرين الذين اضطهدتهم الشيوعية ونفتهم وطاردتهم، أمثال: مايكوفسكي، وفادييف، وبوريس بلنيك وتربتياكوف، ورومانوف وباسترناك، ويذكّرنا ببعض الكتَّاب العرب الذين تعرضوا لذلك!

وكان "فادييف" هو أبرزهم وتولى رئاسة اتحاد الكتّاب السوفييت، وقال عنه هذا المؤلف المجري في كتابه الذي أسماه "الأديب. . ومفوض الشرطة": أن "فادييف" لم يستطع مواصلة اللعبة والعيش في ظل النظام الإرهابي، فانتحر!

ومطاردة "العسكر" للأدباء والمفكرين. . تفشت حتى وصلت إلى بعض الدول العربية من خلال أنظمة الحكم العسكرية التي طاردت واغتالت بعض حملة الأقلام عندما تضيق ذرعاً بكلماتهم التي تطارد "عسكرة" الكلمة والفكر!!

وفي تاريخنا العربي الحديث. . نعرف أسماء لبعض الكتّاب، دبر النظام العسكري أمر اغتيالهم بالمتفجرات، أو بالخطف والتعذيب والتمثيل بهم. . ابتداء من "كامل مروة" كمثال واحد فقط، ومن بعده "سليم اللوزي". . لتكرّ المسبحة بعد ذلك!

فالأنظمة العسكرية. . هي ألعاب سياسية أدارتها القوى العظمى في فترة ما، تزرع القلاقل في المنطقة، وكان الأديب والكاتب العربي ضحية بسبب حمله للقلم، وفضح فساد هذه التجربة!

وقد استمرت هذه اللعبة فترة من الوقت. . أغرقوا العالم العربي خلالها في نقيع من الدم، ومن المحن، ومن تبديد عطاء التنمية لأقاليمهم. . ولم يكن الكاتب من واقع مسؤوليته وشرف الدور الذي يضطلع به مخيراً ليحني

رأسه لعاصفة لا يعرف متى تنتهي، وما عدد الأشجار العتيقة والراسخة التي تقتلعها في جنوبها وهبوب عواصفها!

ثم انتقل العالم العربي ـ بحسب مخطط الاستعمار والقرى الكبرى لتفتيته ـ فبلغ مرحلة أخرى.. عرفت بمرحلة: صراع الأيديولوجيات والعقائد، وكان لا بد للكلمة من دور في هذا الصراع.. وهو دور مشوش، بل هو دور استطاعوا تسخيره لترويج بعض الشعارات.. وجذب هذا التخلخل ذلك اللون من الكتّاب الذين أجادوا استبدال الأقنعة.

• • •

*** قدرية وحدة المصير:**

ودخلت الكلمة المكتوبة في إسار أجهزة الرقابة العسكرية والانقلابية.. فأخضعت بعض الصحف في العالم العربي لدورة فلك النظام السياسي الانقلابي، وكلما انقلب نظام وجاء آخر.. انقلبت الكلمة وجاءت كلمة أخرى مصبوغة بلون النظام السياسي الجديد.. واحتار المواطن العربي، مَنْ يصدق، وإلى مَنْ ينتمي، وما الذي يقنعه ويزرع الثقة في داخله، ويوطد الأمان والاستقرار؟!

وكان قدر الكلمة العربية، والرأي الذي تضطلع به، مرهوناً ومرتبطاً ببقاء النظام السياسي، أو الانقلابي!

ولكن.. تبقى نقطة جديرة بالأهمية والالتفات، في هذا الزحام الخليط، وهي: أن إجماع الكلمة العربية على النضال العربي، وعلى مقاومة العدو المشترك.. يعتبر إجماعاً مشهوداً، يمثل قدرية وحدة المصير، وإن اضطربت وحدة الصف، ومصداقية وحدة الانتماء للأرض، وإن تلونت وسائل وحدة الهدف!

ولا نطرح هذا التصور عن صمود الكلمة العربية عاطفياً، ولا نحكم عليها بإلزام المعالجة النفسية لضمير الكاتب العربي. . ولكن الرؤية المباشرة، والتي استخلصناها من مجموعة تجارب قاسية، ومحن صعبة مرت بتاريخنا الحديث، كانت رؤية تدل على أن الكلمة العربية تعود في النهاية من صراعها ما بين الأيديولوجيات والانتماءات والتحزب إلى هاجس المصير العربي الواحد!

وإذا كانت المنطقة العربية قد شهدت في السنوات القريبة الماضية نزيفاً من الكلمات التي تهدم نظاماً سياسياً غاب على حساب نظام سياسي بدأ وطلع. . فلأن تلك الكتب تعكس أوجاع النفسية العربية في التحليل الشامل!

ولكن النزيف الذي جاء على شكل مذكرات كاتب عايش نظاماً واستفاد منهن ثم اضطهده نظام وخسر فيه. . هو نزيف يخضع لعاطفة مؤلف الكتاب، أكثر من خضوعه لفكرة التسجيل التاريخي لفترة أثرت في مجريات السياسة العربية كلها، أو المصير العربي كله. . فالكتب التي صدرت على شكل خروج من سجن رقابة فرضها نظام ذاهب. . لم تكن أكثر من كتب صدرت على شكل دخول إلى سجن رقابة يفرضها نظام قادم.

• • •

* دور الكلمة في معاناة الأمم:

● ولقد استوقفتني عبارات جاذبة وصريحة كتبها الأستاذ "مصطفى أمين"، والدكتور "محمد فاضل الجمالي" . . وفي تلك الكلمات إضاءة باهرة على دور الكلمة في معاناة الأمم، ومسؤوليتها عن الانتصار للحق وللحقيقة وللكفاح ضد امتهان الحرية والديموقراطية!

● فالدكتور الجمالي تحدث عن الكلمة عندما تصبح سلاحاً شريراً يوظفه العداة والظلم والغزو، ويوظفها أهل الضلال والشر، وقال: إن هذه حقيقة ثابتة تؤيدها الخبرة في عالم اليوم، كما يدعمها علم النفس الاجتماعي والسياسي"!

وأضاف الدكتور الجمالي قائلاً: "كم من كلمة طيبة كالحرية، والديموقراطية، وحق تقرير المصير، ومبادئ إعلان حقوق الإنسان.. استعملت للتضليل وخداع الرأي العام، بينما مارس دعاة هذه الكلمات سياسة الاستيلاء بالقوة، ومصادرة الحريات وإهدار حقوق الإنسان"!

وهذه الصورة تنطبق تماماً على توظيف إسرائيل للكلمة الإعلامية من أجل أغراضها التوسعية، مثل انطباقها على دول عظمى تدعي الديموقراطية والدفاع عن حرية الشعوب!

وعلى هذا القياس ـ أيضاً ـ نجد في تاريخنا العربي الحديث.. بعض النظم السياسية التي استخدمت نفس الطريقة، وعمدت إلى توجيه الكاتب وكلمته للإعلام عن هذه النظم والترويج لها، وتزوير الحقائق لإظهار أن هذا النظام أو ذاك هو ديموقراطي ينبعث من مصالح الأمة!!

● أما الأستاذ "مصطفى أمين" فقد تحدث من حصيلة تجاربه ومعاناته عن الكلمة وكاتبها من خلال حقل الصحافة، فقال:

ـ "رأيت الصحافة وهي تاج على رأس الشعب، ثم رأيت الصحافة وهي فردة حذاء في قدم الحاكم.. يرتديها في القدم اليمنى فتصبح صحفاً يمينية، ويرتديها في القدم اليسرى فتصبح صحفاً يسارية"!

ـ وأضاف: "في عهود الاستبداد.. مطلوب أن يكون الناس قصار القامة، لأن أي فرد له قوة أو شخصية، فهو خطر على الحكم الاستبدادي

الذي يعتمد على الأصفار، ولهذا. . فمنذ قيام الثورة إلى اليوم لم يظهر عدد كاف من العمالقة في الصحافة"!!

بمعنى: أننا لو أجلنا النظر اليوم في هذا الزحام الصحافي. . يمكننا أن نكتشف ازدياد نسبة عدد الأصفار في بعض الصحافة العربية!!

وإذا أردنا أن نسترجع جوانب من التاريخ القديم، ونطرح بعض الشواهد المشابهة عن اعتساف دور الكلمة حيناً، وتوظيف بعض الكتّاب. . فإننا نعود إلى تقليب صفحات من ذلك الكتاب الذي أشرت إليه في مطلع هذا المقال. . فنقف عند صفحة، روى فيها المؤلف حادثة من بولونيا عن الشاعر الذي كان معروفاً هناك، وهو "جاسترون" فقال:

● "بعد أن أصدر مؤتمر اتحاد الكتّاب قراراً يحتج فيه على الرقابة المبالغ فيها، والتي أدت إلى منع نشر وتوزيع ثلاثين كتاباً، وبعد أن طالب القرار بالدفاع عن حرية الرأي. . قال ذلك الشاعر عبارته المشهورة حينذاك: إن السلطات لا تكتفي بمصادرة الرعد، بل تصادر أيضاً الغيوم المسببة له"!

ذلك لون من ألوان الإرهاب الذي مارسته السلطات الديكتاتورية في كل منطقة، فاعتسفت وكبلت، وجاهرت بعدائها للمفكرين وللأدباء وحتى للشعراء وللفنانين. . بل إن في تاريخ التسلط على الكلمة ما يكشف عن جبروت بلغ أقصاه في عبارتين. . قال الأولى لينين: (فليسقط الكتاب غير الحزبيين، وليسقط سوبرمان الأدب. . فالأدب يجب أن يغدو عجلة وبرغياً في آلة الحزب الوحيدة)!

أما خروشوف، فهو قائل العبارة الأخرى. . عندما علق على ثورة المجر عام ٥٦ بقوله:

ـ (ما كان ليحدث شيء من هذا. . لو أطلقت النار على اثنين من الكتّاب في الوقت المناسب)!

وفي العبارتين احتقار وقح لدور الكلمة، وحريتها، وحيادها، ونقائها من كل شوائب الانحرافات الأيديولوجية والسياسية!

ويبدو أن هذه "العدوى" قد صدرت إلى العالم العربي. . عبر القلاقل والانقلابات العسكرية، واعتقال الكلمة، وتوظيفها بعد ذلك لخدمة النظام العسكري، الذي يتحوّل بعد الانقلاب إلى لعبة سياسية تسمى نظاماً، أو أيديولوجية، أو شعاراً. . أو حتى تكون مجرد مرحلة فقط!!

قضية الكاتب اليوم!

ونوافذ جيراني. . أطفأها الحزن، وأني أخشى أن أوقظها. .

وأخاف عليهم مني. .

وأخاف على نفسي منهم

وأخاف إذا سألت أعينهم أي سؤال أن أبكي رغماً عني. .

سأعانق ظلي!!

بلند الحيدري/ العراق

(١)

سيدي الكاتب. . السائل، المناقش، المحاور:

سيدي الفنان المبدع. . المتألم، المسكوب شجى، والساكب معاناة:

ترى. . ما هو الواقع العربي اليوم؟!

ترى. . . إلى أي مدى، وبأية مقدرة يستطيع الإنسان العربي أن يعرف نفسه ؟!!

أمام الليل. . ينتصب "انتظاراً" لبزوغ الفجر، أو ينسفح النوم والخدر!

أمام الفواصل. . تكثر العثرات، فأي تاريخ مثل تاريخ الإنسان العربي

قادر على اليقظة، ومطلق سراحه من قيود العثرات؟!!

الجميع يتحدث عن: "الغربة الثقافية"!

هي غربة روحية، وغربة وطن، وغربة حق وعدل، وغربة عشق، وغربة حرية!

أما غربة الروح.. فنحن لا نطلب من كل كاتب أو مبدع أو فنان، أن يصير شاعراً ليصور روحه، أو يُجسِّد شفافية الروح.. بل لا بد أن نجلس بعض الوقت!

لعلنا نطلب الآن من كل كاتب عربي.. أن يجلس بعض الوقت!

وتطلب من كل قارئ عربي ـ أيضاً ـ أن يطالب "الكاتب" بالحقيقة!

إن الذي نراه الآن: عجيب، وساخر، و "قاعيّ"!

إن الكاتب في صحيفة، أو مجلة، أو حتى للإذاعة والتلفاز، والكاتب الذي يصدر الكتب.. تحس بهم جميعاً كأنهم يكتبون وهم "وقوفاً".. يسابقون الوقت، ويضيِّعون الزمان.. يركضون في كل المسافات، ويخسرون نقطة وقوفهم الأصلية!

لا وقت لدى هذه "الطبعة الجديدة" من الكُتَّاب والمؤلفين.. المهم أن يكتبوا، ربما للتنفيس ـ إذا بحثنا عن عذر أو سبب ـ وربما لأننا بلغنا العصر الذي ألمح إليه نبي هذه الأمة وبشيرها: "عصر فشُوِّ القلم"!

وسؤال آخر.. أكثر جدية، ومحاولة للرؤية وللالتحام.. يقول:

● ما هي قضية الكاتب اليوم ؟!!

ـ حرية الوطن.. في عصر تفشِّي الاستعمار، والظلم، والقوة الغاشمة؟!

فكيف تُعاد حرية الوطن. . في ضياع حرية العدل، وحرية الحق، وحرية المنطق في العالم، وفي مفهوم كبار العالم وسفَّاحيه ؟!!

ألم يقرأ كبار العالم لـ "توم بين"، و "جيفرسون"، و "زرادشت"، و "غاندي"، و "نهرو"، و "برنارد شو"، و "برتراند راسل"؟!

أم أن الزعامات السياسية العالمية قادمة من محطات الأتوبيس، و"الأوتوستوب" و "قاع" العالم؟!!

هل يتحكم في مصائر الشعوب: قادة العالم "الكبار" من المرضى نفسياً، ومن الذين يعانون من عُقَد نفسية؟!

ألم يجلس كبار العالم ـ في لحظة إصغاء ـ لسماع سيمفونية، أو كونشرتو، أو معزوفة جميلة، وينامون على العشب الأخضر، ويمشون تحت المطر؟!

من يرى العالم اليوم. . يظن أنه قد خلا من الشجر، وشح فيه المطر، وضاع منه النغم وسخروا فيه من "الكتاب"، وانحصر عبق "أنوثة" المرأة في لحظة الشهرة؟!

كأنَّ العالم: لا يسمع، لا يقرأ، لا يرى. . ولكنه يثرثر، بينما كل الدلالات الجمالية في الحياة تصمت وتصاب بالبُكْم!

وتبقى أصوات: المدافع، والرشاشات، والقنابل، والأحقاد، والأمراض الخبيثة. . . هي الأصوات التي تسود مناخ الإنسان!

أليس من المطلوب ـ إذن ـ أن يجلس الكاتب، ويتأمل، ويستوعب، ثم يكتب بعد ذلك بصدق، وبتجربة، وبرؤية أشمل؟!

نحن في عصر ازدهار "المذكرات" وكتابتها، وادعائها، والكذب فيها!

أصبحت "الكتابات" : واقفة، قلقة، متوترة.. فقدت ملكية المعنى الذي تريد أن تصل إليه!

أليس من المطلوب ـ أيضاً ـ أن يفتش القارئ عن "الحقيقة"، وعن التفاصيل؟!!

أكثر القراء لا وقت لديهم، أو أنهم أسارى ما يأخذونه من الوقت.. والوقت لا يمنح القارئ سوى لحظات يطالع فيها العناوين الكبيرة. والخبر المثير، والصورة الملونة الفاتنة والفضائح، والمعارك بين أسرة الثقافة فيما بينهم (!!).

• • •

*** الفكر.. والانقلاب العسكري!!**

● كأن الفكر، والإبداع، وترجمة المشاعر والأحاسيس الإنسانية.. تتساوى تماماً مع خبر انقلاب عسكري في أفريقيا السوداء، أو في أميركا اللاتينية، أو مع طعنة الانقلاب الضميري في نفسية زعيم عربي تشدَّق بالثورية، وبالديموقراطية!!

ولكنَّ القارئ العربي ـ أيضاً ـ مأخوذ إلى صفات العصر الجديدة.. فكيف له أن يقرأ رواية عاطفية، أو حتى اجتماعية، ويقرأ ديوان شعر.. ووطنه مهدد، وإنسانيته مهددة، وعصره يعاني من التلوث والتجلط ؟! لذلك فليس غريباً أن "يتصوَّف" الفكر العربي خلال السنوات القادمة.. لأن الكاتب العربي يكاد يسقط في الانفصام.. فهو مرة كاتب يمنح من أعماق حزن العربي، وينزف الألم الكامن في كل تاريخ الأمة.. وعندما يبدع، لا يجد القارئ الهاضم والمستوعب، بل يصطدم بقارئ يجري، وبقارئ "ساندوتش"!

وهو مرة: كاتب السطح. . يلتقط ما يتدحرج أو يسقط على سطح العالم العربي، كما الأحداث الطارئة، ويسمي ذلك: "رواية" أحياناً، وقصة قصيرة، وقصيدة شعر تعيسة أو غامضة!

فالتصوف الفكري. . لن يأتي إبداعاً، ولكنه "وعد" خَطِر للوعي، العربي، أو وعيد أخطر للوجدان العربي!!

وهناك حقيقة صوّرها، وكتب عنها المفكرون والأدباء العرب عن تاريخهم، ومطالب أرضهم، وعدالتها وطموحاتهم. . لكنها حقيقةً فشل أن يواكبها هؤلاء، فذابت في الرغائب، وتحولت إلى تمثال متلفع بالانبهار الأخرس. . ، وإلى ساعة سقط عقربها! وتأتي إلى إصدار الكتب، وهي ـ في محتوى الكثير منها ـ غارقة في تعذيب النفس، وفي استرجاع الأخطاء، وفي شتم الموتى، وفي استعادة المعاناة وأصداء الهزائم، وفي تجريد التاريخ العربي من دوره ليقيّم ويُصَفّي!

إنها هذه الكتب التي تحوَّل فيها مؤلفوها إلى: مخبرين صحافيين. . يجمعون الأحداث التاريخية، المتوارية خجلاً، ورواية تلك الأحداث كالفضائح. . كأنَّ ذلك يعني ما ردده "توينبي" قبل وفاته بعامين، فقال:

● "الانطلاقة العربية المقبلة. . لن تأتي من أذهان مفكري العرب وأدبائهم، ولكنها تأتي من معاناة الذين تهدّمت فوق رؤوسهم البيوت، وهدمت إسرائيل قراهم، وقتلت أطفالهم ورجالهم. . أولئك هم فلاسفة الحياة في العدم، وظهور الحياة من العدم"!!

ولكن هذه العبارة التاريخية. . لا بد أن تكون لها تكملة، لبناء المعنى الشامل لها.

والتكملة.. قالها "برتراند راسل" من زمن بعيد، قبل استفحال شراسة العدوان وقبل كلمة "توينبي".. ونصها:

"لقد انتهى عصر إبداع الكلمة.. لأنه جاء عصر غلوُّ العقل، وسيطلع القرن الواحد والعشرون على البشر، وهم أكثر أميِّة مما قبل الحضارة والإنجاز العلمي.. لأنه سيكون عصر القوة المدمرة بالتهديد"!!

ولكنَّ دور المفكر والأديب.. من الضروري أن ينبعث من تحت الركام، وإذا كانت المنطقة العربية قد عانت، وما زالت تعاني من تسلط القوة، وشراسة العدوان، وغياب العدالة عنها.. فهناك أمم سبقتها، ولاقت أكثر، بل ودمرت كل مدنها وحضارتها.. ولكنها انبعثت، وأنجبت المبدعين والملهمين.

• • •

فصل الروح عن العقل:

إن أخطر ما في هذه الغربة الثقافية، ليس: "المنتج" أو "المستهلك".. لكنه (المنظِّر) والمتسقِّط، والذي يطالبك بفصل الروح عن العقل، أو اعتبار العقل وحده هو النموذج، والروح هي "السلوك السري" في حياة الإنسان! وهذا هو الانفصام.. نجده في واقع الوجدان العربي!

الغربة: أن لا يستطيع كاتب عربي، في بلد "ثوري!" أن يكتب عن الحرية، فيصيغ قصيدة شعر.. يغازل ويلعن فيها امرأة!

أصبحت الأنثى ـ بالرمز ـ هي الوطن.. لأن الأنثى محرَّمة عند التعبير عنها، أو بتصوير أحاسيسها.. إما أن تكون "أماً" فقط، وإما أن لا تكون.. والمرأة العربية قد تخلت عن هذه القناعة، لأنها تحاول أن

تحارب. . لكثرة ما أشعرها الرجل العربي أنه "الفارس" دوماً، وهي "المهرة" أبداً. . ولكثرة ما عاملها على أنها: "هِجْرته" إلى نفسه، وهي تريد أن تكون: عودته إلى نفسه ووطنه!!

الغربة: أننا نحاول العودة إلى طفولتنا. . ونعجز!

الغربة: أن نكتب ما نشعر بأنه صوت الداخل في كل إنسان، ويرفض الإنسان صوته!

إننا نحتاج إلى "تنمية" المشاعر. . قبل تنمية الدخل!

(٢)

● في متابعتنا لأفكار، ولآراء (المثقفين) العرب، التي يطرحونها عبر وسائل الإعلام، ومن خلال مهرجانات الفكر، والإبداع. . لا بد أن نتوقف قليلاً، لنتساءل:

ـ إلى أين وصل (المثقفون العرب) بما طرحوه، وكتبوا عنه، ونادوا به. . هل تحقق شيء من ذلك، أم اكتشفوا أن صوت (المثقف العربي): يزداد وهناً وخفوتاً في زحام الإعلام السياسي والاقتصادي ؟!

وهل التفتت الأجهزة الرسمية المسؤولة عن الثقافة والإعلام في الوطن العربي إلى "بعض" ما طرحه هؤلاء المثقفين، وناقشته، وحققته ؟!

● ● ●

● أذكر موضوعاً ضخماً، وصعباً، ومثيراً، طرحه بعض المثقفين العرب من خلال ندوة تبنتها "هيئة الكتاب المصرية" ضمن فعاليات معرض الكتاب لعام ٩٣، وكان محور النقاش يقوم على هذه القاعدة: (وضع ميثاق للمثقفين العرب). . وقد كنت مشاركاً ـ في حدود ـ وتفاعلت خواطري

وأفكاري حينذاك في أجواء النقاش، وركضاً وراء تلك المداخلات التي يسهل على المثقف العربي كتابتها والمناداة بها، ويصعب جداً أن يجد من يبلورها: فكرة، ثم ميثاقاً للمثقفين العرب.. ومن سيعترف بهذا الميثاق من أجهزة الثقافة العربية، ويمنحه شهادة الميلاد؟!

حتى "مصر" التي تبنَّت إحدى مؤسساتها الثقافية الهامة والفاعلة ترتيب هذه الندوة بحماس شديد: لم تعد تذكر شيئاً عن ذلك الميثاق المقترح الذي (قد) يحمي المثقف العربي من الإهانة، والظلم، وتفسير أفكاره بهوى بعض السلطة العربية التي تضيق بحرية، وتطور الثقافة!

في عمق أزمة الشرخ الذي أحدثه "صدام حسين"، لم يستطع المثقفون العرب أن يقولوا الحقيقة بكل أبعادها... بل إن هؤلاء المثقفين اعملوا في بعضهم البعض: تجريحاً، واتهامات... فلم نعد ندري مَنْ العربي الخالص، ومَنْ العميل، أو المسترزق!!

• • •

● جميل أن يتجمع المثقفون العرب على أرض عربية، ليتصافحوا، وليتعانقوا، و... ليتبادلوا النكات، ولكنهم ـ حتى إشعار آخر ـ لم يتوصلوا إلى وفاق نفسي في أعماقهم، وفي ما بينهم!

أية وحدة عربية يُراد لها أن تنبثق من ميثاق ثقافي عربي، بعد فشل المواثيق السياسية.. وبين العرب مَنْ طعن مفهوم وأبعاد الوحدة، وتوحدُّ كلمة أصحابها؟! (وهذا المثال الآخر بعد العراق والكويت: اليمن واليمن)!!

هل تراها: وحدة القسر، والتمزق، والقتل، وسرقة الوطن؟!

لقد تسبب هؤلاء الطاعنون للوحدة وللتضامن في إدخال العرب ضمن دائرة التناحر الإقليمي، ليتشققوا بانتماءات تدور في معاني: التقدمي، والرجعي. . . والغني بالنفط، والفقير. . حتى يوغروا الصدور، ويوسعوا الخلاف. . ويقوم التناحر الإقليمي بإسقاط القدرة العربية على مواجهة التحديات التي تحوطها!

● إنه السؤال الموجع بأحداث الوقت الراهن. . في الوقت الذي يبحث فيه المثقفون عن "ميثاق" لهم، يعرفون أن لا أحد سيعترف به:

ـ ما هي "وحدة" الفكر العربي المطلوبة أولاً، ليبلور منها ميثاق للمثقفين. . وأي منهج، أو شعار، أو حتى رؤية، يقوم عليها ميثاق المثقفين؟!

● ● ●

إن الكلام لن يكون أقسى ولا أوجع من ألم هذا (المِلْح) الذي نثره مَنْ حسبناهم يوماً: رموزاً، أو مصلحين في مسيرة (العقل) العربي، والحكمة العربية. . فزاد الجرح العربي بملوحته: وجعاً!

(٣)

حلّقت في المدى. . ورقصت في السفر!

وخلف أجنحة الحمام الزاجل من الزمن القديم، انطلقت نظراتي وأفكاري، أو كأنّ حدقتيّ تترددان على المدى الأرحب. . تسترجع الزمان، وتطوف على الأمكنة، وتلملم الرؤى المتكسِّرة في الشروخ!

حدقتاي: ملآنة بالتعلق. . فائضة بالتجمُّع الروحي حينما يلتئم بكلمة من الصدق، وبنغمة من تلك الروابط التي أينعت بسبب خصوبة الأرض بالحب!

حدقتاي: مأخوذة إلى مئات وآلاف الأميال في تاريخ الإنسان.. في موجاته الحسية والعقلية.. في كل قدراته، وتعاطفاته، ووشائجه المجسدة في وحدة الأرض، والدم، والمصير.

وانتهى دور الحمام الزاجل، إلا دور رغّد أرواحنا بتأمل عطائه وقدراته!

وتبلور دور "الكتاب" وقد أصبح يمثل في عصرنا قدرة أكبر من دور الحمام الزاجل آنذاك!

كان الحمام الزاجل: "مرسال الهوى"، وكانت خطواته لا تخطئ.. حمل كلمات الوجد، والاطمئنان، ونقل الأخبار والأسرار، وشارك في الانتصارات والهزائم، وكان ذلك في الزمن الراحل.. يوم اهتدى الإنسان إلى مقدرة "الحمامة" على قطع المسافات، ومعرفة الأمكنة وتحديد التوقيت، وكان العلم بكراً، وفعل الإنسان بواسطة هذا الطائر الأليف الذي عبَّر بإطلاقه عن عطاء الحرية، وأثبت بحسّه تعطل القدرات.

فهل أصبحت الحمامة اليوم مصدر حيرة الإنسان وتساؤله؟!

ـ قالوا بتطرف ثقيل: لقد تغابى الحمام اليوم فلم يعد يوصل الرسائل.. لماذا ؟!

لأن نسبة الحمام المنطلق قد تضاءلت.. ولأن وسائل العلم الحديث قد استغنت بلا شك عن دور الحمام الزاجل.. ولأن "الحمامة": شعار السلام.. أصبحت اليوم مورّطة في ادعاءات لا تطيقها!

وربما كانت مصادفة أنني حين كنت أفكر في هذه الصورة.. كنت قد حدقت بتأملاتي في نقيضين صاحبا الحقبة الفكرية التي كتب وظهر فيها "أنيس منصور".. فقبل الترويج الإعلامي المصري لمعاهدة الصلح

المنفرد، بل وقبل أن يصبح أنيس منصور رئيساً لتحرير مجلة أكتوبر . . كان قد كتب، وأصدر بعض كتبه التي أثبت بها : "تعليق عضوية إسرائيل في العالم الحر أو العالم الإنساني!" . . لأنه كان يعتقد أن إسرائيل عدو لن يترك حقده على العرب ومحاربته للإسلام، فكان هذا هو الوجه العربي لأنيس منصور، ولقد كان أكثر إلحاحاً في العنوان الذي ردده وهو : اعرف عدوك!!

وبعد "أكتوبر" ثم معاهدة الصلح . . استطاع بقدرة عجيبة أن ينقلب على تلك الحقائق وأن يوظفها لغسل دماغ الشعب المصري والعربي، وأن يجد الشجاعة عنده ليقول: إن "الوجع في قلب إسرائيل" قد شُفي تماماً، فلا أحقاد فيه ضد العرب، ولا أطماع توسعية، وليقول: إن "الحائط والدموع" حقبة قد تم القضاء عليها، فالحائط سيسقط والدموع ستجف، وفي المقابل رد عليه "بيغن" قائلاً: الحائط سيبقى وسيكبر، لأن القدس ستبقى عاصمة إسرائيل! . . أما الدموع فسنكثِّفها في عيون العرب!

وليقول أنيس أيضاً: إن "جيل الصابرا" هو جيل الغد . . أو سيكون هو الجيل الذي نحاول أن نوحد بينه وبين جيل ١٥ مايو!!

وبذلك . . أصبح الاحتياج إلى الحمام الزاجل غير ضروري أبداً، لأن التعبير عن الحب ليس هذا زمنه في واقع روابط ووشائج الأخوَّة . . ولأن الرغبة في التجسس على العدو ولو بواسطة الحمام الزاجل لا داعي لها، فنحن قد أقمنا سلاماً مع العدو، ولا دخل لنا لو أراد العدو أن يتجسس علينا، فلديه أرحب الوسائل لتحقيق أغراضه (!!) أما "الحمامة" فإن أنيس منصور نفسه قد أثبت عجزها التام عن مواصلة دورها القديم . . حينما أخبر في واحد من كتبه فقال:

● "إن إحصائيات رسمية صدرت عام ٦١ تؤكد أن إحدى الهيئات أطلقت ثمانية آلاف حمامة زاجلة، ومن العجيب أن (٧٩٥٠) حمامة ضلت طريقها إلى العودة، والمسافة لم تتجاوز ٤٠٠ كم، وقالوا إن تفسير ذلك يعود إلى الموجات الكهربائية والمجالات المغناطيسية اللانهائية التي تطلقها موتورات المصانع والآلات، ومحطات الإذاعة والتلفزيون وشبكات الرادار، كلها سببت تشويشاً على هذا الطائر"!!

وهكذا.. فقد انتقل الإنسان من عصر الحمام الزاجل.. إلى عصر الإنسان الآلي، ولكن.. هل تنجح هذه "الآلية" في تعطيل جوهر الإنسان، ومميزاته كعاطفة، وكفعل.. كروح، وكإرادة وطموح؟!

● ● ●

* كيف تطور العلم ؟!

● لقد تأكد لنا ـ إذن ـ أن القضاء على الحمام الزاجل، أو إنهاء دوره.. كان بسبب تطور العلم الحديث، أو تطور العقل الإنساني، ولكن.. كيف تطور العلم، وكيف انتشر، وكيف بلغ العقل الإنساني إلى هذا المستوى من الشيوع والفعل؟!

ليست الآلة هي السبب، وإنما "الآلة" هي ثمرة العلم المتطور، وعطاء العقل المتعلم.

وليست هي الوسائل الحديثة للمواصلات، وإن كانت تلك الوسائل قد ساعدت على اختصار الزمن، لأن المواصلات الحديثة كالطائرات، والإذاعة، والتلفاز، هي نتيجة العلم المتطور، وعطاء العقل المتعلم.. وإنما كل هذه الوسائل، قد توافرت وتحققت بعاملين اثنين:

● العامل الأول: الروابط الإنسانية بين شعوب الأرض، وهي التي نستخدم لها تعبيرات خاصة. . مثل: السلام، الوفاق، المصالح المشتركة، وهذه الروابط هي التي دفعت العلم ليبتكر ويستحدث الوسائل المتطورة لتقليص رقعة العالم الواسعة، ولتقريب الأصوات، وربط الأفكار والآراء. . وهي التي أضاءت العقل المتعلم لتلمس اتصالاته الإنسانية، فالروابط الإنسانية قد مكنت الإنسان من اختصار الوقت وتقريب المسافات، وأحسب أنه لو كانت إسرائيل قد وجدت الفترة العظيمة من تاريخ الإنسان ـ فترة الاختراع والاهتداء إلى الوسائل المتطورة ـ لما استطاع العلم أن يفعل شيئاً لسلام الإنسان وحضارته وتفوقه العلمي. . لأن إسرائيل ستبادر إلى استغلال ذلك الاهتداء العلمي لمصلحة الدمار والحروب والتوسع، وستعمل على إبقاء شعوب الأرض في فاقة وضنك لتسودهم هي، وهذا يدلل: على أن إسرائيل لم تكن حضارية قط، أو ليس لها حضارة بمعنى التراث، والقيم، والآداب، والفنون، والعمارة، والتطور العلمي. . وبدليل: أن إسرائيل في حاضرها اليومي لا تهتم فيما تدَّعيه من بناء حضاري، إلا ببناء المفاعلات الذرية، وتكديس الأسلحة، وصناعة تلك الأسلحة. . أي إنها كيان يقوم على التدمير، ويتخلى عن عطاء الكلمة وأفعالها نحو استتباب الأمن والسلام لحياة الإنسان!

ولابد أن يشهد العالم في وقت غير بعيد ـ وبفعل إسرائيل ـ تقويضاً بشعاً مهولاً لشواهد هذه الحضارة الهائلة التي تحاول بها الشعوب أن تحقق الرخاء والرفاهية لواقعها. . فإسرائيل كيان تجمَّع من أطراف الأرض، لا تربطه وحدة أرض، ولا وحدة دم، ولا وحدة تراث، وإنما كل ما يربطه هدف التوسع والاستيطان فوق أرض عربية لا يملكها، وهو بهذا الهدف

يحلم بإنشاء (ولايات متحدة إسرائيلية) يكونها من التوسع والاستيلاء على الدول العربية!!

فالروابط الإنسانية: هي التي تمكننا من المحافظة على تطور العلم، والمحافظة على العقل المتعلم، بحراسة الأرض، والمقدسات، والتراث، والتاريخ الطويل... وبغير الروابط الإنسانية لن نستطيع أن نبني عصر الرخاء والرفاهية، وإنما بتحديات ومجابهة إسرائيل لنا سوف ننشغل في عملية انتشال الزمن من الغرق في محيطات هادرة من أحقاد الصهيونية، ومن مؤامرات الاستعمار، ومن مخططات الشيوعية.. وهي حراب مسمومة تتحد اليوم لتطعن هذا البناء الإنساني الذي أقمناه بالروابط الإنسانية!!

العامل الآخر: إن الآداب والفنون لا بد أن يكونا هما العلاج لكل هذه لكل هذه الصدمات والشروخ والإنفصامات التي أحدثتها الآلام والخوف والتهديد في الروح.. فعندما تهدمت ألمانيا تحت وابل القنابل، لم تجد شيئاً بعد الحرب والذل والانتهاك إلا أن تلجأ للفكر، وأن تتعزى بالفنون.. فالكتاب كان عاملاً مهماً في معالجة الروح في الشعب الألماني، وفي إفاقة العقل من الصدمة، وكان النغم هو المنظف السريع لوجدان الإنساني الألماني من الحزن، والآلام.. لئلا يستغرق الشعب الألماني في ذلك الحزن فيعجز أن يبني من جديد.. لأن قتل الروح في شعب ما هو قتل للطموح، وللإرادة، وللقدرة على الوقوف من جديد.

(٤)

● لماذا حاولوا قتل: الروائي، المثقف، المبدع النوبلي (نجيب محفوظ) ؟!

لا أكثر من إحداث: الرعب، والخلخلة في نفسية "المثقف" لتكريس "الخوف" في داخله. . فلا يجأر بكلمة الحق، ولا يدين الإرهاب الذي استهدف ـ قبل كل شيء ـ قتل الأبرياء، والأطفال. . تحت شعار: العودة إلى الدين!

والعودة إلى الدين من تعاليم الإسلام: وجادلهم في الأمر، والأمر بالمعروف. . ولم يحضّ الإسلام على قتل الأبرياء!

حتى لو اختلفنا مع كاتب كبير، جدّد في البناء الروائي، مثل "نجيب محفوظ". . فالاختلاف لا يمنع إلى محاولة "ذبح" رمز فكري وإبداعي كالشاة!

وإذا كان هؤلاء الذين يمارسون الإرهاب : قصدوا بجرائمهم هذه، إلفات انتباه الناس (لدعوتهم الدينية!) كما يقولون. . . فإن الناس لا تقتنع، ولا تتبع مَنْ أقام دعوته على: الدماء، وترويع الآمنين، وتخريب اقتصاد الوطن.

وإذا كانوا يقصدون: إحراج النظام السياسي في بلدهم. . . فالنظام لا تخلخله "حوادث" تكاد تكون فردية، وتستهدف رموز الوطن: سواء في الفكر، أو في الفن، أو حتى في السياسة!

إن النظام يبقى قائماً، بل ويزداد رسوخاً بدعم المواطنين له، في تعاطفهم ضد الإرهاب، وزعزعة الأمن والاستقرار، وتقويض الاقتصاد!

وأديب مبدع كبير مثل "نجيب محفوظ"، إذا تمّت تصفيته جسدياً، فإن الناس سوف يتدافعون إلى كتبه، وقراءة أفكاره التي قيل: إنها دوافع الإرهابيين هؤلاء لقتله. . وقد قال ناشر مصري بعد حادث الاعتداء على "نجيب محفوظ":

ـ لقد بدأنا في إعادة طبع روايات "نجيب محفوظ" بكميات كبيرة.. نظراً لإقبال الناس على شرائها، وسؤالهم عنها!

• • •

وجود "البطل":

● لقد كان هاجس "نجيب محفوظ": التركيز بإصرار على وجود "البطل" في رواياته، وذلك بسبب شعوره بانعدام "البطل" في الواقع العربي الذي يشكّل سمات هذا العصر!

● ففي رواية "ثرثرة فوق النيل": كان البطل المرموز إليه، هو: "النيل"، الذي يستقبل المراحل والعصور، والمتغيرات، ويصغي، ويفيض، ويشاهد تلك المخاضات، والعبور من فوقه وحوله!

● وفي رواية "القاهرة الجديدة": كان البطل هو: "التغيير"، أو الانقلاب الاجتماعي السطحي.. بما يشبه الطفو، ولا يتشبث بالأصول!!

وقد أرجع ذلك لأسباب عديدة.. أسهم الاستعمار بنصيب الأسد فيها، وأسهمت "الزمرة" بنصيب المنتفع فيها!

حتى دخل إلى عمق المجتمع، ونبش في تربته وجذوره، وجذبته التجمعات الشعبية في "زقاق المدق"، و"خان الخليلي"، و"القاهرة القديمة"، و"بداية ونهاية"، "أولاد حارتنا"، ثم "الثلاثية"... فكان البطل هو: الإنسان المصري، أو المجتمع المصري.. بوحدته، وبتراثه، وبتقاليده، وبمعاناته!

وحين اتجه إلى الروايات ذات المعالجات السياسية مثل: الكرنك، وثرثرة فوق النيل، واللص والكلاب، والحرافيش... فقد بلور شخصية

(البطل) من منظومة "التجريب الشعبي" لحكم الطبقة الاستعمارية، والطبقة العسكرية، والطبقة الحزبية، والطبقة المنتفعة، وليس أدلّ من ذلك التجسيد المؤلم ـ كارتطام! ـ في رواية "السراب" لشخصيات تطورت أساليبها فيما بعد في الكرنك، واللص والكلاب، على سبيل المثال!

ونعني بذلك كله: أن "نجيب محفوظ" قد اهتم بالناحية السلوكية المؤثرة في عمق المجتمع، وهي التي تُنضج شخصية ومقومات (البطل) أو تنسفهما!!

وقد ركّز على هذه الناحية، حتى كاد أن يكون "السلوك" ذاته هو (البطل) أيضاً في أغلب رواياته، وبالذات في رواية "ثرثرة فوق النيل"!

ويُرجع الدكتور "عبد المحسن طه بدر" في كتابه "الرؤية والأداة" ذلك كله في أعمال "نجيب محفوظ" إلى ما وجده هذا الروائي في فلسفة "برجسون" القائلة: "

● "أن الشعور والمادة.. صورتان من الوجود، مختلفان اختلافاً أساسياً، ومتعارضان.. وهما يتعايشان"!!

● ● ●

المثقف. . والحقيقة:

● من أقوال الروائي العربي النوبلي "نجيب محفوظ":

ـ " إن المثقف هو أقدر إنسان على معرفة الحقائق، أو الحقيقة"!

ومع ذلك.. لم يتوصّل إنسان على هذه الأرض، وعلى امتدادها أو تكويرها إلى: معرفة كل الحقائق.. مفصّلة، صريحة، عادية، مباشرة.. برغم أننا في عصر "ذري"، تكنولوجي، يسرع بنا إلى مزيد من مناهل

العلم، وتحقيق الانتصارات العلمية والفكرية، ومحو الأمية التي لدينا حتى الآن، وتخفيض البطالة.. حتى البطالة العقلية!

إن إنسان هذا العصر، بثقافته.. بعلمه.. بإدراكه المتفتِّح.. بغروره: لم يزل كثير من الحقائق الهامة غائباً عن رؤيته، وفهمه... وذلك لأن الإنسان يعيش عصره ينصف الحقائق!!

إن هذا "الإنسان" في حقيقته الأولى: جبار، وضعيف.. متسلط، وخائف.

إنه إذا ملك كل الحقائق، أو حتى توهم ذلك الامتلاك، فإنه يهدر زمنه وهو يملك نصف الحقائق، أو نصف الحقيقة، ويمارس إضاعة كل نفسه!

• • •

● إن "المثقف" ـ بكل ذخره، وكنوزه الفكرية، ومواهبه ـ لم يتوصل بعد إلى حقائقه كلها... وهو: أكثر الناس الذي يعانون من القلق، والتبعثر، والحيرة، وكثافة الأسئلة!

لكننا أمام إنجازات العلم، لا بأس أن نغتبط... لأن العالم ـ كله تقريباً ـ قد وصل إلى هذه المرحلة من "التفهُّم" لكيفية الاستمرارية في الحياة على علاّتها، وأثمانها، وصروفها.

ولعلنا نتمنى: أن يسود "الفهم" بعد التعليم، أو بعد هذا الزحام في ارتفاع نسبة الجامعات، والمؤسسات العلمية، والأدبية، والإنسانية... فإذا بلغنا مرحلة الإدراك الجيدة، إستطعنا أن نطور مفاهيمنا للحياة!

• • •

فنان. . لا مكانيّ:

● "نجيب محفوظ" فنان تؤلمه حياة الرتابة، أو رتابة الصمت الذي يخاف الكلام. . لذلك تراه يخرج من بيته في هذه السن متثاقلاً ليكسر حدة الرتابة والصمت. . . وهو في رواياته يتحرك دائماً. . يتكلم باستمرار. . يضطرب!

إنه: لا مكانيّ. . بل هو مجموعة أمكنة لا أزمنة. . يتطلع إلى عيون الناس من خلف نظارته، ويرثي الحب في حدقاتها. . . ويتطلع إلى حدقاتهم ويصفها بـ "نبيذ الكذب". . . وينظر إلى شفاههم الحاكية، ويتساءل: لماذا الحب إذن؟!

في أغلب رواياته. . تحدث عن الحب، وصوره، ووصفه. . وعن (الأماني الغالية التي تصير بلا قيمة!)!!

● وجاءه يوماً صحافي يطرح عليه هذا السؤال:

ـ ألا يكفي الإنسان ما يناله من حب أهله؟!

وكأنه أراد أن يردف سؤاله بعبارة: هذا إن وجد الآن!!

● ولكنه رفع رأسه وأجاب الصحافي:

ـ أبداً لا يكفي. . . إنه حب بلا مناقشة. . حب غبي. . حب مستقر أو مقرر. . حب منهجي لا ينقطع ولا يمتنع، لا اجتهاد فيه، وليس حباً للشخص ذاته، وإنما هو حب لوضع معين!

ونحن نبحث حقاً ـ عن: حب ذكي. . حب بمناقشة، واعتصار، واختبار، واختيار. . حب غير مضمون لأي نجاح ما لم يكن احتمال الفشل راسياً على أحد راحتي الميزان!!

الجمال: نقطة غير محددة:

"نجيب محفوظ": فنان يكتب عن الجمال، ويصوره، ويصفه.. وهو لا يستر نفسه.. إنه يقف في العراء، وينادي على كل المختبئين:

إن الجمال: نقطة غير محددة..

إن الجمال: يذوب، ويتمدد، ويتفاعل، ويتأكسد، ويخاطب الناس.

إن الجمال: يمنع حدوث الانهيارات في النفس.. وذلك بإحداث الانهيارات في كل حواجز الغباء، والقبح، والمنهج الرتيب، والتقرير البليد!!

● ولم يزل "نجيب محفوظ" يمسح عن نظارته الطل، وعن نظراته الزحام... ويتأمل الناس اليوم من بعيد، بعد أن كان يخوض لجّة زحامهم، وأمواجهم، وتدافعهم، ويختلط برائحة حواريهم، وأزقتهم، ويستطعم الكلمات الشعبية المميزة... حتى صار الروائي العربي الذي ارتبطت إبداعاته بالحارة المصرية، وبالكفاح الشعبي!

لكن الحاسة التصويرية عنده قد تباطأت في أعماله الأخيرة.. كأنه يعلن عن التعب.

وربما أراد نجيب محفوظ أن يعلن عن الوصول إلى القناعة القائلة:

ـ ليس في الإمكان أبدع مما كان!!

والإنسان/ الفارس: لا تتوقف به شيخوخة العمر.. بل تصقله أكثر، وتجعله لامعاً تحت وقدة الشموس اللاهبة، وفي ظلال الزوايا المعتمة.

وقد عبر نجيب محفوظ مراحل سياسية عدة، وكان أعظم ما كتبه: قد تمثل في "الشرائح" التي صورها في هذا الإطار... بعد ثلاثيته المشهورة:

كتاباً: وتلفازاً، وسينما، و. . . ربما مسرحاً!

• • •

التجربة حين تواكب الثقافة:

● بعض العصاميين. . تكتشف فيهم: ما يأخذ بإعجابك إلى الذروة، وربما الذهول!

لا تصدق أن هذا "العصامي": علّم نفسه، ورعى ذهنه حتى وصل إلى معرفة (جزء) من أبعاد الحياة بإدراك متفوق. . . ولكنها التجربة حين تواكب الثقافة غالباً!

وهناك من يستظرف، فيقول:

ـ ليس من المنطق، ولا من المعقول: أن تجعل كل فرد في الأمة مثقفاً، وإلا فقدنا هذا الإنسان العادي، أو العفوي، أو البسيط جداً: (الثقافة مدعاة لتعقيد الحياة، والموت في سبيل الحقيقة)!!

والناس في بعضهم: يحرصون على وجود مثل هذا النوع بينهم. . حتى تقوم الحياة في جانبها الآخر بما يعتبره الآخرون: ضرباً من الحظ الأعمى، أو الفرص التي ضلّت طريقها الصحيح. . . فيعيش: التسابق، والعراك. . إلى درجة الحسد!

• • •

● فإذا كان كل الناس: (مثقفون). . لم تستفد الحياة شيئاً ولكنها تفقد بساطتها ربما!

وإذا كان كل الناس: (أغبيون) ـ على وزن مثقفون، أي أغبياء ـ فلا ضرورة للحياة، أو. . . لا ضرورة للإحساس بالحياة، وبالتالي: للدفاع

عن هذه الحياة... مثل ذلك الذي أتعبه (فهمه)، وعذبته أفكاره، وتأذى من اعتراضه على الحال المايل، فقال غير مبتسم: (اللهم اجعلني حماراً لا أفهم... حتى أستمتع بالحياة)!!

وإذن... فإن طبيعة الحياة تتطلب: وجود المستويات العقلية والفكرية... ونحن لا نطلب أن تكون الأمة ـ كلها ـ من المثقفين والعباقرة، بل نطمح إلى بلوغ المستوى الذي يمور فيه العلم، حتى قفز بالإنسان إلى سطح القمر!!

(٥)

● لم يكن «حواراً» عن عطاء الكلمة ودورها، وعن مسؤولية الكاتب والمناخ الذي يتطلَّبه ذلك العطاء، وحجم المسؤولية... بقدر ما كانت «مشاكسة» ابتدأها شخص عُرِف في هذا الوسط بإشعال الحريق.. بالكلمة الاستفزازية، أو بالرأي العنيف، أو المخالف... وربما: الجارح!

إنه هجر الكتابة منذ زمن، وقال مبتسماً.. كأنه يتشفّى من كل واحد:

ـ الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خَلْقه!!

ولكنه يقرأ، ويتابع، ويحلو له في بعض الأحيان أن يُشكل من «الكُتَّابِ» حجار شطرنج، يصنفهم على رقعة لعبته كما يستمزج... فهناك الكاتب: الحصان، والكاتب القلعة، والكاتب العسكري، والكاتب الوزير... لكنه يؤكد، من خلال ما يقرأ في صحف العالم العربي كله: أنه ليس هنالك الكاتب/ المَلِك... أو الكاتب الأعلى والمتفوق والباهر!!

وفي ذلك المساء... تحدث هذا المشاكس عن انطباعاته نحو ما يقرؤه في الصحف، وإذا به يرغي ويزيد، وينفعل، ولعله يتحامق... فيقول:

● اسمعوا. . . أنتم يا من تكتبون في الصحف الآن، وتُصدِّعوننا بكلام مكرور. . . لكي تظهر صوركم مع مقالاتكم، أو "رَغْيَكم"، لقد سئمناكم، ومللنا من عباراتكم. . . لأنكم تدورون في حلقة مفرغة. . . لأنكم كففتم عن كتابة الكلمة الجيدة، والفكرة الجيدة، والرأي الصريح، كأنكم تُروِّجون للكلمة العانس!

سأله بعض الذين يكتبون: ما الذي تريده بالضبط، وتبحث عنه ؟!

● قال: أن ينظف الكاتب العربي عموماً قلمه من الكلمات التي تلوَّثت بالخوف، وبقرع طبول الحرب، وبالإثارة المكشوفة بلا ذكاء!

لابد أن تُغيِّروا جلود كلماتكم، وتطوروا أفكاركم، وتقدموا للقارئ غذاء روحياً وعقلياً: طازجاً، وصادقاً، وفياضاً بالإحساس!

● ● ●

● أصغيت ـ مع من أصغى ـ إلى هذا المشاكس الذي يستفز بسلبية عجيبة، فقد كان يكتب وانسحب. . ولم يعد أحد يعجبه، ويَصِف الكثير من الكلمات التي يقرؤها بأنها: ملوّثة. . تثير اهتمامات بعض الناس، وتستقطب التعليقات المباشرة، ولكنها لا تقوى على الحياة والاستمرار في أذهان الناس!

وكنت أرغب أن أطوّر الحوار معه. . . فنحن لا نختلف معه في بعض الإشارات التي طرحها، وأيضاً لا نتفق معه في الطريقة التي احتد بها، وأسقط معاناة الكاتب، والطقس العربي، والمتغيرات!

وإذا كان المشاكس قد وصف الكلمات بالتلُّوث. . فلا بد أن يجد ما قصد ووصف، دون أن يجعل الحُكْم مطلقاً!

* إن هناك بعض الكلمات المرتبطة بما يسميها السلوك: ظواهر... مثلما أنها تعني في التعامل، عيباً، أو ذماً، أو نقصاً، أو مرضاً في النفس... والكاتب ـ في كل الأحوال ـ إنسان من هؤلاء البشر!

ولكنَّ إطلاق الأحكام جزافاً، أو احتداداً، أو تنفُّجاً، أو استعلاء على الآخرين... لا بد أن يعبّر ـ أيضاً ـ عن تلوث نفسية، أو انطباعات مُطْلِقها أو مُروِّجها... لأنه عجز عن شيء، أو فشل في شيء، أو "تعقَّد" من شيء!

ويبدو أن مشكلة العالم الثالث عموماً.. صارت تنحصر في أدواء المثقفين، أو في الخلخلة النفسية التي تهزمهم من الداخل!

فإذا كان «المثقفون» في العالم الثالث يشكون من الشعور بالتلوث، ويُضخِّمون هذا الشعور في الآخرين، ثم يمقتونه... فإنهم يعانون ـ بلا شك ـ من التعبير الصحيح الغائب، ومن الحوار النقي فيما بينهم.... لأنهم يتوقون إلى ممارسة "التعدِّي" على كل شيء بشعار يرفعونه، ويرددون:

ـ أحلامنا فسدت، وقدراتنا مشلولة... فأين قيمة الثقافة ودورها؟!

ذلك هو مرتكز، أو محور "الفرجار" الذي يريد أن يحمله كل مثقف في العالم الثالث، ليرسم به دائرة واسعة، يحبس في داخلها قناعاته، وأفكاره، ورؤيته.. ويدور حولهم!!

وبرغم أن التربويِّين، والمعلمين، والموجهين، والمفكرين، ووسائل الإعلام... يحاولون جميعاً أن يهتموا بالمعالجة ـ عبر الكلمة والترشيد والتثقيف ـ من داخل الإنسان: حضارياً، ومعرفياً وتمديناً.... لكنَّ هؤلاء أيضاً يُهملون العناية المطلوبة، بل والضرورية لقيمة الإنسان، ولأحلامه!

إن قيمة الإنسان في هذا العصر. . لا تحميها قواعد ثابتة، ولا حدود سلوكية. . . بل هناك تسبب في مدى (التعدِّي). . مثلما هناك أيضاً معركة إفسادية ضد فعاليات الإنسان. . يتمّ استخدام الكلمة فيها، واستخدام "الحلم"، واستخدام الثقافة!!

وهنا. . . أسترجع أصداء صوت «أراجون». . . الذي كان يردد:

● "إن معركة حياتي تتلخص في التعبير عن أشياء خارج كياني. . سبقتني إلى هذا العالم، وستظل بعد أن أتوارى عنه"!

وإذا كانت الكلمة مهددة بالتلوث. . . فذلك لأن أحلام الإنسان هي الأخرى مهددة بذلك التلوث!

وإن أبسط فعالية لتفشي ذلك التلوث، تتمثل في: اختلاط الألوان، وفي اختلاط السلوك والممارسات!!

وتتمثل كذلك في: التلون النفسي، وأخطره: اختلاط الألوان في أفكار الناس، وفي مناهج فكر المثقفين أنفسهم، وحتى في عواطفهم (!!).

ولقد قيل: إن الأشياء الملونة تتضح أكثر. . . فالألوان المتعددة ليست للزهو فقط، وإنما هي ـ بالنظرة الفنية ـ لرؤية كل لون على حدة، ثم رؤية اللون الواحد متجانساً مع عدة ألوان!

وفي القديم، وقبل أن يصبح اختلاط الألوان دلالة على اضطراب النفس. . . كانوا يقولون:

ـ إن السماء تبدو أجمل بعد نزول المطر!

ولا بد أن عطاء الكلمة، ودور المثقفين، بعد التعبير، والحوار، والإبداع. . يمثلان نزول المطر، وهو ما يفتقده القارئ في هذا الصخب!

لكن "الألوان" الآن... تتحكم، وتؤثر حتى على أحلام الإنسان!

ولابد أن هذه "الألوان" في ما يطرحه المثقفون... قد أثَّرت على أحلام الإنسان، وفي تلقِّيه لهذه الألوان التي تبدو متصارعة ومصطرعة!

• • •

● لقد تذكرت: كيف أن "الكاتب" "المرجوم بالالتزام اليومي".. إنما يشبه "المثل الذي لا يملك إلا قطعة صلصال واحدة.. ولا بد أن يعطيها في كل يوم شكلاً جديداً، أيحاول أن يُشكِّل منها ملامح ربما جاءت جديدة... ثم يتعرض للذم، وللقدح، وللتقريع!

لكن قطعة الصلصال هذه لم تتغير، ولم تتعدد فتصبح عدة قطع... إنها واحدة فقط!!

ولعل الجانب الآخر من المشكلة... يكمن في هذا (الواغش) الذي ازدادت كثافته... فأنت لم تعد تقدر على إحصاء عدد الذين يكتبون، ولكن المجال مفتوح لكل "كلام" يقال... "ومن علامات الساعة: فُشوُّ القلم"!!

إننا نطالب بتشجيع المواهب، وإفساح المجالات لظهور الشباب: في أفكارهم، وفي طرحهم، وفي ثقافتهم، وفي أدبهم وإبداعاتهم... ولكنْ لابد أن نختار، ونكتشف، وتشدنا الموهبة التي تعلن عن نفسها!

إن البعض يحاول أن يحطم البعض الآخر... برغم اتساع الساحة، وضجيجها، وغثائها!!

• • •

● ذات يوم. . . تلقيت رسالة مطولة من "قارئة" طرحت سؤالاً، وألحت على إجابته:

ـ هل تكتب من واقع تجارب تمرُّ بها، وتعايشها، وتقاسي منها، وتعاني أحياناً. . أم أنك تمتلك خيالاً خصباً، تدعه يمتزج بتجارب الناس والحياة عموماً؟!

وخلت أن الإجابة لابد أن تكون بديهية. . يعرفها القارئ المطلع، والمتابع، والناضج.

وهذا السؤال واجهني كثيراً، خاصة بعد الرواية القصيرة التي أصدرتها بعنوان: (جزء من حلم)!

ولكنَّ الكاتب، وهو يتوق للنجاح من خلال صدق العمل الإبداعي، ولابد أن يلتحم بالناس، وأن يسبر أغوارهم، ويصغي إليهم، ويبلور همساتهم وصرخاتهم وشجونهم!

والكاتب إنسان. . شريحة من ملايين الشرائح الإنسانية، له نفس العواطف، والصغائر، والقِيَم، والمثل، والرغائب، والأحلام. . . لكنَّ الفارق يتضح في نسبة الوعي، والثقافة، والنضوج، والقراءات. . . وفي صحة النفس!

الكاتب إنسان. . . يجرب ويعاني، ويحلم، ويستطيع بذلك كله أن يجسِّد الناس من داخله وبصوته. . . وأن يجسّد داخله من خلال حكايات الناس!

لكن المشكلة لا تتوقف هنا أبداً!!

عندما ينحرف إنسان عادي. . . فإنه هو هذه الشريحة التي تتشابه مع

آلاف الشرائح الإنسانية. . . له ظروفه التي تهزمه، وله أشياؤه الصغرى. . . وهذه خسارة إنسانية!!

لكن المثقف يعني: الفكر، والوعي، والنضوج، وقيادة الرأي العام، وتوجيهه، وترشيده. . . فإذا أصيب فكره بداء، أو انحراف، أتخلخل نفسياً. . . فهذه خسارة قومية، وحضارية، وثقافية!

وليس ذنب "المثقف" في كثير من الأسباب التي تؤدي بالبعض إلى الإحباط، أو الخلخلة. . . بل يندسُّ الذنب في دوافع تلوث الكلمة، وفساد الحلم، وممارسة (التعدِّي) باسم الثقافة على كل شيء!!

لقد شدَّني ـ أخيراً ـ عبارة لم تكن عابرة. . . بل تجذب إلى معانيها وأبعادها، وتستأهل التأمل:

● "أكثر ما يخيفنا في ـ الفاهمين ـ المعاصرين، هو: عجزهم عن إدراك ضرورة استناد المجتمع الإنساني إلى قواعد عامة في السلوك، والنزاهة، والضمير، والعمل، والاستقامة، والتفوق، والتجرُّد. . . مهما كان الأساس السياسي، والإقتصادي للمجتمعات"

ـ أزمة الكتاب والكاتب

● إن الشيء الوحيد الذي يستخرج هذه البلاد من أوضاع التخلف والتجزئة، والدينية المتطرفة، ويقربها إلى الدين نفسه معاً. . هو النجاح على صعيد العمل العربي الموحد، إذ من هذا النجاح سينتشر الدفء الثقافي والحضاري الصحيح الذي تفتقده جماهيرنا نتيجة العزلة والتباعد والأحلام الصغيرة. . ومن هذا النجاح ستعود الأصالة والمعاصرة إلى حياتنا، وروح الوحدة مهما تكن متواضعة قادرة على تغيير الكثير مما تشكوه في أكثر من ناحية من نواحي حياتنا!

منح الصلح/ لبنان

● إنها عملية خطيرة. . لا أحسب أنها تتعلق برغبة إقامة حضارة على أنقاض حضارة.

وإذا قلنا: لليهود حضارة بالتجاوز، فإن المستوطنين للأرض المحتلة ليسوا هم اليهود، وليست لهم حضارة بهذا المعنى العميق والكبير.

إنما هو فِرَق تجمّعوا من بولندا وروسيا وأميركا، ومن أطراف الأرض، واستحوذوا على الأرض العربية الحافلة بالحضارة القديمة والأصيلة والتليدة.

والروابط التي تجمعهم وتوحدهم هي روابط الاستعمار، أو التوسع، أو استلاب أراضي الغير!

ثم يأتي بعض من مفكري ومثقفي العرب، ويذهب بصوته وفكره إلى عدوه، والمفكر هو صوت وضمير، ويذيع عبر إذاعة العدو، وبكامل قواه العقلية: "إن الروابط بين إسرائيل والدول العربية قديمة وتاريخية وعميقة، أو كأنه يفعل التجهيل للتاريخ وللفكر العربي من خلال غسل دماغ الجيل العربي الجديد ـ جيل ١٥ مايو"!!

وهكذا ـ أيضاً ـ اتجه الفكر العربي إلى إدخال الأدب الاسرائيلي الحديث، أو (قلة الأدب) الإسرائيلية الممارسة ضد تراث وتاريخ العرب.. إدخال تلك إلى بعض وسائل الإعلام، وإدخاله إلى الكلمة العربية بين الكتب التي ستصدر بفنون الأدب المتعددة:

شعراً، وقصة، ودراسة تاريخية، وفنوناً، وحتى نغماً.. إلى درجة الترحّم على داؤود حسني!!

وسوف يواجه جيل ١٥ مايو ـ وهو الجيل المقابل لجيل الصابرا الذي ألف أنيس منصور كتاباً ـ سيواجه تزييفاً للتراث العربي، وللفكر العربي.. وسيكون ذلك عبر مخطط مدروس يتمثل في الظواهر القادمة الآتية:

● **أولاً**: تغيير المناهج الدراسية في بعض الأقطار العربية.. بما يتفق، و "روح" السلام الجديدة، أو طلوع الروح، وذلك ما صرح به وزير التعليم في مصر إبان مرحلة مباحثات كامب ديفيد!

وهذا التغيير في المناهج الدراسية.. سوف يكون بمثابة غسل الدماغ لجيل (١٥ مايو) الجديد...

كما قال وزير التعليم المصري: لنزع الحقد من صدور الجيل المصري الجديد ضد إسرائيل، وتقبُّله للسلام الجديد!

ولعل هذه الخطوة هي الأكثر خطورة.. لأنها نسف للتاريخ وللتراث العربي.. بل وتعتبر وأداً لحضارة السبعة الآف سنة إياها!!

● **ثانياً**: وفقاً للمخطط المدروس الهادف إلى نزع الغل والحقد على مغتصبي الأرض العربية وقاتلي أبنائنا وأطفالنا، ومدنّسي مقدساتنا... فسوف يبادر البعض ـ خضوعاً لأمر الدعوة للسلام ـ إلى ترجمة الكتب الإسرائيلية من العبرية إلى العربية، وفي مقدمتها رواية ابنة دايان "رابيل"، التي صدرت قبل سنوات طافحة بالحقد على العرب!

وبهذه التراجم من العبرية سيساعد المفكر العربي على إنجاح مهمة الإعلام الصهيوني الذي جلسنا سنوات عديدة في مؤتمرات الإعلام الصهيوني ومحاربته في أميركا وأوروبا والشرق، لتصبح الرؤية للرأي العام العالمي عن: القضية العربية، والحق المشروع، وتحرير الأرض!

وبهذه التراجم العربية.. سننقل أيضاً الفكر الصهيوني المعاصر القائم على إبراز طبيعة العرب بأنها طبيعة دموية، قتالية، تدميرية، مخرّبة.. مثلما قال الإعلام الإسرائيلي في دفاعه أمام الردع العربي لمبادرة الصلح المنفرد!

وبهذه التراجم من العبرية ستتبلور طبيعة العلاقات الثقافية والفنية التي ستقام بين العرب والعدو بعد التمثيل الدبلوماسي!

● ● ●

* طبيعة الصراع المحتدم:

● **ثالثاً**: إذا أقررنا أن طبيعة الصراع المحتدم اليوم في منطقتنا.. يعتبر حرباً تستخدم فيها الثقافة، ويوظف فيها الفكر، ويُسخَّر المنطق للتجانس مع متناقضاته.. فلا بد أن نلتفت إلى البحث عن:

● دور المؤسسات الفكرية، والدينية، والعلمية في العالم العربي.

● دور الجامعات والمثقفين لمجابهة عملية نسف التاريخ والتراث العربي، وعملية غسيل الدماغ التي تتم اليوم بدعوى السلام... حتى إنهم استخدموا الآيات القرآنية الكريمة لتفسيرها وفق الهوى السياسي!

● وكيف يتجاهل العرب والمسلمون: قضية تحرير القدس (أولى القبلتين، وثالث الحرمين) واليهود يصرون أن القدس عاصمة لإسرائيل للأبد؟!

وكيف يوافق علماء المسلمون على إيهام الشعب المسلم: بأن القدس لا أكثر من "قميص عثمان" تستخدمه الدول العربية؟!

وهل معنى الخدعة يتضح في الإصرار على تحرير القدس، أم في التهاون والتنازل والاكتفاء بغزة التي لا تريدها إسرائيل، وبأريحا التي يدخل إليها "عرفات" بتصريح إسرائيلي ؟!

وإذا كانت الجامعات العربية ـ إنطلاقاً من التزامها بأصالة الثقافة العربية، ودفاعها عن تزييف التاريخ العربي.. استطاعت أن تؤكد: وجود العلم، أو الكتاب ـ فإن "الأزهر" فيما نعتقده يعطي دوراً أكبر، ويتصل بالروح.. فهو لسان من ألسنة الإسلام أو الفكر الإسلامي.. والقدس: قضية إسلامية في الدرجة الأولى، وقضية أرض وكرامة وحرية!!

● ● ●

● وبعد...

فإننا ـ في كل ما استعرضناه هنا ـ لم نكن نستهدف مناقشة ظرف سياسي نشأ في حموة النضال العربي ضد عدوه بغرض تبديد ذلك

النضال.. فهذا الهدف في الإطار السياسي قد تناوله المحللون السياسيون من ذوي التخصص والمتابعة للظواهر السياسية المستجدة.

وهكذا ـ ورغم المرارة والتقافز السياسي بالوقت ـ فما زالت حدقتاي مليئتين بالتعلق.. تفيضان بالتجمع الروحي حينما يلتئم بكلمة من الصدق، وبنغمة من تلك الروابط التي أينعت بسبب خصوبة أرضنا التي تطرح الحب دائماً، وتنفي الشوك عن تربتها!!

● **هل نحن أمة لا تقرأ؟!**

طرح هذا السؤال على الأمة العربية: الناقد اللبناني "**جهاد فاضل**" في عام ١٤١٠هـ .. في محاولة منه للإجابة عن هذا السؤال المعاد، والحاد، والمجيَّر في كل عام، والمتروك بعد ذلك طوال العام.

ولا بد ـ في بدء مناقشة هذا السؤال، والتعامل معه ـ أن نجد ركائز هامة لقواعد الحوار... وفي مقدمتها:

● **أولاً**: نسبة المكتبات في عالمنا العربي، ونسبة المكتبات في بلادنا، والخدمات التي تؤديها!

● **ثانياً**: عدد دور النشر والتوزيع، على امتداد الوطن العربي.

● **ثالثاً**: نوعية الكتب التي تهتم دور النشر والتوزيع بطباعتها، وترويجها.

● **رابعاً**: نسبة إقبال القرّاء على المكتبات لشراء الكتب.. بعد فرز هذه النسبة عن قرّاء الصحف، والصفحات الرياضية بالذات، والمجلات الملونة!

● **خامساً**: دور المدارس والجامعات في إعداد الشباب للقراءة،

ولما يسمونه في الجامعات الكبيرة في الخارج "السمينار"!!!

● **سادساً**: دور النوادي الأدبية ـ نفحنا الله من بركاتها! ـ نحو تشجيع الكُتَّاب على طباعة، ونشر مؤلفاتهم، وإبداعاتهم!!

وهناك من يُحمِّل دور النشر بالذات: كل المسؤولية في تردِّي رواج الكتاب، وحث الشباب على القراءة.

وهناك من يُحمِّل وسائل الإعلام، والتلفاز في مقدمتها، مسؤولية قيادية في جذب اهتمام الشباب إلى الكتاب.

وهناك من يلتفت إلى "البضاعة" المطروحة.. بغرض طباعتها، وتقديمها.. أو بعد طباعتها، وتوزيعها.. ومدى الإقبال عليها!

وأتذكر فكرة طرحها قبل أعوام: الكاتب، الصديق، الدكتور "شاكر النابلسي" ضمن مقال له، كان عنوانه "فكرة مجنونة.. لمجتمع عاقل" قال فيه:

● "لماذا لا يكون في هذا الوطن الكريم صندوق خاص لتمويل مكتبة الطالب.. يتلقّى تأسيس مكتبات للطلبة غير القادرين مالياً، لتكون نواة لمكتبة بيتية" ؟!!

وهذه الفكرة تنبثق منها: صناديق ثقافية متعددة.. تموّل مكتبات تنشأ للشباب، للأطفال وتهتم بكتاب الطالب، وبالكتاب الوطني.

والفكرة.. رسالة وطنية، تخدم انتشار الكتاب، والثقافة، وتعين الشباب على التزود بالمعرفة.

والفكرة إذا كانت مجنونة.. فذلك من مفهوم واحد، لعله يتساءل:

مَنْ هو التاجر، أو رجل الأعمال، أو صاحب الرصيد الكبير.. هذا

المجنون الذي يرضى أن يبعثر فلوسه في مشروع لإنشاء مكتبات؟!!

ولكننا نشاهد في العالم من حولنا: الصناديق الثقافية التي أنشئت، وأثبتت نجاحها وقدرتها على تحقيق الهدف وإفادة الشباب!

لقد نجحنا في المشروعات الصناعية والزراعية والتجارية.. ولكننا أهملنا التفكير الجدي، والمثابر، نحو إرساء مثل هذه المشروعات الثقافية التي تخدم عقل الإنسان، وتذّكي وجدانه!!

• • •

*** الأدب: يعزز سلطان الحرية:**

● تحضرني الآن عبارة ضمَّنها أحد كتبه: المفكر التونسي، السياسي سابقاً، الأستاذ "محمد مزالي" عن الأدب، والأديب.. لعلها تأتي ـ هنا ـ منطلقاً على سؤال ما زال حائراً منذ أمد طويل.. يتسكع في أروقة الكلام حول رسالة الأديب، وكيف نستطيع أن نحددها في هذه (الهوجة) التي أبرزت لنا عصراً تنطبق عليه صفة: (تفشّي القلم)!!

● قال الأستاذ "محمد مزالي":

(إن الأدب يغالب المادة، ويواجه العبث.. ليكون خليفة من الله في الأرض!

إن الأدب فن.. والفن لا يُفرض فرضاً، ولكنه لا يكبت أيضاً!

إنه كريح الصَّبا.. يعمل عمله، ويؤثر في حياة الإنسان، ويساهم في تبديل نفسيته!

إن الأدب يعزز سلطان الحرية!

إنه تلقيح.. يقي من تبعات العجز، والنقائض، والخوف، والجبروت، بكل ألوانه)!

واستوقفتني هذه العبارة وقتاً طويلاً، وأرهقتني.

وفي رأيي: أن "الحيرة" هي النقطة الأولى في انطلاقة الأديب إلى إنطلاق رسالته، في كل فكرة تولد بعد ذلك!!

وهي: انطلاق المخاض في التفكير، وصياغته!

إن "الحيرة".. تُمثل تعبيراً عن: الرغبة في البحث والتجريب.. أي إنها: التعبير عن مولد فكرة، وعن صلاحية التفكير للعطاء، وللاكتشاف!

● لقد قيل: "إن الأديب يمثل حجم إنسانيته"!

والأديب ـ أيضاً ـ هو "كيف" نفسه، وهو "كم" تحدياته!

إن العالم اليوم: ثقافي، وحضاري، ومتمدن.. وهو ـ أيضاً ـ سفاح، ومحارب، ومبدد!

وإذا كانت عبارة ـ مزالي ـ قد استوقفتني.. فهناك عبارة أخرى لطمتني بعنف:

● (لا بد من اختطاف بحر الأمية إلى مرفأ الأدب!

لا بدَّ من اختطاف زبائن الكلمات المتقاطعة، و "بختك" هذا الأسبوع، وزبائن النكتة)!

لا بُدَّ من اختطاف نوادر "أي جحا" معاصر.. يتكرر في شكل كاتب، يدّعي الفائدة.. فلا تجد عنده الشعور بإمتاعنا بها!

● ● ●

● وإذن. . فمن الضروري أن يؤدي "الأدب" رسالته، من خلال دوره نحو هذه الرسالة العظيمة التي تواكب استشراف الإنسان، في واقع التطور، والتقدم الاجتماعي، وانتشار الجامعات!

والكتب التي تصدر في العالم العربي. . تبدو نسبتها أكثر تواضعاً الآن، أو أنها لا تتفق ونسبة ما كان يصدر من كتب في الأربعينات، وحتى الستينات، في قلة الإمكانات الطباعية الحديثة، ودور النشر والتوزيع. . ولا تتفق مع نسبة الجامعات، ووسائل الإعلام والوعي!

والسبب: أن رعاية الأدب في ذلك الحين كانت: رعاية أصالة في نفس الدارس، والقارئ، والمتجه إلى المعرفة!

ورغم انشغال المنطقة العربية بهجمات الاستعمار. . فقد كان "الأدب" له صوت: الحرية، وصوت: النضال، وصوت: العلم!

وكان "الأدب" يحرص على المحافظة التامة، على: التراث، وقيمة الإنسان العربي. . ويتوجَّه إلى الإرتواء الدارس من العالم. . وأن يشرئب المثقف إلى العطاء، والإسهام بدور الكلمة!

وإذا كان "أبو حنيفة" قد شعر بضيق من شخص لم يجد لديه علماً، ولا معرفة. . فقال عبارته المشهورة: "آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه". . فما الذي يمكن لأبي حنيفة أن يقوله لو عاصر هذا الحاضر؟!!

● ● ●

❋ الإعلام عن أدبنا وثقافتنا:

● لقد انشغلنا في السنوات الأخيرة عن "الأدب" والفكر. . بالتنظير، وبالإدعاء!

وانشغلنا عن الإبداع.. بالتحليل السياسي، رغم قلة المبرزين في هذا الفن حتى الآن!

وانشغلنا بالمذكرات الشخصية التي تصدر في كتب، وترتبط أحداثها بفترات سياسية، أو بنظام سياسي!

وحدث ذلك اللغط الذي فتح الأبواب لكل من هب، ودب، وخب!

وإذا أردنا المقارنة بين "التراث" العظيم، الذي يحفل به أدبنا العربي، وبين هذا (المطروح) اليوم في المكتبات، وعلى صفحات الجرائد.. فإن الحصيلة لن تعطينا إثبات تأدية الرسالة من "الأدب".. كدور، وقضية، وفكر!

حتى الكتب التي صدرت بمحتوى الدراسة، أو النقد.. فهي قلة، وبقلتها هذه نجد أن الكثير منها مترجم، ومنقول من مدارس أدبية، وأيديولوجية غربية، عفى عليها الدهر!

وهي كتب لا تكاد تشغل القارئ والباحث، بل تشغل أصحابها، وأنصار مدارسها، والمروجين لأفكارها وأيديولوجيتها!

وهكذا.. صار الإهتمام مشرداً بين انفتاح وسائل الحضارة، أو وسائل الإعلام الحديثة، المسيّسة، أو "المؤدلجة"!

وصار صوت الكتاب خافتاً.. خاصة في غربة الفكر العربي عن التراث، وعن الجذور.. وركضه وراء "الحداثة" بدون استيعاب علمي لها.. أو بهذا "التذاكي" لتمرير أفكار محددة!!

وإذا كنا نتحدث عن "الأدب" من رؤية الجديد فيه، كقيمة فكرية، وإبداعية، لا بد أن تضاهي وتتساوى مع عطاء الآداب العالمية.. فإننا نجد

(الاعتبار)، أو التقييم للأدب، ما زال حظه مثل حظ الدول العربية مع العالم المتقدم حضارياً!!

وعلى العرب أن يلتفتوا إلى (الإعلام) عن أدبهم. . وأن يكسروا ذلك الطوق المضروب إعلامياً على الإبداع، والأدب العربي!

ولا بد أن "جائزة الملك فيصل" تعتبر خطوة إيجابية هامة، من خطوات كسر ذلك الطوق. . لأنها تلتفت ـ بجدية ملحوظة ـ إلى لب الفكر العربي: أدباً، وعلماً، وتراثاً. . وتلتفت إلى مخاطبة، ومحاورة الفكر العالمي. . اهتماماً وتركيزاً على التراث الإسلامي، والتاريخ العربي!!

● أستأذن حينما أتأهب. . فأطرح ـ في البداية ـ هذا السؤال:

ـ هل أدخل هذه الساحة، أم أستمر خارجها مسمراً، ثلجياً. . أحاور الأصداء وأنكفىء؟!

في البداية ـ أيضاً ـ يراودني سؤال آخر أطرحه هنا:

ـ هل أصبح إدراك الإنسان للمفاهيم، وللفكر، وللفن، وللإرتقاء الحسي والذوقي. . إدراكاً منكفئاً. . مصدوماً بالمتغيرات المسلّطة على رؤية الإنسان ووعيه وشجونه ؟!

ـ ما هو الفارق بين داخل الساحة، وخارجها ؟!

إنني أتلفّت في كل الجهات. إنساناً منتمياً إلى هذا العصر بمشاكله، وبمتناقضاته، وبقشوره، وبأنينه وضحكاته. اليوم يبدو الإنسان محكوماً بالتلفّت. . لأنه مرهون بالأصوات المفاجئة، ومنساق بعد ذلك وراء الفجائية ذاتها!!

سأجيب عن السؤال الأول. . بأن آذن لنفسي بالدخول لهذه الساحة!

وسأجيب عن سؤال أفترضه منبثقاً منكم عن المقصود بالساحة، وأقول:

● إن كل قضية تهمنا هي ساحة يتبارز وسطها نقيضان متولدان من احتياجاتنا، ومن مفاهيمنا... وكل رغبة تتبلور في داخلنا هي ساحة ستخلو بعد قليل من اهتماماتنا بقتل تلك الرغبة أو قتلها لنا!.. وكل هدف يتضح من طموحنا هو ساحة، نحن في الغالب لا نملك حدودها، ولكننا نركض في فراغها حتى الإغماء، وحتى الموت!

نحن رهائن "ساحة" ننزف فوقها أعمارنا، ونقطر أشجاننا، ونتباغض، ونتحاب، ونحارب، ونموت، ونقتل، وننتصر، ونضيع، ولكنَّ ثمن وأد هذه الصراعات، وهذه الأهداف، وهذه الرغائب: أن تكون لها جميعاً قيم، ومضامين لحياة كريمة، ومفاهيم لتشييد مجتمع راقٍ وحضاري!!

● وأجيب عن السؤال الآخر فأقول:

ـ حينما ينكفىء الإدراك يصبح الحظ أعمى!.. وهذا قول اشتقه من الترسبات الموروثة من أجيال ماضية.. رغم قناعتي التامة أن الجهد لا يخضع للحظ، وأن الاجتهاد لا يسمى حظاً، وإنما هو متأرجح ما بين الخطأ والصواب، والإنسان ـ إذن ـ إما مخطئ وإما مصيب.. ولكنه لن يكون محظوظاً أو سيِّئ الحظ!

بعد ذلك... لا يمكن أن نسلّم وعينا لإنكفاء الإدراك.. فرغم أن العالم يضم أمماً قطعت شوطاً باهراً وبعيداً على درب الحضارة، لكنها ضعيفة أمام متغيراتها المتصادمة.. لكنها مضطربة بفعل انكفاء إدراكها لمصالح الإنسان المشتركة.. لأنها تنحصر في مصالحها الخاصة!!

لهذا الأسباب تتقوّض حضارات، وتتفجر حضارات، وكما قال "شبنجلر": إن الإنسان المليء بالشجون.. لا بد أن يعرف أن ما يمتلىء

به ليست شجونه، وإنما هي شجون غيره التي يعاني منها!!

فأنت تبكي إذا فقدت شيئاً يخصك، ولكنك تبكي أكثر إذا فقدت تغليه، أو إذا هجرك مَنْ تحبه، ولا تبكي إذا هجرت من يحبك!!

وأنت تتنازل لغيرك عن أشياء كثيرة، ولكنك لن تتنازل من أجل نفسك عن أشياء تضرك لأنك تزاحم بها الآخرين، فالآخرون هم شجونك ودموعك وابتسامتك. . . والشاعر يفعل ذلك أيضاً بدون أن يدري. . فالخنساء تنازلت عن شبابها وأنوثتها من أجل أخيها "صخر" أو بسبب حزنها عليه، ولكنها لم تتنازل عن حزنها ولوعتها على "صخر" من أجل أنوثتها وشبابها!!

وهذه النظرة قد تبدو متأرجحة، إذا انطلق جدل لمناقشتها، وإذا تركز الجدل حول رفض التنازل عن أشيائنا الحميمة أو الخاصة بنا، باعتبار أن الإنسان أناني، ولكن أنانية الإنسان ليست من أجله بل هي من أجل ما يريد، وهو يريد لنفسه، ولكن الذي يريده لنفسه يعطيه كل نفسه، أو أغلى ما عنده!!

● ● ●

*** رؤية محتدة:**

● هنا. . . أقترب من النقطة الأخرى التي تأملت جوانبها. . . ولا بد أن تكون مرتبطة بما طرحته من شواهد، أو من حوار:

هذه النقطة هي مخاض لانطباع تشكّل في محتوى الجيل الذي يشهد لنا وعلينا، وهي رؤية ـ محتدة! ـ لحصيلة عاطفة إنسانية تضيع في غبار قبح الرغائب واحتياجاتها. . وهي معاناة ذات حدّين، تقتل القاتل والقتيل،

ويبقى داخل الساحة لا أكثر من أنقاض حضارية، وتهدّمات نفسية.. كانت "مرحلة" في حياة الأجيال السابقة وأصبحت معاناة للجيل المعاصر!!

وسأستلهم دليلي من عاطفة الإنسان، ومن وسائل التعبير عن هذه العاطفة، وأسأل هنا:

ـ ما الذي تبقَّى من عاطفة الإنسان؟!

● الجواب: عندما أراد الكاتب الأميركي "هيمنجواي" أن ينتحر، لم يقل للعالم: انتحرت لهذا السبب، ولكنه قتل نفسه في صمت، وترك الضجيج لمن تحلّقوا حول جثته، ولكنه قبل أن يموت كان يكتب رواية لم تكتمل، وتركها عند سطور قال فيها: إذا كان ما تبقّى من الحياة هو مزيد من قبح المصالح، ومن عاهات الوجدان.. فلا بد أن يكون الموت إجابة رائعة عن هذا السخف!

والانتحار ليس حلاً، ولكنه نتيجة.

كذلك.. فإن عواطف الناس لم تعد "وجداناً"، ولكنها أصبحت لا أكثر من مضمون للوجدان، واختلفت تلك المضامين وتلاحت!!

فالعاطفة موجودة، ولكنها دائمة التلفّت.. منساقة وراء الفجائية ذاتها.

وقد قال المؤرخ المعاصر "توينبي" وهو المؤرخ الذين لا دخل له بالشعر، والفن:

● "في شبابي أردت أن أتعلم الرسم، فكانت أولى محاولاتي: أنني رسمت سماء زرقاء، وغصن شجرة، وطائراً يحلق في المدى، وقبل عام واحد فقط أردت أن أهرب إلى الرسم، فكانت آخر محاولاتي أنني رسمت مدفعاً، ومساحة حمراء تعني اللهب، وبوماً في داخله"!!

وأراد المؤرخ أن يقول: لقد تبدّلت الحياة. إنَّ المتغيرات هي حصيلة الرغائب المجنونة، والمصالح القبيحة، وهي تعبير لعصر القلق والخوف من الحروب، ومن الأمراض، ومن المجاعات، ومن الإكتشافات الفتّاكة!!

● هناك عبارة صرّح بها شاعر عربي حديث، فقال:

ـ إنني متوتر ومجنون. . . لا تسألوني عن شعري، فما زلت مبدعاً وفناناً وأكتب الشعر الجيد، ولكنه ليس الشعر الوجداني. . . بل هو الشعر المناضل، أو الشعر القنبلة. . إنَّ هذا هو عصري وعالمي!!

وتجعلني هذه العبارة أنكفئ ولا أرتد. . أتقلص ولا أتمدد. . أنوح ولا أدري قضيتي!!

إنني أنتخب فرحي في مناسبات الحزن!

إنني أرشح طموحي لخدمة مصالحي!

إنني عاطفي ومتسلخ. . . بل إنني أرعرع شجوني وأصدمها!!

لقد قال ذلك الشاعر ما استهجنته بنفسية الإنسان المتعب. . المبدد في أصداء تلك الساحات!

وهل هناك داع للسؤال؟!

وهل يصبح من الضروري انتظار الإجابة؟!

أي سؤال. . وأية إجابة؟!

إني لا أحاور الفهم، ولا أترصد الإدراك. .

إنني ـ فقط ـ أتفصّد عاطفة ويقهرني العالم؟

ـ لست شاعراً، ولكنني ولدت في دواعي الشعر!!

كان الشاعر "تربادورا" ينثر أشعاره في الطرقات على شَعْر حسناء فتغني شعره كأنها تشم زهوراً!

وكان الشاعر يدخل مسابقات "البراعة" من أجل الارتفاع بقيمة الكلمة، فيأخذها جائزة، أو جاهاً.. فكأنه يحول الدنيا إلى معزوفة موسيقية!

وليست هذه قيمة الشاعر كلها... ولكن المحتوى الوجداني كان هو القيمة.. فما قيمة إنسان بلا مضمون وجداني؟!

إن العالم يبدو بلا مضمون وجداني.

العالم يتحول إلى سياسة، والشعر يحترق في هذا التحوّل... فلا بد أن يقترب الشاعر من آلام أمته!

وعندما اندلعت حركة المقاومة الفلسطينية، انبثق منها شعراء المقاومة: درويش، والقاسم، وكانت لهما ولادة أكبر من حجم معطياتهما الشعرية أو الفنية... كان الاعتبار لوطنيَّتهما أولاً، وعندما اضطربت دروب "محمود درويش" تحوَّل إلى شيء عادي، أو تحدد كشيء سياسي، ولكنه كشاعر ربما كان مبدعاً.. إنما هذا الإبداع توقف عند محتوى وجداني محدد!

ومحمد الفيتوري ـ برغم شاعريته المبدعة ـ فقد تسلق صدور الناس وأذهانهم وشجونهم يوم غنى لأفريقيا، ثم تحوّل غناؤه سياسياً فتحدد، ثم توقف عند الصوفية أو إغراق نفسه في محتوى وجداني محصور!

ويوم أصدر الفيتوري "معزوفة إلى درويش متجوّل".. ظن البعض أنها بداية جديدة لمرحلة مغايرة للشاعر، ولكنه لم يكن أكثر من متلفّت متوتر!!

• • •

*** المضمون الوجداني :**

ويبحث "أدونيس" الآن عن ذلك المضمون الوجداني. . إنه ـ أيضاً ـ يعاني من التفاتاته المتوترة. . إنه يخاطب الحجر كزهرة، ويعصف بالزهرة كبرق. . إنه يتحدث عن عصره برؤية لا يمتلكها، ويترافع عن قضايا مشروخة كأنه "ديوجين"!

أما "صلاح عبد الصبور" فبعد مسرحيته الشعرية "ليلى والمجنون"، لم يستطع أن يصعد فوق تراكمات مضمونه الوجداني. . . لأنه حدد رؤية معينة في زمن ما، ثم اختلطت المرئيات عنده حتى الصمت!

إن "غادة السمان" لا تستطيع أن تصف شيئاً الآن، ولكنها تحتدّ أمام أي شيء، وكل شيء. . . وهذه الحدة ليست بالضرورة هي مضمونها الوجداني، ولكنَّ مضمونها الأصيل متوتر متلفت. . يهبط تارة، ويحلق تارة أخرى، وهذا التحليق هو تعبيرها، فهي بارعة في التعبير عن شيء غير معروف أو غير متواجد!!

وفي الصحف والمجلات العربية حملة متناقضة على "نزار قباني". . . لأنه شاعر يدخل قدماً واحدة ثم يخرجها، ويجرب بالقدم الأخرى. . . فهو يحاول أن يفتح طريقاً يجسِّد فوقه زمناً يعترف به غيره. ولكن هذا الزمن يبهت في الملامح التي يرسمها "نزار". . لأنها ملامح مترددة، أو لأن تأمله لتلك الملامح بعد رسمها تأمل متلفّت متوتر!

وكل هؤلاء توقفوا عن إعطاء الجديد، وعن ولادة رؤية جديدة لزمن مأمول. إنهم جديرون بالعذر، ولكنَّ المضمون الوجداني لكل جيل يتجاوز الأعذار. . فإما أن يقوى عليها، وإما أن تهشمه!!

• • •

*** الشاعر إنسان:**

● وجاء أحد النقّاد العرب المعروفين.. هو الناقد "غالي شكري" فقال:

ـ "واللحظة التي يدعونها الإلهام أو الوحي، والتي يقرر فيها الشاعر هذا الأسلوب أو ذاك، هي نفسها اللحظة التي يقرر فيها إيصال هذه الفكرة أو تلك.. هذه اللحظة هي الابنة الشرعية لمجاهدات الفنان مع الحياة والثقافة، وهي أيضاً الثمرة الموضوعية لتكوينه الذاتي المتفرد، أو ما يجب أن ندعوه بالضمير الفني، فهو لا يرادف الضمير الأخلاقي"!!

وهذا الناقد قد أراد أن يشتم شعراء معينين، والفكر والفن ليسا في حاجة إلى من يُحدِّد أن هذا الشاعر ذو ضمير أخلاقي، أو ضمير فني. ولكن المحور هنا: أن نناقش في ضمير القضايا التي تواجهنا، وفي ضمير الأحداث التي تفاجئنا، فالشاعر إنسان قبل كل شيء... بل أكثر حساسية، لأنه يستلهم المضمون الوجداني لأمته، أو لجيله، فهو ـ إذن ـ محكوم بالمتغيرات، أو مصدوم بالمتغيرات التي تتسلط على رؤية الإنسان ووعيه وشجونه.. بمعنى أنه إما أن يعبر، وإما أن ينكفىء.. بمعنى أنه إمَّا أن يكون على صواب، أو يكون على خطأ، وكيف يتحدد الصواب، وكيف يتم الاعتراف بالخطأ؟!

إنّ المحتوى العاطفي هو الآن لا أكثر من تلفُّت متوتر.

وإن الأبعاد الثقافية.. لا تنفصل عن ذلك المحتوى الوجداني... لأنها تستنهض رؤية جيل بكامله!!

وكلنا ننتمي إلى هذا الجيل الباحث عن إدراكه بكل الوسائل والتصور أيضاً!!

● الكلمة تتطوح فوق الأرصفة. .

والنظرة نحو استلهام معاني الكلمات تكاد أن تكون متوقفة، فهي نظرة تتزحلق وتسقط في طحالب ذهنية تبعثرت فوق تلك الأرصفة المزدحمة، وفي لزوجة الطحالب تلك تولدت أفكار رصيفية تُفرِّخ مزيداً من الكلمات الجوفاء، والعبارات الكرتونية الهشة!!

أفكار تقلصت أو تسوست داخل تلك الأدمغة. . يملأ أصحابها الدنيا ضجيجاً وعويلاً، واحتجاجاً على مفردات القضايا الإنسانية. . دون استيعاب لمضمون القضايا ذاتها، والعالم عجيب. . قاتل ومقتول، وجائع إلى المعاني، وفاقد لكثير من القيم، ونائح على أحلامه!!

إنَّ كل ذهن يعالج مولد فكرة في تضاعيفه. . ينبغي أن يكون حجمه في كفاءة حجم الفكرة.

إنَّ اللمحة في ثنايا موقف الكلمة الأخلاقي هي: مقياس الكلمة. . هي الوقوف على الأرض، والأرض عقل ووجدان وضمير!

إنَّ تكريس الانفصام بين الفكرة والشعور. . نفْي للموقف الإنساني المسؤول في ذات الكاتب!

إنَّ الكلمة ليست "وسيلة" التجريح لشرايين الأسئلة المولودة في عبارات تطمح إلى عبور نحو مفاهيم الناس، لكنها الكلمة "الغاية"، النابضة في مفاهيم الناس بفكرة جديدة. . برؤية رحبة. . بإجابة مكتملة عن أسئلة الباحثين عن المعرفة والحقيقة!!

إنَّ في الكلمات بحثاً عن فرص. . . فيها مزيد من أيام الحياة الناهدة إلى رؤية أشمل، فمن المحزن أن تموت الأذهان بتفاهة المعاني التي تتمدد

في الذهن كما طحالب راسبة!! وذلك ما يجعل التأمل للكلمة مكتوبة اليوم، يبدو تأملاً يرتد إلى الذهن والاستخلاص بفراغ كبير.. ففي أكثر ما أصبحنا نقرأه اليوم من خلال الصحف اليومية والأسبوعية لا نقدر أن نعثر على جديد، ولا نجد فيه ما يمكن أن ننعته بالعمق، والإبداع، ولا يحتمل البقاء لأكثر من اللحظات التي يعبر فيها من تحت أنظارنا!!

ولا أحسب أنني بهذه النتيجة المستخلصة من ارتداد التأمل.. أفتئت وأتجنى على الذين يكتبون اليوم، وعلى الذين يتولون مسؤولية إصدار الصحف والمجلات ويختارون مادتها وكتّابها.. لكنني بهذه النتيجة أطمح إلى طرح أبعاد هذه الأزمة (المستريحة) في أذهاننا وحسًّا للمعاني!!

إن الأزمة تتكثف في علامات ثلاث:

● **أولاً**: افتقار وسائل النشر والتوعية والتثقيف إلى تعاون.. بل إلى وجود الكتّاب المتخصصين في ألوان المعرفة، وسواء كانت الصحافة ـ يومية أو أسبوعية أو شهرية ـ وسواء كانت الإذاعة.. فإن المسؤولين عن هاتين الوسيلتين يطرحون أزمة افتقارهم إلى الكُتَّاب الذين يعطون ثقافة، ومعرفة، وإبداعاً، وحساً.. فأغلب ما تضطر الصحافة إلى تقبله لملء فراغ صفحاتها هو من إنتاج الهواة والناشئة، أو من الإنتاج "المستورد" الذي يكلف باهظاً كسعر لشرائه، أو الالتزام منه.. بينما الكاتب السعودي غائب في حضوره.. فهناك أسماء كثيرة لكنها لا تعطي، كأن مضمونها ومحتواها قد أصيبا بالجفاف... فلماذا؟!

الإجابة عن هذه ال ـ "لماذا" تكلف سائلها غالياً.. فالكثير يريد أن يدافع عن نفسه بالكلام الذي يقرظه، ولكنه لا يقدم عملاً.. لا يعطي إنتاجاً.. لا يطرح حواراً موضوعياً يمكننا أن نخرج منه بتصور منطقي!

ودعوني أقدم هنا ـ مثلاً ـ على ذلك:

● إنَّ مجلة "الفيصل" هي شهرية، ونجحت في استقطاب الأسواق العربية لترويجها وانتشارها في العالم العربي. . من المفروض أن تقدم في البداية عمق وأصالة وإبداع الفكر والأدب السعودي، وأن تكون الجسر الذي تعبر فوقه أسماء الأدباء السعوديين إلى ذهن ومعرفة القارئ العربي، وإلى المؤسسات والجامعات في العالم، وإلى قراءة المستشرقين الدارسين للأدب العربي. . لكن الأديب السعودي نفسه لا يتفاعل مع هذه الفرصة. . لا يحاول أن يتعاون مع هذه المجلة الكبيرة ليعينها على خدمة الفكر والأدب السعودي!!

فما الذي تفعله مجلة الفيصل إذن؟!

إنها لا تقدر أن تخلط فيما تقدمه. . لأنها تحرص على الالتزام بمستوى رفيع لمحتواها. . وأهون الاضطرارين عندها أمام عزوف أدباء ومفكري البلد عن المشاركة فيها. . أن تستعين بالكتّاب من العالم العربي. . ممن تبقّى محافظاً على مستوى فكري جيد!!

بل الأدهى من ذلك ـ وهو أشد ألماً ـ أن بعض كبار أدبائنا ومفكرينا لا يحاول البحث عن كل عدد شهري جديد يصدر من هذه المجلة، ولا أن يشتريه. . فإما أن تبعث إدارة المجلة بنسخة خاصة له، وإما أن يقاطعها. . . وحتى الفكر أصيب بعدوى المادة في أتفه أمثلتها. . بينما مجلة "الفيصل" تقدم مكافآت مغرية "ثمن" كل نتاج فكري يصلها من كاتب!!

● **ثانياً**: غياب القارئ الباحث عن المعرفة. . ذلك الذي "يفهم" أن قراءة صفحة من كتاب، والاطلاع على معلومة في مجلة فكرية، أو علمية متخصصة. . تزيده رجاحة وحصافة لذهنه، وتفتق مداركه، وتقدمه

لرؤية الحياة الأشمل.. لكن طغيان المكتبات بالمجلات المصوَّرة، والمليئة بالفلاشات البارقة المتلاشية.. يشد القارئ إلى مزيد من تفاهة المضمون الذهني، ويسقطه إلى مزيد من الطحالب التي تغطي الذهن فتمنعه عن التوهج.

ولا أشط بعيداً بكم إن أشركت وزارة المعارف في مسؤولية تدني مستوى قراءات الشباب اليوم.. ذلك أن حصص المطالعة الحرة تحتاج إلى إعادة نظر، والكتب التي نقرها كمادة مطالعة تحتاج أيضاً إلى إعادة نظر، والأسلوب الذي نرغِّب به الشاب والشابة للمطالعة يحتاج إلى إعادة نظر!!

ذلك يذكِّرني بعبارة قديمة قرأتها للكاتب العالمي "نوريان لويس".. جاءت ضمن فصول كتاب قديم أيضاً أصدره بعنوان: كيف تقرأ؟! فقال:

● "إن الذين لا يقرؤون: عاجزون عن التطلع، والذين يهدرون أوقاتهم دون إشغال ساعات منه بالقراءة: لا يجيدون معرفة الحياة، ولا يتفهّمون كيفية معاشهم"!!

إنَّ القارئين هنا لونان:

لون يقرأ ببطء ولا يستمر في القراءة.

ولون يقرأ بسرعة فيقضم العبارات والكلمات من رأسها وخاصرتها، ويرفسها بكل ما ينشغل به ذهنه من أفكار مادية بحتة!

• • •

*** حصص القراءة في المدارس:**

● وفي معلومة أخرى قرأتها: وأحسب أنها تفيد وزارة المعارف عندما تفكر في إعادة النظر والاهتمام بمادة المطالعة.. تقول:

● "في جامعة نيويورك قامت الدكتورة ستيلا سنتر قبل سنوات بدراسات عن حصص القراءة في مدارس الأطفال فاكتشفت الآتي:

ـ **أولاً**: أن حصص القراءة هي أقل الحصص جدية في ذهن التلميذ لغياب الأسلوب المرغِّب في القراءة!

ـ **ثانياً**: أن الأساتذة المشرفين على هذه الحصص هم أساتذة اللغة المهتمون كثيراً بعلم صوتيات اللغة. . بينما المفروض أن يتولى حصص القراءة أساتذة المكتبات!

ـ **ثالثاً**: لا توجد مسابقات في القراءة الحرة داخل معظم مناهج الدراسة كعلم أساسي!!

وبنظرة إلى مجتمع القارئين عندنا. . نجد: أن الطالب لا يقرأ إلا كتاب المطالعة المقرر عليه على أنه مادة دراسية سيمتحن فيها، وأن الموظف لا يقرأ إلا الصحيفة اليومية ولا يقرأها كلها وإنما هو يبحث عن أخبار العقارات والإيجار وسعر الخضار واللحمة ومشاكل الماء والكهرباء والكرة، ولا ننكر أنها أشياء ملتصقة بحياته اليومية. . لكنه لا يعترف بحقوق معرفته وتنمية مداركه وتنشيط ذهنه واستجلاء روحه وشعوره فيهمل كل شيء. . إضافة إلى تعلق أكثر القارئين اليوم بالأخبار السياسية والمناقشة لها بلا خلفية لأبعاد السياسة العالمية وبلا فهم لها، وربما كانت هذه أيضاً مسؤولية الصحافة اليومية التي انغمست كلياً في عرض المشكلات السياسية وتخلت عن العناية بجوانب الحياة الأخرى!

وبعض الحاصلين على هذا المؤهل العلمي الكبير عندما تقرأ له بحثاً عن الجديد في المضمون الذي يقدمه. . لا تجد فيما كتبه جديداً، ولا

أتجنى إن قلت: إن ما تقرؤه لهذا البعض يحفل بالأخطاء الإملائية والنحوية؟!

وكانت الصحف قبل سنوات تعتني بثقافة القارئ عن طريق المسابقات الكبيرة التي تقدمها بجوائز مغرية، فيضطر القارئ للبحث عن المصادر والقراءة.. لكن المؤسسات الصحفية ألغت هذه الالتفاتة الطيبة.. مع أن أية مؤسسة لا تخسر قرشاً واحداً من خزينتها!

● **ثالثاً**: تحرك النوادي الأدبية "الخرساء" حتى الآن وتقدمها نحو إيجاد أسلوب يغري القارئ والكاتب معاً.. فالمحاضرات التي تنظمها بعض الأندية لا تستقطب العدد المطلوب من السامعين لها، ولا يزيد الحضور على العشرات فقط.. بعضهم من أصدقاء المحاضر، أو أصدقاء رئيس النادي، وقليل منهم الذي جاء مهتماً بموضوع المحاضرة!!

ولا بد أن تعالج ظاهرة الخلافات في داخل النوادي الأدبية بهيمنة الرئاسة العامة لرئاسة الشباب على مسيرة ونشاط هذه الأندية بما يكفل لها أن تنتظم في تنفيذ خطة إنتاج أدبي يستفيد منه القارئ ويرغبه أيضاً!

● ● ●

* ماذا تقرأ؟!!

● أعود بعد ذلك إلى النقطة الهامة.. الجديرة بالحوار في هذا الطرح لأزمة القراءة والكتابة معاً.. فيكون السؤال بعد هذا هو ماذا تقرأ؟!

وحاولت أن أوقف بعشرة الأجوبة في سمعي من خلال ما تلقيته من تبرير، أو من فهم للأزمة هذه... ولكن المعاناة أكبر، ومحاولة العثور على سبيل يؤدي بنا إلى وسيلة مفيدة تصبح ثمرة القراءة للفكر، وثمرة

الكتابة بالفكر، هي محاولة دونها التعب والضنى. . ذلك أنه لا أحد أصبح يقرأ، والذين يقرؤون لا يجدون المحتوى الجاذب لقراءته. . بمعنى: أن مستوى عطاء الكاتب تضاءل، أو انحرف، أو أصابه الوهن!

وقبل سنوات قال لي الأستاذ "يس طه" وهو قارئ هضم وجيد الاستخلاص وعاشق للكلمة حتى الضنى. . وهو كاتب مشرق الديباجة، وسيم العبارة، ولكنه أغمد قلمه من سنوات ليرتاح فشعر بالتعب أكثر. . ذلك أن الكاتب العاشق لحرفه لا يقدر على هجر ذلك الحرف. . لكن "يس طه" يضاعف عشقه للحرف بمزيد من القراءة!

وكانت الأزمة عندما قلت له: ماذا تقرأ؟!

ـ وقال: لا تصدق، ولكنها حقيقة. . أنني عدت إلى الكتب القديمة التي أحتفظ بها في مكتبتي، وبدأت أعيد قراءتها. عندما أقرأ فإنني أستغرق. . أخرج بعيداً عن هذا الزمن وأدخل في أزمنة قديمة. . أجد فيها راحة النفس، وهدهدة الروح. . فإن أغلب ما يكتب اليوم متوتر، أو حاقد أو منحرف. . أو أنه مندرج في حمى السياسة والتحزب لفريق معين، أو أنه يطفح بالمادة المغرقة لحس الإنسان وروحه.

● قلت: هل أسألك إن عن الذي يشغل ذهنك وأنت تقرأ؟!

ـ قال ضاحكاً: أنني أفكر كثيراً. . لكن صدقني أن اختلاط الأفكار يجعلني لا أعرف في ماذا أفكر!

● قلت: هذه فلسفة ؟!

ـ قال: أبداً. . تأمل معي في هذا الكثير من الكتب والمجلات والصحف التي تجدها معلقة على واجهة المكتبات. . ما الذي تحتويه من

جديد يغذي الفكر، أو يعيد المستوى الذي كان عليه الفكر العربي؟!

إنَّ المكتبات لم تعد تهتم بجلب الجديد من الكتب، أصبحت نظرتها مادية.. أكسب لصاحب المكتبة أن يبيع كراساً وقلم رصاص، وقلم حبر ودواة والكتب المدرسية التي ارتفعت أثمانها بثلاثة أضعاف!

قلت: إننا نقرأ في الصحف العربية الأخبار عن الكتب الجديدة التي صدرت ولا نراها في مكتباتنا، وهذه مشكلة قديمة لا ندري مَنْ يحلها لنا(!!) ومن الضروري أن تعالجها وزارة الإعلام مع أصحاب المكتبات.

ـ قال: لذلك أجد في الكتب القديمة زاداً ونبعاً.. أرتوي منه كلما أحسست بجفاف النفس في زحام المادة، فليست هناك كتب جديدة بمضمون الفكر الحقيقي.. أبداً!

● قلت: تذكرني بما كتبه الدكتور "حسين مؤنس" يوم كان رئيساً لتحرير مجلة الهلال.. فقد قال: (عندما أقارن بين الزاد الثقافي الضخم الذي كان عند جيل الأدباء والمفكرين في الثلاثينات والأربعينات يتملكني عجب، وفكّر معي مثلاً في الثقافة الواسعة التي كانت عند رجال مثل: طه حسين والعقاد والمازني.. أن التربة الثقافية شبه معدومة ولا تثمر إلا أعواداً من حشائش شيطانية، وقد لاحظت أن الكثيرين ممن يعرضون الكتب أو القضايا الفكرية الغربية في صحفنا لا يحسنون فهم ما يقرؤون، ويتصدون في ذلك للكتابة عن هذا الذي يقرؤونه)!!

ـ قال السيد يس طه: نعم: إنني معه.. فحتى الآن لم ينجب العالم العربي مثل طه حسين أو العقاد أو المازني.. إنك حين كنت تقرأ لهؤلاء تحس بالطعم.. يسري ما تقرؤه في عروقك كالحياة.. كالدم.. عندما أقرأ العقاد أحس بعقلي، وعندما أقرأ لطه حسين أرتاح كأنني أسمع نغماً!

● قلت له: نحتاج إلى عودة للثلاثينات والأربعينات، حيث كان هناك أدباء ومفكرون ومبدعون!

ـ قال: المشكلة هي في المضمون. . في مستوى ما يُكتب الآن، ومَنْ الذي يكتب، وما الذي يكتبه؟. . ولكننا لا نجد المستوى الجيد، ولا نجد المضمون المغذي للفكر والروح. . ويبدو أن الضمائر انشغلت وانحرف البعض منها، والنفوس اختلفت وشطت بها الغرائز والماديات إلى بعيد!

● ● ●

● ثم تراخت الأسئلة لتستقر من جديد في قاع الذهن.

إنَّ الحوار عن هذه الأزمة هو مطلب التوعية، ومطلب الارتفاع بالمعرفة واحترام عطائها، ولا بد لنا من رؤية جديدة نحرك بها الفعل الذي يثمر مضموناً هادفاً وخيراً معطاء لشباب هذا الجيل في زحام حيرته بين تيار وآخر!

ولا بد أن يجد المثقفون أنفسهم من خلال المحتوى الذي يقدمونه للارتفاع بنسبة القارئ المدرك والباحث عن المعرفة. . فالذين اقتحموا ميدان الكتابة أصبحوا كما قال الأديب الكبير الراحل "محمد عمر توفيق" يرحمه الله: كالغثاء!!

ـ زمن "الصوت" أم زمـن ـ "المعنى"؟!

● للشاعر "أودن" هذه العبارة:

ـ استقامة الكاتب مهدَّدة من دعوات ضميره الاجتماعي، ومن اعتقاداته السياسية أو الدينية... أكثر مما هي مهددة من دعوات طمعه أو طبعه!!

(١)

● عندما أرسل "صوتي": ينبش، ويشير إلى ظاهرة أعمق.. لا يعني هذا أنني أنتمي إلى زمن "الصوت"، أو أنني أؤكد على: "أن العرب ظاهرة صوتية"!!

لقد أردت أن أدقق، وألتصق بزمن "المعنى"... وذلك من خلال عناية العرب، بترسيخ اللغة ـ أولاً ـ داخل الوطن العربي!!

وأستمد شواهدي من "واقع" الحال، الذي أهدرنا فيه الالتزام بقواعد اللغة، وبتراثنا، وبجذورنا!

ولا بد أنَّ تَواصُل اللغة العربية.. في انتضاء سيفها في وجه هذه الظاهرة التي تُغيِّبها في "التغريب".. لتنبلج من المشرق والمغرب العربيين: لغة أصيلة.. رسَّخت تراثاً، وأقامت حضارة وشيّدت قيماً!

إن دور اللغة. . يُمثِّل استجابة عظيمة للانتماء، وللمقوّمات، وللإبداع الإنساني.

والسؤال الذي يتطلّب وضوحاً، ومصارحة. . يُلح على استفهامين:

● الأول: هل نحن في زمن "الصوت" . . أم نربط الصوت بتأثير المعنى؟!

● الآخر: إطلاق صفة "الظاهرة الصوتية" على العرب. . هل هو استخلاص لسلبية الفعل. . أم تمرُّد على ظروف فرضتها الإمكانات المتواضعة على العرب؟!!

إن "العرب" لن يبقوا "ظاهرة صوتية" في المعاناة، والقهر، وتألّب القوى العظمى عليهم. . لأن "حقوقهم" ستدفعهم إلى "المعنى"!

و "العرب" لن يكونوا "ظاهرة صوتية"، يهتمّون بالثرثرة والكلام، ويطعنون في لغتهم: قواعدها، وصورها، ومعانيها، والحلم فيها. . . بل إن هذه "اللغة الشاعرة" ـ كما وصفها العقاد ـ هي: لغة حضارة.

إنها اللغة التي لم نقترفها، ولكننا نغترفها. . . والأصالة في هذه اللغة: قد تعاقبت على مدى قرون.

والتشريف لها: أنها جاءت لغة لدستور آخر الرسالات السماوية: القرآن الكريم!

وبهذه اللغة الرائعة. . استطعنا أن نمتلك حقوق النهوض، وأن نؤكد ـ عَبْرها ـ ذاتنا الحضارية!

وعندما حاول بعض الطاعنين للانتماء، مثل: سعيد عقل، وأدونيس، ولويس عوض، أن ينالوا من اللغة العربية. . فقد سقطوا في الكراهية المزدوجة!

● ويبقى "سعيد عقل": بقية من عملاء التبشير، ومن المناوئين لعروبة وتراث الأرض!

● أما "أدونيس": فهو يوظف التراث نفسه لمحاربته، ويستخدمه للتشكيك!!

● و "لويس عوض": أصدر كتابه "فقه اللغة العربية" الذي احتجَّ عليه الأزهر، وصادرت الجهات المسؤولة في مصر ذلك الكتاب/ القيء... بعد أن كتب عبارته/ الصديد:

ـ "إن مصر قطعة من الغرب، ولا لزوم للغة العربية.. وعلينا أن نكتب باللهجة العامية"!!

بذلك الانحراف... يمكن أن يكون "بعض" العرب: ظاهرة صوتية!!

وقد تعرّض المشرق العربي، مثل المغرب العربي، لهجمات الاستعمار الذي حاول طمس اللغة العربية/ الأم، وتغريبها... وظهر العملاء، والجاحدون لأرضهم، ولغتهم.. وما زالت المحاولات مستمرة للنَّيل من اللغة بدعوى: التحديث، والتطوير!!

وفي مواجهة هذا التخريب لأصالة العرب، وفي تراثهم، وجذورهم... ارتفعت أصوات تدافع عن اللغة لحمايتها، حتى على مستوى قادة الأمة العربية.

فقد ارتفع صوت الملك فهد بن عبد العزيز، منذ عدة أعوام، وفي عدة مناسبات.. منادياً (بالمحافظة على اللغة العربية، وتحسين نشرها، وحمايتها من التغريب).

وكان لا بد أن تجد هذه الدعوة أصداءها الإيجابية، وأن تنشط

المؤسسات الثقافية، والتعليمية، والجامعات، لخدمة هذه اللغة.

وكان الدكتور "حسين نصار" قد نشر قبل أعوام قريبة: سلسلة مقالات، عنوانها: "قبل أن تصبح اللغة العربية غريبة بيننا" وقرأناها في صحيفة "الأهرام" . . . قال فيها:

● " . . . لكن الأمر المؤسف: أن لغة المتعلمين، قد أصابها تدهور كبير. . فبعد أن كنا نستمع إلى المحامين، والممثلين المسرحيين، والإذاعيين، وكبار العاملين في الدولة. . فلا تصطدم الأذن بخطأ، صارت الأخطاء تصكّ المسامع من الجميع، إلا القليل. . سواء الأخطاء في النحو، أو اللغة، أو الصرف، أو الأصوات. . . بل الأمر الأشد إثارة للأسف: أن المخطىء في كثير من فئات المتكلمين، لا يحاول السعي إلى الصواب. . بل قد يصل الأمر به إلى الاستهانة بالصواب، أو احتقاره، دون أن يدري أنه حينئذٍ، يحتقر ذاته"!!

حتى عناوين الصحف الكبيرة ـ المانشيتات ـ غزتها الأخطاء بشكل مثير!

● لقد قيل: "إن اللغة. . هي المقوّم الذي يعتز به كل عربي، إذا اتسعت لثقافة قلَّ أن اتسعت لمثلها لغة من اللغات القديمة. . وهي رمز وحدتنا، وداعية وحدتنا المرجوّة"!

وإذن. . . فإن وسائل الإعلام ـ أيضاً ـ مسؤولة مع المؤسسات التعليمية، والثقافية، عن تفشّي هذا التغريب والإهدار لقواعد اللغة. . فنحن نحرص على نشر التراث، واحترام لغتنا التي تمثّل: الانتماء، والأرض، والتراث، والحضارة!!

(٢)

● في داخل هذا العالم العربي، وعلى امتداد سنوات لم تبعد كثيراً.. تموّجت فيها الكلمة العربية كثيراً، وتموّهت، وأدغمت، وعُجِّمت، وعُرِّبت، وانحرفت، وتقوّمت... ودائماً تأخذها موجات القلق النفسي، مما يجعلها "ظاهرة صوتية"... وأحياناً تشوّهات انحرافات الزيغ العقلي، لكنها تبقى: قوية، وقادرة على البقاء والوقوف!

وفي العالم العربي: عُقدت مهرجانات للكلمة، وأقيمت مؤتمرات أدبية، وفكرية، وفنية ـ سنوية ودورية ـ حيث كان المطلوب من فرسان الكلمة: أن يرتفعوا بمؤتمراتهم إلى قمة آلام أمَّتهم، ومحنتها.. لتكون تلك المؤتمرات: إيجابيات يحققون بها قدرة الكلمة على الفعل في ضمير الإنسان وسلوكياته.. ويؤكدون بها "زمن المعنى" الذي يحافظون به على انتمائهم للأرض، وللغة!

● ونتساءل بعد كل مؤتمر: يلتئم فيه عدد من الأدباء الذين يمثلون كل الأمة العربية.. وبعد كل دورة يعقدها "مجمع لغوي":

ـ ما الذي فعلته الكلمة في الكفاح، وفي التوعية، وفي تثبيت هذا الإنسان العربي بأرضه، وتراثه، وفي محافظته على لغته؟!!

كنا، وما زلنا، نفتش ـ بالكلمة ـ عن الإرهاص الذي يبعث الانتفاضة في حوافز أمة العرب.. لتستلهم قدرها، وتحكم مناعتها، وتمتلك قدراتها... فتنتقل باللغة، وبالكلمة من مرحلة "الصوت"، والخُطب، والافتتان بالغرب.. إلى مرحلة "الفعل"، والمعنى، والموضوعية، والفكرة.. وتبدأ عهداً يختلف عن كل ما عرفته الشعوب، وجرّبته، وهو عهد: حضارة الحرية بالكلمة!!

وما زلت أذكر كلمة (قديمة) قالها الرئيس التونسي السابق "بورقيبة" وهو يفتتح في أحد أعوام وعيه: مؤتمر الأدباء العرب بتونس، فأشار يومها إلى نقطة هامة، وجوهرية. . . حينما قال:

● إن الصراع بين العرب والصهيونيين. . هو ـ قبل كل شيء ـ مشكلة عدم تكافؤ، من الناحية العلمية والتكنولوجية. . وينطبق ذلك على الكوادر الفنية!

ـ وأضاف: إنني أمام هذه النخبة من المثقفين العرب. . أحرص على توجيه الأنظار إلى الخطورة البالغة التي تمثلها هذه المشكلة، بالنسبة لمستقبل الثقافة العربية، ومصير الأمة بأسرها. . . ومن بين أسباب التدهور، والضعف: ما نحن فيه من ركود، يكمن في انعدام روح البحث في المجالات كافة، وعلى جميع المستويات"!!

ووقوفاً عند هذه النقطة الهامة. . لا بد لنا أن نتساءل:

● ما هو دور الجامعات في كل بلد عربي. . وهل يقتصر دورها ـ فقط ـ على التعليم في نطاق المناهج الموضوعة، والتي هي أيضاً تحتاج إلى إعادة نظر، ليتحصل الطالب على البكالوريوس، أو الماجستير، أو الدكتوراه؟!!

وماذا غير ذلك. . . مما هو مطلوب خلال الدراسة الجامعية، ثم بعد التخرج؟!!

تلك علامات استفهام خطيرة. . . تتطوح حتى الآن في الفراغ، والصمت!!

(٣)

● هدف كل "كاتب"، أن يصل إلى قارئه، صوتاً واضحاً، وفكرة ناطقة متجددة، ووعياً قادراً على التعبير والمصارحة، ووجداناً متفوقاً بالبوح أيضاً!

وفي بعض الأحيان.. يصدمني صوت يقول لي:

ـ بعض ما تكتبه.. لا أفهمه!

ـ وسألته: حتى الآن؟!

ـ أجاب: فقط.. عندما تكتب عن مشكلات المجتمع، ومطالب الناس.. وأقرأ لك ما تكتبه في الأدب، والفن، والحياة... لكنني لا أفهم كثيراً في الرؤية الفلسفية!

ـ قلت: وكيف تريد أن تفهم؟!

ـ قال: من أول ما أقرأ!

ـ قلت: أكثر القارئين اليوم "سندوتشيون"... يقرؤون وهم وقوفاً.. وربما كنت واحداً من هؤلاء المتعجّلين، أو الملولين!

ـ سألني: وكيف تريدني أن أقرأ؟!

ـ أجبت: أريدك أن تجلس أولاً، وتهدأ عندما تريد أن تقرأ، حتى تستطيع أن تستوعب!

إنني لست كاتباً متعجلاً، وليس في الذي أكتبه خبر منقول، ولا أكتب بطريقة "الأتوستوب".. بل إن كل "عمود" يستغرق ساعة كاملة في كتابته!

وربما كان عيبي (صحافياً) أنني أتأنّى في اختيار الكلمة، والعبارة، وتظهير الصورة، والمعنى... فأرجوك أن تقرأني: جالساً!

وضحك. . . ولعله كان يسخر، وتذكرت حكاية رويت عن الكاتب الأمريكي "هادلي كانترل"، الذي كان يحاضر عن وظيفة الإنسان في الحياة، ودوره في مجتمعه. . فقام واحد من الحضور، وكان شاباً متحمساً، وسأل "هادلي" بحدة واستفزاز:

● وأنت ـ أيها الكاتب والعالم العظيم ـ ما هي وظيفتك في الحياة، وما هو دورك لإسعاد الناس بالكلمة، أو باللغة التي تجيدها؟!!

ـ فأجاب الكاتب: "أسعدتني حِدَّتك هذه، لأنها تذكرني بطموحي، وأحلامي، ورفضي عندما كنت في مثل سنك. . أما وظيفتي التي سألتني عنها، فإن الناس يا بني يملكون القدرة على الفهم من خلال حضورهم النفسي، وتقبُّلهم لما يسمعون، ويملكون إثر ذلك: القدرة على الاختيار، والرغبة في ممارسة هذه القدرة. . . ودوري معك، وأمثالك: أن أمنحك القدرة على الاختيار، والرغبة، والرفض. . حتى لو كانت هذه القدرة تعني: رفضك لما أكتبه أو إسقاطك لدوري بالكلمة في إسعاد الآخرين"!!

وهكذا. . . إن الناس يحاولون ـ شعورياً، أو لا شعورياً، أن يدركوا العلاقة بين ما يمكن أن يقوموا به من أعمال، ترتبط بالفهم. . وما يرمون إليه من أغراض تفرُّ عنوة من الفهم!!

جيل عاطفي أم أناني؟!

بهو الكتاب

● إنني أجيء من خارج الزمان لأقتحمه وأتفاعل فيه وأنصهر وأحترق وأغتسل وأحاول أن أضيء!

● إنني ابن هذا الزمان... بكل ما أختزن من أحلام!

● إن أحلامي هي دم يجري مجنوناً وهي ضَعْف إنسان مغرور بلحظات الفرح!

● إن أحلامي هي وطن في الإنسان وإنسان للوطن.

● إن أحلامي هي جياد تواصل الركض وتجتاز الحواجز... وإلا وشاخت وهرمت!

● إن أحلامي... هي حب لا يفكر، وفكر يشعل الأحلام.. فيحيلها إلى عمر!

عبد الله

مدخل

● عن الأجيال الصاعدة!

● إن هذه الأجيال الصاعدة، والنابتة بعد... قد تستمد مخاضاتها من بشيمة هذه (التهدُّمات) التي أصابت: الإيمان حتى تكاد تشوِّهه، واعتدت على: القيم والمبادئ... ونجحت هذه التهدمات في تكريس واقع (الأنقاض) في نفسية جيل جديد... وهي الأنقاض التي طمرت تحتها: دور ورسالة (الثقافة) أو التثقيف في المجتمع، وهو دور غائب بكل أسف، أو هو دور: يتخبَّط ويقف عاجزاً ومشلولاً أمام ما تتدفق به (الفضائيات) من سيل: التفاهات، وأنقاض القيم، وحجارة المبادئ التي هدمتها... وكأن المجتمع العربي ـ عموماً ـ بات يعاني من هذا الفقر المدقع في، القدوة، والمُصْلِح، والزعيم!!

● ● ●

● وهذه الأفلام الأمريكية (المخصوصة)، بدءاً برامبو، ومروراً بالأدوار المغرقة في بجاحة القوة التي مثَّلها: "أرنولد شوارزنيجر" / الولد البطران الذي يقتل جيشاً بكامله/ حذو "رامبو" النعل بالنعل... هي الأفلام التي شكَّلت الثقافة الأمريكية المعاصرة أو النمط المؤثر/ ثقافياً وربما عاطفياً في

الشباب، بجانب الهامبورجر والكتشب (!!) وبقي الوطن العربي يفتقر إلى (تشكيلٍ) لثقافته، وإلى بلورة تنسجم مع التطور... حتى كتب / د. جابر عصفور في مطلع التسعينات يقول: "إن منتجي الثقافة، بدل أن يواجهوا الدولة والمؤسسات والأجهزة التي تسلبهم المناخ الذي يساعد على الإبداع، والتي تسهم في إلغاء الحوار... فإنهم يواجهون أنفسهم بالاتهام والإدانة"!! وهذه "العلة" هي أحد أدوائنا التي عرقلت تطور وتقدم الثقافة في وطننا العربي.

● أما المخرج العالمي/ مصطفى العقاد، فقال عبارة نحسبها ترنُّ حتى اليوم، لأنها تفضح المعاناة: ـ "ميزانية جيوشنا العربية: تقدر ببلايين الدولارات.. فلو خُصِّص ريعها لدعم الفن والإعلام والثقافة، لكُنَّا بألف خير"!!

● ● ●

● هذه ـ إذن ـ هي "الهناءة" التي نرصدها، فإذا هي تمثال من إسمنت لزمن كان، وإذا طُرقات العمر هي: خارطة في يد طفلة عربية ضائعة من أمها، عن وطنها، وعن حلمها القادم!! هذا هو "الجوعُ" لم يعد لغذاء الجسم، بل هو: جوع لضمير، لقيم، لحقيقة، لحق... جوع لنغم ينبع من النفس ولايرتدُّ إليه: يتيماً!

هذه هي "الفكرة": فقدت ذاكرتها في صالونات وأرصفة العواصم، وانتعشت الأفكار الشيطانية المدمرة، و ..... القدس: ما زالت عربية، والفلُّوجة: تحولت إلى مقبرة!

والصعوبة: أن تجعل عقلك وقلبك يتطارحان قضية واحدة... ليعكسا

صورة رسمها (شاعر) قتلته رصاصة في أي مكان من العالم اليوم، فقال: "ليل يحترق بالأشياء اللامنسجمة: الحجارة، الكلمات، السنين، الدم، العشب"!!

● **من "قصيدة" شاعر اللؤلؤ/ غازي عبد الرحمن القصيبي:**

ما سِرْتُ من ظمأي إلا إلى قلقي   كأَّن كل حنان الأرض قد نضُبا

● هل نحن جيل عاطفي... أم جيل أناني؟!!

يتساقط السؤال حرفاً، حرفاً.

يصبح السؤال: وجعاً، وشجناً، وارتطاماً... حتى يتحول إلى أصداء شبيهة بخطوات غريبة في سكون الليل، كغُربة "إنسان" هذا العصر.. الذي أضاعه القلق، وجَنَت عليه محاولات غمْط حريته واعتسافها، وبعثرَتْه الماديات المجحفة بتأملاته وصفاء روحه!

يتسلق السؤال صدورنا إلى أذهاننا.. إلى عيوننا.. إلى شفاهنا التي شقَّقها العطش لكلمة الحق، وأَدْمتها كلمات النفاق، والخنوع، والركوع بالخوف.. والتي سئمت الثرثرة بالهوامش، والزَّبَد، ودجّنها الملل من حشود الكلمات التي صار الناس يستخدمونها للترافع بها عن رغباتهم، وسقطاتهم!!

لكن السؤال لا يتعب، ولا ينكمش... بل يزداد جموحاً، وتمدداً، وطعناً في النفس!

وفي الوهلة الأولى من إلقاء السؤال... سارعت، فأجبت قائلاً:

● نحن جيل عاطفي!!

وفي الإعتراض الأول على الاجابة السريعة، أو المتسرعة.. قال لي من يحاورني:

ـ بل نحن جيل أناني.. نبحث عن ما نريده ونشتهيه، في نطاق اهتماماتنا الفردية الموغلة بنا في الذاتية!

● قلت: لابد أن نربط بين العاطفة، والأنانية أولاً!

العاطفة: حب... والحب: أناني!

بل إن الدرجة الحادة في الحب.. هي تبلغ قمة "الأنا" في الإنسان!

ـ قال: إن الحديث عن "الذات" هو ضَرْب من الحصر، أو التحديد... لكنّ الحوار، والمعالجة: مطلبان هامان لإيضاح سمات، وسلوك "جيل" أخذ يتخبط منذ استنباته في مطالب أَنَويّة، وفي هزة عنيفة استهدفت التعامل، والمعالجة!

إنها المطالب التي تمليها: الرغبة، أو التفرُّد بقرار، أو بأضواء، أو بتسلط... أو الركض بعيداً عن "اعتبارات" اجتماعية، أو سلوكية، أو فكرية!

● قلت: إنه "جيل" وَلَدتْه قواعد اجتماعية في ثمالتها، أو في لحظات ضعفها أمام هجمات التغير، والتجديد... وقد ترسّبت في القاع بلا حركة والمقاومة!

إنه "جيل".. وَلَدتْه العادات، والتقاليد، والاسترخاء، والإتّكال على الغير... متزامناً مع مرحلة جاءت بالاضطرابات السياسية، والاجتماعية، والحروب، وأحدث وسائل المواصلات والاتصالات، والابتكارات، وقمة مراحل العلم.. في أقصى منخفضات الجهل!!

بينما كان مخاض هذا "الجيل" : انفتاحاً على عصر جديد. . ازداد فيه عدد المدارس، والجامعات!

وهو عصر يختلف عن العصور التي سبقته . . . وقد تجانست فيه ألوان المتناقضات، وتصادمت: الموسيقى الرفيعة مع طلقات المدافع، والرشاشات، والمسدسات: المستَعْمِرة، والمتسلطة، والمدمنة للقتل!

وتواجهت فيه: الحضارة المتجددة، مع التأخر المتجمِّد. . والتكنولوجيا، مع محاولات تأخير الشعوب، وعَصْب عيونها ومفاهيمها!!

• • •

● وسألني: وماذا ترى الآن في "إنسان" هذا العصر؟!

ـ أجبت: أرى انعكاساً من "نيرجس" . . . فهو لاينظر إلى الماء، وإلا استلهم أشياء أخرى. . ولكنه يحدق في المرآة، ليرى "وجهه" أكبر، ويرى مَنْ حوله: أصغر!

إنه عصر: افتقد الاطمئنان، والأمان، والثقة فيمن يقولون "للإنسان" ويكذبون!

إنه عصر: دمّرته أخلاق القتل، والطعن في الظهر، والإسقاط، والاكتئاب!

إنه عصر: يلحُّ ـ بحدة ـ على التفوّق، والإبداع . . . ولكن "الإنسان" فيه مغيَّب عن : عفوية الحب، والنقاء، والصدق!

وهذا "التفوق" . . يدفع بالفاشلين إلى: الانحراف الفكري والخلقي، والنفسي!

وحينما كان "الإنسان" يعيش في القرية.. لم يكن هناك تناحر على الماديات، ولا على تفوق.. حتى نزح "إنسان" القرية منها، ومن جذوره، فتخلخل!

وأغلب دوافع الجريمة، كانت تأتي من (العار)... أي: بسبب عاطفي محض، يمتزج بسبب الحفاظ على نظافة النفس، والجوهر، والفعل... والمرأة التي تخون رجلها: كان يقتلها ويقتل نفسه!!

وفي هذا العصر... لم يعد هناك من يقدر على تحديد وتفسير معنى (العار)!!

وقد لا يقتل الرجل المرأة التي خانته الآن.... بل تقتله المرأة لتواصل خيانتها له!

والذي يتسامى، ويستكبر على القتل: انتقاماً في الدنيا من الخيانة.

والذي يتقاعس، أو يستضعف قدراته للدفاع عن حقوقه كإنسان، وعن حريته الملتصقة بكرامة "الإنسان" في أعماقه... فإنه يتمزق حقداً على مجتمع بكامله، وعلى دوافع عديدة... فيقتل نفسه بالبطء وينحرف، أو يدمر قدراته العقلية وصفاته الإنسانية الأجمل!

وقد تكون في هذا الاستسلام: أنانية عمياء إلى حد ما... ولكنها ـ في الاعتبار الأهم ـ هي: شعور بخسارة شيء هام.. وهي: ضياع تام.. وهي رفض لتدليس مادي بحت، يجرّ "الإنسان" إلى تغيير سلوكه، وإلى تبديل أفكاره!

ورغم التكنولوجيا، والوسائل الحضارية، والمخترعات، والاكتشافات العلمية... فما زال "الإنسان" أسير عاطفته!

إن الذي تحصَّل على أرقى الشهادات العلمية: تتحكم فيه كلمة إطراء، أو نفاق... وقد تُشوِّه نفسيته حركة غير مقصودة، يرى فيها انتقاصاً من قيمته العلمية، فيحقد!

والذي أصاب شهرة واسعة في ميدان تخصصه، أو في مركزه.. فإنه يستخدم هذه الشهرة بعواطفه وليس بعقله.. وينساق خلف مواقف ضعفه أمام استزادته مما يريده، ومما أغراه.. فيخطئ، ويسقط!

● كذلك... فإن "الإنسان" العادي الذي يعشق "أنثى" ـ على سبيل المثال ـ تجده يفرح بهذه المعاناة.. لكنه قد يبغض، ويخطئ بسبب عاطفته!

وفي اليابان.. تحدثوا قبل أعوام قريبة عن: شاب ياباني تحصَّل على "الدكتوراه" وتفوق في عمله الذي أنيط به بعد ذلك، ونال شهرة واسعة!

وهو بشر كالآخرين... أحب فتاة من بلده، اختلفت معه ذات يوم، فقالت له:

ـ لا ترفع رأسك بشهادة "الدكتوراه"، فليست هي كل مكسبك الإنساني.. ولكن عليك أن تثقف وجدانك، وتنتشله من امتهانات الركض وراء المركز الأحسن، لتستطيع أن تتذوق طعم الحياة الحقيقي!!

وكانت عبارة الفتاة قاتلة له.. فقد انتحر الشاب في اليوم التالي، تاركاً لها عبارة واحدة، قال فيها:

إلى التي أحببتها أكثر من نفسي، وأحببت عملي أكثر منها: أُخلي مكاني في الحياة لها بعد أن فشلت أن أحبها بدون العلم الذي بلغْته!!

وهكذا... يبقى "الإنسان" حساساً بالعاطفة.. يفترسه الانفعال،

والغضب، وربما الحمق، والعشق، والأنانية، والأحلام العريضة!

ولكن العاطفة غالباً ما كانت سبباً في قتل "الإنسان"، أو على الأقل: في ظلمه... لأن "الإنسان" بدون عاطفة، هو: آلة تتحرك بتوقيت، وبمجموعة من "الزراير"!!

• • •

● هكذا... كانت "العاطفة الإنسانية" فوق العلم، لأنها "الفلتر" الذي يحمي العقل من ترسبات "الأنا" في لحظات تضخمها... ولأنها ـ في مرحلة متدفقة بأماني الشباب ـ تصبح: انحداراً إلى جنون الانفعال!

والاتهام المباشر اليوم إلى "إنسان" هذا الجيل: أنه يخطو إلى القسوة، ويسقط في الغضب الانفعالي.. إلى درجة أن الشاب ـ في مرحلة تخطيه للمراهقة وإقباله على الرجولة في منتصف العشرينات ـ يشعر بشيء من التعالي على "والده"، لأنه لا يهضم أفكار هذا الأب كلها، ويرفض الكثير من توجيهاته له متهماً إياه بأنه: "دقة قديمة"، أو: لا يتماشى مع روح العصر... أما إذا قسا على أبيه، فإنه يصفه بقوله: هذا أب متسلط!!

وربما زفر الابن من فمه "أفأفات" تعبيراً عن سخطه على أبيه، وتحقيراً لآراء هذا الأب... إذ يشعر الابن في هذه المرحلة: أنه أكثر فهماً لمصلحته من أبيه، وأنه الأكثر وعياً من حصافة أبيه التي اكتسبها بخبرة وتجارب العمر!

إننا جيل عاطفي... لأن الجمال مازال يؤثر فينا، ولأن القبح بمختلف أشكاله ما زال يُكدِّر نفوسنا!

إن الموسيقى: تُهدِّئ أعصابنا.. فصارت تستفزها بصخبها!

إن اللوحة الباهرة: تذكرنا بأشجاننا، وخيالاتنا، وأحلامنا.. فصارت طلاسم!

إن قصيدة الشعر: تجعلنا نُحسن الإصغاء، وانتقاء الأجمل من البوح والصور... فصارت كالأرقام الحسابية، والدرب المليء بالمطبات!

ولو كنا جيلاً أنانياً محضاً.. فسوف ينتهي دور الموسيقى، والشعر، والأغنية، واللوحة... وهذا هو مصدر خوفنا اليوم من تغريب كل هذه الرموز الجمالية!

وإذا انتهت هذه الركائز الإنسانية الجمالية/ العاطفية... انتهى دور "الإنسان"!

إن لحظة صمت وتأمل: تُغيِّر نفسياتنا إلى النقيض لكل هذه الحفريات المؤلمة في وجدان "الإنسان"!

إن "الإنسان" لم يفقد بعد احتياجه الشديد إلى تلك اللحظة...

إنه يناديها في أكثر المواقف قسوة، وضياعاً، وخوفاً من المجهول!!

وبذلك... يفقد شاب هذا الجيل: المميزات الإنسانية الرفيعة في قوام التربية العظيمة التي شذّب الإسلام بها عقولنا وحتى عواطفنا.. حتى يبلغ عنده هذا الفقد: حد ضعفه أمام كبح جماح هوى نفسه!

● ● ●

أكثر عاطفية . . بلا انضباط

● . . . . . . إن شباب هذا الجيل: يبدو أكثر عاطفية، ولكنها ليست العاطفة المنضبطة، والواعية، التي تستدفئ حنان الأم وترشيد الأب لابنه. . . بل هي "عاطفة" تجنُّ باندفاعة الشباب إلى "الأنا" وإلى استعلاء الابن أو البنت على الأم أو على الأب . . .في غياب حصافة العقل التي لم تنضج بعد في عقول الشباب بحكم السن والتجربة!

ويندفع شباب هذا الجيل إلى هذه العاطفة. . لأن الماديات أرهقته منذ طلائع عمره حتى يكاد يختنق بها. . ولأن "الجمال" أيضاً ما زال يؤثر فيه، وإن انحرف أحياناً إلى المباشرة المادية مع هذا الجمال. . . لكنه شباب لم يفقد الروح بعد في هجمة الماديات، رغم أنه يعتسف هذا الجمال أحياناً، ويجرّه معه إلى الماديات المباشرة التي تغرقه!

وقد نشرت بعض الصحف والمجلات في العالم دراسات واستطلاعات عن "الأحلام"، والمقصود بها هنا: أحلام اليقظة عند شباب هذا الجيل. . . فرغم أن الشاب يبدو انفعالياً، أو متحمساً، أو رافضاً، أو عاجزاً عن توفير رغباته. . . فإنه يجد اللحظة التي يغمض فيها عينيه ويتخيل أنقى إحساس يختلج بين ضلوعه، وأنضر فكرة يحاورها عقله ثم تشوهها اضطراراته المادية أثناء المعايشة والممارسة.

● وتساءلت إحدى الصحف يومها: لماذا يعجز شباب هذا العصر عن تجسيد الخيال، وإحياء الأحلام لتتحرك؟!

ـ أجاب أحد الشباب قائلاً: إنني أحتار ـ حقيقة ـ في فهم بعض النتائج التي نتحصل عليها، وعليكم أن تضعوا إجابة مقنعة عن بعض ما يدور في أعماقي. مثلاً، هل ينضج شبابي لأنني أُعدُّه ثم أعطيه طعماً للشيخوخة؟!.. إنني أعمل بمواظبة، وأمارس الأعمال الصعبة، وأعرق، ولكن... من يوجهني علمياً، وما هو دور "الجامعة"، وأستاذ الجامعة الذي يزيدني إحباطاً، ولا يأخذ بيدي؟!

● ● ●

● والموسيقى ـ على سبيل المثال ـ تهدئ أعصاب الإنسان، ولكنها أحياناً تزيده التهاباً إذا كانت صاخبة.

حتى الرسام العالمي "بيكاسو".. عندما أراد أن يحقق لنفسه انتصاراً برؤيته الشابة على ارتكاسات الحياة، لم يستطع.. وأحب الأنثى التي شعر أنها تنسكب بين أضلعه كألوان لوحاته السريالية، وأراد أن يُعمِّق ذلك الحب بارتباط عميق، ولكنه لم يستطع... فقد قالت له:

ـ خضت تجربة زواج واحدة، وأخاف الآن.. وأنت صاحب (سابقة) في الحياة تتمثل في البنت التي أنجبتها، ولكني أحبك.. وسيبقى هذا الحب هو الذي نريده ولا نستطيع!

ذلك هو فقر النفس العاجزة عن الارتفاع إلى مصيرها... إنه موت يقف بين رغبتنا في الحياة، وبين رغبة الحياة في تطويعنا لصيرورتها!

وقبل أن ينتحر "همنجواي" بعام.. وقف أمام زوجته متسائلاً:

ـ هل تشعرين نحوي بذلك الحب العظيم الذي كانت دموعك تنساب من أجله يوم اقترنّا؟!!

● أجابت زوجته: إنني لا أكرهك الآن، لكنَّ ذلك عهد الشباب... إنك لو مُتّ الآن لسبَّب لي موتك حزناً عظيماً، لكني لن أموت بذلك الحزن!

ـ قال همنجواي: إن هذه هي نِسَب شكوانا في الحياة.. إننا لا نستطيع أن نُقدِّر المسافة بين الأمس واليوم حتى في الإحساس... إننا نريد أن نمتلك كل المسافة، لكننا لا نستطيع!

ولكن الإنسان في مطلع شبابه لا يقدر أن يستوعب هذه الفلسفة، أو هذه الرؤية الناضجة!

وحتى لا يتضاعف خوف "همنجواي" من الموت.. وضع حداً له بتلك الطلقة، ولم يترك حرفاً واحداً يحدد معنى ذلك الموت الذي اختاره!

● ● ●

● نموذج سيئ جداً:

● إن هناك أشياء تختنق في قبضتنا... فمازالت الأشياء المبتكرة والراقية: عاجزة أن تبلغ بنا إلى سلامة دائمة للإنسان.... وهذه الأشياء هي التي اندفع هذا الجيل يدافع عنها، ويتورط فيها!!

ولطرح مثال من واقع الحياة المعاشة اليوم... فقد كنت ذات مساء برفقة صديقي العزيز إلى نفسي/ د. فؤاد عزب، والطبيب المريح للنفس/ د. سامي مرزوقي، ونحن نهمّ بدخول مطعم.. وفجأة كان ذلك المنظر المخيف العجيب يلطم عيوننا، ويفتح أفواهنا: ذعراً:

● رأينا شاباً ـ من أولاد هذا الوطن ـ لم يتخط الخامسة والعشرين، وهو (يسحب) فتاة لا تزيد على العشرين متلفعة بعباءتها، وهو يضربها على رأسها، ووجهها، وكتفيها... وهي تجرجر عباءتها وترفض أن تدخل السيارة معه، وكانت تصرخ: يا عالم... أنقذوني منه، ضربني في المنتزه/ المطعم أمام الناس، وأنا الآن أرفض أن أركب معه!

أكَّدت هي، وأكد هو: أن المرأة (زوجته)... ويبدو أن زواجهما حديثاً، وقد اختلفا فلم يجد الشاب وسيلة يتعامل فيها مع زوجته، أو ربما عروسته سوى كفيه ليصمِّخها بكفوف متتالية بكل عنف وقسوة.. حتى قذف بها على السيارة، فتطوحت الفتاة/ المرأة، وسقطت بجانب الرصيف، ثم أوقفها ثانية، و ..... "لطَّشها"، والناس يطلبون منه أن يتعقل، وهو يشتم كل من يحاول الاقتراب لمنعه من استمراره في ارتكاب هذه الجريمة!!

ولا بد أن تتولد أسئلة أمام هذا المشهد المخزي لشاب من هذا الجيل، لم يتورع عن ضرب زوجته في الشارع أمام الناس بعباءتها حتى سقطت عنها العباءة!

هل هو القلق... أم اللامبالاة.. أم غرور الشباب بالمال؟!

أم أن السبب يعود إلى: افتقاد شاب هكذا لتوجيه سليم من أبيه وأمه، ودور الأسرة في التحامها.. ثم افتقاره إلى "قدوة" يحتذي سلوكياتها الرفيعة والإنسانية؟!

أم أن السبب يكمن في غياب دور المؤسسة التعليمية/ الجامعة.. التي اكتفت بالحذف والتسجيل للمواد فقط؟!

أصوات . . وأصداء

● ما هي الحدود التي كانت تُشكِّل متطلبات الحياة اليومية لجيلنا الذي ولج الآن إلى الخمسينات؟!

إن العودة إلى ما نحاول الهروب منه ـ كجيل صار يفيض بالتجربة ـ تبدو عودة أصعب من الهروب ذاته. . . ذلك لأننا: لا نقرر ركضنا بعيداً عن أحزاننا، لكننا ننسكب في الحزن، ونشرب على دروب التألم خطواتنا. . . فيزداد الظمأ فينا!

إن جيلنا الخمسيني: كان يفجر دموعه حباً، وصدره آهة. . ويفجر العقول بالأسئلة التي لا تنتهي، ولا نحسبها ستنتهي كما تراكمت الآلام. . . لأن هناك ـ باستمرار ـ طريقاً مجهولاً، اسمه: البحث عن حياة الحلم!

حتى كلماتنا: قد تهوى بأصحابها إلى وهدة التعاسة . . . وذلك يحدث: (عندما ترفعني إلى قمة السعادة، وأنت لا تفكر في لحظة قسوة السقوط)!

إنها مشاعرنا. . حينما صارت القسوة تمزقها بالانفصام. . . وهي أيضاً مشاعرنا: حينما يأتلف بها الصفاء والمحبة لكل الناس!

إن الأصوات ـ في هذا الجيل الخمسيني ـ قد اختلطت بأصدائها،

وبأبعادها، وبإحباطها في غياب أصدائها، أو ردود الفعل.. حتى اختلطت مع التوجيه ذاته!!

صار المفكر، والأديب، والمصلح، والفنان: يكتب، ويُعبِّر، ويتحدث عن: فقر المجتمع العربي اليوم إلى السلوك المميز إلى درجة فقدان الضمير (!!) وتكدست الجدران الوهمية التي ارتفعت لتفصل بين الأب وابنه.. بين طالب العلم ومعلمه.. بين الحضارة ومحاولات تسخيرها للانحطاط بالوعي والإدراك!

والعالم يواصل إجراء تجاربه واكتشافاته.. وهو يعلن في كل يوم عن: أداة حضارية جديدة توفر له الوقت لاستغلاله في الضد.. أي في التسليح، ومخططات العدوان على الشعوب المستضعفة، والعجز أمام تفشي الأمراض المستعصية، وظهور أمراض جديدة غريبة ومدمّرة.

ويضع ـ هذا العالم المتحضِّر ـ بجانب اكتشافاته العلمية: أطماعه الحاقدة، وإشاعة الحروب الأهلية الصغيرة التي تفتح سوقاً لسلاحه.. حتى أنه صار يتلذذ بالقتل، وبتفشي الجوع، والفقر، والتشرد، والغربة!

• • •

● ومع ظهور جيل أكثر قفزاً وتمرداً: جيل الستلايت، وتفجير المعلومات، وانتشار المخدرات، والعصابات، والإرهاب... نحتاج ـ في هذا الواقع ـ إلى: وقفة من أجل الغد.

نحن أمام هذا الجزع في النفس والروح، وفي البناء الاجتماعي.. نحتاج إلى (واقعية) في دور المنابر داخل المجتمع العربي الكبير من أقصاه إلى أقصاه.. بدءاً من منابر المساجد، ومروراً بمنابر التعليم ـ مدارس،

ومعاهد، وجامعات ـ حتى المنابر الإعلامية: مقروءة، ومسموعة، ومرئية.. والمرئية هي: الأخطر اليوم، وهي الأسرع في التأثير على المتلقي من مرحلة الطفولة حتى القدرة على الفعل!!

بمعنى: أن تكون واقعية هذه المنابر مواكبة لكل ما جدَّ في العالم، ولكل ما اقتحم حياتنا، ولكل ما امتلك مغريات الجذب إلى درجة الدعوة للانحراف.. فلا يتوقف دور هذه المنابر على الرفض لكل ما في العالم أو حظْره أو منعه، ولا ينحصر دورها في رثاء العصور الغابرة الأجمل، والأحسن خلقاً واستقامة... فنحن أمام أمواج وأعاصير وزوابع من التغيير، لابد أن نواجهها (بواقعية)، وليس بالرفض السلبي الذي لا يملك: البديل، ولا الحلول... ونحن أمام (التطرف) الذي يتخذ "الدِّين" ساتراً له، ليضرب الحياة كلها من وراء هذا الساتر.. والدين براء من العنف، ومن إهدار دماء الأبرياء، ومن تحطيم اقتصاد الأوطان، ومن تعتيم الحياة بكل شيء محظور، وممنوع، وحرام!

ومن أجل هذا الجيل الصاعد.. الذي يستقبل دخول القرن الواحد والعشرين، بكل مفاجآته، وغرائبه، وتطوره العلمي، واختلال السلوكيات في الجانب المقابل... فنحن نحتاج إلى: وقفة صدق نتذكر فيها بحساب دقيق: ماذا خسرنا، وماذا كسبنا.. إن كانت في جعبتنا مكاسب؟!

وما هي نسبة البناء، ونسبة الدمار؟!

وما هي نسبة الشبع، ونسبة الجوع؟!

وما هي نسبة الحرية، ونسبة الظلم؟!

• • •

● نماذج . . من شبابهم :

● وينبغي علينا الاعتراف بأننا: جزء من هذا العالم. . وأن هذا العالم أصبح قرية صغيرة، كل شيء فيه يتصل بالآخر، والجماد في البدء هو الذي صار اليوم يأخذ بيد الإنسان.

وفي هذا العالم أجيال عبرت. . عانت من حربين عالميتين مدمرتين. . وعانت شعوب أخرى في تلك الأجيال من الذين اكتووا بنار الحربين، فالتفتوا إلى الشعوب الصغيرة واستعمروها، وصبغوا حقولها بالدماء، ونهبوا خيراتها، وأخّروا تطورها.

ورغم ذلك التاريخ الذي نحسبه يتواصل ضدنا بأساليب أخرى. . . فنحن نتلفت إليهم، ونقرأ لهم وعنهم، ونشاهدهم، ونمتزج بهم، ثم. . . . نقلدهم!!

ولعلني أتذكر هنا ـ بالمناسبة ـ عبارة قيلت في أحد الأفلام الفرنسية على لسان فتاة شابة:

ـ "يبهرني الهروب في الأحلام والجنون"!

ونجد ـ الآن ـ في المجتمع العربي من يردد هذه العبارة: فتاة أو فتى. . فهذا الانبهار: جاء نتيجة المضض الذي يعاني منه شباب اليوم، وللانبهار أيضاً نتيجة أخرى هي: الجنون. . . والجنون يتمثل في هذه الشواهد التي تطحن الإنسان وتجذبه: جنس قذر، وقتل متوحش، ومخدرات تفتك بالطلائع، وانحلال وتسيب!

وحتى نكون أكثر واقعية وصدقاً في معالجة أدوائنا. . . فإننا نقول: إن هذه الشواهد في الغرب قد تسللت إلى مجتمعنا العربي والإسلامي بتدفق

مخيف.. وإذا كنا لا نعترف بتفشيها، فإنها تنطلق من تحتنا ـ كالماء ـ حتى تُغرقنا لو لم نعترف بها ونعالجها!

● وفي بريطانيا.. سئلت فتاة إنجليزية في الثامنة عشرة من عمرها:

● ماذا تتوقعين غداً؟

ـ فأجابت: لا داعي لذلك الغد... يهمني أن أجمع الأمس واليوم والغد في اللحظة التي أمتلك فيها ما أريد، وبعد ذلك لا بأس أن يقتلني مجنون أو يائس!!

● قيل لها: وما الذي أقنعك بذلك؟!

ـ قالت: أيضاً ليس شرطاً أن أكون مقتنعة... إننا نفقد حقائقنا دائماً، فلماذا نتعب من أجلها (؟!) إنني لا أريد أن أتعب ما دام التعب قد سقطت معانيه وقيمه.. أريد فقط أن لا أبكي. وأن لا أكون وحيدة!

● ثم أضافت تلك الفتاة قائلة: في مرات كثيرة فكرت في راحتي وأنا أبحث عن دموعي، وتساءلت: هل في استطاعة أحد أن يجيبني: لماذا يبكي، أو كيف يبكي إذا أراد؟!

ـ وأتسلل من بين سطور هذا الحوار.. لأرجع إلى حوار من المحتمل أن يتردد اليوم بين اثنين، ليمتزج بما قرأته على لسان تلك الفتاة البريطانية:

● قالت زوجة الرجل العجوز: قم من كرسيك الهزاز فقد حطمته جلستك المستمرة، واخرج إلى الشارع فربما قال لك أحد المارين: أنت قذر!

ـ قال الرجل: ولماذا أخرج إلى الناس حتى يشتموني؟!

● قالت: لكي تشعر أنك تحيا عصرك، وأنك لم تمت بعد.. فتستطيع أن

تفكر في عمل تشغل به وقت فراغك، وتريحني من وجهك قليلاً!

قال الرجل: ها أنت ذي تشتمينني، ولكن.. هل بلغ السأم عندك مني إلى هذا الحد؟!

● قالت: بل بلغ الانتباه عندي إلى درجة السأم منك!

ـ قال لها: عليك اللعنة.. كان ينبغي أن أستخرج طفلاً منك ليخرسك، ويحطم سخريتك... ألا تشعرين بالشيخوخة مثلي؟!

● قالت: لقد عاشرتني أكثر من ثلاثين عاماً.. هذا يكفي لأن تكون شجاعاً في حياتك، لكن الشيخوخة فيك زرعت بداخلك الخوف من الموت ومن الأحياء.. لقد طاردت شبابي برغائبك، فانظر ما الذي يفعله شباب اليوم.. ليتني لم أولد بعد!

ـ قال الرجل بهدوء: الوفاء ليس كافياً (!!) سأخرج الآن فربما شاهدت فتاة في العشرين تنطبق ملامحها على ملامحك!

● قالت ساخرة: لا تشعرني بالحب "المعلَّب"!

قال الرجل: الزواج هو حب "معلب"... أحياناً يفسد ما في داخل العلبة لقِدمها، وأحياناً لهروب الهواء منها، وأحياناً قليلة لا يفسد... لأن ما في داخلها قادر على أن يتجدد دائماً!

● قالت: والآن؟!

ـ قال: سأخرج.. وأفتح هذه العلبة!

● قالت وهي تصرخ: اللعنة عليك مجددة... عد إلى كرسيك الهزاز. لقد تعودت على صوت حركته في الغرفة!

● ● ●

● ولم يكن هذا الحوار بين "شائخين" منفصلاً عن إعطاء هوية لإنسان هذا العصر، أو للعصر الذي شاخ، ولكنه غرس في عواطفنا أشياء كثيرة من الأحلام الباردة، أو من الترقب القائل: ما يأتي تماماً مثل الذي لا يأتي!

إن هذا الحوار بين "شائخين" هو انعكاس يحدد هوية هذه النفسيات، وليست الملامح أو الأسماء أو الأعمال.. فإذا كان عملك جيداً، فهذا يعني: أن نفسيتك هي ضميرك وهي صفاء مشاعرك، ولكنك تصدم بنماذج تعيش بيننا.. من الذين يبددون أحلامهم في فضاء سقف الغرفة، أو يبعثرون غضبهم بأتفه الانفعالات، والغضب: عميق، ومعرفة، وقضية!!

وإذا تلفتنا قليلاً نحو الشباب المثقف.. لوجدنا أن نسبة كبيرة منه تعود بعد تحصيل أعوام طويلة من العلم والمعرفة بحثاً عن مستقر راكد.. في مركز، أو وظيفة مريحة!

إننا نتوق إلى الخروج من زحام الصراعات المادية.. بعيداً عن التوتر النفسي الذي يُضخِّم حجم التعالي في تصرفاتنا، وحجم الرغائب في تطلعاتنا!!

دور الأسرة في التنشئة

● ماذا يفعل هذا الجيل بحق؟!

هل هو باقٍ: يُحدِّق في سقف الغرفة؟!

هل يقضي ساعات الليل: ساهراً.. يمزق ساعاته الأولى في الشوارع، والأسواق التجارية، وأماكن النزهة (البريئة) بنظرات خلت من البراءة، و... يمزق منتصف الليل الأول في لعب الورق، أو الجلوس في منتزه لشرب المعسِّل أو الجراك... ثم يمزق منتصف الليل الآخر في مشاهدة فيلم أمريكي، أو قناة فضائية حتى بدء ساعات النهار... لينام ـ بعد ذلك ـ كل النهار إلى ما بعد الغروب؟!

هل يفتش خرّيج الجامعة عن عمل ... فيطوف على المؤسسات والشركات/ القطاع الخاص، وعلى البنوك... ليرتدَّ إلى بيته بخُفَّي حنين، فيُفَرِّغ الإحباط النهاري في إهدار الوقت الليلي؟!

كل هذه الأسئلة تنطبق على جيلنا الصاعد الواعد ... والمحزن أنها ـ أي الأسئلة ـ لا تحظى بأي حوار جاد و(مسؤول) نجد في نهايته: الحلول، أو الحل المناسب... لكننا نبرع كثيراً في (تجبير) مشكلاتنا وظواهرنا: إلى الغد، مثلما يُجيِّر الثري شيكاً لا يملك ما فيه!!

بمعنى: أن المشكلات تتضاعف حولنا، والظواهر تتراكم... ومازلنا نحدق في سقف الغرفة!

ونتذكر عبارة قديمة للكاتب الأمريكي "كرواك"، أو كما سموه: كاتب غضب الشباب... ولا بد أنه حين كتبها كان حزيناً بترف، أو أن الترف تعبير ملحوظ في كلماته التي يستمدها من الإرهاق النفسي الرازح فوق صدره، والملون لمرئياته، والمبدد لكل مشاكساته الباهرة... كأنه يُعبِّر عن نفسيات كثيرة من شباب هذا الجيل الراعص اليوم بأمنيات غير قادر على استخدام الصوت!!

لقد قال :كرواك" الذين يحدِّقون في سقف الغرفة.. ينامون مبكرين!

ربما كان ذلك الحال في أمريكا، أو في الغرب.. أما في العالم العربي، فإن الذين يحدقون في سقف الغرفة ـ وقد تكاثروا!! ـ جافاهم النوم!!

وكان "كرواك" في رأي النقاد هو: "مبتدع أدب الغضب".. فكل ما كتبه كان: غاضباً، وكان غاضباً... والغضب هو معرفة، وقضية.... ورغم غضب "كرواك" فقد قال عبارته تلك، لتنزل كل العيون من "شعلقتها" في السقوف، وتبحث عن مصادر الرؤية الحقيقية لمطالب الحاضر في إطار: الوطن، والعمل، والإبداع، والقضية، والإنجاز!

إننا نبحث عن "جديد" لا يسمح للشيخوخة أن تتسرب إلى طموح الشباب وأحلامهم وقدراتهم، وأن لا يكون محور حركتهم متأثراً بشعور محدد ضيق التحديد!

• • •

● ما الذي يحدث إذن؟!

● هذا هو السؤال... فلا المفكرون، ولا الفلاسفة، ولا القانون، ولا حتى الشعراء... أصبحوا يمتلكون الإجابة عن هذا السؤال: ما الذي يحدث؟!

من هنا.... ينبثق السؤال/ المحور:

● هل هذا الجيل الجديد يبدو عاطفياً، أو واقعياً، أو .... أنانياً؟!

نحن في عصر يلحُّ على التفوق والإبداع لمن يكتشف فيه قدراته وذكاءه وعطاءه.... وهو عصر يدفع ـ أيضاً ـ بالفاشلين إلى: الانحراف، والانفعال، والأحقاد.. عندما تظلم الحياة في وجهه، ويسقط في اللاقدرة والعجز!

ولكنَّ التفوق بالعمل المبدع.. يعطي حصيلة تنظيف الأعماق من الترسبات والتكلسات التي قد تعلق بجدار النفس، ومن ثَمَّ تودي هذه النفس المشوشة بصاحبها إلى التهلكة، بعد الانعزال عن الناس، والرفض التام لتطور الحياة، والنظرة الضيقة المنغلقة التي ترى كل شيء: مُحرماً.. فيكون الوهن في (الرؤية) الأعمق ليُسر الدين، ولارتقائه بالإنسان وليس الهبوط به... بينما تتجسد روعة التشريع في تنظيم الدين لحياة الإنسان، وتشذيب الدين لسلوكيات البشر.. أي للرحمة والخُلُق الحسن في التعامل مع الآخرين!

وما نلاحظه على الأكثرية من هؤلاء الذين أطلقوا أحكامهم الجزافية على مجتمعاتهم، وحتى على أهلهم داخل البيوت من: تكفير كل شيء، وتحريم ما لم يحرمه الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل، ولا في

سنن نبيه ﷺ ... هذه الملاحظة التي تضخمت فيها نزعة العنف والقسوة من خلال: إطلاق الرصاص على الحياة قبل إطلاقه على الناس الأبرياء... ومن خلال الإمعان في محاولة تظليم الحياة، وإسدال ستار الظلام على ما تحفل به هذه الحياة من نور ... في العلم، وفي التطور الذي لا يخدش نقاء المسلم، وفي التفاؤل والأمل بالغد!

فمن أين حصل هؤلاء على هذه الوصاية المطلقة على المسلمين؟!

وكيف أباح هؤلاء لأنفسهم: إصدار أحكام الإعدام على المسلمين بإخراجهم من مِلَّة الإسلام وتكفيرهم.. وحكم الدين معروف في من يسمح لنفسه بتكفير مسلم بغير وجه حق؟!

وهذه الجماعات التي تُكفِّر المسلمين في مجتمعاتهم، وتحرق نهضتهم، وتقتل الأبرياء، وتتآمر بترويع الآمنين، وتدس المتفجرات بينهم... هل امتلكت حق تنفيذ كل هذه الجرائم التي يعاقب عليها الإسلام أولاً، وتعاقب عليها كل الأديان، وكل القوانين الوضعية، وكل الأعراف؟!

لقد ظن هؤلاء: أن إطلاق اللحى بغير تشذيب، وتقصير الثوب، والزَّجر في الرد على أسئلة الآخرين، وإقحام الدين في تبرير عنفهم، وقسوتهم، وشذوذهم عن الناس ... هو الذي يجعلهم فئة مميزة وذات مهابة.. أو فئة تملك ـ وحدها ـ حق الحكم على مجتمعها، وعلى أفراد هذا المجتمع بالصلاح أو بالضلال (!!) وهذه فئات اقتحمها أعداء للدين الإسلامي: بادروا إلى غسل أدمغتهم لإحداث الفتن والخلخلة في المجتمعات الإسلامية، ولتحطيم تنميتها، وللإساءة إلى رحابة الإسلام، ويسره، وصلاحيته لكل زمان ومكان!!

إن دور "الأسرة" اليوم: هام في التنشئة التي تغرس الإسلام الحنيف في

عقول الناشئة... وما ينبغي على الأب والأم الحرص عليه في التربية الدينية القويمة... مثل ما هو دور المدرسة من تسلُّمها للفرد طفلاً وطفلة، فالمجتمعات تحتاج إلى: أسوياء في التفكير، وحتى في العاطفة... ومحاربة كل محاولات إحداث مثل هذه (الإعاقة) في عقول الشباب!!

• • •

• الإجابة المقنعة.. ضائعة:

• والذين في استطاعتهم اليوم أن يجيبوا عن الأسئلة.. هم هؤلاء الذين يعطون إجابات غريبة لا يفهمونها هم في الغالب، ولكننا نحاول أن نفهم لاحتياج هذا الجيل إلى إجابة عن أسئلة تحيّره، ولم يجد من يوفر لهم: الإجابة المقنعة!

أما من حاول وضع الإجابة بنفسه، أو من عنده، أو من واقعه... فلا بد أنه يخرج علينا بإجابات مادية ذات أرقام، ومسافات، ومثلثات.. بمعنى: أنهم يرغبون ـ فقط ـ في تحقيق (الفرصة) المؤقتة أو العابرة.. ليموت الواحد منهم بعدها، أو يزهد في الحياة.. فينقلب إلى: ناقم على الحياة، وعلى الأحياء، وعلى مناهج الحياة التي يُحرِّم كل شيء فيها حتى التي لم يُصدر الدين بحقها أي تحريم.. ولم يبق له سوى أن يقول لك: ولماذا تعيش؟!!

وبعض الذين زهدوا في (الحياة) اليوم.. نجد فيهم: المصاب بأمراض مستعصية، أو باليأس من الإصلاح، أو بشيخوخة النفس والروح.. ويبدو العثور على من يتحدث عن الغد مرتاحاً: أمراً صعباً يعني الخوف من فقدان الامتلاك لشيء واحد!

وهذا يفسر: الشعور بالخوف... وفي لحظة تصعيد الخوف وتفاقمه، قد ينقلب إلى ما هو أفظع من الشجاعة والإقدام.. إلى: التهور، والجنون، والاندفاع.

والبعض: يعالج خوفه بمزيد من الأحلام... يحلم لئلا يفكر في الموت، أو اليأس، أو الفشل... حتى يستغرقه الحلم، فيتحوَّل فيه إلى: شرود وهروب من الواقع!

والبعض: لا يفكر في اهتماماته إلا بالقدر الذي لا يفقده شعوره بالانتظار للغد.

● ويقول علماء النفس والطب: إن العمل يحقق شحنة من القوة للجسد، وانفتاحاً في النفس... لكنَّ العمل يهدّ الحيل والعافية، وبعد عمل طويل شاق يفتش هذا المتعب عن ترويح للنفس.. فلا يجد سوى التلفاز يزغلل به عينيه خاصة في هجمة أغاني الفيديو كليب، أو يركض إلى المطاعم التي تُطبق أضعاف التسعيرة، هذا إذا وجدت تسعيرة!

● ويقول واحد من الكادحين في وظيفة لا يزيد دخلها على أربعة آلاف ريال في الشهر، بلا حوافز ولا علاوات من زمن طويل:

ـ حتى هذه المطاعم لا أستطيع ارتيادها ولا مرة في الشهر، لأنها تقصم محفظة الفلوس.. فلا يبقى لي شيء من المحفظة.. فأستلف لأسدد فواتير الكهرباء التي زادت الضعف، والماء، والبنزين، والإسفلت المحفَّر الذي يرغمني على استبدال كفرات السيارة دائماً.. بينما أقرأ وأسمع عن الذين يتلاعبون بالملايين، وما أكثر حكاياتهم!!

وهكذا.. كل شيء في عالمكم اليوم: صار يتطلب مزيداً من النقود، وأريد أن أكمل نصف ديني.. فأسهر فوق سريري وحيداً، أستلقي وأرفع

نظراتي إلى سقف الغرفة، أو ألصقها بالجدار.. فأتخيل ـ للحظات ـ شيئاً من طموحي، وصورة للحياة التي أحلم بها، أو وجه الأنثى التي أحبها!

• • •

● ونلتقط صورة أخرى لشاب يدرس في الخارج، ليحصل على شهادة الدكتوراه في العلم الذي اختاره تخصصاً.

● لقد أمضى أكثر من ست سنوات في التحضير لرسالة الدكتوراه ... وكانت الفاجعة التي اكتشفها المسؤول الذي سيوقِّع على هذه الوثيقة ويعتمدها: أن الشاب لا يفقه شيئاً في ما ادعى كتابته!!

وحتى لا يتسرع المسؤول.. طلب استدعاء هذا الشاب ليجلس أمام لجنة تتأكد من علم وثقافة هذا المتقدم في خطوته الأخيرة لنيل الدكتوراه.

وفوجئت اللجنة: أن الشاب لم يحسن نطق عناوين كتب المراجع التي استند إليها في كتابة رسالته.. فكيف قرأ الكتب، وكتب الرسالة باللغة الإنجليزية التي استعصى عليه نطقها... وبأي حق سيطالب بمنحه درجة الدكتوراه؟!

هذا الشاب (الدكتوراهي): سيعود إلى وطنه ليُدرّس في الجامعة، ولا بد أن ينعكس مستواه العلمي أو (الدكتوراهي) على فهم وتحصيل طلبته... ومن هنا نعرف أحد أسباب ضعف المستوى العلمي لدى الدارسين في الجامعات، والمتخرجين منها حديثاً ... إذا كان هذا هو مستوى الأستاذ/ عضو هيئة التدريس!!

ومن هنا ـ أيضاً ـ يستدعي السبب للتحديق في سقف الغرفة!

وعي الجيل الجديد

● في هذه المرحلة العصيبة.. يتنامى وعي الجيل الجديد في كثافة ألم الأمة العربية من ظلم القوى العظمى، والخروج بالحقوق المشروعة للإنسان ولاستقلال الوطن إلى مرامي الأزمات المتعددة: نفسياً واقتصادياً، و .... حتى عاطفياً، بعد ما تعرضت له الوشائج من هزات تلاحقت بفعل تلك الأزمات.

وكان لابد لهذا الجيل أن يتأثر... وأن يحاول تحديد معاناته أكثر!

إن الجيل الجديد في الوطن العربي.. جزء من هذا العالم الذي اختصرت فيه المسافات.

وهو جيل يهتم بما يحملونه لكلمة (السلام)، والمعاني المفتقدة داخلها.

إن هموم العالم، وإن كانت كورقة نشَّاف تتمدد وتغطي الأرض كلها، فإنها في الحصيلة هي: هموم مجزّأة... تنفرد بالعالم منطقة بعد أخرى، فتأكلها!!

ولا يمكن لأحد من الناس فوق بقعة من العالم أن يكره وطنه.. لكن الكراهية الأكثر خطورة هي: أن يكره الإنسان نفسه، أو يكره من يحب.. وهذه الكراهية تتجمع نتيجة لتلك الأزمات المتعددة/ نفسياً، واقتصادياً،

وطموحياً، وعاطفياً... فيتم التدمير بهذه التجزئة: للقيم الإنسانية.. ويُشوّه التدمير: منجزات الحضارة.. ويطمس التدمير: قدرات الإنسان على العمل والأمل.

وفي هذا التصور.. يفتقد الجيل الجديد: حُلمه، وأحلامه... فإذا شعر أن الحلم تبدد.. أضاعه الغضب في الهشيم المتخلف من حرائق النفس.. وإذا عجز أن يحلم: تحولت النفوس والعواطف إلى آلات، وحِدَّة، واختناق... فالحقائق عندما تتراكم: تقتل ما تحتها، ودائماً يبقى الإنسان تحت حقائقه لأنه لا يقدر عليها جميعاً، ولأنه لا يحققها كلها.

● فكيف يعيد الإنسان أحلامه... بحُلُمه؟!

الإجابة تائهة... فالسلام هو: "الأحلام"، تصاغ في أشكال كثيرة، وعبارات مترادفة ومتعاقبة داخل أروقة الأمم المتحدة، وصالونات المؤتمرات الدولية، وعبر البيانات والتصريحات.

ولا بد أن يلتفت هذا الجيل حوله بحثاً عن: "الأحلام".. ليؤكد على نص واحد من فقرات الأشكال، والعبارات، والبيانات، والتصريحات التي تقال عن السلام!!

والسلام مطلوب أولاً: داخل كل أسرة عربية صغيرة، تكبر بالأبناء وبالبنات... ويعني توافر السلام: مساواة الدخل بتكلفة الاستهلاك وتغطيته للصرف ـ على الأقل ـ فإذا ضمن دخلاً يؤمن له كرامته.. ضمن السلام في بيته!

والسلام مطلوب ثانياً: يعمُّ بين الأسر التي يتشكل منها مجتمع كل قُطْر.

والسلام هو: تربية سليمة حسنة.. وهو: تعليم يتماشى مع روح ومطالب العصر.. وهو: سلوكيات راقية تواكب التقدم العلمي المهول في العالم.

حتى الفكر، والمواهب، والعلم، والفن... رموز الدلالة على رقيِّ أي جيل وكل جيل.. قد عجزت عن فعل شيء لهذا الجيل!

● فالفكر الذي نقرؤه اليوم: يكاد يقرأ في التنظير، مراوحة ما بين السياسة، ورفْع الشعارات العاجزة عن التطبيق، أو البعيدة عن هموم ومطالب الجيل، أو الهروب بمضامين الكتابة إلى طرح موضوعات أصابها التجلُّط من زمن... وبالتالي: فإن المواهب النابغة والمبهرة لم يتم اكتشافها بعد!

● والعلم الذي يُدرَّس في المدارس للجيل النابت بعد: لا ينسجم مع طبيعة ووسائل وأدوات العصر، خاصة في طرح الأمثلة.. أو أنه علم لا يُطبَّق!

● والفن الذي نسمعه اليوم أغنيات، ونشاهده أفلاماً ومسلسلات: فقد سقط في سوق البيع والشراء حتى لأذواق الجيل.. وأعلن هذا الفن عن عصر السقوط التام للذوق، وللمشاعر، ولرسالة الفن الأجمل.

وهكذا.. يغرق الجيل في غث تُروِّج له وسائل الإعلام العربية المرئية والمسموعة وحتى المقروءة... على مسمع و مرأى من المؤسسات الثقافية، والتربوية، والإعلامية الرسمية!!

● ● ●

● ولا بد أن كل هذه الأسباب، أو الظواهر، أو المتغيرات السيئة..

قد انعكست على تفكير، ونفسية، وسلوكيات الجيل الجديد.

ونستطيع أن نقدم هنا شاهداً.. من خلال رسالة "أب" يبدو أنه يعلن عن عجزه التام أمام ما كبر به أبناؤه، وتشبَّعوا به من تلك الأسباب حتى أثَّر في سلوكياتهم، بل وتعاملهم المباشر مع أبيهم، وأمهم، ومَنْ حولهم داخل البيت!

والرسالة التي تلقيتها من "أب".. تعكس كلماته: المساحة الشاسعة التي صارت تفصل بين كل أب وابن.. وصار الأب في تربيته وحده بدون مساعدة المدرسة، والجامعة، والوسائل الإعلامية ... فقال:

● أعرف أن الذين يقرؤون اليوم هم الآباء، أما الأبناء ـ بكل أسف ـ فإنهم لا يقرؤون، وإذا قرؤوا فإن لهم خياراتهم التي لا تسمن ولا تغني من جوع عقولهم إلى المعرفة، أو أرواحهم لرغد الكلمة الجميلة ... ولو سألت أحداً منهم: ماذا كتبَتْ الصحف اليوم ـ فقط الصحف ـ فإنه لا يعرف.. بل ولا يبدي اهتمامه بما تنشره الصحف، فما بالك بمتابعة إصدارات الكتب والجديد منها.. وقد كنا في جيلنا نقتصد من مصروفنا اليومي (قروشاً) لنجمع القرش فوق القرش، ونشتري كتاباً!!

● يستطرد الأب العصري فيقول: يهمني ـ حقاً ـ أن يقرأ الأبناء هذا الموقف مع ابني الذي بلغ سن الرشد، وربّى شنبه، وأحسبني فشلت في أن أربِّي أدبه مع والده، أو أمه، أو من يكبره!

هذا الابن ـ من هذا الجيل ـ عندما أوجّه له سؤالاً حتى عن شيء نشاهده معاً على التلفاز، فإن إجابته تأتي بكلمة واحدة يفيض القرف من حولها دون أن يلتفت ـ أدباً ـ إلى والده، أو أنه لا يرد وكأنه لم يسمعني!

لن أقول لك: إن أبي عندما كان يلتفت إليّ ـ مجرد التفات ـ كنت

أرتعش.. ليس خوفاً منه.. بل هيبة من قيمته في نفسي.

هذا الابن: لا أراه طوال النهار ـ مثل كثير من الشباب اليوم ـ فهو يسهر الليل بطوله حتى الساعة الثامنة أو التاسعة من صباح اليوم التالي.. يقضي الليل ما بين محادثة هاتفية (!!) أو مشاهدة فيلم، أو يقود سيارته وينطلق إلى البحر، أو يقضي مع البشكة ساعات صحوة.

● يضيف الأب: شكا لي صديق/ أب من نفس الوضع.. فسأل ابنه: متى تنام؟ فأجابه: بعد الغداء حتى الساعة العاشرة مساءً! (بعد ذلك يذهب الابن للبشكة أو إلى البحر).

لم أعد أرى ابني كثيراً.. فإذا وافق تواجده في البيت التأم مع بقية الأسرة حول مائدة الغداء أو العشاء وغسل يديه، وذهب إلى غرفته، لا نعرف عنه شيئاً، وهو لا يعرف عن ما يجري في البيت، ويرتدي ملابسه ويخرج قبل العصر أو بعده، ولا يعود إلا مع حلول الساعة الثانية صباحاً... ولو حدث أي مكروه لأحد في المنزل، أو حتى زيارة: فإنه منفصل عن مناخ الأسرة، لا يعرف ماذا يجري في بيته، بل يعرف أكثر عن ما يجري في بيوت أصدقائه.

مرة.. حاولت مواجهته، لأسأله عن أصدقائه الذين يسهر معهم.. فكشَّر وعبس، كأنه يريد أن يقول لي: "وأنت مالك"!!

وذات ليلة.. اتصل بالهاتف بعد منتصف الليل ليخبرني ـ متفضلاً ـ بأنه سيتأخر عند صاحبه، وكان كرماً منه أن يخبرني (!!) لكنه بعد دقائق عاد مكفهر الوجه، مربد الملامح، وفتح باب غرفتي بقوة كأنه سيهاجمني، وتمتم بكلمات لم أسمعها لكني ظننتها: السلام عليكم... فسألته: لِمَ عُدت وقد استأذنت في التأخر؟!.. فرد بغلظة: خلاص رجعت.

أراد معاقبتي لأنني وضعت سماعة الهاتف في وجهه عندما استأذن في التأخير!!!

● وهناك أب آخر.. تحدث عن هذه الظاهرة التي قال عنها متسائلاً بحرقة:

● إلى متى تظل هذه الهوة بين الآباء والأبناء.. ومن السبب في ظهورها حتى التضخم الآن؟!

● هل تكاملت كل أمور المجتمع.. من حيث: التطور، والعطاء، والحضارة... حتى يسهر الجيل الجديد إلى ساعات الصباح الأولى؟!

● هل بلغنا المستوى المتفوق اجتماعياً.. حتى نفعل هذه النكسة في السلوكيات، وفي الإحساس بالمسؤولية؟!

● ● ●

● وفي المقابل.. نجد أن بعض الآباء الذين بلغوا الأربعين حتى الخمسين، ما زالوا يعيشون وكأنهم في العشرين من العمر ـ سن أبنائهم ـ فهم يمارسون ما يفعله الشباب من سهر الليل، وبُعْد عن البيت نهاراً وليلاً.

● أحد الأبناء.. كتب لي في رسالة حزينة، يقول:

ـ إنني أبحث عن أبي في البيت فلا أجده.. فهو: إما مسافر، أو سهران عند أصدقائه، أو في عمله، أو..... نائم!

أحتاج إليه في بعض الأوقات، فلا أجده.. كأنني يتيم بلا أب يوجهني، ويعيش معي مشكلاتي ويتفقَّدني!

مرة.. طلبت أن أتحدث معه، فأجابني: "ماني فاضي.. ماني فاضي،

عندك أمك، ومعاها فلوس، خلاص بعدين"!!

● لا بد للآباء من الجلوس إلى أبنائهم، ليسألوهم عن مشكلاتهم.. ما يقلقهم، وما يسرقهم إلى الاضطرار لإهدار الوقت!

● وتأتيني رسالة من أب آخر.. قال فيها:

حاولت الاقتراب من ابني، فسألته عن (اللي قالب حاله)، ولماذا هو مكشِّر في وجهنا بالبيت... لا نرى وجهه ضاحكاً أو (مفروداً) إلا عندما يأتيه تلفون من صاحبه.. فتعلو قهقهاته؟!!

● فأجابه ابنه: هذه أشياء تخصُّني، ولا تعرف حلَّها لأنك من جيل سابق!!!

● ● ●

● دور الإعلام:

● وعندما نكتب الآن عن مشكلات هذا الجيل الجديد، وعن أخطائه.. فهو جيل لا يقرأ حتى يلتفت إلى ما نكتب ويحاورنا على الأقل.

لكن وسائل الإعلام مدعُوَّة إلى تفجير هذه الظاهرة/ الأزمة، والالتفات إلى خطورتها، والبحث عن أبواب نشدُّ إليها الشباب ليسمع!

إن الصحف: لم تكتب عن هذه الظاهرة الخطيرة.. وكثير ممن يكتبون قد انشغلوا في التنظير السياسي، أو العلمي، أو الكتابة في الاقتصاد... بينما يفتقد الإعلام إلى كُتَّاب اجتماعيين، مصلحين حقيقيين، يتمتعون بالثقافة، وبحصافة الرأي، وبجاذبية الإقناع... وبقيت المشكلات الاجتماعية بعيدة عن الاهتمام، خاصة أساتذة الجامعات الذين يملؤون

الصحف اليوم بمقالاتهم، نجدهم في غياب تام عن أهم ظواهر المجتمع الخطيرة.. وعن مخاطبة الشباب.

والتلفاز: مازالت مسلسلاته مستوردة، تلوك في موضوعات مجتمع آخر أكل عليها الدهر وشرب.. بينما مناقشة مشكلات شبابنا وشاباتنا، والظواهر الجديدة: غائبة الطرح عنها.

أما الإذاعة.. فمن يسمعها؟!

الشباب الآن... مندفعون لمتابعة وسماع إذاعة الـ (MBC, FM) التي زادت الطين بلة.. فهي سرقت التفاتة الشباب إليها بلا دراسة، وبلا عناية بالمشكلات وبالظاهرة... فأصبح أهم برامجها ممثلاً في: حشد أغاني الفيديو كليب، والأغاني الهابطة، وإهداء الأغاني، و...... رقاعة صوت (الشاب) الذي يقدم البرنامج كأنه فتاة (!!).. يلوك الكلمات بدلع وبمنتهى التفاهة والتسطيح لقيمة الجيل الجديد كله الذي حصرت هذه الإذاعة كل اهتماماته في هذه التفاهة!!

نعم.. هناك برامج اجتماعية ـ إذا جاز وصفها ـ تقدمها الإذاعة في النهار، أو في أوقات ميِّتة لا يسمعها الشباب.. والوقت المناسب هو المساء.

● ● ●

● وبعد.... إن "أحلام" هذا الجيل تتحول إلى ضرب من الجنون التعيس.

إنها أحلام عاجزة أن تحمل في تضعيفها: قدرة البوح... على الأقل!

وأخيراً جداً.. أختار ـ طائعاً ـ أن أتوقف عند هذه العبارة:

ـ "مادمت لا تعيش حتى المائة... فلماذا تحترق ألف مرة"؟!

ورغم أنها حقيقة.

ورغم أن خلفيات المعنى فيها من أسرة: "الحلم المفقود"، ومن القلق الذي يشبه ورقة النشاف.

ورغم أن الإنسان لا يضمن الدقيقة القادمة من عمره في ظل تهديد أمنه اليوم، وتهديد راحته الموهومة:

فإن كل واحد: يركض، ويزاحم، ويخاصم، ويحقد، ويتلوث.. من أجل (حفنة) من أي شيء، ما تلبث أن تضيع.... حتى من أحلام الشباب!

ويبدو أنه من الضروري أن يحترق هذا الجيل الجديد ألف مرة في اليوم، ليعرف: أنه يعيش ـ كما عاشت الأجيال التي قبله ـ طوال اليوم!!

الخوف على الجيل

● نحن نخاف على "الجيل الجديد" من كل الأسباب التي أدت إلى اكتساح المجتمعات في الغرب... وهي نفسها: الأسباب التي أخذ الجيل الجديد يترسَّمها، وليس شرطاً أن يكون الترسُّم كربونياً.. ولكنه يرتبط بطبيعة المجتمع الصناعي، والمجتمع الذي أوغل في الماديات... فتغرَّب بعيداً عن الروح، والقيم، والثوابت الاجتماعية الأخلاقية.

اليوم... صار الكثير من شباب العالم يصرخ: باحثاً عن نفسه، وعن ركائز الشخصية المنتمية إلى أعراف وقيم مجتمع يقوم على الدين، والروح.. وتحول من جيل مستقل رافض إلى جيل احتجاج ومن احتجاج إلى تمرد، ومن تمرد إلى ضياع، ومن ضياع إلى عنف ... فَقَد بهم الشباب ما تبقَّى من المُثل الإنسانية، وتاه عن الطريق الصحيح.

العالم ـ وأكثره صار مادياً ـ يشبه الآن: بحيرة صمغ... والشباب في هذه البحيرة فقدوا نظرتهم الصافية إلى الحياة.. الانفعال يركبهم، والقلق يسوطهم، والحقيقة المُرة: تقتلهم!

لقد انشلَّت خطواتهم، فباتوا يتخبطون من داخل بحيرة الصمغ.. ينزعون إلى الوصول على حافة البحيرة فلا يقدرون، ويحاولون تذويب الصمغ فيزيدون كثافته ولزوجته بدون دراية منهم.. وأخذت بحيرة الصمغ

تطفو على الحفافي وتتسرب إلى أنحاء العالم في الغرب والشرق... وكل شاب وشابة: يرفع عقيرته هذه الأيام مردداً عبارة صالحة للفرجة، هي: (أريد أن أكون أنا)!!

والعبارة قديمة تتجدَّد.. كانت قد تبلورت قبل سنوات وصارت الركيزة التي نهضت عليها فكرة فيلم ـ عمره أكثر من ثلاثين عاماً ـ قام ببطولته "كيرك دوغلاس، وفاي دوناوي، وايدي أندرسون"، وعنوانه: قلوب في دوامة.. من تأليف وإخراج "الياكازان" الذي قدم قبل ذلك الفيلم أفلاماً تصور زيف هذه الحياة التي يعيشونها هناك... حتى بلغت حدود جيلنا الجديد... وهو فلسفة مستطيلة لسؤال يقول:

ـ هل يؤدي اكتشاف الحقيقة إلى الدمار والقتل؟!

إن الحقائق لا تتشابه، وليست كلها تحمل الدمار.. لكن الحقيقة ـ كحياة، وكيقظة ـ هي ارتكاز (إنساني) لا يتغيَّر: إما أن تدمر، وإما أن تنظف وتنقذ!

إن العلاج لعبارة: (أريد أن أكون أنا) بين الشباب.. سيكلفهم كثيراً، وستكون اليقظة على الحقيقة مرعبة وأكبر من الاحتمال.. لكنها ـ أيضاً ـ ستفتح درباً لجيل جديد نظيف قادم!

والدخول إلى: مادية العصر، أو حقيقة الجيل الذي تلوث بماديات العصر. نبدؤه بهذه العبارة القائلة: "كل شيء.. تزوّجوه عرفياً"!!

أو أن هذا الجيل: يتعامل مع نفسه، ومع الآخرين بسلوكيات ماديات العصر.. حتى باتت العلاقة بين الإنسان وأشيائه: محكومة بالزواج العرفي... الكثير منها في السر، والبعض منها يمارسونه في الوقت الضائع.

وهذه العبارة (أعلاه).. من الممكن أن نقولها اليوم كمحصلة لأشياء كثيرة تابعناها بقلق وخوف، و...... عن بعض الناس ممن ركبوا الموجة حتى نهايتها، فاكتشفوا: أن البحر عميق، وأن المسافة إلى الشاطئ الآخر تحتاج إلى زمن طويل من التجديف والسباحة في الطمي!

فهل هو عصر: الكراهية، والشقاق.... لا يقف عند حد المفارقة الطبيعية بين اختلاف الأجيال؟!

هل من الممكن أن يكره الابن أباه.. والبنت أمها؟!

● قال فيلسوف قديم: إن الكراهية لا تتفق مع الحب أبداً.. إنهما ضرَّتان شرستان، وإن الأهداف لا تخضع للأغراض الأنانية، وإن الحواس تتألم من الأفعال البغيضة وترفضها.. وكل شيء من هذا يناقض الآخر إذابته فيه!!

●●●

● البحث عن التربية:

● هنا.. لابد أن نفتش عن (التربية) التي صارت تفتقدها مدارسنا... فالتعليم حين يُصبُّ في عقل الطفل بدون تربية، لا يُنتج شخصاً فعالاً ناضجاً سوياً!

ونجد حكاية نستشهد بها عن دور التربية، وقد نستروح بها من ضغط الحوار الجاد:

● ذات يوم.. ذات شهر: اكتشفوا طفلاً في أسرة من "القوقاز" لا يحب الحلوى أبداً، وكلما قدموا له حبة حلوى قذفها وصرخ محتداً..

وكان هذا التصرف غريباً على طفل من المفروض أن "يتفانى" في حبه للحلوى!

ولم يعرفوا ما الذي يريده الطفل بالتحديد، ولكنهم تركوه يمشي وهم خلفه يتبعون خطواته.. لعله يدلُّهم بالإشارة إلى مطلبه!

وتجول الطفل في أنحاء البيت، وكان كل عمره لا يزيد على سنة، استطاع في خلالها أن يتقن المشي، وبلغ الطفل منتصف المطبخ وأسرته كلها خلفه، وجال بعينيه ناظراً إلى أشياء كثيرة، وأشار إلى زجاجة مليئة، واقترب منها، تركوه يحاول فتح غطائها، فعجز، ورفع عقيرته بالبكاء، فسارعوا إلى فتح غطائها وقد ارتسمت الدهشة على وجوههم... وتناول الطفل شيئاً من داخلها على شكل إصبع، وابتهجت أساريره، ووضع الزجاجة بين فخذيه الصغيرتين الممتلئتين خوفاً من أن يفقدها، واستمر يتناول مما بداخلها وعلى وجهه إمارات الابتهاج والغبطة!

فما الذي كان يملأ الزجاجة؟!

كان بداخلها "طرشي" معتق لاذع (!!) وهكذا أبدل الطفل الحلوى بالطرشي... فلماذا؟!

البعض يفسِّر هذا التحول: بأنه يرجع إلى نفسية الإنسان اليوم.. ما يقلقها، وما تصطدم به، وما تتوق إليه، والحلوى لا تعبر عن حقيقة ما يشعر به المرء.. إذا كنا نعيش عصر "الطرشي" بالفعل في أشياء كثيرة!!

ولكن "الطرشي" حاد لاذع ويثير الشهية.. بينما الحلوى منزلقة وناعمة وحلوة وتقفل الشهية، ومن القديم ـ حينما كنا أطفالاً ـ كانوا يعطوننا الحلوى بمقدار لئلا تؤثر على الشهية فتصُدَّ النفس.. ولكنَّ الحلوى الآن أرخص الأشياء الجميلة في أكثر من معنى وصورة ورمز!!

وربما فكروا في المستقبل أن يصنعوا بدل الحلوى: "كافياراً" أو سجقاً، أو الجمبري، أو "الرنجة"... على شكل قطع الحلوى المتداولة الآن، وقد فعلوا ذلك في أنواع البسكويت الحاد أو المالح "أبو خَلْ"!

وإذا استطاعوا الخلط بين المعاني وبين الماديات، كالخلط بين جمال النفس، أو جمال الشكل، أو جمال الصوت، وبين جمال الأكل، أو جمال الطَّعْم، أو جمال اللبس... فإن ذلك معناه: قدوم الإنسان إلى ظواهر لا يعرفها، وسوف تُغرقه وتغرق معه أنبل الصفات، وأكثر الأشكال وسامة وفتنة، وأكثر المعاني أصالة ونقاء!!

ولكن...... ربما كان المعنى الذي رمزت إليه حكاية طفل القوقاز.. هو معنى يشير إلى مادية هذا العصر، وربما يكون المعنى محدوداً وضيقاً في إطار يقول: إن أسرة هذا الطفل من "مدمني" أكل الطرشي، فلا غرابة إذن من كل ما كان (!!) فنحن الذين نعلم الطفل كل عادة، وبعد أن يعي الإنسان ويشبّ عن الطوق، وينتقل من التقليد إلى الاستقلال بما يرغبه.. قد لا يستطيع التخلص مما تعوَّد عليه وهو طفل، فالمادية تبدأ منذ الصغر!

وهناك طفل آخر: اكتشف أن الحياة فلوس، فهو كل طفل، وأول ما يتعلم المشي المدرك للخطوة... يطلب مالاً ليشتري حلوى أو ليشتري طرشي!

إن مادياتنا لم تعد عادة.. بل أصبحت مطلباً، وإلحاحاً، وأصبح من الصعب علينا الآن أن نفرق بين الماديات والروحانيات... بين المطلب والتمنِّي أو الحلم، لقد تشابكت كلها معاً... وأنت بائس إذا حلمت

وغرفتك جرداء أو فراشك خشن... فالأحلام مرتبطة بما كنت تفكر فيه قبل أن تنام!

إنه عصر سقط فيه القلب تحت حزام الخصر، وفي هذا "التحت" نحن نحمل الفلوس، ونحمل أيضاً أحلام ما تأتي به الفلوس!!

• • •

● لكنَّ هناك رأياً آخر.. يقول:

ـ ليس شرطاً أن تكون (التربية) في البيت هي التي تُشكِّل سلوكيات وأخلاقيات الشاب، أو هذا الجيل كله.. ففي البيت الواحد نجد أخوين: يختلف كل واحد منهما عن الآخر في سلوكياته، وطباعه، وتوجهاته، وأفكاره..مع أن تربيتهما واحدة: أب واحد للاثنين، وأم واحدة... غير أن (التأثير) يأتي من البيئة التي يعيش أكثر وقته معها.. يتكلم معها، ويقلِّدها، ويستمع إليها.. وهي بيئة: الصداقة، أو الأصدقاء، أو الزملاء في المدرسة ثم في الجامعة... فهذه البيئة تؤثر أيضاً حتى على ما تزرعه تربية الأسرة في عقل ووجدان الطفل ثم الشاب!

وهذه البيئة ـ أيضاً ـ هي: الأخطر على سلوكيات، وتوجهات، وأفكار الشاب... بالإضافة إلى الواقع المادي، إذا كان: فقراً مدعقاً، أو كان ممثلاً في تدنِّي الدخل المادي... أو إذا كان: غِنًى فاحشاً يؤدي إلى السفه أو البذخ في الصرف!

ومهما حاول "الأب" أن يحرص على اختيار (رفاق) ابنه، أو حتى إلزام الابن برفقتهم... فهذه المحاولات تفشل في الغالب، طالما أن "الأب" مشغول عن متابعة نمو هذه الصداقات!

وهناك "أب" قال: إنه منح ابنه كل ثقته في اختيار الرفاق، أو الزملاء، أو الأصدقاء... وأنه كان يمحّض ابنه كل الرضا على حسن اختياره لأصدقائه الذين كانوا يحضرون إلى المنزل، ويسلِّمون على الأب، ويعرف آباءهم وتماسك أسرهم.

لكنه اكتشف بعد توسط ابنه مرحلة الجامعة ـ ربما لشعور الابن أنه أصبح رجلاً ـ بتخلي الابن عن كل أولئك الأصدقاء/ أولاد الناس كما يسميهم/ والركون إلى شاب واحد، حرص أن لا يخبر عنه أسرته، ولا يُعرِّف والده عليه.

وعندما علم الأب بهذا التغير، سأل ابنه:

ـ وأين ذهب أصدقاؤك الذين كانوا أقرب إليك من أبيك وأمك وأخوتك.. وكنا ـ أسرتك ـ نبارك صداقتكم؟!

غمغم الابن ولم يعط سبباً وجيهاً للتفريط في أصدقائه/ أبناء الناس، ورفض في نفس الوقت أن يبتعد عن هذا الشخص الذي صار بالنسبة إليه: أهم من أسرته.. بعد أن صار يقضي عنده في منزله أكثر وقته، والوقت القصير الذي يمضيه في المنزل: يعتزل في غرفته عن أهله.. وصار كثير السهر، ويخرج بعد الظهر ولا يعود إلا مع حلول منتصف الليل!

وعندما ثار والده وطلب منه: تعريف صديقه الأوحد.. أصر الابن على التمسك بهذا الرفيق الذي سرق الابن من كل أصدقائه الطيبين، بل ومن أسرته... وقال الابن لأخيه:

ـ هذا الرجل (يقصد والده): لماذا يفرض وصاية علينا حتى بعد أن كبرنا وأصبحنا رجالاً؟!!

● وقال الأب في قمة عجزه: أتوقع أن يسقط ابني في مصيبة لا أحسبني سأكون قادراً على احتمالها!!

● ● ●

● ظاهرة العنف:

● تبقى نقطة خطيرة جداً... في هذه الظاهرة التي أخذت في الإعلان عن نفسها... وصرنا نقرؤها أخباراً في الصحف، وهي تشير إلى:

ـ سلوك العنف لدى بعض هذا الجيل... وقد تمثل في: طعن تلميذ لزميله بالسكين.. وفي: ضرب بعض الطلبة لأستاذ مُعلِّم لهم، ترصَّدوا له في الشارع وأوسعوه ضرباً!!

ونحسب أن من أهم أسباب هذه الظاهرة:

● **أولاً**: الفراغ العاطفي والنفسي الذي يشعر به الطالب، في مقابل شحنة جسمية هائلة يكتنزها ولابد أن يفرغها في: مجهود، أو عمل عنيف... بمفاهيم ضيقة ومحدودة، وفي غياب التربية السليمة.

● **ثانياً**: الواقع المادي الذي شغل الأب عن تربية ابنه وملاحظته.. مع تصاعد الاحتياج المادي لدى الشاب كلما كبر به العمر، خاصة مع بدء مرحلة المراهقة لديه وشعوره بأنه يقتحم ميدان الرجولة!

● **ثالثاً**: احتياجه الشديد إلى (القدوة) التي يُعجب بها أولاً، ثم يقلدها ويترسَّم أسلوبها!

وكل هذه الأسباب: هامة جداً.. تتطلب دراسات، وإعلاماً ينجح في شد انتباه الشباب إلى التوجيه والترشيد فيه... فنحن نقرأ على شاشة التلفاز

ـ مثلاً ـ لوحات تدعو الناس إلى: ترشيد استهلاك الكهرباء والماء... وحتى هذه اللوحات لا تبدو مجدية في إقناع الناس لأنها طريقة بدائية في مخاطبة (وعي) الناس... فعلينا أن نفكر في أساليب جذابة ولافتة: نرشّد بها ـ أولاً ـ سلوكيات هذا الجيل المتمرد، والرافض إلى درجة الكراهية أحياناً، وإلى درجة العقوق للأب والأم، وإلى درجة التطاول على القيم الأخلاقية... بينما نقف في صفوف المتفرجين ولا نعرف سوى الشكوى!!

أحلام اليقظة

● شيء خطير يعصف بهذا الجيل الجديد في أنحاء العالم، ومجتمعاته، وبنائه الأسري... دون تمييز بين مجتمع متمَدِين حضاري، أو مجتمع متخلِّفٍ نَامٍ... ولا بين مجتمع ثريٍّ موسر، أو مجتمع فقير مُدقَع!

● وتتمثل الخطورة في عدة مراحل خطيرة.. من أهمها:

● التفكك الأسري.

● انشغال الأب والأم عن متابعة نشأة فلذات الكبد، ومراقبة تصرفاتهم، وطموحاتهم، وتشذيبها وتهذيبها.

● تضاؤل دور المدرس و المدرِّسة أمام توجيه الشباب، منذ دخولهم المدرسة أطفالاً، وحتى بلوغهم السن الحرجة من دون معاناة المراهقة.. وفقدان صلة الحميمية المرشَّدة بين المعلم والطالب.

● المتغيرات السياسية، والهزات الاقتصادية.. سواء ما سُمِي بـ (الطفرة)، أو بعد التراجع.. وتأثير المتغيرات والهزات على الحالة الاجتماعية، وحتى السلوكية داخل المجتمع!

وقد يقال: إن بنية المجتمعات الإسلامية والعربية، وعاداتها، وقيمها، وموروثاتها... كلها مميزات تصد عن "الإنسان" فيها ما يمكن أن يحدث في شكل أو فعل (الغزو) لهذه التجمعات المتماسكة بمميزاتها تلك!

وهذا صحيح إلى حد ما!!

لكنَّ الـ "حد ما" هذا.. يخفي وراءه خطراً غير بيِّنٍ، ولا مباشر!

لماذا؟!

فيما نلاحظه على تطور السلوك الاجتماعي، والأخلاقي ـ العربي والإسلامي ـ يتضح: أن هذه المجتمعات أخذت تنجذب من وقت غير قصير نحو تلك العواصف التي أحدثت: الهزات، والتبدلات، في مجتمعات العالم الذي يملك أسباب الحضارة والمدنية، وينطلق بها نحو العالم بلا تمييز!

وإذن... فإن العالم، الثالث أو النامي، أو المتخلف حضارياً وعلمياً، ومازالت تحكمه النسبة العليا من "الأمية"... هو عالم يستغرق في التقليد المُنْشَدِه أو المذهول.. ويسقط كالفراشة في اللهب!

ولابد أن النار التي ستحرق "إنسان" هذا العالم.. تتمثل في تخلِّيه عن قِيمِه، وموروثاته، ومبادئه، وسمات مجتمعه.. بالإضافة إلى ضعف دفاعه عن الحق، وعن العدل، وعن المنطق، وتورُّطه في الباطل، والظلم، والافتئات، والافتراء، والذاتية المحضة!

وبات إنسان هذا العالم.. يمارس التقليد الأعمى، أو الأغبى، مثل الغراب الذي يحجل!

واندفع إنسان هذا العالم نحو "صرعات" مجتمعات الغرب.. دون تفاضل أو تميز!

ولهذه الأسباب مجتمعة.. فإن إنسان هذا العالم، يشعر بعجز ملحوظ في شيء واحد، وهو: أنه لا يستفيد من التقدم العلمي، والتقني، والحضاري.

وأبعاد هذه الخسارة تتضح.. في تفشي: البيروقراطية، والروتين، وجعل النظام عائقاً ضد مصالح الإنسان، بدلاً من أن يكون النظام خادماً ومسهِّلا لمصالح الإنسان، ولاحترام وقته، ولرفع الحيف عنه، ولإنصافه.

ورغم أن المجتمعات العربية تحفل بأعداد هائلة من المثقفين... لكنّ أصواتهم مبدّدة أو مسروقة في الصراعات السياسية، أو في الخوف والحاجة، أو في معاناة أشكال الغزو الحديث لمصالح الشعوب، ولعقولها، وحتى لعواطفها... بالإضافة إلى: فقدان الأرض، وفقدان السلام، وفقدان التضامن الذي يُرسِّخ الإرادة!

ورغم أن المجتمعات العربية تموج بأعداد مكثَّفة من المتعلمين الحاصلين على الدكتوراه، والمتخصصين في علوم عديدة... لكنَّ هذه الأعداد بدورها قد وُظفّت للركض وراء طموحاتها الذاتية تارة، ولشراء حماسها وقدراتها!!

وتضيع بذلك جهودهم، في موجات هذا التدفق لكل جديد، وعصري، وتطوري من مجتمعات الغرب.

وتضيع قدراتهم ـ أيضاً ـ في الإغراءات الذاتية، والطموحات الملوحة بالثراء، أو بالمجد، أو حتى بالخوف!

• • •

● نشرت مجلة فرنسية دراسة عن "الأحلام اليقظة" عند شباب هذا الجيل!

ورغم أن الشباب يبدو متحمساً، أو انفعالياً، أو رافضاً لأشياء كثيرة، أو عاجزاً عن توفير رغباته ... لكنه يجد اللحظة التي يغمض فيها عينيه،

ويتخيل أنقى إحساس يختلج بين ضلوعه، وأهم فكرة يحاورها عقله.

● وتساءَلت الدراسة: لماذا يعجز شاب هذا الجيل عن تجسيد الخيال، وعن إحياء الأحلام... لتتحرك؟!!

ـ أجاب أحد الشباب قائلاً: إنني أحتار في فهم بعض النتائج التي نتحصَّل عليها!!

وعليكم ـ إذن ـ أن تضعوا إجابة مُقْنعة عن بعض ما يدور في أعماقي، وتفكيري، وما تمور به أحاسيسي!!

● مثلاً: هل ينضج شبابي، لأنني أُعدّه وأعطيه طُعْماً لشيخوختي.. فتكون الشيخوخة هي الهدف، والحصيلة، والعمر؟!!

ولماذا نجد في مجتمعنا من يثبط طموحاتنا، وأفكارنا الجديدة.. باسم: التقاليد، والعادات، والقيم... لمجرد أن لا يحدث تطور، وأن لا يتجرأ إنسان ما على طرح سؤال مباشر وصريح يخص مشكلة يعاني منها المجتمع؟!!

لماذا يحاول البعض أن يقتل في أفكار الشباب كل فكرة جديدة.. تحت مسمياتٍ، محظور أن نناقش فيها ونتحاور؟!

● ويتحدث شاب آخر.. يعمل بمواظبة، ويمارس الأعمال الصعبة، ويعرق.. فيقول:

ـ إن علماء النفس والطب يقولون: إن العمل يحقق شحنة من القوة والمتانة للجسد، بينما تستطرد أصوات وراء هذا القول.. لتمنع الشاب من الاستمتاع بوقته، ومن حقه في الترفيه.. فتطارد الحرية الشخصية للإنسان باسم الحفاظ على الأخلاق.. ولا يعني ذلك سوى تعميق المزيد من

الكَبْت، وخنق التعبير، ودفع الشاب إلى الانحراف الحقيقي المذموم، والهادم لشخصية الإنسان الفعال في مجتمعه!

إن العمل يهدّ العافية.. إذا لم تعقبه راحة النفس والضمير، والترويح عن هذه النفس!

● وقال شاب ثالث: إذا لم أسهر، وأمرح، وأرفه عن نفسي.. أشعر بالاختناق، كأنني محاصر في عمق إنسانيتي وحريتي الشخصية.. شرط أن لا أتبذّل وأنحرف!

لكنني أميل في أكثر أوقات راحتي إلى النوم المبكر لأصحو في موعد العمل غير مرهق.. وهذا الاستلقاء يرفع نظراتي إلى سقف الغرفة، أو يُلصقها بالجدار.. فأتخيل ـ للحظات ـ وجه أنثى يريحني، أو حُلمً غدٍ يحقق لي بعض طموحاتي.. ولكني أفكر بعد ذلك في العمل الذي ينبغي أن أؤديه في الغد!

● ● ●

● وهكذا.. شردت تأملاتي وراء كلمات أولئك الشباب!

لقد جعلتني أقوالهم أتذكر عبارة سمعتها ضمن حوار فيلم فرنسي قديم، اسمه: (الهاربون من الموت.. بالموت).. تقول:

ـ "يبهرني الهروب في الأحلام، والجنون"!!

إن هذا الانبهار هو نتيجة المضض الذي يعاني منه إنسان هذا الجيل.

وللانبهار أيضاً نتيجة حادة... هي: الجنون!!

إن الجنون يتمثل في هذه الشواهد التي تطحن العالم، وتبعثر قدرات شبابه، وأخطرها:

- جنس قذر، وحيواني مقزز.
- مخدرات.. تأخذ الشباب إلى الضياع، والتفاهة، والعجز.
- قتل متوحش، وجريمة بأسباب لا يندفع إليها حيوان الغاب.
- انحلال، وتفكك.. من جراء القلق والمضض، والوحدة النفسية!

أما الأسباب.. فإنها تضيع في حرائق عديدة من جنون الماديات، والرغبات، ومراوحة نسبة الأمية المرتفعة، والعوز والفقر، والظلم والغمط لحقوق الآخرين.

ومن مستلخصات تلك الدراسة.. فقرة هامة تركز على:

- إن الشباب يفتقر اليوم إلى "المعلومات العامة".. ذلك لأن الدراسة متخصصة، والمكتبات في العالم تشكو من انخفاض نسبة ما توزعه من الكتب!

إن الشباب يطالع الصحف، والمجلات الملونة، ويهمل الكتاب.

بمعنى: إن العالم يدور في حلقة المادة، والأرصدة المالية، ومحاولة إثبات حقوق الفرد، والعبث، والخوف!!

التحرُّر من الوهم

● في البداية... لم يكن الخوف، ومع ذلك فقد استيقظ "الداخل" في النفس، وأصغي!

في التلفت... لم يكن حزناً، كان "التوقف" عند محطة زمنية خوفاً من ضياع أشياء النفس، خوفاً من صدمة الفقد.. عندما تصبح قضية "الإحساس" الأولى سهماً من هذا السؤال الفاجع:

ـ إلى أين... خطوات بلا درب؟!

ولا بد أن يضطر "الواحد" و"الواحدة" من الناس إلى وقفة قصيرة، ليفعل ما طرحه "كاتب" كان يناقش مشاكل الجيل المعاصر، فقال:

ـ "الحياة تعني: العمل، والأصدقاء، والحب، والهواية، والرياضة، والنوم، والموت.

الحياة تعني: أن تُخْبَر كل شريحة منها على حدة، وتفهمها، وتذوقها، وتعيش وتسعد، ثم تموت!

وفي الإقدام على هذه الأسس للحياة.. نحن نحتاج إلى وقفة تأمل: كيف عشنا، وما هي الآمال التي حققناها، وكيف استطعنا أن نحول أنفسنا بالنظر إلى الظروف، وبإخضاعها"؟!

هذه العبارة الطويلة، المتعاقبة صوراً وتفصيلاً، أحسبها أطول سؤال يطرحه الإنسان على حياته، ويمضي عمره كله في الإجابة عن فقراته حتى يصل إلى فقرة "الموت"، فيقول: لا أريد أن أموت!

وهذه العبارة ـ أيضاً ـ كانت الفم المفتوح بتخويف، ضمن بحث مستفيض قديم كتبه "محيي الدين محمد"، وجعل عنوانه في شكل سؤال:

● "كيف نحرر جيلاً من الوهم"؟!

أضحكني السؤال، وأخافني!

تذكرت "مارلين مونرو" التي بقيت لحظة موتها أو انتحارها لغزاً يتردد حتى اليوم.

لقد استلقت ذات يوم على ظهرها مستغرقة في قهقهة عالية وغريبة، ولم تكن قد اقترنت بعد بالكاتب الأمريكي "آرثر ميللر"... وحينما سئلت عن سبب ضحكها بكل هذا الفرح "العنيف"! ابتلعت ثمالة قهقهتها، وأجابت:

● أضحكني "اللاشيء"... وهو كل شيء!

ـ سُئلت: كيف... افصحي؟!

● قالت نحن جيل يقتات الوهم... فقد استطاع رجل أن يوهمني بأنه يصلح زوجاً لي، أنا "مارلين"، وأوهمته أنني سأتزوجه، ويبدو أنني سأفعل ذلك، ثم أموت!

أحزنني هذا التذكر لعبارة "مارلين" القديمة، لكنه جيل الوهم... فكيف يتحرر من ذاته؟!

وما دام أنه جيل هذه صفته... فمن الطبيعي أن يحتاج لوقفة عميقة،

بعيدة النظر، ولمحطات يستعيد فيها أنفاسه، ويحصي ما ضيَّعه، ويلتفت خلفه... لا تحسُّراً، وإنما ليخاطب نفسه، يسألها ويجيب، ويتبين الصُّوى!

• • •

● أما ذلك الكاتب... فقد اهتم بالوقفة، اعتبرها وقود انطلاقة أخرى من محطة التوقف لمتابعة السير على دروب جديدة واسعة.

لقد اتهم الإنسان النفسي، واتهم وجدان الإنسان بأنه: رضخ للعادة، فأصبح يعيش التعود في أغلب جوانب حياته، وأوضح رأيه حين استطرد قائلاً:

● "كلنا نعيش بالعادة.. بدفعة الحياة السابقة.. بوقود الماضي، كقاطرة توقفت محركاتها الخاصة، تدفعها إحدى القاطرات القديمة.

نحن هذه القاطرة الحديثة المعطلة... في داخلنا الموقد، والآلات جاهزة، ونملك إمكانية الانطلاق.. لكننا نحتاج إلى الوقفة للتزود بالوقود، ثم ننطلق"!

وتجاوزاً لآراء سلفت من كُتَّاب، ومفكرين، وفلاسفة.. قالوا: إن أغلب نواميس الحياة الاجتماعية هي مجرد: "عادة"... تآلف معها الناس، ونسوا أنها من زمن سبقهم.. نقول: إن هذه العبارة فيها تجنٍ على طاقات الإنسان وقدراته، وفيها إهمال لإبداع العلم، وخطوات الحضارة.

إن الوقفة "القصيرة" مطلوبة من داخل نفوسنا، وكل "العادات" التي جاء إليها جيلنا وشبابنا وعصرنا... لا تبدو خطراً أمام العلم وداخل مفهوم العقل الواعي والباحث الذي يستنطق ساعات يومه، وأمانيه، وعمله.

الوقفة "القصيرة" في صورة.. هي ليست أكثر من زمن محدد مؤقت.. يتابع فيه "عالم" باحث، أو يتأمل فيه "فنان" طموح ونقي، أو يفكر فيه "فيلسوف" يخاطب العطاء الإنساني في لحظة استشراف الوجود.

والوقفة "القصيرة" ـ في صورة أخرى ـ هي كل شيء.. زمن غير محدد وبلا توقيت، وذلك في حياة العبقري والعاشق والمجنون.. وهي اصطدام بلحظة "إصغاء" في داخل الإنسان.

وأحياناً لا تبدو عليك بوادر "العبقرية"، ويحدث التوقف في داخل نفسك!

ولستَ مجنوناً، ولا عاشقاً.. لكنك أضعت الكثير من الرؤية، بنظرة لا تطل على شيء!

وأحياناً يعتريك جنون "الفقد" لمعنى من معانيك كإنسان، أو كعاشق، أو كمحب، أو كمتأمل مرتقب صبحاً يُسْفر ولا تعرفه، وتترصد نجمة لا تعرف إلى أين مسارها واتجاهها؟!

ومن الاضطرار ما قتل!

ومن الاضطرار ما رمَّد الوهج، وما كفأ الأماني والمسرات على وجهها.. فصرعها!

ومن الاضطرار ما سلب منا اللحظة التي نحياها، وجعلنا ريحاً تصفر في بيداء... أقسى من تلك التي كفَّنت "قيس"!

• • •

● عندما ترى لحظاتك العارية:

● لكي تصغي إلى ما في داخل نفسك.. عليك أن تتوقف قليلاً!

وحينما تفعل ذلك.. ترى غربتك والناس يرحلون، أو على الأقل: تتغير نفوسهم ومشاعرهم!!

لقد اكتأب "ستيفان زيفانج" ذات ليلة.. شعر بالاختناق يهشم صدره ويقبض أنفاسه، فخرج إلى حديقة بيته بعد منتصف الليل، وعند ساق شجرة حانية توقف واتكأ بكتفه عليها، وفي عينيه دمعة حائرة ترفض الانزلاق حتى لا يستريح بالبكاء.

وتجول تلك الدمعة في عينيه، وهو يستعيد نهاية يومه؟!

كان لا يعرف تبريراً للتصرف الذي فعله.. كان يذكر ـ فقط ـ تعاقب الأحداث: القصة كيف بدأت، كيف تطورت، وبعد ذلك كيف تعقدَّت.. كيف وضع حلاً ينهي القصة؟!

ويبدأ هو مع النهاية في معاشرة غربته، وكآبته، ووحدته، وحزنه الصامت!

كان يصغي "للداخل"، لأعماقه... كان أمام "التوقف" الذي اصطدم به فرحه، وغاضت بعده بسمته، وهو يردد بهمس:

ـ كان ينبغي أن أفعل ذلك.. كان ينبغي!!

والقصة مؤلمة في حياة "زيفانج"... لكنَّ عطاءها كان يمثل إشراقة الحياة في أيامه.

قصة "فتاة" وجد في خصالها: روعة المعايشة للأيام، وصفاء الحياة، وعذوبة الليل وهو يغفو، وطلوع الفجر حين يبزغ من ثنايا شعرها!

لكنه اضطر أن يتوقف، وأن يسرق يده من يدها، وأن يطلق آهة.. خُيِّل إليه أنها صعدت إلى تلك النجمة المتوقفة!

وحاول أن يتوارى... يهرب ويتعذب!

إن عذاب الحب تضحية، وإسعاد من تحب ليس "مِنَّة" عليك، وإنما "منحة" راحة لمستقبل من تحب، ولمحطاته التي يتوقف فيها وحده بدونك... فيتذكر أنك في حياته: صبحٌ كان، أشرقت عليه بعد ليلة ممطرة وتتذكر أنت أنها في حياتك نجمة كانت.. شهدت زمن أمطارك، وإخصابك، وإشراقك.

وبقي "زيفانج" غريباً، تائهاً... انطلق إلى دروب كثيرة، وتوقف عند محطات متتالية، لكنَّ "نبضه" كان قد تخلَّف عنه... بقي هناك معها يعيش في الزمن الذاهب عذاب الحب، وحصيلة الصفاء والنقاء!

● ● ●

● ويبقى كل إنسان يجري ويلهث... يبحث عن محطة يتوقف فيها، وعن الوقفة "القصيرة" تلك التي يستجلي فيها إحدى هاتين الحصيلتين:

● إما أن لا يبارح توقُّفه.. ويكتفي بمتابعة الزمن والأنجم، وتقلبات نفوس البشر، وتجميع الذكريات!

● وإما أن يعدو.. تطارده غربته إلى تيه النفس، لا يعرف مفتاح الدرب وانتهاءه، ولا يهمه بعد "الفقد" متى يصل؟!

كل إنسان يتذرع بما يسمى "عادة" في حياته، وفي مهادنته لبعض الأشياء، والمواقف، وفي تلاؤمه... غير أنه يبقى الرافض للأسباب التي

حكمت عليه بالفقد للأشياء الغالية وللناس الأكثر قرباً وحباً إليه!

كل إنسان يحلم أنه عبقري... ويعيش بوهم أنه فرح!

ويظن أنه الذكي.. وعندما يحتدَّ: يتجرد من إنسانيته، وعندما يحب: ينسى أوهامه وذكاءه وعبقريته!!

العنف الأسري والحقيقة المغيَّبة؟!

● استلقيت في ثمالة ليل يضج بالسكون، وقد سقطت على ملامح وجهي عبارة قرأتها من كتاب كنت ألتهم أفكاره، ونصها: "أستطيع القول أن الفكرة التي تأسرني، والحقيقة الإنسانية التي أرى الأشياء في ضوئها... هي: حس الإنسان في العالم الذي صار يكتظ بالغربة، ومدلول هذا الحس في الفرد المعاصر.. هو من الأسباب التي تُكثّف هذا الحس بالانتماء"!!

ونحسب أن معنى "الانتماء" في هذه العبارة: يلمس الانتماء إلى الوطن، والانتماء إلى روابط الأسرة، والانتماء إلى الدين ـ كعقيدة إيمانية تُعمِّق الطمأنينة ـ والانتماء إلى متغيرات العصر!!

لعل هذا الفهم.. هو التوصُّل إلى الاقتناع: بأن غربة (الجيل) اليوم صارت هي المدلول الحسي.. وهي ـ أيضاً ـ التي تكثِّفه بالانتماء، وهي التي تبعثره بالفقد حتى يتحول إلى إنسان متوتر يمارس القسوة، وإلى إنسان أنويّ، أو أناني: يسقط كل مسؤولياته عن مَنْ حوله ويُشكِّلون أسرته، ومجتمعه... أي عالمه.

إن الإنسان يريد أن يفعل.. أن يركض أحياناً بلا حذر تحقيقاً لرغبات (الأنا) عنده، فيسقط في الركض متعثراً... ويكتشف ـ ربما بعد فوات

الأوان ـ أن الضجيج من حوله وفي داخله، قد طفا على حفافيه، وفاض من نفسه وأعماقه!

والزحام الذي يدفع الإنسان بنفسه في لُجَّته: يفلسف الغربة... غربة الروح، أو غربة الوجدان، أو غربة التأمل والتفكير.. ويفلسف الكثافة في نفسه: كثافة الرغبات، والطموحات إلى درجة الأطماع... حتى تتدافع بعد ذلك أصداء من: الحب، والتواصل، والاتصال مع الناس حتى الأقرب إليهم... ولكنه لا يقدر أن يستوعب تلك الأصداء!!

• • •

• سؤال.. مبطن:

• ندخل بعد هذه "المقدمة" إلى تأمل شرائح، ومواكبة ظواهر، وحوار لا بد أن ننسج خيوطه لنصل إلى (معرفة) بكل ما أثَّر في: نفوس الناس، وحتى في وجدانهم داخل مجتمعنا... وذلك انطلاقاً من قاعدة تقول: إن الأسْر الأكبر للإنسان، يتمثل في قيود رغائبه، وقيود مصالحه، وقيود أنانيته... فمن يطيق أن يبقى وحده، وكل العالم يفيض بالزحام؟!

ولعلنا صرنا نعاني ـ عصرياً ـ من مشكلة حملت صعوبتين، هما: صعوبة التأمل ومتابعة ما صار يجري في مجتمعنا من متغيرات بلغت: السلوكيات حتى خلخلتها، وحتى التعامل الإنساني... وصعوبة الإصغاء إلى: الضمير، والعقل، والحكمة.. عند تفشِّي الإدّعاء والزيف!

ويتداعى سؤال خلف كل هذه المنطلقات إلى المشكلة.. نحسبه يتبطّن الفؤاد، وصفاء النفس، ويتبلور بهذه الصيغة:

ـ هل صار في مقدرة الإنسان أن يتخلى عن "الحب" بضغط من "الكراهية"؟!

ونضرب مثلاً: حكاية الطفلة "مريم" التي نشرت صحيفة "الندوة" تفاصيل تعذيب والدها وزوجته لها حتى الضرب المبرح.. هل كان والدها "يحبها" ثم كرهها بعد أن طلق أمها.. أم تراه يعاني من مرض نفسي كرَّس الكراهية حتى لابنته/ فلذة كبده.. أم أن نفسيته مجبولة على العنف، فتخلى عن "الحب" بضغط من "الكراهية" على جذور الأبوة فيه؟!

لقد غمر هذا "الأب" فكره وعواطفه في "الزحام" الذي يُضخِّم له: نفسه، ورغباته الخاصة... دون أن يجد الرادع الذي يوقف "شراسته" عند حد، وقد استغرق هذا الأب في مسافات حياته، وأمكنته، وقاعدة الأخذ بدون أن يعطي، والمواقف التي لا يخاف من رد فعلها... وبكل ذلك: وجد هذا "الأب" نفسه وحيداً إلاّ من عنعناته النفسية وتورُّم "الأنا" في ذاته.

لقد أشعل إنسان هذا العصر: أقدامه، بعد أن ترمّد قلبه وتجرّحت فكرته... ولم تعد الرؤية البعيدة للحياة ذات قيمة، بعد أن انتفت (القيمة) في الوقت الذي يقف فيه الإنسان على الشاطئ.. تضربه الأمواج العاتية، بعد أن حطّم الكثير من سُفنه، وتقاذفته الزوابع والأعاصير، ولم تعد للأيام قيمة إلا في ركضها أو الركض بها... بذلك الرهان على الموت المتعجل!!

• • •

● محاصرة العنف الأسري:

● وعندما أخذت صحافتنا في نشر بعض القصص المؤلمة التي تشير إلى دلائل على معاناة بيوتنا من (ظاهرة): العنف الأسري... نذكر أن "الجمعية الفيصلية الخيرية" بادرت إلى إقامة ندوة، كان هدفها: "محاصرة العنف الأسري"!!

وتواصلت فعاليات تلك الندوة أربعة أيام... شارك بعض المختصين وذلك لطرح: المشكلات داخل الأسرة في المجتمع السعودي، والتعريف بالعنف وأنواعه، وأسبابه، ومَنْ يمارسه، وتأثيراته الاجتماعية والنفسية، ومواجهته، وحكم الدين!

كانت الندوة مهمة جداً، استقطبت الجمعية الفيصلية للحوار فيها: متخصصين اجتماعيين، وناقشت الندوة: (العنف ضد الطفل)، و (العنف ضد المرأة)، و (العنف ضد المسنين)!

وكان المتحاورون قد التفّوا حول مناقشة: (المشكلات الأسرية والتداخلات أو المتغيرات المصاحبة لإيقاع العصر.. وكيفية الحماية والتصدي لذلك)؟!!

عن هذه الندوة الهامة جداً في رأينا: نشرت بعض الصحف أخباراً (إعلامية) عنها، ولكننا لم نقرأ في صحيفة: تغطية شاملة لفعاليات الندوة، ولفت انتباه المجتمع السعودي (القارىء) على الأقل... ولم يتبادر (التلفزة) إلى تغطية الندوة من مناقشات وحوارات... فكان جهد الجمعية الفيصلية كالمنادي في صحراء، قامت بمسؤوليتها تجاه المجتمع، وطبعت مختصرات عن الندوة!

● ● ●

● وتذكرني الإعلامية المعروفة والإذاعية الكبيرة/ السيدة "دلال عزيز ضياء" بتلك الندوة، وقالت لي في رسالة عبر الفاكس: إنك تقدم للقارئ دعوة للتفاعل مع الأحداث اليومية، خاصة ما كان يمس مشاعرنا وضمائرنا.

ـ وأضافت الأستاذة "دلال عزيز ضياء" تكتب في مداخلتها الهامة:

● قرأت ـ بتأثير شديد ـ تعقيبك على حادثة طفلة مكة المكرمة التي نشرت في صحيفة (الندوة) حول: التعذيب والضرب الذي مورس عليها وعلى جسدها الغض وطفولتها الوادعة من قِبَل والدها وزوجته، أو من قِبَل زوجة الأب بموافقة من الزوج الـ "محترم"... ربما انتقاماً وإذلالاً لمطلقته.

وهاتفتك ـ يا أستاذنا ـ منفعلة وباكية، ليس بالطبع لأني أسمع لأول مرة بحادثة كهذه، ولكنني انفعلت لأن مسلسل إيذاء الطفل مازال مستمراً، وقد سبق أن طالعتنا الصحف منذ أكثر من عامين على ما أذكر بحادثة مشابهة راح ضحيتها طفل بسبب عنف وقسوة أب ذي شخصية "سيكوباتية" كما يقولون في علم النفس.. وهذه الشخصية لا يجدي معها تقويم أو إعادة تأهيل نفسي، وأفضل طريقة للتعامل معها هي: العقاب الصارم من قبل السلطات المختصة.

● أستاذي: كانت لي تجربة العمل في قطاع الشؤون الاجتماعية، عقب تخرجي من الجامعة، وقبل حصولي على الدراسات العليا وانتقالي إلى وزارة الإعلام... وفي تلك المرحلة العمرية المبكرة (عقب التخرج، وكنا أيامها نوظّف بعد التخرج بشهور لا تزيد على اثنين أو ثلاثة، وليس كحال أبنائنا الآن)!!! في تلك المرحلة: رأيتُ في دور "التربية الاجتماعية" نماذج لحالات أطفال وفتيات يتمتع أولياء أمورهم بدرجة قاسية من انعدام الضمير

والوازع الديني والغل النفسي تجاه أقرب الأقربين!!!

ولعل العزيزة الأستاذة "نورة بنت عبد العزيز آل الشيخ" /مديرة مكتب الإشراف الاجتماعي النسوي بمنطقة مكة المكرمة: لديها رصيد من الحالات المماثلة التي تودع في دور التربية.. يكفي هذا الرصيد لإعطائك صورة لما يتعرَّض له قلة من الأطفال والفتيات والفتيان من قسوة مروعة، وعَنَتٍ جسدي يمارس عليهم من قبل أولياء أمورهم.. ومنها: حالة ذكرتها لي الأستاذة "نورة" مؤخراً وهي مودعة حالياً في إحدى دور التربية عن: فتاة من قرية ساحلية ظل والدها يمارس عليها أنواعاً من الإيذاء، كالضرب، والجلد وغيرهما.. كان آخرها: التعليق في مروحة السقف طوال مدة خروجه وحرمه المصون من المنزل، لدرجة أن الفتاة المسكينة كانت تضطر لضبط نفسها حتى يأتي الوالد ويطلق سراحها لتقضي حاجتها!!! إلى أن تدخلت الجهة المسؤولة ونزعت ولاية هذا الأب على ابنته وأودعت الدار.

● أستاذي الكريم: ما هذه النوعية من الآباء؟!! ونحن هنا نتحدث عن مجتمع إسلامي/ التوجيهات النبوية تخبرنا: أن خيركم خيركم لأهله، وكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته، والأب راع.

وقد ذهبت امرأة في النار لأنها حبست هرةً، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض... فإذا كان التوجيه النبوي الشريف يرهبنا ويحذرنا من القسوة على الحيوان، فما بالك بالقسوة على فلذات الأكباد، أو الإنسان حتى لو كان طفلاً متسولاً بالشارع وليس ابناً لنا.. فكلهم أطفال؟!!

هذه حوادث أتمنى أن تكون نادرة في بلادنا التي دستورها الإسلام، ويحتكم أولو الأمر فيها إلى الكتاب والسنة.. ولذا أشعر بالطمأنينة إلى أن

مثل هذه الحوادث تأخذ من اهتمام ومتابعة المسؤولين حقها.

وقد تمت إذاعة عدد من هذه المحاور الخاصة بالندوة فيما يخص "العنف ضد الطفل" و"المرأة المسن"، ضمن برنامج الندوة النسائية الذي أقوم بإعداده وتقديمه بالإذاعة.

وحول التوصية الأهم التي ذكرتها: أود أن أضيف من موقعي ـ كمواطنة، وأم، ومسؤولة عن برامج الأسرة في الإذاعة أيضاً ـ أنه من الضروري إذا ما تمَّ تقنين هذه النوعية من العقوبة المنتظرة... أن تنفذ العقوبة على مرتكب الجريمة أو الجاني علناً، ويذاع عنها في وسائل الإعلام المختلفة، لأن الجاني هنا كائن فاقد للضمير والرحمة التي أودعها الله الخالق في قلب الإنسان، ويحتاج أمثاله ممن لم يقعوا بعد في يد العدالة إلى الزجر والتخويف حتى يفكر كل منهم ألف مرة قبل أن يترك لانفعالاته العنان للفتك بهؤلاء الأبرياء.

● أستاذي: آسفة للإطالة، وأرجو أن تسامحني على ذلك... فالموضوع كبير ومتشعب، ومؤلم يحتاج من أولي الأمر في البلاد، وهم الساهرون على تلمس أمان كل فرد في المجتمع، والأمر يحتاج إلى وقفة صادقة وحازمة.

المطلوب: الحزم والشدة مع هؤلاء القساة من قبل الجهات والقنوات الشرعية والأمنية.

● ● ●

● و ... بعد:

● من يفيدنا ويشفي غليل كل هذه (الحقائق)، وهذه الأسئلة المتراكمة/

المتكاثرة، المتلاحقة، القاتلة لطبيعة مجتمعنا الخيِّر، الرحيم، المتكافل؟!

- ما الذي يجري في واقع مجتمعنا الذي نسميه: (الجديد)؟!

كل هذه النماذج مما عرفناه من الصحف عن: القسوة في التعامل داخل البيوت... تحتاج إلى مبادرات، وسرعة بحث، وعلاج يمنع انحدار النفوس إلى مزيد من هذا الزيغ العاطفي، وهذا التبلد الإنساني!!

وها هو (الإنسان)... تسقط أقدامه في رمال الشاطئ الذي يركض إليه، يحسب أنه يُنجيه من غرق البحر.. يخبُّ وحيداً.. يتحاشى الرياح، ويتلفَّت بحثاً عن مَخْرج يؤدي به إلى وسط الحياة... إلى اكتشاف عواطف الناس من جديد!!

الشباب ساق زهرة متوتر

● **لشاعر الصهيل الحزين/ عبد العزيز محيي الدين خوجة:**

ـ ياسيدي:

إنني وليد الأرض، ابن الأرض

غابات من الزيتون والأزهار والصبَّارِ

والفوضى من الإسرار، والإجهار

والتحنان والحب المُعربد والعتابْ

بردٌ وقيظ، واشتعال فتيلة،

ما من محيص في انتظار الانطفاءْ

كرٌ وفرٌ وارتحال وارتداء وارتقاءْ

تتفكك الأشياء ثانية إلى أجل المَعاد!!

● لا أحاول ـ هنا ـ أن أغتاب الشباب... هذا الذي صار يتأرجح اليوم بشدة ما بين: أن يكون عصارة عصر العلم بتلاحقه السريع، ومخاض نضوج وجداني يرتكز على سمو الإدراك وتوهُّج الوعي... وأن يكون في سلوكياته: السقوط المؤلم في أنانية الذات، وشهوة الرغبة، وقلق النفس،

وفي التصرف الذي لا يبالي بالقيم، ولم تغرس فيه: المبادئ والفضائل.

ولا أسعى إلى انتهاك عصري.. بل لا بد من المضيّ إلى صرخات متغيراته، وإلى منطلقاته الراكضة، وإلى "صرعاته" في توتر صراعاته التي تنعكس بالضرورة على نفسية الشباب، وسلوكياتهم، ومفاهيمهم عن: قيمة الإنسان من خلال نظرته وتقييمه للفعل ورد الفعل، وأيضاً عن: قيمة الوقت وحجم الإنتاج والعطاء فيه!

لكنني أحاول بالفعل، وأسعى إلى مناقشة: بوادر، وظواهر، ومتغيرات.. يهمنا كثيراً أن لا تتضخم، وأن لا تتجسَّد فتتحول إلى "واقع" يؤثر في بناء هذه الأمة من أجيال يتطلع الوطن إليها بتفاؤل، ويخاف عليها.. خاصة وأنَّ من مفاخرنا التي تأسس على قاعدتها هذا المجتمع: أننا أمة تحرص على التمسك بدينها وما يحفل به هذا الدين من نظافة خُلق، ونصاعة ضمير، والتزام جيد ببقاء الأسرة: متألقة ترعى رسوخ السلوك النقي.

والقاعدة في علم الاجتماع تقول:

● "إن الفرد الاجتماعي: مؤثر ومتأثر.. وهذا يعني عند تطبيقه في نطاق الأسرة: أن الأب مؤثر، والأبناء متأثرون... كذلك، فإن الأب خارج بيته يتأثر بما حوله كتعامل يضم كل أفراد المجتمع، ويؤثر في مَنْ حوله بما تأثر به"!!

ونحسب أن هذه القاعدة تشكل النقطة الهامة/ المنطلق التي بسببها يَقْدِر المجتمع أن يحافظ على تقاليده، وعاداته، وتماسكه، وقيمه.. أو يعجز عن ذلك بالسقوط في ما تأثر به من خارج مجتمعه ومن داخله، وبالسقوط في ما أثَّر به على الآخرين من أفراد أسرته، وأصدقائه، وزملائه.

وهذا يعني بالتحديد: أن "الأب" هو هذه القاعدة.. هو نقطة المنطلق.. هو المصب والمنبع!

وقبل أن نتلفت تطلعاً منا إلى "الفعل" من الشباب.. لابد أن نقف فنتأمل الفعل من الأب ورد الفعل عنده، ثم بعد ذلك: رد الفعل عند الشباب.

فأين هو (الأب) أولاً في هذا الزحام، وهذه المتغيرات؟!

إن الشباب في بداية: بذرة تتكون وتترعرع وتطول في داخل البيت.. يتأثرون تماماً بفعل الأب وتربيته لهم وسلوكه وآرائه.. فالأب هو: المحور والمسؤول.. هو: الموجِّه الحقيقي لو تواجدت رعايته لأفراد أسرته.. هو: القُدْوة التي ترتفع بالبيت أو تهدمه!

• • •

● دعائم تنمية السلوك والتربية:

● وإذا أردنا أن نناقش المتغيرات والمؤثرات على سلوكيات وتربية الشباب أو الأجيال الجديدة... فالأسباب بإيجابياتها وسلبياتها، ترتكز على دعائم أربع:

● **أولا**: البيت.. وفي داخله تتبلور تلك البذرة، وتبني شخصيتها وتكتسب نوع السلوك... فسلوك الأب والأم هو المؤثر في بداية تكوين الشباب، فإذا كان هذا البيت يفتقد التعاطف والالتئام ونصاعة الخلق والاستقرار، فذلك سبب مباشر لانحراف الشاب والشابة!!

ومن البوادر المزعجة التي تتحول إلى ظاهرة تتفاقم وتُفرِّخ الانشطار والقلق والانحراف: بادرة خطيرة تلوح كجمرة متقدة تحت الرماد الساخن..

تلك هي: انصراف الأب عن الاهتمام بما يتطلبه البيت من تآلف وتماسك وتواجد، فبعض الآباء قد انشغل باهتماماته المادية.. بما سيكسبه غداً ويزيد من رصيده في البنك. وبما يفكر فيه من وسائل يُنمِّى بها ذلك الرصيد.. وهذا الاهتمام غير مرفوض شرط أن لا يغطي على رعاية الأب لأهله ولأبنائه.

وبعض الآباء يمارس في تعامله اليومي وسائل قد تتضخم فتصل إلى مرحلة التنازل عن: السلوك النظيف وانتهاج أخلاق الكذب والتزييف والأضرار بالآخرين في سبيل مصالحه المادية. حتى الصداقات قد بلغها التشوه والخلخلة من أجل المصالح الذاتية، وعندما يقول الأب لابنه مثلاً: إذا طرق فلان باب البيت فأخبره أنني غير موجود، وإذا سمعت الابنة أمها تأكل في سيرة الناس وتصمهم بالسوء.. فلابد أن يتأثر الابن والابنة بهذا السلوك!!

والمثل هنا أطرحه خفيفاً بسيطاً هيِّناً.. لكنني أشير به إلى تصرفات بشعة أكثر أخطاراً وإسقاطاً لمطلب الخلق السامي، لا داعي الآن للاستشهاد بها!!

أمثلة أخرى قد تلوح صغيرة محدودة النتيجة.. لكن تأثيرها يتخذ أبعاداً خطيرة في تكوين سلوك الشاب.. كأن يمارس الأب تصرفاته الخاصة أمام أبنائه (!!) كأن يشتم الآخرين بلا انقطاع.. كأن يطعن من الخلف تحقيقاً لرغباته.. كأن يمارس نزواته.. كأن يجعل حاجزاً من الخوف ما بينه وبين أهله وأبنائه.. كأن لا يكون له حضور أو تواجد في بيته فلا يرى أبناءه إلا مرة في الأسبوع أو أكثر من أسبوع، وكلها تأثيرات تحمل في تضاعيفها نتائج عكسية تساعد على انحراف الشباب وإهدار للقيم ولا مبالاته بسوء تصرفاته.

● **ثانياً**: المدرسة هي التي تساعد على تغذية الشباب بعطاء العلم ونوره وتوسعة المدارك، وهو دور الأستاذ (المُربيّ) ـ المفقود اليوم! ـ وكيف يتعهد الشاب، وكيف يبيِّن له أخطاءه فيقنعه بإسقاطها بدلاً من دفعه إلى التحدي والانحراف، وكيف يكون المدرس قادراً على أن يجعل تربة الشاب خصبة يمرع فوقها ثمر العلم؟!!

لكنَّ المدرسة أيضاً تشكو من بعض الآباء ـ أولئك الذين لا يدرون عن أبنائهم إذا ما كانوا متفوقين أو فاشلين ـ فالمدرسة تدعو الآباء والأمهات إلى لقاءات دورية، وعبر هذا التعارف تستطيع المدرسة أن تتابع سلوك الشاب والشابة، فتقوّمه إن لاحظت بوادر انحراف أو تشجعه وتأخذ به إذا عرفت باتساع مدارك الشاب والشابة.

غير أن بعض الآباء والأمهات لا يعطون اهتماماتهم لمجلس الآباء ولمجلس الأمهات.. ويتحقق بذلك وجود التصدع بين المدرسة والبيت، ولا تقدر المدرسة حينئذٍ أن تتابع الشاب والشابة.. فهذه المجالس: أهميتها في الرابطة بين الأب والمدرسة، وبين الأم والمدرسة، ولكن الأب مشغول باهتماماته المادية وبأشيائه الخاصة، والأم مشغولة بعالمها واهتماماتها كأنثى، وهنا مكمن الخطورة!!

● **ثالثاً**: صداقات الشاب والشابة.. إذا لم تكن ضمن معرفة ومتابعة الأب والأم، فمن الممكن السقوط في رفاق السوء.. فالشاب ينطلق لا مبالياً وينفلت لأن البيت لا يعرف أين ذهب، ومن الذين يصاحبونه... والشابة في سن المراهقة قد تلتقي برفيقة السوء تزين لها القبيح، وتحضُّها على الانفلات، وتجرها إلى كارثة لا تعرفها الشابة إلا بعد وقوعها لحظة الندم.

فالبيت هنا أيضاً: يستطيع بالمتابعة والرعاية أن يمنع الانحراف، أو أنه يتسبب باللامبالاة والتفكك في سرعة اندفاع الشاب إلى الانحراف والتوغل فيه!!

ولكن بعض الآباء لا يهمه ولا يعنيه أن يسأل ابنه عن أصدقائه، وأن يتعرف عليهم، وأن يكتشف نوع اهتماماتهم وأفكارهم.. بل لا يدري متى خرج ومتى سيعود (؟!) فالتدليل: كارثة، والانفصال: كارثة، وإهمال ما يفعله الابن: كارثة.

وبعض الأمهات لا يفكر في خطورة مرحلة المراهقة.. فتقترب الأم من البنت وتصادقها وتحل مشاكلها، والبعض لا يسأل عن صديقاتها ويتعرف عليهن.. فتكون النتيجة أن هذه الشابة تستغل حريتها للعبث، وللتجربة التي تتحول إلى خطورة!!

• • •

• كلمات.. للأمير نايف:

• إن الشباب هم: قوة العمل، وصُنَّاع خطوات التطور في مراحل تنفيذ الخطط الخمسية للتنمية، وبلوغ أوج الحضارة والرفاهية.. والتحديات من خارج حدود مجتمعنا، هي تحديات كثيفة ومتدفقة وطوفانية، تدغدغ الشباب وتأخذه إليها وتغرقه في متاهاتها وصراعاتها وجنونها، ولا مفر منها إلا بالتمسك بقيم ديننا وبالروابط التي تمنع إحداث الشروخ والتصدعات في المجتمع.

والأب في المقدمة: مسؤوليته هامة وخطيرة في المحافظة على أصالتنا وجوهرنا.. والحديث الشريف يقول: "إذا مات المرء انقطع عمله إلا من

ثلاث: علم ينتفع به، وصدقة جارية، وولد صالح يدعو له".

فكيف نحافظ على وجود الولد الصالح، وكيف ينتفع المجتمع بالعلم، وكيف تسود المحبة والخير والصفاء نفوس الناس وتنعكس على تصرفاتهم وأخلاقهم؟!

● وعندما كنت قبل سنوات أحاور سمو الأمير نايف/ وزير الداخلية بسؤال يقول: كيف نحمي فكر الإنسان وعقله ونعالجه من التجوفات، وننقذه من السقوط في المادية المغرقة، ونرتفع بإحساسه إلى مستوى الإدراك الكامل لدوره كإنسان عطاؤه للبناء وللحياة الكريمة؟!

يومها أجابني "الأمير نايف" وهو يشدد على الشباب/ تربيته، ومراقبته وتوجيهه، وتوعيته.. فقال سموه:

ـ الحرص على أن ينهل الشباب من العلم بالدراسة والقراءة هو مطلب ضروري.. فنحن نعيش عصراً لا يجد فيه الإنسان حياته التي يحلم بها إلا بالعلم، والإسلام يحضنا على العلم من المهد إلى اللحد، والمعرفة دائماً توصل إلى اليقين، واليقين حقيقة ساطعة تهدي الإنسان إلى السلوك النظيف والشريف، وإلى الخلق القويم، وإلى صياغته مواطناً يخدم أهداف دينه وطموح بلده.

أتذكر هذا الفهم الجيد لعطاء الإنسان ولتوجيهه ولتوعيته.

واليوم ـ وبعد سنوات على ذلك الحوار ـ أجدني الحريص على طرح نقاش هام عن الشباب الطالع.. عن الذي يفعله الشباب اليوم..عن بعض اللامبالي، وبعضهم الذي كسر في نفسه حدود العاطفة، وكسر في عقله حدود التعقُّل، ولا أتجنى ولكنني ألمح بوادر تزعج جداً، ونخاف أن تتطور

إلى ظواهر وإلى سلوك اجتماعي وأخلاقي، وإلى ما يشبه "العُتَّة" التي تتسلل إلى الروابط الأسرية وإلى القيم الأخلاقية، وإلى الإنتاج من أجل إنجازات الوطن ومستقبله!!

وكما قلنا بعد ذلك: إن الاهتمام بالنشاط الاجتماعي لا يمكن أن يقتصر على الرياضة وعلى كرة القدم بالذات.. ولكن من الملح جداً: أن نشرع في تنفيذ البرامج الأخرى التي حفلت بها الخطة الثانية في مجال رعاية الشباب وفي مجال الترفيه!!

وليسوا هم شبابنا وحدهم.. فالبوادر التي نحدق فيها اليوم من بعض شبابنا، قد تضخمت وتحولت إلى ظواهر اجتماعية وأخلاقية في بعض شباب الدول المجاورة وفي العالم، وقد شدَّ انتباهي حوار أجرته مجلة لبنانية مع فتيات ثلاث عن الجيل.. وتوقفت عند عبارة عجيبة وذات مؤشر. فقد قالت واحدة منهن:

ـ "إن شبابنا مغرمون بالرفاهية.. يتميزون بسوء التصرف وبازدراء النظام والتقاليد، ومعاملتهم لمن هم أكبر سناً يشوبها عدم الاحترام.. كما تشغلهم الثرثرة عن الرياضة"!!

● ● ●

● وبعد.. إنني لا أهاجم الشباب، ولكني أخاف أن تَنْتهك متغيرات العصر أذهان ووجدان الشباب، والبوادر كما قلت تأتي كتحذير يستنهض اهتمامنا وتكريس رعاية الآباء والأمهات لأبنائهم وبناتهم.

أخاف أن يغتاب الشباب أنفسهم وأصالة مجتمعهم، وذلك بالانسياق وراء جنون صرعات العصر، ووراء القلق، ووراء الرغبة في تجربة

المتغيرات العصرية فيعمدون إلى إسقاط السلوك النظيف بالعنف وبالجحود وباللامبالاة والتسيُّب!!

والموضوع بعد هذا بدلالاته ذات المؤشرات الهامة.. يتطلب النقاش الشامل والسريع!!

حوار حضاري مع "صديقي الحصيف"!!

- **للشاعر البحريني "علي الشرقاوي":**

ـ ما الَّذي أُخبر ابني.. عندما يسألني:

كيف يغزو عربي ـ يا أبي ـ أرض العرب؟!

ما الذي أخبره...

غير أن أبكي.. كما تبكي العصافير ...

إذا الكون اضطرب؟!!

- .... وتطول الرؤية، وتتمدد الرؤى.

ويشمل الصوت ـ بعض الوقت ـ وجه الشعور بقيمة الحياة ذات الثمن.

وفي هذا الاحتواء للرؤية والرؤى، للثواني والصمت: تواتينا شجاعة التفكير في الحياة وشؤونها ومشكلاتها، فينتشي سؤال حميمي:

ـ هل أنت سعيد حقاً.. أم تراها انتعاشة الحزن؟!

يقول "شاعر" في حواره عن الإنسان والحياة.. هذه العبارة:

ـ "لا أعرف ماذا يمكن أن أتمنى... أكثر من هذا الحضور المستمر للنفس مع النفس؟!

كل ما أريده الآن: ليست السعادة... بل: الإدراك"

● فكيف يستطيع الإنسان ـ إذن ـ أن يقود نتائجه أو محصِّلته... إلى الإدراك؟!

● وكيف يُحقِّق "الإدراك"... وهو مغمور في صخب الحيرة وإلحاح المطالب المادية؟!

إن "السعادة": ليست مطلباً حقيقياً، ولا "شيئاً" مباشراً مرئياً... وإنما "الإدراك" هو المطلب الذي يحقق السعادة: أن ندرك ماذا نفعل.. وأن ندرك قدرنا بقدرتنا على إلصاق طرفي السالب والموجب ليصنعا الحيوية والاستطاعة، وليحققا التميز والاختيار!

ومن الصمت والتأمل... يولد نطق الإدراك لما نريده بالتحديد، حتى لا تتراكم أخطاء الاجتهاد في لحظة البحث عن الحياة الأحسن.

وينتعش فينا: إدراك ما يريده الآخرون منا... فننجو من تراكم الأحقاد، أو تصدع الروابط الإنسانية ووشائج القربى والدم التي فلسفها الإسلام لنا في عبارة واحدة فقط، هي: (أخي)!!

لذلك... علينا أن نجرب التعامل مع أبعاد هذه الكلمة، لندرك: كيف تعطي وهي تخرج من القلب.

● ● ●

● بعد هذا المدخل الذي تبلورت بوابته من تشكيل: الإدراك لدى

الإنسان ليلج إلى مبتغاه عن السعادة، والاستقرار النفسي:

نحتاج إلى وقفات... نحاول أن نشرح فيها بعض "التعاملات"، وبعض المواقف من الناس، وبعض السلوكيات (الحديثة) التي تكاد تؤثر على عطاء المجتمع وربما سمعته لو استفحلت أو تفرعت!

وهذه "الوقفات" كانت محور حديث شيق وإن اصطبغ بالحزن بيني وبين (صديقي الحصيف): الرجل الذي أعتز كثيراً برؤيته، وبفكرته، وبصراحته التي يسددها كمشرط في عمق الجرح.

و"صديقي الحصيف": لا يسمح بتفكيره أن يتدافع، ولا برأيه أن ينفعل... فهو يُحكِّم الحوار، والحوار يرتكز دائماً على: التأمل، والإصغاء، والتفكير، والتفنيد القائم على المنطق.

و"صديقي الحصيف": شخصية هامة في الجذور، وفي الموقع، وفي المسؤولية، وفي القدرة الرائعة على استقطاب محبة الناس ... كان يحدثني في فاتحة حوارنا عن "الأمة" ـ كل أمة ـ تطمح إلى مواكبة العصر والتطور، فيقول:

● "لابد لكل أمة ترسم خطوط مستقبل نهضتها وحضارتها: أن تعمل جاهدة على الإخلاص للعملية التعليمية وتطويرها باستمرار، حتى يتحقق لها الارتقاء والوقوف/ نداً في صف الأمم المتقدمة والمتطورة"!

ـ قلت لصديقي الحصيف/ الحكيم: أحسب أننا وصلنا إلى عصر الزحام المكثَّـف!!

إن هذا الجيل: لم يفعل شيئاً يغاير طبيعة الجيل الذي سبقه ـ على الأقل ـ ولا الطبيعة الإنسانية عموماً. ولكنه استطاع أن يكثّف إحساسه،

وأن ينقل الضجيج من الأرصفة والمنتديات والشوارع المكتظة إلى داخل صدره ورأسه... وأن تتحول أفكار البعض منه إلى: أرصفة ومقاهٍ، ومنتديات خطابة، واضطرابات سياسية، وانحرافات في المعتقدات... وحديثي يشمل جيل العالم كله، وبالأخص: الجيل العربي من المحيط إلى الخليج الذي استهواه التقليد لمن نُسمِّيهم: الحضاريين في الغرب!

وهذا الجيل أيضاً: تحولت (عواطفه) إلى ماديات تخضع لمتعة الدقائق، وإلى حيرة في كيفية الاقتراب من طفل جميل يتقافز فوق عتبة داره، وفي يده ورقة، ومن أمامه: تمرق سيارات وعربات قطار سريع... وهذه صورة (تفصيلية) للزحام، استطاع أن ينجح في تجسيدها أو تصويرها: كُتَّاب القصة في عالمنا العربي ممن استلخصوا (إيقاعاً) درامياً بين مشاهد قصص أصدرها كُتَّاب لهذا العصر في أمريكا وأوروبا... ابتداء من: "جون كرواك" الذي سموه: كاتب الغضب، وانتهاء بـ"جبراييل ماركيز"!

إن مشكلة هذا الجيل ـ يا صديقي ـ تتمثل في هذه الحقيقة:

● أنه ولد مع انتشار هذه الأصوات: صوت طلقات المدافع، وانهزام العاطفة وثلوجة الحنان، وفَقْد الكثير من الذكريات والغوالي و.... القيم والمبادئ، ثم: غياب "الهدوء" الذي يمنحه التفكير والتأمل قبل اندلاع أصوات الرصاص في العالم، أو أصوات الزحمة من حوله!

وهذا التمزق الفاجع: موجود أيضاً في نفسية الإنسان الجديد المتحرك بشبابه، وباكتشافات عصره، وبعلومه، وبفنونه وآدابه، وبرفضه لكل القطارات التي مرّت وحملت معها: الدمار والدماء، وحملت معها: الطيبة والهدوء و ..... الحزن الصامت!

إنه إنسان يفتش عن عاطفته بين كل هذه المتغيرات والانفجارات التي حدثت في عصره ضد الإنسان!

• • •

● أخلد "صديقي الحصيف" إلى الصمت المتأمل . . . كأنه يحرِّضني على تفجير ينابيع فكره، فبادرت إلى هذا التفكير، قائلاً له:

ـ هل قرأت ما نشرته بعض صحفنا المحلية بطريقة المثل الشعبي: (خطْف الكباية من فم القِدِر) وقد لفت انتباهي تعليق ـ من إياه! ـ يعترض على القرار الشامل لكل أنحاء المملكة على تقفيل المطاعم وأماكن الترفيه بعد منتصف الليل، وعند الساعة (الثانية) في الصيف ومواسم الإجازات. . . لنكتشف بهذا الأسلوب: أن هناك من يفتش عن (أي شيء) ليكتب تعليقه عنه، فيقال: أنه كتب ووضعت صورته؟!!

● قال صديقي بنبرة حزينة: لا نريد أن نتجنى على أحد، بل نحن نبحث عن النضوج والوعي في الطرح الذي يقوم على الحقائق والمنطق. . . فالقرار الذي أشار إليه البعض ليهاجم في تعليقه "الجهة المسؤولة": لم يكن يقتصر على مطاعم ومنتزهات الكورنيش فقط، ولم يكن خاصاً بإمارة مكة المكرمة. . . بل هو قرار من "أولي الأمر" شامل يُطبَّق في كل أنحاء المملكة، وللذين اعترضوا وطالبوا ببقاء هذه الأماكن مفتوحة إلى الصباح. . . نقول:

ـ الكثير منا: طاف الدنيا وزار الدول الكبرى والمتطورة في العالم / أمريكا وأوروبا، وبالذات: بريطانيا وفرنسا. . . هل نجد مطاعم تسهر للفجر لديهم، إلا إذا استثنينا أماكن اللهو والغناء!

ونحسب أن البعض منا يمارس مثل هذا (الاختلاق) العجيب بفهمه المحدود، أو ربما بفهمه المغرض (!!) ولكنَّ الكلمة التي يطلقها صاحبها: لابد أن تعطيه القيمة التي أعطاها هو لكلمته، إن كانت كلمة حسنة هادفة لمصلحة المجموع، وإن كانت كلمة مغرضة .

● قلت لصديقي الحصيف: إنه جيل لم يعد يعرف ما الذي يرفضه، وما الذي يقبله... إنه مرغم أن يتقبَّل أشياء يخترقها، وأشياء تخترقه، ويمارسها ثم..... يبصق عليها!

ـ إن مَنْ يعترض ... يركز اعتراضه ـ أولاً وآخراً ـ على مصلحته الشخصية، وعائداته المالية... وفي الطريق إلى ذلك كله: لا مانع لديه أن يدوس على أزهار وأعشاب ومسامير وروث الحيوانات ليصل إلى غرضه.

ـ قال صديقي الحصيف: ذلك مثال طرحناه من أشياء أكبر وأخطر وأهم، ولكن.... لابد أن يكون اعتبارنا لهذه المرحلة، يعني ويركِّز على: سرعة الانتقال من جيل إلى آخر... من الزحام والتدافع إلى التجمع، والتنظيم، والتنافس الشريف بالعلم وبالعمل.

ويعني ذلك: الخروج من أزمات تلاحقت إلى البحث عن مفاهيم نتجاوز بها الأزمات.

● قلت إن الإنسان يهرب من الصخب والهدوء، فيمل الهدوء وينطلق إلى الزحام مجدداً... وحجته في ذلك: أنه يريد التعبير عن معنى جديد، ويريد أن يتحرك ويتبدل باستمرار، ليحقق التجديد!

● ● ●

● واستطرد "صديقي الحصيف" في حواره... ينسج هذه الرؤية الجديرة بالإصغاء، فقال:

ـ إنك من الممكن أن تُعلِّق همومك على (الأمل) وتسعى إلى تحقيقه، ولكن... من الصعب أن تُعلن هذه الهموم وحلولها على أحد... فلا بد لك أن تواجه الحقيقة نفسها!

ربما هذه "رؤية"... استقرت في ذهني من قراءاتي.

ومثل هذه الرؤية تتعرض أيضاً لسؤال قد يطرحه بعض الجدليين إلى درجة التطويح، متسائلين عن: ماهية (التغيير) المطلوب حدوثه في المجتمع: اقتصادياً، ونفسياً، وتنموياً، واجتماعياً؟!!

كل المجتمعات تتعرض لإصابات بأشياء من المتغيرات... والمجتمع الناضج هو الذي يحسن التعامل مع هذه المتغيرات بغير أن تُفسد جذوره وقيمه ومبادئه وتقاليده الأصلية!

● ولعل (صديقي الحصيف) الذي اعتز كثيراً بالقرب منه والتحاور معه، والإصغاء إلى رؤيته.. قد أوقفني أمام تشبيه لم يرد أن يُحمِّله الصيغة الكوميدية الضاحكة بقدر ما قصد (التقريب) لدى اهتمامات المجتمع.. وذلك حين قال لي :

ـ تعرف؟! ... إن التغيير الذي يتحدث عنه الكثير اليوم، والذي يصيب العالم الآن... يماثل تماماً: التغيير الذي يصيب المرأة عندما تنقطع عنها العادة الشهرية!!

● قلت لصديقي الحصيف الذي أحبه كثيراً، وأثق في تحليله:

ـ البعض يشكو لك.. فيقول : لقد انتابني "شيء نفسي" ربما لا

يعرف كيف يحدد مصدره، ولكنَّ ذلك الشيء لابد أن يكون نابعاً من الهموم والمشكلات التي تلاحق الإنسان، ومنها: ارتفاع الأسعار وتكلفة الخدمات والمواد الضرورية، وانخفاض الدخل (ونحن نتحدث عن القاعدة العريضة من متوسطي الدخل).

ثم ... هناك: ذلك "الشيء النفسي" الذي ينتاب بعض الناس.. نجد فيه الكثير جداً من أسباب ضيق ذات اليد أو ذات الجيب، ومن العجز عن قدرة التطور وتجديد التفكير والإنتاج .

مرهقون هؤلاء الناس... حتى النخاع!

وتساءلت في "سمع صديقي الحصيف" المُصغي إلى مداخلتي، قائلاً:

ـ هل تعتقد يا سيدي.. أننا نعاني من "فيروس" أخذ يداهم جوانب من مجتمعنا ؟!

● أجاب صديقي الحصيف: تجد شرائح من الناس، قد تحولوا إلى ما يشبه (صيادي مشاكل) ...

وهؤلاء يشكلون الفيروس في المجتمع.. وهؤلاء أيضاً : هم الذين ينشرون أسلوب مناقشة أمورنا بالحدة والمبالغة.. بتفكير ضحل من جانب، وفي الجانب الآخر: يفقدون الجدية!

● ● ●

قلت لصديقي الحصيف: وما رأيك في (النقاش) حول المرأة... واقعها، ومستقبلها، والفرص المطلوبة لها؟!

ـ أجابني قائلاً : نحن بالإسلام وتعاليمه وتشريعه.. نحترم حقوق

المرأة كما أوصانا ديننا، ويجب أن نحترم هذه الحقوق فلا ننظر إليها على أنها: مجرد جنس فقط... لقد تعاملنا معها على هذا الأساس، والمرأة في واقعنا: عضو اجتماعي وإنساني عامل، ومنتج، ومفكر.

ولعلك تذكر أننا قبل أكثر من عشرين سنة... كانت البلد المحجَّبة الوحيدة تقريباً هي: المملكة... الآن أنظر حولك: الفتيات في الدول من حولنا، بل وفي العالم.. يهرولن نحو الحجاب!

ولا ينبغي أن نأخذ الحجاب على أنه: تقهقر بالحضارة، وبالتقدم، وبالعلم، وبالنضج... بالعكس، إنه (تقدم) بالنضوج، وبالإيمان الذي يكسي صدور المؤمنات.

وإذا حاول البعض أن يستغل هذا (الإيمان) أو التصحيح ليُدخل المرأة بين جدران أربعة ويقفل عليها، ويأمرها فتطيع مهما كان أمره لها... فهذا (سلوك) لا نقول: إنه غير حضاري فقط، بل قبل ذلك هو: سلوك غير إسلامي ولا أخلاقي!

● فلماذا نُعلِّم المرأة ونوعّيتها؟!

ـ لتمتلك قرارها، وتفجر طاقتها بوازع الأخلاق والالتزام.. أو لابد أن تشرع المرأة نفسها في وطننا بمثل هذا المشروع والاستنهاض بالعلم، وبالتخصصات العلمية، وبالقدرة الفكرية والإنتاجية!

● ● ●

● وبعد...

فقد استروحت في بوح هذا الحوار الذي خصَّني به (صديقي الحصيف) وهو يقول لي ضاحكاً:

ـ ليس كل ما نتحاور فيه (تتلاقف) وتنشره... فنحن معاً ـ أنا وأنت ـ نفكر بصوت عالٍ بوازع من عشقنا لهذا الوطن المعطاء أبداً، ولهذا الشعب الذي يزيدنا محبة لأنه: أهلنا!

الآن . . . ما هو الثابت؟!!

- **للشاعر الرقيق/ محمد صالح باخطمة:**

ـ إننا نعرف (نانسي) ثم (روبي) ثم (هيفا)
والصبيات الصغار!
لم نعد نسمع عن حمزة أو خالد، حتى ذو الفقار
نحن نحيا في خواء الفكر: غذَّاه غثاء ودوار
لا تلومونا. . ولوموا من تناسانا، وحتى ما يدار!

- الآن!!!

كلمة. . كان يبحث عنها في الشروق وفي الغروب. . ينبش الوقت، ويفتت الثواني ليخرجها زمناً يوحِّد فيه بين البشر وعزلتهم. . بين عزلتهم ومحسوساتهم ودهشاتهم! كان يغوص في أعماق المفكر والإنسان فيه. . ليمتح حصيلة المعاناة والتجربة، ويتحدث عن الحياة ونماذجها المدهشة. . وكان يردد عبارته:

ـ الحياة على الأرض غير مشروطة بالخلود!!

لكنه كان يغازل خلوداً غير مادي. . تُشرق في تضاعيفه تلك الأفكار

التي يحارب بها التحليلات الإجرامية من خلال ما يتعقبه الناس ويورطهم!

وابتدأ "فرانسوا مورياك" رحلة طويلة ومضنية في غابات البشر.

كان قد شرَّع نافذة كبيرة يرى من خلالها الأضداد والتآلف في الحياة ومن الناس... وعاش سنوات يكتب الرواية الطويلة، ويصوغ أشعاره المرهفة، ويكتب تحليلاته وانطباعاته الصحفية.. ويقف في داخل نفسه حائراً صارخاً، يتواجد مرة، ويتشرد مرات.. وسئل عما في داخله فأجاب:

أنا غيبي، ميتا فيزيقي.. يشتغل بالمحسوس!! واهتم "مورياك" بأشياء الإنسان التي تشكل جوهره ويحاول إخفاءها.. وذلك أن الجوهر الإنساني ليس احتفالاً معلناً تتردد في جنباته الأصوات العالية، لكن الإنسان منعزل، ومجرَّد، ومجروح.. غير أن احتكاكاته واصطداماته تجعل منه طغياناً جباراً من الماديات على أصائل النفس.

ومورياك يقول: "إن البشر كثافة إنسانية، وهذه الكثافة تتطور وتعتمل من تلقاء نفسها"!!

لكن هذه الكثافة في تطويرها واعتمالها: تتوازعها أدوار البطولة الشريرة في التعامل البشري، وتعتسفها "مآسي الوصول للمستحيل"، بينما هي تعتسف كل محصولها من العلم .

والإنسان في غمرة هذا يعاني من عزلة النفس وتواجد الروح المتألمة!

لقد مات "مورياك" منذ أكثر من سبع عشرة سنة، وكان قبل موته بأيام قليلة يترقب الموت الذي فلسفه وأطلق عليه كلمة واحدة وهي: (الآن)... فكل امرئ يجري على طرقات الحياة ليموت... إنه يعمل ويشقى ويحب، ويتعذب ويفرح لأنه سيموت!!

إن الموت هو نتيجة تلك الكثافة، وذلك الاعتمال!!

أما الذي أعادني إلى تذكُّر "مورياك"، وإلى تأمل ما قاله وكتبه ومات عليه.. فهي كلمة: "الآنْ"... عصيبة هذه الكلمة ومنطرحة أيضاً/ الآن!!

● ● ●

● رواية عن اضطراب الإنسان:

● لقد كتب "مورياك" الرواية الفرنسية المعاصرة التي صوَّر فيها اضطراب الإنسان، وكان يتساءل حينذاك:

ـ كيف يقدم تمييزاً للأشياء المنتصبة، والأشياء المنعدمة؟!

إن الإنسان مطحون باختلاط الانتصاب والانعدام.. ومن خلال رؤية "مورياك" لهذا العالم المتفجع والمنكفىء، مارس حضوره وغيبته، واستبقى في ذاته القلق الصاهر الذي انطق فيه وبه مثل جواد أصيل يقتحم.

● وقيل عن مورياك: "إن عالمه كعالم بروست.. موجود فيما وراء وخارج روابطه.. مع عالم واقعي، إنه التراب الذي تنبت فيه وترتفع مخلوقات لا تتوقف عليه فقط"!!

وكان "مورياك" خَلْف وفي غمار تلك المخلوقات.. لا يتوقف فوق التراب ولا يرحل عنه، لكنه يستبدل الإنسان أحياناً بالمستنقع الآسن المولِّد للجراثيم... ذلك أن المخلوقات تقتل نفسها بحدودها وبخيالاتها وبرغباتها.

إن الانعدام لا يبدو جزئياً كلما كان صوت الإنسان أعلى من مطالبه، لذلك... فإن المطالب الدنيوية تقسرك أن تصنع عملية تؤدي بك إلى الخسارة !!

● يقول "جاك روبيشون" الفرنسي عن أدب مورياك:

ـ "مورياك دجَّن الإنسان الآبد، وبأربعين سنة من التمرين.. فإن الرواية المورياكية ـ نسبة إلى موريالك ـ هي الوحيدة في عصره التي تحملك على القول: هذا من موريالك.. كما كان يقال في السابق: هذا من بلزاك"!!

إن موريالك أعطى في الرواية تعبيراً عن واقع وحالة ونفسية الإنسان.. ما بين الانغلاق والخصوبة، وهو قد تسنَّم مكانة في الأدب العالمي المعاصر.. حتى منحوه عطاء "بلزاك" لحضارته وفكره، وأعماله الروائية اهتمت ـ كما قال هنري سيمون ـ بجعل عالم الجسد محسوساً وواقعياً في كل مكان، ومتخلصاً من كل مقصد يشير إلى تصوير الوجود!

كان "موريالك" يعني ـ بما قدَّمه ـ أن الأشياء المترابطة والدالة على الحياة والمؤثرة فيها لا يمكن تجزئتها وفصلها.

إن ما نستطيع أن نُقرر أنه عيب.. هو أصل في نوازع البشر.

إن الجدل أحياناً هو مكياج العيوب المترف.. حتى نستسيغ تلك العيوب كتعامل، وكإستعارة مسلكية من واقع مضخم بالتطورات وبالإنبجاسات!!

لقد تأملت عالم "موريالك" من خلال عبارات متعقبة تنفَّس بها قبل أن يعلن عن قدوم موته ... فرأيته فيها: زوابع عصفت زمناً ثم انكسرت... ورأيته فيها: إحساساً غنياً أفرط في الإضافات الإنسانية نحو بشر استحقوا حماقة تكثُّفهم.

لكن "موريالك" قد تشبث بالحب، والتزم بالمحاولات التي تبدأ بها الأنثى الداخلة إلى حياة الذَّكَر كأنما للمرة الأولى، ولا تعترف ولا يهمه

فيها سوى الوقفة الفريدة التي تستمر.. مادام قد تواجد إحساس الرجل في الحب بعيداً عن انعداميته وغيبيته!!

رأيت "مورياك" الذي عاش طفولة حزينة ومنعزلة، وتربى تحت وقع الصرامة وهو يتطلع حوله كأنه يتساءل: هل كان الناس مثلي؟!

وإذا لم يكن كل الناس مثله، فلأن المرء وحده لا يرى في غيره إلا نفسه.. بالصورة المعيشة وبالصورة المأمولة التي يحلم بها.

ولأن "مورياك" هو ذلك الفنان الأصيل والمأساوي والضاج بالاحتجاج والرفض.. فقد ما حوله لحظة بحث مضمن عن الحب والفرح الحزين.. لحظة فقدان عدمي.. لا يبدو الوصول فيه مشروطاً بالتحقيق، ومن ثم بالخلود.

• • •

• مأساة الوصول المستحيل:

• لذلك.. فإن أكثر من ناقد ودارس تحدث عن هذا الجانب الصميمي في المعاناة وتفكير "مورياك"، وكتبت عشرات العبارات.. كان لها هذا المضمون القائل:

• يستطيع مورياك أن يفتخر بأنه وصف عشرين مرة دون تطاول غيبي مأساة الوصول المستحيل للنفوس خلال الأجسام، وبأنه وضع مبتدعاته العطش الذي لا يرتوي لقفر الحب"!!

وعبر هذه الرحلة الطويلة من الحياة والتأمل والتفكير والاضطراب أيضاً. أعطى "مورياك" أدباً حياً، وأديباً مسعداً من تضاعيف التعاسة فيه.. وأبدع في استنطاق مضامين الإنسان واستشرافاته وارتطاماته، وفي

النهاية.. وقبل أن يتوقف نبضه، قال لمرة واحدة:

ـ "كل شيء مرّ.. كما لو أن الباب قد أُقفل إلى الأبد في داخلي"!!

● ● ●

● الآن ... في الساعة الأخيرة، لا أحد يستطيع أن يتكهن، حتى التظاهر بالاستسلام للموت لا يثبت شيئاً!!

وبعـــد...

فإن الإنسان لا يقدر أن يمتلك "الآن".

أن كل شيء في هذه (الآن) هو محكوم لما يأتي بعده.

إن "الآن": وقفة دهشة وانشغال مؤقت، ثم لا يبقى بعد ذلك شيء!!

كيف نملأ هذا الفراغ؟!!

للشاعر الكبير/ محمد حسن فقي:

ـ تفكَّرت في أمري، فلن ألق واحداً   من الناس مثلي في الشجون الأوابد
لقد صرتُ منها بائداً، مثل خالدٍ   وقد صرتُ منها خالداً مثل بائد!!

● نحن ـ كمجتمع مسلم عربي ـ نحتاج كثيراً إلى قواعد هامة وثابتة.. تقف عليها علاقتنا، وأفعالنا، وتعاملنا ... وحتى ممارساتنا!

● الالتزام، والروابط، والمواقف الواضحة، التي تغشيها المصالح، واضطرابات النفس والرؤية!

إن "الروابط" توفر لنا مناخ "الجماعة" التي تتماسك، وتعتصم، وتُنتج.

إن "المواقف" تجسد أفعال الأخلاق، والضمير، والنظافة، والحق.

إننا مازلنا نضع هذه القواعد في مناهج الدين والتأريخ بالمدرسة.. ثم ننسى أن نعلم أبناءنا كيف يتبنون أصالتها!.. كما ننسى نحن ـ كجيل متقدم ـ كيف نستعيد بعض تلك المواقف للعظة وللاعتبار.. قبل أن تنحصر في "الفخر" فقط!!

إن الذي نعلّمه لأبنائنا ولبناتنا في المدارس والجامعات.. لابد أن تتعاطف معه: تصرفاتنا في الحياة الاجتماعية، وأخلاقياتنا في التعامل اليومي!

ولابد أن يتفق ذلك.. بالتناسق مع أفكارنا وسلوكياتنا، التي نحب بها، ونعاشر، ونعمل، ونتتج، ونختلط ... وحتى نترفّه!!

لابد أن تكون هنالك دعوة.. لتمييز رواسبنا الاجتماعية، واختلاطها برواسبنا النفسية!

كذلك... فإننا ـ كمجتمع مسلم عربي ـ مطلوب منا أن نمتح ترسباتنا النفسية، التي تراكمت منذ أكثر من أربعين عاماً.. بالصدمة، وبالتغيير، وبالتطور، وبغربة الروح ... وقبل ذلك: بالجهل، وبالعفوية، وبالطيبة... التي كانت تبلغ بالإنسان إلى درجة البلادة، أو التدجين!

إن ترسباتنا النفسية.. حافلة بها كتب التاريخ المعاصر!

إنها تلك الفترات.. التي حاولنا فيها، والتي جرّبتنا!

إنها تلك المراحل.. التي أحدثت ـ بلا شك ـ ردود فعل في نفسية الإنسان!

ولكنَّ تلك الردود للفعل.. كانت كمن يتحسس موطن الألم ويعرف وجعه..

غير أنه لا يعرف دواءه الشافي!

إن عالمنا اليوم تأخذه المراحل، وتطحنه التجارب.. فيتألم ويتوجّع، وربما يرفض ويعترض ويشكو ويصرخ.. ولكنه مازال يخضع لعملية الخلط بين الرواسب الاجتماعية، والرواسب النفسية!

إن عالمنا.. يتعلم، ويتثقف، ويُجرّب، ويحاول، ويطمح، وينسق، ويصنع الحجة بعد المنطق.

وربما هو عالم يحسن "الإعلان" عن قضاياه وهمومه ومطالبه، وذلك بتطور وسائل الإعلام!

وربما هو عالم يحسن، بل ويجيد "التخاطب"، والخطابة، والكلام!

لكن هذا العالم.. لم يصح بعد من أحلام تاريخية، ولم يتخلص بعد من الافتتان بـ"الأنا"، ولم يُذِبْ بعد رواسبه!

• • •

• الرواسب المتعددة:

إن الرواسب الاجتماعية: تتمثل في أشياء من التعود، ممزوجة بأشياء من الأحلام التي لم تستطع حتى الآن أن تتجسد!

إنها ـ أيضاً ـ مأخوذة إلى "اللعنة".. التي مازال العالم يئن منها، واسمها: لعنة التمزق، لعنة بَطَر القوة، لعنة الأطماع، لعنة الضعف!

وهذه الأشكال أو اللعنات.. تشكل قرارة تلك الترسبات الاجتماعية، التي منعت التاريخ العربي المنتظر أو المؤمل.. أن يطغى على التاريخ العربي من امتداد أربعين عاماً، وحتى الآن!!

● أما الرواسب النفسية: فهي تستقر في وعاء من الإرهاق، ومن اللهاث في ضمير الإنسان، ووعيه، وأمانيه.

وهذه الأعماق قد امتلأت بمرارة وحنظلية تلك السنوات التي تسمى: بدء التاريخ الحديث للعالم العربي!

وفي هذا التاريخ الحديث.. عَبَر بالإنسان: شعارات، ونداءات، ومحاولات، و"صرعات" وألعاب سياسية، وأحقاد قمعية!

وأهم ما بقي على الإنسان العربي حياً.. هو شيء واحد، تمثَّل في إخراج المستعمر القديم من الأرض العربية.

لكن ذلك "الإخراج" لم يتمخض عن ولادة توحيد الأجزاء العربية التي مزقها الاستعمار القديم.. ولم ينجح في صياغة إنسان عربي جديد، له فكر قادر على احتضان تاريخه القديم، ومزجه بصناعة تاريخ جديد.. يحقق تضامن الأفكار كلها، ويجعل منها قدرة، وقوة، ومنعة من التمزيق!

ذلك كله.. يجعلنا نجوس خلال بعض المواقف المعاصرة، وبعض الأفكار التي طُرحت.

ونتذكر ـ هنا ـ ما كتبه الوزير الفرنسي الأسبق "ميشال جوبير" قبل سنوات، بعنوان: "شعب الصمت"!!

وكنت ـ في البدء ـ أظنه يقصد الأقطار العربية، أو أن الشعب العربي في اعتباره، من شعوب الصمت!

لكن الوزير الفرنسي الشهير، الذي لعب دوراً غير عادي في الستينات، وفي الشرق الأوسط بالذات ... كان يتكلم يومها، وكأنه موظف في "اليونسكو" أو في "غوث اللاجئين"!

لقد حدد في مقاله ذلك إجابته عن السؤال المطروح: مَنْ هم شعوب الصمت؟!

ـ قال: إنها شعوب كمبوديا، وأريتريا!

ثم ركز حواره ـ بعد ذلك ـ على القضية الأريترية (!!).

وقد نستطيع أن نشكر السياسي الفرنسي الشهير، لأنه أخرج الشعب العربي من صفة: الصمت.. ربما لأن الشعب العربي كثير الكلام بالفعل.. وربما لأنه يعرف عبارة تشرشل القديمة التي حاول بها شتْم العرب، بتعريضه لقُطر عربي، فقال:

ـ لو كانت الحرب بالكلام.. لانتصرت "......" على العالم!

ولكنها عبارة مجحفة بشعب ذلك القُطر العربي، ولعلها عبارة استعمارية لأسد جريح، أو لذئب مهزوم!

ثم يأتي سؤال يستطرد خلف ذلك العنوان الذي كتبه "ميشال جوبير" وهو:

ـ لماذا لم يشر "ميشال جوبير" إلى الشعوب العربية في مقاله ذاك؟!

بل إنه في بعض دلالاته.. اعتبر بعض الدول العربية سبباً في إدخال "أريتريا" إلى دائرة الصمت!!

ولكن التبرير: أن "جوبير" كان يكتب كمثقف، وليس كسياسي!

والمثقف اليوم ـ حتى لو كان عالمياً ـ تُهمُّه بلا شك هذه العناوين:

● اليونيسكو، منظمة الأغذية العالمية، مؤسسات الطفولة، مشكلات نزع السلاح!

أما "كيسنجر".. فإنه بعد ابتعاده عن الأضواء السياسية، لم ينس أن يحفل بالفن، وبالرقص "العربي"!... تماماً كما كان يحفل ـ عندما كان سياسياً ـ بالرقص السياسي الاستعماري في العالم العربي... بوصفه: المندوب السامي اليهودي الصهيوني في البيت الأبيض الأمريكي!!

ولا نستبعد بعد مرور تلك السنوات، أن يكون الدكتور كيسنجر قد

تحول إلى رواسب نفسية، كم تلك الرواسب العديدة في أعماق الإنسان العربي!

• • •

• المشكلات الأَسَرية:

• وحين نتحدث عن الرواسب الاجتماعية ، والرواسب النفسية، والرواسب السياسية. . . فإن الحوار يتشعب بنا ـ بالضرورة ـ حتى يبلغ مناقشة المشكلات "الأُسرية" لأنها مرتبطة بتلك القواعد الأساسية: الالتزام، والروابط، والمواقف، والسلوك، والمتغيرات الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية.

• وفي حوار مع "مثقف" ممن تنطبق عليهم صفة العلماء. . . قال لي:

ـ نحن مطالبون ببحث مشكلاتنا الأسرية في العالم العربي كله، كوحدة قومية، ومصيرية، ودينية، وأخلاقية!

إن الدعوة بالتخصيص تخاطب المثقفين، والمربِّين، والإعلاميين. . أي: المدارس، والجامعات، ووسائل الإعلام!

لقد شغلتنا هموم عصرنا، وإغراءات مصالحنا ومادياتنا، والمتغيرات من حولنا. . ورمتنا بعيداً مسؤولياتنا المباشرة، والمحددة في رؤية واحدة. . هي:

• كيف نوجد في الجيل الجديد القادم: القدرة على مواجهة مخاطر المستقبل، وتحدياته؟!

إن عصرنا الذي نعيشه. . . هو مقدمة المستقبل "الأخطر"، الذي تلوح

من وراء غباره: مخاوف عديدة، تحمل في تضاعيفها نذر التشوهات المكتسبة من المتغيرات، والعودة إلى دوافع عصور الغاب بوسائل حديثة!

ـ قلت له: ألا تعتقد أنك تُضخِّم الكثير من التصورات.. حتى تبلغ بها حد التشاؤم؟!

● قال: ربما تظن ذلك... بسبب أن جيلنا يخايله العديد من المميزات، والفرص، وازدياد الوعي، ووسائل الحضارة التي تدفعنا لتصور عصر الرفاهية والرخاء.. عن الإبقاء على القيم والمعاني، أو الأهداف الإنسانية التي تهتم بـ"المجموع" قبل اهتمامها بالفرد، أو بالفئة، أو حتى بالجيل الواحد.. وترك الأجيال القادمة!

ـ قلت: إنها مهمة بالغة الصعوبة.. في وقت يمضي مسرعاً بعوامل كثيرة، منها: الأمراض المستعصية، والموت السريع، والإحباطات، والاكتئاب، وتفشي "تدليع!" الذات.

● قال: اتفق معك.. ولكن من الصعوبة أن تغمض عينيك في لحظة تعب، فتتصور قدوم عصر يرتكز على الفجائع، والخوف، والانحلال، والتفكيك، والتسيب، والمخدرات، والعبث!!

ـ قلت: إن أجدادنا وآباءنا.. كانوا ينظرون إلى العصر القادم ـ عصرنا اليوم ـ بمثل هذا التصور الذي تضعه الآن.. ولابد.. أن أشياء كثيرة تسبب لهم القلق والخوف من الجيل القادم ـ جيلنا هذا ـ !!

ولكن لا ننسى أن عصرنا هذا، هو بالفعل يأتي مقدمة، أو مدخلاً، أو مؤشراً لكل التصورات التي ذكرناها، والتي تلوح وكأنها تتسلل إلى معايشتنا في غفلة منا!

وسأعطيك مثالاً على ذلك:

● نحن.. قبل عشرين سنة، أو أقل، كنا نعيش طبيعة اجتماعية، أو شكلاً اجتماعياً يختلف تماماً عن الشكل الاجتماعي اليوم، إن لم يناقضه... وكنا نحيا طبيعة نفسية تقل فيها نسبة التوتر كثيراً!

إنني بهذا لا أدعو إلى التأخر، أو التوقف بلا تطور.. ولكنني أطالع شيئاً خطيراً.. فأنت ترى ـ في المجتمع العربي كله ـ أنه لم يتبق "وسط" في أشياء كثيرة، أو أنك ترى في طرف أفكار متقدمة، أو متطورة بلا رابط، وتركض إلى أقصى نسبة في التسيب، وترى في الطرف الآخر أفكاراً منغلقة، متعصبة... بلا ضوء، وتركض إلى أقصى نسبة العتمة، والكراهية!

بينما تكتشف أن ما بين الطرفين، هو: الفراغ؟!

● قال: بترشيد الإعلام.. بالتشديد على مسؤولية المربي، والمدرّس.. فلا يكون الإعلام، ولا يكون المربي في أقصى درجات التعصب الديني والفكري.. لئلا يُرضعوا الطفل والشاب: الحقد، والكراهية لمجتمعها، ولعصرهما!

ـ قلت: هذا ما عنيته... إن سوء القراءة في أمور الدين والفكر، يؤدي إلى الانحراف، وهذا الانحراف، ينتج من خطأ التوجيه بالقراءات الخاطئة تلك!

كذلك.. فإن إغراق السوق والمكتبات بالمطبوعات (الملوّنة) غير الملتزمة.. يؤدي إلى الانحراف أيضاً، وهو انحراف ينتج من خطأ التوجيه بالقراءة الخاطئة!!

كذلك... لابد أن نفكر في سلوك الآباء، وسلوك المدرسين، وخطة الإعلام!!

فروق الأجيال والمعاناة!

القضية ـ في صورتها النهائية ـ ليست في ترتيب القيم الاجتماعية، ولكن في بنائها:

متضامنة، متكاملة، كبناء الكائن الحي الذي ينمو في جميع جوانبه في وقت واحد، حتى لا يكون له رأس رجل وأعضاء جني!

والتوفيق بين الثقافة والسياسة: يتحقق عن طريق بناء الفرد، لأنه هو العنصر الواعي، الموجه للطاقات الاجتماعية!!

مالك بن نبي/ الجزائر

● ما هي قضية العالم اليوم؟!

في زحام الأسئلة المتراكضة والمتراكمة... لابد أن يشخص الإنسان المعاصر نحو عالمه الضاج، ويطرح أهم سؤال ينتخبه من بين آلاف الأسئلة المرهقة:

ـ ما هي قضية العالم اليوم؟!

هل تتكثف "القضية" في تسلسل الحروب... المتناثر بعضها، والمحدود في الحرب الأهلية، وفي الحرب العنصرية... أو المتقد بعضها الآخر تحت براكين أشد هلعاً، ولم تندلع بعد؟!!

هل تنشرخ "القضية" بأسباب تفاقم المشكلات الناجمة عن التقدم الصناعي المهول؟!

هل تنكفئ "القضية": مهزومة بمآسي الجوع في أجزاء من العالم، وبمآسي اللاجئين والمشردين من أرضهم، وبمآسي "البدائية" التي ورثها الجهل لمناطق معزولة عن حضارة وعلوم العالم؟!

هل تتمزق "قضية الإنسان" المطحون اليوم... ما بين الأمراض المستعصية، في مقابل ترف الاكتشافات الحديثة، والمدنية، وتطور العلم، وبناء المجتمعات الجديدة التي تعمل وتعيش بالزر، وتنتقل بالزر، ويتعلق مصيرها على ضغط زر... وأيضاً تعبر عن عواطفها بتأثير كل تلك "الزراير".

● إن بعض القضايا يوصف على أنه: "جزئي"، أو مؤقت، أو يخضع للعلاج والتقدم. وبعض هذه القضايا: ضروري وحتمي... نظراً لتشابك المصالح بين الدول، وطموح بعض الشعوب، ومخلفات بعض الأخطاء القديمة التي توارثتها الأجيال بعفوية تارة... وبتعود تارة أخرى!

ونجد أن الهيئات، والمؤسسات الدولية الكبيرة: مازالت ـ حتى اليوم ـ ترزح تحت ثقل القضايا التي اختلطت بإحساس الهموم والآلام... حتى "الهيئة" التي تبدو مميزة وناجحة إلى حد ما في تحقيق نوع ما من النجاح، وهي هيئة "اليونسكو": قد أصابتها لعنة الأطماع الاستعمارية، وتسلط القوى الكبرى التي لا تريد أن تقدم شيئاً لهذه الهيئة حتى لا تساعد العالم الثالث، والدول التي تحتاج إلى مزيد من العون لإرساء الرخاء، والتنمية، والتقدم.

وكانت "اليونسكو" تحاول أن تشبر العالم شبراً شبراً، لتقضي على

الأمية... وما زالت "الأمية" هي جزء من الحزن الإنساني، وهي داء تتعطل بسببه الاكتشافات الحديثة والنهضات والتطورات الاجتماعية في العالم.

وبعد "الأمية"... تبرز أدواء أخرى، من أهمها:

● فقدان الثقة، والأمراض، والفقر، وضعف اليقين، والخوف، وأطماع القوة!!

والعالم ـ في معاناة ذلك كله ـ يمارس ألواناً من الوعود التي تتفسخ، فتتحول إلى أكاذيب .

وتتصادم أشياء ثمينة في أحشاء هذا العالم... ومنها:

● أن يرتطم التقدم العلمي بتخطيط الاستعمار.

● ويرتطم التقدم الفكري... بالعجز المادي.

● ويرتطم التصاعد الصناعي... بمطالب التكثف السكاني، وبالطموح الفردي نحو تحسين المستوى المعيشي.

● ويرتطم الشباب... بمشكلات متلاحقة، من أبرزها: التسيب في التربية، وإرث الأجيال، وتفسخ المجتمع أو انحلاله، وإهمال الأطفال!

ولا بد أن تكون هناك تنازلات، من أجل تحسين المستوى المعيشي... ولا بد أن تتوالد صراعات مختلفة وصدامية، بسبب القلق الناجم عن أسئلة كثيرة يطرحها الجيل الجديد، وتأتي مع بداياتها منذ نشأتهم الطفولية، وتتبلور وتسخن في دخولهم مرحلة النضج والفهم!

وغالباً ما تكون تلك الأسئلة غير مقنعة للجيل القديم... وحينئذٍ تبهت معالم إنجازات حضارية عديدة، لأن في داخل العالم مختلف التناقضات،

بدءاً من مرحلة الطفولة، وغياب الحفاوة بالأطفال وبالطفولة!

وفي هذا العالم: نجد من بلغ إدراكاً عالياً، ولكنه تعالى على المتسائلين!!

وهناك الذي مازال ينمو ويصادم، ويطلب، فيفلسف الفرص، والمكاسب، والدور، والاهتمام به من عدمه !

وهناك الذي ما زال يعاني من ظلام الجهل، ومن قسوة الفاقة، ومن فظاظة وظلم الذين استقووا بمادياتهم، وبتقدمهم، وبسلاحهم أيضاً!

وبذلك كله... يسقط العالم في فتق يسيل، وينزف!

● ولعل أهم قضية في عالم اليوم ... تتضح في شيء اسمه: "عدم الرضا"!

وذلك يعني: الرفض لأشياء كثيرة قائمة... إما لأنها تلاقي دعماً من البعض فقط... وإما لأنها تعتبر "حقيقة" لا تقبل الحوار من البعض الآخر، ولابد من مسايرتها، وتقلبها، واحتمالها، واغتنام ما تعطيه.... مهما كان!

ولهذه القضية فروع... اتضحت، واتخذت طابع الارتجال، والتسرع، والسفه، والسفسطة، والغوغائية.

والشباب يرغب في أن يعبر تعبيراً ذاتياً مستقلاً، بأي أسلوب، ومهما كانت الصورة، وتكالبت كل جوانب القضايا المتناثرة في العالم، القديم منها والمستجد، فكان عدم الرضا أو الرفض!

واستغل هذا الاحتجاج بتصرفات تدل على السخف في تقييمها، ولكنها تعني:

● أن خلطاً مرهقاً يصدع المجتمعات في العالم.. على اختلاف عاداتها، وتقاليدها، وموروثاتها، واكتشافاتها... وحتى مدنيتها!

● ظهرت "صرعات" عديدة في أوساط شباب العالم... تلاحقت بعده مسميات، وتحدثت أو دعت إلى ألوان من المطالب، والاحتجاجات.

● تسللت "بقع"... أوجدها: القلق، وضعف اليقين، وفقدان الثقة، والحيرة، وتفكك الأسرة والضياع... وضاعت المطالب الصميمة للإنسان الناجح، والفاعل، والمدرك/ تلك التي تلح عليها مرحلة الانتقال من جيل إلى جيل!!

وعجزت الجامعات ـ بعد ذلك ـ أن تضبط العقل في منطقة الوسط... مثلما عجزت ـ أيضاً ـ أن تضع للشباب تعريفاً يفرق بين: الرفض والعبث، وبين المطلب والاستخفاف بقيمة الزمن، أو قيمة "العمل"!

وكان بعض الذين تحصلوا على "الدكتوراه" حينذاك في أوروبا وأمريكا: يندسون في صفوف "الهيبيز" من أجل "تسخينهم!"، ويحرضونهم على رفع أصواتهم.. لمجرد الرفض، والمشاكسة!

وكانت النتيجة... كالتالي:

● إما أن نجد شباباً منحرفاً، أو متلهياً، أو ضائعاً... جرفته المخدرات التي يتاجر بها الأقوياء، والمستعمرون، والمافيا، وقتلة الشعوب... أو جرفه العنف، وفقدان الثقة، والحقد والكراهية!

● وإما أن نجد شباباً: متوتراً، مرتعشاً، وخائفاً... ويستغرق في التزمت الشديد، والمغالاة، ونبذ المجتمع، وتوظيف "الالتجاء" إلى الدين

لعنف آخر، أو لإسقاطات غريبة... إلى درجة التعصب الأعمى!

حتى غزانا ذلك التوتر والتزمت والغلو في مجتمعاتنا المسلمة... ونحن نراهن على شبابنا بقوة العقيدة، وبسماحة النفس التي هذبها الدين، وبتماسك الأسرة التي يكتنفها الآن خطر الاجتياح للصرعات، وللتغيير، وللتطور الغربي!

فإذا كنا نشدد على ضرورة قوة الأمن... فلكي نحمي الشباب من تسلل المخدرات، والصرعات إليه... وأعداء الدين والوطن لا يتركوننا ننعم بصفاء العقيدة، بل إن محاولاتهم متلاحقة بالغزو الفكري، وبالترغيب في الانحراف بمختلف الطرق، والآن... بنشر "الإرهاب" الذي يستهدف التنمية والتطوير!!

إن الأمة التي يضعف فيها "الأمن": لا بد أن تفقد رجالها.

●●●

● وهكذا... أصبح العالم يعيش في "ورطة" خطيرة... بل إن الحصيلة العلمية، وكل الإنجازات الحضارية، وكل مكاسب التقدم والمدنية: تعاني من هذه "الورطة"، التي اسمها في عالم اليوم: فروق الأجيال!!

وعن هذه المشكلة، أو "القضية" الخطيرة... نتوقف أمام مؤشرات، وأخبار، وإحصائيات، وتحليلات، ونتأملها، ونناقشها:

● أولاً: توقفت أمام إحصائية أعدتها "لجنة" تدرس واقع وأحوال الأطفال في أمريكا... وقد جاء فيها:

ـ إن حوالي مليون طفل... يولدون كل عام بطريقة غير شرعية، من سيدات أمهات غير متزوجات!

خطيرة ـ إذن ـ هذه الإحصائية، بل وكريهة أيضاً (!!) وخطورتها: أنها تشير إلى "واقع" شعب يعيش الرخاء والترف، ويصدر التكنولوجيا، ويبرع في الاختراعات والابتكارات، ويصعد إلى الفضاء، ويتحكم في مصائر شعوب عديدة في العالم، ويسيطر على الاقتصاد، ويوجه الفكر، ويتفوق بالعلوم وبالحضارة وبالمدنية .

ومثل هذه الصفات لشعب متقدم في التقنية، وفي العلوم، وفي سيادة العالم... كيف يمكن أن تتلاءم كل قدراته هذه مع انكساراته التي تجلبها له: أمراضه الاجتماعية، وتشوهاته السلوكية، وتصدعاته الأسرية؟!

لا يمكن أن يكون هناك شعب قوي، وسيد، ومتفوق... إذا كانت الأسرة فيه مقوضة، وإذا كان السلوك في "إنسانة" متهدماً، وإذا كانت أمهات أبنائه: مومسات، أو منحرفات... أو ـ على الأقل ـ زوجات غير شرعيات!!

بماذا سيعترف المجتمع الأمريكي إذن؟!!

إذا لم تكن في رأس بطاقته التي تدل على قيمته، وفعل تواجده: كلمة "أم"!!

الأم: هي التي تنجب للبلد، وتمنح "الأرض" ابناً شرعياً، يخلو من العقدة الرهيبة، ويفخر بأم وأب، ويعتز بهوية يدخل بها إلى تاريخ أمته... بدون الشعور بالنقص، أو بالازدراء، أو بالعدم!

وهذه المشكلة... ليست هي خزي المجتمع الأمريكي وحده... بل خزي المجتمع في الغرب كله... وهي خزي المجتمعات التي اهتمت بالحضارة المادية والآلية، وأهملت حضارة الروح في الإنسان!

إن حضارة العقل في فيضان تفوقها: قد تتحول إلى انحراف، أو إلى جنون، أو إلى تمزق... يسري إلى تماسك الروح، ويخلخلها.

أما حضارة الروح ... فهي التي تبقي: القدرة التي تتحكم في السلوك، وفي شطحات الماديات والخيال، وفي قيمة الوشائج الإنسانية التي تحافظ على إبقاء المجتمع في وحدة، وفي روابط قوية!

وكراهية هذه الإحصائية... لا بد أن تتبع من هذه النسب المفجعة عن واقع أبناء الأجيال... عن الأطفال الذين يولدون فيما يسمى بالمجتمعات الحضارية، بينما تدل الإحصائية على أطفال يعيشون في فقر أمريكي، فقد زادوا بنسبة ٧٠٪ بين السود بالذات!!

● "هناك ١٢,٥ مليون طفل يعيشون مع أحد الأبوين، نتيجة لنسبة الطلاق، والولادة غير الشرعية، وتوجد في أمريكا خمسة ملايين عائلة ... رب أسرة فيها هي السيدة/ الأم، ولا يوجد لها أب"!!

إذن... فلنحذر هذا المجتمع الذي يتهدم بسرعة، ويريد أن يصدر تهدماته إلى عقيدتنا، وإلى حضارة أرواحنا وقيمنا!!

وحتى لو كان ذلك التصدير بواسطة السلاح، والعدوان، والاحتلال الصهيوني/ الصليبي، والاجتياح، وبث الفرق الدينية، والطائفية... فإنه لن يقدر، إذا ما تمسكت هذه الأمة بوحدتها، وبعقيدتها!

● ثانياً: أضع هنا مضمون فقرة نشرتها من سنوات صحيفة "هيرالد تريبيون"، وتضمنت: الاستنطاق العلمي الذي يؤكد قائلاً:

ـ (ستكون هناك فروق أجيال بصفة مستديمة... فالشباب يريدون مكاناً، والكبار يريدون وقتاً)!!

وهذه العبارة... تلخص بدقة: احتياجات أو رفض الشباب... وتشير إلى احتداد الكبار وعجزهم عن تطويع الشباب أو ترشيدهم.

ولابد أن يجد كل إنسان فرصته ليعمل، ويجد مكانه المناسب ليبدع في عمله وينتج!

فالفروق: هي تصاعد طبيعي في ميزان استمرار الحياة، وفي ميزان تطوير المجتمعات... لتهدئة هذا الرفض، ولحشد الشباب في صفوف العمل والإنتاج!

• • •

● وقبل سنوات أيضاً: أجرت إحدى المجلات الألمانية استفتاء في صفوف الشباب الرافض، والثائر، والمنحرف!!

وتحدثت مع شرائح من "الهيبيز"... وكان الاستفتاء يرتكز على سؤال واحد، هو:

● ماذا تريدون؟!!

واتفقوا جميعاً ـ مع اختلاف التعبير والتفصيل ـ على ضرورة توفير العمل للشباب... كل واحد في مجال إجادته وتخصصه، لئلا يضيع.

● وقال أحدهم: (أخذت أبحث عن عمل طيلة شهور، سدوا الأبواب في وجهي، وعندي شهادة جامعية... وحتى لا أموت من الجوع، ومن الفراغ، انخرطت في صفوف هؤلاء، ووجدت عندهم: الأكل والمواصلات المجانية، والكلمة الحرة... بأن أقول ما أريد، وأرفض سماع ما لا أريد)!!

ولعلنا نتذكر مؤتمراً عربياً... حضره ثلاثة آلاف عالم، كانوا يمثلون (٤٣) دولة في مدينة "كييف" في السبعينات... وكانوا يتناقشون في علم "الجيرونترولوجيا" الذي يدرس إطالة عمر الإنسان، وقال العلماء يومها:

ـ إن العالم يعاني من الشيخوخة... أو أن الشيخوخة هي مرض اليوم، ولكن الإنسان يمتلك أكسير الشباب عن طريق المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يجب أن يهيئ له الظروف التي الضرورية لحماية مستقبل "الشيخ" وهو مازال شاباً لم يفقد جسمه حيويته!

إن المجتمع الذي يوفر العمل لأفراده، ويوفر الرخاء، ويجعل أساليب الحضارة والتقدم في متناوله... هو مجتمع لن يهرم!

وأعود ـ بعد هذا ـ إلى استلهام ركيزتين، تشيران إلى:

● أولاً: "إن السبيل الوحيد هو التكفل بأن لا يعالج الشباب نفاد الصبر الذي لا داعي له... بالغباء وبالانحراف"!

● ثانياً: "إن الإسلام... هو قوة استقرار، تشد طبقات المجتمع... بعضها إلى بعض.

والإسلام طريق حياة.

"والإسلام عملي وليس هو فقط: ديني تأملي"!

إن الإسلام قد ناقش هذه المشكلة، وأعطى بتشريعاته مفاهيم الداء والدواء... وهي تشريعات: (تحدد حقوق الفرد، وتحدد عدم إساءة هذه الحقوق للمجتمع)!!

ولابد أن يعطي الجيل الجديد أهمية حقوق المجتمع... من حقوق الفرد.

إن المطالب الذاتية: لا يمكن أن تخضع حقوق المجتمع لكل رغباتها، ولكن الفرد جزء من المجتمع، أو الذي يتشكل منه المجتمع... فإذا شدت طبقاته استطاع أن يحقق الازدهار والتقدم، وإذا تخلخلت تلك الطبقات: تناولته موجات من الزيغ، ومن الحيرة، ومن فقدان الثقة.

وأهم ما نحرص عليه في ظروفنا اليوم: أن نضع مزيداً من الثقة، ومزيداً من اليقين!!

جيل التمرد!؟

● **"الحرية:**

هي الحق في أن تفعل ما يسمح به القانون"!

(١)

● سألتني "فتاة" تدرج إلى سن الشباب والنضوج، فقالت لي:

ـ أهم الآن بالبحث والدراسة لفوارق الأجيال!

أنت ـ كأب ـ قد لا تعجب بكثير من تصرفات أبنائك الشباب، لأن هذه التصرفات كانت في مطلع جيلك لا تمارس، أو لا تقبل... وربما رسخ فيك والدك هذه النظرة!

ولكنك ـ بلا شك ـ تجاوزت الكثير من قواعد الجيل الذي قبلك: جيل والدك، وعمك، وخالك. كذلك... فإنني ـ كواحدة من الجيل الجديد ـ لا ألتزم ببعض ما خلفه جيلك، أو الجيل الذي سبقني، لأنني أعتبره متخلفاً، أو لا يتفق مع طبيعة ومطالب جيلي وعصري، وإمكانات هذا العصر، وإيقاعاته السريعة، ولعل الجيل الذي سيأتي بعدنا سينسفنا نحن أيضاً، و...

ـ قلت أقاطعها: هل هذا كله سؤال؟!

ـ قالت مبتسمة: اعذرني.. إنني أمهد لئلا أغضبك، وأفصل وأشرح لتفهم ما أريد.

ـ قلت: هل تعتقدين أن جيلنا بطيء الفهم؟!

ـ قالت: عفواً.. لكن جيلكم يشترط الأدلة، والحجج، وتبرير الفعل!

ـ قلت: أرجوك.. لا تشتم جيلي، فنحن نتكلم بوضوح!

ـ قلت: أوصليني بسؤالك مباشرة.. من فضلك.

ـ قالت: أين تقف أنت اليوم ـ ككاتب ـ بمعنى أنك لست فرداً عادياً.. أين تقف ـ كأب ـ بمعنى أنك تمثل جيلاً (متعلماً، ومتخصصاً) يقف في مواجهة جيل جديد؟!

فهل مازلت تعتبر نفسك من نهاية حقبة جيلك، وهو الجيل الذي تعارفوا على تسميته بـ (جيل الرفض)، أم تراك منسجماً.. ممتزجاً مع بداية هذا الجيل ـ جيلنا ـ الذي يطلقون عليه: (جيل التمرد)؟!

(٢)

● أعترف أن سؤال هذه الفتاة أصابني بالدوار البحري.. فهو استفهام ضخم، ولابد أن يحمل في تضاعيفه وخلفياته: استفزازاً لمحاولة يفعلها جيلي اليوم: أن يقعد قليلاً، ليستقر في قاع الكأس، وينجو ـ بالتالي ـ من هذا الفيضان الذي يغمر فوهته!!

وكأن الفوهة قد تحولت نثارها وفيضها إلى هذه "الحبيبات" التي تغطي الفوهة، وتفعل الانفصال عن وحدة المادة الموجودة داخل الكأس!

ولما شردت بي خواطري.. سمعت صوتها يلكزني بسؤال:

ـ قالت: أراك تخلد إلى الصمت... هل تفكر؟!

ـ قلت: في البداية.. أو أن أصحح لك "عنونة" جيلي، أو تقييمه.. فنحن لا نسمى: جيل الرفض، بل الصفة الحقيقية لهذا الجيل الذي أنتمي إليه، إنه جيل: "الصهر"... الجيل الذي جاء في ظروف "الإنتقال" ـ حضارياً، وسياسياً، وثقافياً ـ وفي الظروف "النقلة الاجتماعية".. فقد ولدنا من جيل وديع، بسيط، محدود القدرات والطموحات والإمكانات والرغبات، وإن شهد طلوع نهضة فكرية، وحيوية في العطاء... لكنه جيل تميز بالقناعة، وبالاكتفاء، وبالحميمية، وبالتقارب!

وحاول آباؤنا أن يثبتوا فينا الكثير من مميزاتهم وقناعاتهم... لولا أن "المدنية" اقتحمتنا كموجات متدافعة.. ولولا أن "الحضارة" اكتسحت كفيضان جارف.

وكان من أخطر ما يمكن أن نصاب به.. هو: الانفصام، بعضه جاء من جيل الآباء والأجداد، وبعضه الآخر من مكتسبات أو تأثير هذا الانتقال الذي حدث سريعاً، وعنيفاً، ومغرقاً!

ونحن أيضاً.. هذا الجيل الذي ينطبق عليه المعنى الذي جاء في كلمة قالها الإمام "علي" كرم الله وجهه: "من لان عوده.. كثفت أغصانه"!

لم يكن عودنا صلباً، سريع الانكسار والاحتراق... وأيضاً.. لم يكن عودنا: رخواً كثير الانحناء، لكنه العود المرن والمتطوح أيضاً في شدة الإعصار، وفي لمسة النسمة الرقيقة.. فأنبت هذا العود أغصاناً كثيفة منه، هي أنتم.. الذين نخاف عليكم، ونتطلع إليكم برجاء!

وفي الحديث الشريف عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم"إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"!

حفظنا هذا الحديث منذ يفاعتنا، وقد تعلمناه من آبائنا، وربما يتمثل في نهاية جيلي هذا: الحرص الشديد على الالتزام بالهدى النوراني.. فنحن بلغنا في معنى الانتقال: حتمية صراع الأجيال، وهو ما يتسع مع تمدد المدنية، وركض الحضارة.. حتى يبلغ بكم أنتم في مطلع جيلكم هذا إلى فرضيات "التحدي"!

إن كل التحدي الرمحي المنتصب الآن، هو مرهون بطرفين اسمهما: الغاية، والوسيلة!

وفي اللحظات التي تكبر فيها أشياؤنا.. فإن حرارة التوهج تخضع آنذاك للإرادة، وللتقبل.. لمقدرة المرء على الصمود أمام كل ما يكتشفه، وكل ما يقتحمه.. سواء كان حقيقة، أو كان مجرد جدل يتعاظم داخل النفس، ثم يتمرد!

إن الإنسان يفقد براءته.. أو أن جيلكم هو هذا الذي فقد براءته، ولا أقول: روحانيته.. وعندما تتضخم الأشياء في صدورنا أو في عقولنا، فإن الصدر والعقل لا يتسعان، بل هما يضيقان جداً باتساعهما أو بتضخمهما.. أو كما قال فيلسوف معاصر:

ـ (كلما شعرت بفقدان براءتي.. وعيت قساوة الدور الذي ينتظرني.. إنه الدور الممتاز والباطل)!

وفي غمرة هذا الزحام المرهق والمتعاظم مع مرور الوقت.. فإن الزحمة تبدو بعد هذا أشق من ضيق الحرمان!

(٣)

● وسألني صديق من جيلي ذات يوم، قائلاً:

ـ ماذا نفعل بسمو الأخلاق؟!

ـ أجبته: إننا نتعلم بها السمو وفيه: "كيف نعيش"، ونعرف به: "ماذا نصنع"، ونلتزم في إطاره الجميل: "بالمثل والقيم"!

ـ وسألني ثانية: ألا ترى أنه أمام رغيف العيش.. يسقط "سمو الأخلاق"؟!

ـ قلت: يسقط مع النفس الضعيفة.. مع الذهن المنحرف.. مع الدوافع الحاقدة.. مع الظروف الرطيئة، والحاجة والعوز والمسغبة!!

ـ قال مبتسماً: لكنني أعتقد أن واقع الحياة مع هذه "النقلة الاجتماعية والحضارية" قد أفسد فينا أخلاق الكتب!

قلت: ذلك لأن كل واحد يعتقد أنه القادر على تأليف الكتب، وهو في حقيقته يعجز عن إتلاف الكتب التي لا تعجبه، وإن كان يحاول!

ولم أقصد المعنى المباشر، فأخلاق الكتب التي تعلمناها: نموذجية وقوية الصمود.. وقد يعطيها لك "معلم" ويعلمها لك ولا يطبقها.. وقد يكون بعض مؤلفيها من مرضى: ازدواج الشخصية!!

إن كل جيل يأتي بملامحه، وبظروفه، وبقدراته... ويحيا في رقعة إمكاناته ووسائله الحضارية، ولكن.. تبقى هنالك ركائز وقواعد إنسانية، تنسحب ليكون التميز بين عصور سحيقة في البدء، وعصور الغابات.. وبين عصور طليعة في بدء التنوير، والرسالات، والمعرفة والعلوم.

● يقول مفكر آخر، اسمه "هاوز" في تفصيله للأجيال:

ـ "لكل طور من أطوار الحياة.. أخطاؤه وتجاربه، إلا أن الشباب أكثر تلك الأطوار أخطاراً وأخطاء... فهو الزمن الذي تنشأ فيه العادات وتتأصل فيه النفس، بل هو ينبوع الميول والاتجاهات المختلفة.. وفي خلال هذا الطور، يتخذ الإنسان صفة معنوية ثابتة، ويلبس الثوب الذي يظل يكسوه إلى نهاية العمر"!

ـ قال صديق من جيلي: من نحن إذن في واقع التزاماتنا، وطموحاتنا، وآرائنا، وصغائرنا؟!

ـ قلت: إن كل إنسان من هذا الجيل.. يود أن يؤكد "مسراته" بكل وسيلة، وفي ذات الوقت: هو يبحث عن تعبه، ويبحث عن جغرافية لحيرته، ويحاول في ذلك كله أيضاً، أن يتجاوز تناقضاته وعفويته.. بحيث تنطبق عليه العبارة القائلة:

ـ (شخصيون حيث كنا الغاية.. وغير شخصيين حيث كنا النموذج)!

ـ قال: كأنك لا تريد أن تستوقف شخصاً على قارعة الطريق لتحادثه، وإنما أنت تفرض عليه أن يدخل صالونك، وقد لا تستقبله لارتباطاتك، أو "لهالتك".. أو تقابله ويشرب قهوتك ولا يطيل!

ثم نتحدث بعد ذلك عن "السلخ" لقناع المجاملة، لكي نصل إلى حقائق الناس، وأسرارهم، وأشيائهم الصغيرة جداً

ـ قلت: في زمن أبي وأبيك.. كان الواحد منهم عندما يخرج من بيته لا يتعب من إلقاء التحية وهو يمر، ويتوقف ويسلم، ويسأل عن صحتك وصحة الأولاد، وقد يفتش ملامح وجهك.. فإن لاحظ ضيقاً وكرباً سألك وحاول مساعدتك.. أما اليوم، فأنت لا تلتقي بأخيك وبأهلك إلا في المناسبات، إن لم تسافر أيضاً!

إن نفسية الإنسان مازالت تلك الكاميرا الحساسة التي تلتقط بسرعة، ولكن ما تلتقطه اليوم هو خليط، وزحام، ومتناقضات.. بينما ما نفتش عنه: أن تلتقط هذه الكاميرا كل ملامح الوجه، وأن تعكس عمر الاكتشاف، وأن تخرج الصورة واضحة متوهجة.. تنقل الحقيقة ذاتها!!

(٤)

● وبعدت عن هذا الصديق من جيلي.. فلم أعد أستطيع مجاراته في الحوار، وهو من جيلي!

كان ما بيني وبينه قد تعب هو الآخر، بكل ما هو خارج عن إرادتنا، وعن عجزنا، وعن التزاماتنا.

وكان ما بيني وبينه قد سقط في فوهة جب، لتكون "وظيفتنا" بعد الكلام: انتظار سماع الارتطام!

كان ما بيني وبين هذا الصديق ـ وهو من جيلي ـ قد فقد براءته في قساوة المتغيرات، وفي تمويه الحقيقة الذي ينتظرنا.

كنت ـ بعده ـ أجادل أفكاري وأدليها إلى أعماق نفسي.. ثم أشعر بالظمأ!

(٥)

● ولكن تلك الفتاة الناهدة، وهي تدرج إلى الشباب والنضوج، لم تقتنع بانطباق العنوان الذي وضعته "لافتة" تدل على جيلي.. فقد قالت لي بعد ذلك الحوار:

ـ إنك تتوغل بي في فلسفة الحياة، وأريدك أن تقف في صف محدد!

ـ قلت: إنه جيلي.. ليس صفاً محدداً، ولكنه ما بين الصفين: صف جيل اليقين، والقناعة، والبساطة.. وصفكم: جيل التمرد، والانطلاق دون الالتفات إلى الخلف!!

أعني ـ كما أسلفت ـ أننا جيل "الصهر" والانتقال، والتقدم نحو تجارب غير مألوفة ولا معتادة!

لقد عرفنا أن المناخ الإنساني المعاصر، وقد تمخض عن إلهامات خشنة.. من أجلها، وبسببها: احدودبت أشياء كثيرة!

أردت أن أتوغل بك، ولكن فوق عشب أخضر، من أمل الشباب.. فمن غير الممكن أن أطالب ـ حتى جيلي ـ بمثل تلك اللمحة التي أضاءتها عبارة "عمر بن الخطاب" عندما قال:

ـ "لو نفقت شاة على شط الفرات.. لخشيت أن يسألني الله عنها"!!

ولكن من الممكن أن أقف بك عند معنى عبارة حديثة، قالها "برن":

ـ "قل لي ما هي الأفكار التي تجول في رؤوس الشباب في هذا العصر.. أقل لك أخلاق الناس في العصر القادم"!!

نـــزار قبانـي :

آخر سيف ذهبي أموي!!

إهــــداء

- إلـى: نخلة الخليج العربي الشاعرة/ د. سعاد الصباح
ـ لولاها لما كان هذا الكتاب !!

نشيد/د. فؤاد عزب
عن صديقه/ نزار قباني

● للشاعر السعودي أحمد صالح الصالح "مسافر"

ـ دمشق... ضُمي على الأضلاع أعظُمه

واستمطري فوقه من مزنة ودقا

واستنبتي من تراب القبر زنبقة

وياسميناً يبثّ الطيب والعبقا

دمشق قولي: هنا قد كان لي وتر

إذا تغنّى رأيت الشرق متسقًا!!

(١)

● حين ذهبت إلى أنبل أساتذة العصر: (نزار).. استقبلنا على الباب راعية الأسد: ابنته (هدباء)، وبصوتها الدمشقي الأخضر همست: "يا بابا... صديقك العزيز إلى نفسك وإلى أبو وجدي هنا"، ظهر بعدها الفهد الإستوائي... نفس الشموخ، نفس رفعة النفس، نفس الإحساس الراقي... ظل جميلاً نزار، رغم كل الظروف، لأن جماله: أسلوب حياة،

لم يكن ذلك الجمال يوماً ملامح أو هنداماً أو عمراً زمنياً رتيباً!!

● سألني: ما الذي جاء بك في هذا الشتاء؟! قلت له: جئت لأحذرك وأهددك قبل أن ينفلت من كفي الزمان.. احذرك أن لا تكذب على نفسك وتصدق أنك أتممت مهمتك بعد خمسين عاماً في كتابة الجميل، وأن عقدك الوظيفي كصانع جمال حقيقي في الكون قد انتهى... وأهددك إن لم تفجر في أعماقك من جديد طاقة الشفاء، فسوف نطلق النار على القمر الذي ربيته حتى اكتمل!!

● قال لي: وهل أنا مهم إلى هذه الدرجة؟!

ـ قلت له: لقد عشت مع أبي وأمي ستة عشر عاماً ثم اغتربت عنهما، وعشت مع كلماتك أربعين عاماً، فكيف تجرؤ على هذا السؤال.. هل سمحت للأكسجين في غرفة الرعاية المركزة أن يطرح عليك نفس السؤال، وإن أنت لم تسمح لذلك الغاز الذي تتنفسه في أحلك الظروف بذلك فكيف تسلب من أصبحت بعض غلافهم الجوي من نفس الحقوق؟!!

تسعون دقيقة من دغدغة المشاعر قضيتها مع البحر الذي يفرض لونه كما يشاء.. من يجعلك بعد الجلوس إليه تؤمن بأن الجبال ليست متشابهة، ولا النجوم مثل حبات الأرز... وأن الإنسان كتلة من طين لا قيمة له إن لم يفكر!.

فعلاً الجلوس إلى نزار يجعلك تؤمن بأن الله قد خلق الكلمة فخلق نزار لتتكاثر وتنتشر وتصبح متاحة لكل الناس، يتبادولونها ويتقاضون على استعمالها: الحب.. فهذا الدمشقي خُلق ليبدع، فجعل الإبداع عملة نادرة كالماس تعرف قيمة نفسها، وارتقى بالكلمة فأصبحت راقصة باليه في بحيرة البجع، ونفخ فيها العواطف فجعل منها مشاعر تسيل لها الأجفان والوجدان!!

حتى تعرف نزار: لا يكفي أن تقرأ له فقط فيما يكتبه: بعض منه وليس كله، لابد من أن تجلس إلى نزار... لابد من أن تجلس إلى نزار، لتعرف شكل البشر عندما يمارسون الحب من الأعماق، وكيف هم يظهرون على إنسانيتهم!!

كتب لي قبل أن أودعه على آخر ديوان له "تنويعات نزارية على مقام العشق".

● "أخي الحبيب: ياخلاصة الحب والطب والأدب والإنسانية يا حبيبي يا... يجب أن تكثر من زياراتك لي فأنا أحبك بأثر رجعي، أكثر من زياراتك فأنا أحبك"!!

هل عرفت الآن ـ يابو وجدي ـ سبب ادعائي الأخير في التلفون أنني من أغنى الناس؟!!

لقد منحني "نزار" حبه الذي لا تعادله كنوز الأرض... حملت ما كتبه لي تحت قلبي وأنا أودعه، وسؤال كبير يرتسم على شفتي (خجلت من أن أتفوه به إليه) وهو: منذ متى وأنت كبير هكذا يا حبيبي؟!

أحسست أن السؤال عبيط، كأنني أسأل خريطة العالم منذ متى وأنت خريطة لهذا العالم؟!!

لقد فتحت عيون مراهقتي على وجود نزار كقيمة أساسية في الحياة، وكبرت لأعرف حقيقة هذه القيمة ومدى احتياجنا لها... فعلاً حب نزار يبدو أنه تغير مع الأيام في نفوسنا ليتحول من فكرة سرمدية لضرورة حياتية.

حبيبنا ـ يا أيها الكبير ـ يامن تسبح كالأسماك في مياه قلوبنا: ابق

لنا.. ابق لنا كثيراً في هذه الحياة.. ابق لنا، فبوجودك يا سيدي على ظهر هذا الكوكب تصبح الأرض قابلة للسكنى، والحياة ممكنة!!

(٢)

● في الصفاء القاسي شتوية في لندن، سعدت في أول أيام العيد بأشياء جميلة بجانب هذا الصفاء المؤقت: رأيت نزار قباني في بداية العيد، لا زال هناك هذا الإنسان النبيل يعيش في المنطقة العميقة في ذاتي كعنوان كبير للحياة بكل ما تجود به هذه الحياة من قيم إنسانية راقية ومعان خالدة، مازال التفاعل الغريب الذي أحسده عليه ينمو كالعشب داخل قفصه الصدري... تفاعل القوة والتواضع، والممكن والمستحيل، والثورة والحلم، والرفض والتجربة، والحنين إلى التاريخ مع الشوق للغد.

كل مرة أحاول أن أصف لك "نزار" عندما ألقاه: تصغر الكلمات، فنزار مستودع فسيح من المعرفة، ومخزن واسع لذاكرة لا تحتفظ إلا بالجميل وصورة خالدة للحب خالية من التجاعيد... هذا الإنسان لازال يجيد فن عشق الإنسان، كلما تتحدث معه تجد أنه لازالت في كلامه رائحة المطر التي تشعل في النفس ذلك الحنين الجارف إلى التوحد مع تربتها في عناق لا يصحو فيه الزمان... في صوته رحلة نهر لا يحدها سوى الماء على طول أربع قارات وعمقها... يتحدث إليك بوداعة قرية على الحدود، ويتنفس الحب والصدق بارستقراطية خشب عتيق من العود... لقد أهداني "نزار و عمر وزينب" يوماً جميلاً في العيد.. ألا تعتقد أن كلامي لك صحيح: إن أجمل ما في كل لندن: نزار وعائلته!!

(٣)

● لكم هو صباح حزين لبس عمامة الكآبة... تسلل لغرفتي مرافقاً مع من جاء يعلن لي الصمت كعنوان للزمن الآتي... فأمام الموت نعجز عن الكلام: توفي "نزار" هذا اليوم يا فؤاد!! أدركه الموت الذي لا يستحي من الفعل!

كان الخبر كافياً لأن أدخل إلى خلية كاملة من نمل الحزن بحجم نيويورك، تدحرجت بعدها إلى قاع أليم وانخرطت في بكاء مطمور!

أخذت أدير بصري من حولي كشاة تتلفّت في السوق في محاولة لإيجاد تفسير صعب لإيضاح مستحيل: من هو القادر على ثني ركبتيه لحفر قبرٍ لنزار؟!!

لقد فضل أخيراً النورس الذي يحلّق وينقضّ: أن يستريح وحيداً على آخر صخرة من صخور حاجز الحياة!

قرر الجواد الذي يسمع صهيله مَنْ به صمم: الخروج من الصراع والتردد إلى حل يعطيه السلام وطمأنينة النفس، لقد كان وجه نزار عندما زرته الشهر الماضي صامتاً على غير العادة، كان صمته الخارجي يدل على أن الكلام الذي بداخله كثير وأنه كلام صعب لا يُقال... كأن صمته كان إنذاراً وقرار إنذار للحياة بأن صاحب ذلك الوجه الصامت سوف يتصرف فيه كبرياء ورفض واحتجاج، "لقد فقدت الهدف من الحياة يافؤاد". كان يقولها لي وهو يجلس على مقعده الجلدي يتثاءب وعيناه تحدقان في الفراغ شاردتان تحناناً إلى النوم: "الحياة تصبح قصة حب فاشلة عندما تصير خالية من الهدف.. لم أعد أجد في داخلي شيئاً أتشبث به، لقد قضى المرض على هذا الجسد القوي وأنا أكره الوهن والضعف"!

كأنه كان يعدّني للفراق ويهيّني للوداع! أطعمني في ذلك اليوم حلوى جائت له للتوّ من الشام وأسقاني... كنت كلما؟ أهم بالوقوف يستبقيني قليلاً بالنداء على زينب: "هاتي كمان شاي يا زينب لفؤاد وعمر"، كان عمر قد أتى للتو إلى لندن من دبي... كنت أصغي إليه في تلك الليلة كطفل وافترش معه الكلام كبساط، فما بيننا لم يكن غيمة عابرة، بل زرقة تخصّبت في مدافن الأيام... كان نزار في أيامه الأخيرة يجامل الألم كما يجامل موظف صغير رئيساً قاسياً لا يرحم، وكانت تلك المجاملة غير متكافئة، فنزار إنسان عالي الجبين يشعر بحزن عميق عندما يُهان، وكان المرض يهينه كل يوم! لقد اختار نزار النوم تحت التراب الذي داس عليه يوماً بشموخ عن الحياة فوقه بانكسار! فضّل البقاء تحت التراب الذي لا يتبخر، ليخلص من حياة أصبح لا يدري فيها غير الأورام (!!)

كأنه أراد بانسلاخه هذا عن الحياة كنهر مشغول بفيضانه لا يرى غرقاه أن يُشهر بوحشة هذا الكون ويطرح أسئلة لها طعم السكين في غور الصدر.

سأفتقد سعالك الأبيض يا حبيبي.. سأفتقد حبك الأبيض... سأفتقد نهارك الأبيض... بكيتك مع زينب وهي تحدثني عن رحيلك، وبكيتك عندما وقف الناس صفوفاً بانتظارك عند بوابة المدينة. لا ليتوّجوك بالأكاليل بل ليحملونك إلى قبر عميق... لم أتخيلك تابوتاً قط أيها الملتف بالكفن... اليوم أنا في قمة الضعف، لا رغبة لدي في الكلام، والفراغ يحاصر قلمي.. كلما حنوت عليه قست الكلمات على يدي، كأن الأوكسجين في صدري انطفأ...

الرب أعطى، الرب أخذ... ظهرت في حياتي كحلم واختفيت منها

كحلم... من النور أتيت وإلى النور تعود، ستظل ماسة أخدش بها زجاج الذاكرة. وستعيش في قلوب الأحياء ما عاشوا كأضعف المخلوقات قلباً وأقواها رأياً وشعراً!!

● د. فؤاد مصطفى عزب

ذكريات / عرفان نظام الدين!؟

● من داخلي.. بدأ البكا
فأجْهَشتْ في القلب:
موسيقى الحزن
ونمَتْ على شفتيَّ
أزهارُ الشجن!!

● سبقني أخي الصحافي الكبير / عرفان نظام الدين إلى صعود درج المحبة والوفاء لتخليد ذكرى وحياة الشاعر / العصر: نزار قباني الذي كان «لعرفان» فضل قيادة خطواتي إلى «نزار "الحبيب يوم كان على سرير المرض في أحد مشافي لندن، فمنحني "هدية" لقائي الأول بشاعري الذهبي. وقد بادر أخي / عرفان بإصدار كتابه الذي أعقب فقْدنا لشاعرنا الأثير، وسماه: (آخر كلمات نزار / ذكريات مع شاعر العصر) الذي أصدره عام ١٩٩٩م في لندن... وشرَّفني ـ بثقته ومحبته ـ فطلب مني كتابة (تقديم) لهذا الكتاب الذي حرص فيه المؤلف على رصد وتسجيل وتصوير: مراحل العمر الأخيرة لشاعر/ العصر: نزار قباني، وذكريات المؤلف مع الشاعر الراحل بعبقها وجمالياتها حتى نكاد نغتسل بكلمات عرفان / العبق! ولأن كتابي هذا: أعتبره الكتاب الثاني / امتداداً لكتاب أخي / عرفان نظام

الذين، كأنهما "توأم" بهذا الإحساس الذي أستمده من عمق الألفة، وقيمة الصداقة الثمينة... يشرِّفني هنا أن أنقل "تقديمي" لكتاب أخي / عرفان...بعد أن أُعطِّر كتابي هذا بكلمات حرص "عرفان" أن يسجلها في كتابه بعنوان: (الجفري.. وتوأم الروح)، قال فيها:

الجفري.. وتوأم الروح

● .... أما شبيه شاعرنا الراحل، ولكن في عنصري الماء والنار معاً، فهو الأخ الأديب السعودي المعروف / عبد الله الجفري، وكان نزار يلقبه تارة "بحبيب قلبي" وتارة أخرى بتوأم الروح، فهو حساس جداً ومزاجي وأنيق ويتمسك بالمثاليات والرومانسية ويبدع في الوجدانيات، كما أنه ناري في بعض الأحيان ومائي في أحيان أخرى، وقصة العلاقة الروحية بين نزار وعبد الله فريدة في نوعها وتستحق أن تروى، فهما لم يلتقيا من قبل، ولكنهما كانا معا في كل يوم عبر الفاكس.. والهاتف.. والمقالات والأسفار. يكتب عبد الله فيرد عليه نزار، ثم يتحدثان عبر الهاتف حول كل أمور الدنيا والحياة والحب والشعر والأدب والوجدانيات التي يبدع بها الجفري في مقالاته ورواياته وكتبه وإنتاجه الإبداعي الغزير. وكتب الجفري عشرات المقالات عن نزار، واستشهد بأشعاره في "أول الكلام" قبل مرضه وبعده، وعندما دخل المستشفى جاء إلى لندن خصيصاً ليكون بجانب سرير الأخ الذي لم تلده أمه، والشاعر الذي أحب والإنسان الذي يحترم. وعندما التقيته سألته عن الترتيبات وإمكانيات الزيارة، وخصوصاً أن الشاعر الراحل كان قد انتقل من غرفة العناية الفائقة إلى غرفته في مستشفى سان توماس التي كانت تغص بالورود، وتحولت إلى مزار للأطباء والممرضات والزوار.

اتصلت بالسيدة هدباء وقلت لها إنني سأحضر هذه المرة ومعي ضيف عزيز فاسألي حبيبنا إن كان مستعداً لاستقبالنا... وعادت لتقول لي: على الرحب والسعة ولكن من هو الضيف... قلت: عبد الله الجفري... وعندما أخبرَته سمعت صوته عبر الهاتف يغرد بصوت عال: أوه... أهلاً وسهلاً فيه وبضيفه... أهلاً بحبيب قلبي.

وهكذا كان، حمل أخي عبد الله باقة ورود زهرية اللون لعلها "تفك القهر" كما يقولون... ودخلنا معاً إلى غرفة نزار... وجلست أرقب مشهد اللقاء الحار الدافق بين صديقين وأخوين تعاهدا على الوفاء لفترة طويلة ثم التقيا بعد طول انتظار. وكنا كلما حاولنا الاعتذار للانصراف، ضناً بصحة نزار ورغبة في عدم إرهاقه، كان يصر علينا البقاء ويقول: لا تهتموا أنا بخير...

وأشعر بسعادة كبرى... وشكراً يا عرفان... والله ما بتجيب معك إلا الحب والخير والناس الطيبين الأتقياء... يا صاحب الخلجات...

وضحكنا ثم انصرفنا على أمل لقاء آخر في منزله عندما يعود إليه... ولم نكذب خبراً، فقد تكرر اللقاء مرة أخرى في أوائل آذار/ مارس ١٩٩٨.

وكان نزار بدأ يتعافى من الأزمة الأولى ويستعيد بعض رونقه وصحته...

وكان برفقة عبد الله كريمته (زين) التي تكمل دراسة الدكتوراه في علم الاجتماع، ومن حسن الحظ أنها أحضرت معها آلة تصويرها واستأذنّا نزار في أخذ بعض الصور التذكارية معه... وشاء القدر أن تكون آخر الصور التي ظهر فيها شاعرنا الكبير.

تقديم:
على مقام العشق!؟

● **عبد الله الجفري..**

[أعرف أبعاد تلك الوشائج من صلات الحب التي جمعت أخي/ عرفان نظام الدين بالشاعر/ العصر: نزار قباني، وإن كنت لم أشهد إلا ثمالة من الشهور الأخيرة في لقاء مع الشاعر الكبير، كان فيه أخي عرفان هو: دليلي إلى المستشفى حيث كان نزار يعاني من مرضه، وإلى بيته حيث النقاهة... وكان عرفان رفيقي إلى المحبة، مثلما اعتزازي برفقته على دروب مشيناها معاً: شجناً وشجواً... معاناة وإبداعاً... وركضاً وتأملاً!

[وها هو ـ أخي ـ عرفان ـ يمنحني ميدالية أُخرى للتميُّز، حين ترك لي ورقات بيضاء في افتتاح كتابه هذا عن الشاعر/ العصر، وقال لي: "قَدِّم الكتاب"!!

[تعوّدت من عرفان أن يقدمني هو دائماً، ويقف بجانبي... يشجعني، ويدفئني بتحفيزه لكل عمل أقدم عليه، وهذا الكتاب عن الشاعر/ العصر... فما الذي يكفيه من الكلمات، وحجمه يفوق الحاضر، ويكبر فوق الذكرى والتذكر؟!

[كلانا يعرف ـ عرفان وأنا ـ أحببنا نزار الشخص، والملايين أحبت شعر..

[النقاد العرب، والشعراء كتبوا عن شعر نزار ...مَنْ فهمه، وأحبه، وركب مركبه: أنصفه وأضاء بكلماته مراحل التطور في شعر نزار...ومَنْ غار منه وحسده، وأراد أن يحفر في رمله: انتقده، وسفّه شعره، وحسب أنه نال من قيمة نزار الشامخة.

[أما ـ أخي عرفان ـ فلا أحسبه قد استهدف بهذا الكتاب: أشعار نزار، ولاجوانب الإبداع فيه، وإن لم يغمط هذا الحق للشاعر... لكنه أراد بهذا الكتاب وفيه: أن يركز على (شخصية) نزار قباني، وشخص نزار الإنسان، والفنان، والعاشق، والصديق، والعصر، و"المواقف"، والمساحة الكبيرة التي شغلها بجدارة!

[ـ ولقد تساءلت: ماذا يكفي تاريخ نزار، وتميُّزه؟!

[كلمات: تنصفه، وتجليه، وتموسقه: سيمفونية عشق، وتُطلقه: شاهد انتماء عربي، عروبي، و.... ياسمين غزل!

● ● ●

[● أما أخي/ عرفان.... فأعرفه من زمن طويل، وهو يتشبَّث بتلك المقولة الرائعة: «إذا لم ترض إلاَّ بالأفضل... فإنك كثيراً ما تحصل عليه»!

[وعرفان ـ على امتداد مشواره الصحافي ومع الكلمة ـ لم يرض إلاَّ بالأفضل، فكان النجاح هو: (نيون) أعماله، وحصيلة تلك الأعمال كانت: كثيرة... فلا أقل من أن يشرئب بكتابه هذا إلى: الأفضل، وذلك بعد أن

اختار موضوعاً ركز فيه على: شخص وشخصية الشاعر/ العصر... وعرفان هو الأجدر بالكتابة عن هذا الجانب، بعد أن رافق الشاعر الكبير فترة مهمة وربما عصيبة من حياته، وأخطرها: أيامه في لندن...وكان عرفان: شاهداً ولصيقاً، وأميناً على نزار وصوته، وخطواته.

[وعرفان نظام الدين: يمتاز في كتاباته بالتحليل، وينقل الحدث بانورامياً، ولديه القدرة عندما يكتب على صناعة: العبارة الزوم، كالعدسة الزوم... فيأتي تحليله وصياغته وتصويره: بكل الأبعاد التي حفلت بها هذه الشخصية، أو الجوانب التي تغطي البحث.

[ولا أحسبني قصدت ـ بهذه الكلمات ـ أن أتجرأ فأدّعي أنني أقدم هذا الكتاب للقارىء العربي، ولكنها "محبة" محضني إياها أخي/ عرفان، ليكون لي هذا البهاء في مطلع كتاب عن حبيبنا معاً: نزار قباني!!

• آخر سيف ذهبي أموي!!

[● «لم يعد في العمر ما يكفي، لأبقى ساهـراً .

[أُشعلُ الشَّمعَ بأعمـاق العيون الفاطميـــةْ.

[إنني آخر نافورة ماء. . تتهجَّى اللغة الأندلسية.

[وأنا آخر سيف ذهبيٍّ في الفتوح الأمويـــة».

[● ماذا يكفي تاريخ "نزار قباني" وإبداعاته وتميزه من كلمات تنصفه وتموسقه سيمفونية عشق، وتطلقه شاهد انتماء عربي، وياسمين غزل؟!

[هذا هو "نزار قباني" : في شدة وهجه الإبداعي، ومنذ بزغ وتمددت أغصان لبلابه على العشق، وهو يشعل بقصائده: الحوار، والجدل، والخلاف، والتفاعل، والتموسق في الروح. . . كأنه جاء في عصر متأخر عن عصره، أو هو سبَق عصره.

[نزار: شاعر الدهشةَ، والجنون الحزين. . يعايش زحام عصره، ورخام بشرَه. . . ولكنه كان يسهر لياليه بشعاع نجمة ثابتة في الشمال مغطاة بالضباب، مرتعشة بحبات المطر . . . كأنَّ الاندهاش لديه: صار سعادة نفسية!!!

[● ذات يوم: تزوج "نزار قباني" وكأنه لم يكن سيتزوج، وقال

عبارته التي حفظتها زوجته العراقية "بلقيس" يرحمها الله: إن الحلم هو الشيء الوحيد الذي لا يُعار للآخرين!

[وكانت هذه العبارة هي محطة الراحة الني استرخى فيها "نزار" في الفترة التي أعقبت زواجه، وبعد تجوال وأسفار وحرائق نفسية: وجد الأنثى التي "يستريح على وجهها وينام ويصحو ليبدع شعره الجديد"!!

[فهل تغيَّر نزار من ذلك: "الشاعر الذي دخل مخدع المرأة ولم يخرج منه".. إلى الشاعر الذي دخل مخدع السياسة العربية وذبح فيه؟!

[أم أن "نزار قباني" عندما يدخل إلى الشيء، أو إلى مرحلة، أو إلى حس... لايخرج منه أبداً؟!

[إنني هنا لا أريد أن أكتب عن شعر نزار "الجديد"، ولكنني أحاول أن أسترجع من الزمان القديم: الإحساس الذي بشّر "نزار" بطلوعه، يوم كتب يقول:

[ـ "قررت أن أصير زوجاً عندما تعبت من دوار البحر".

[كان إحساسي عندما تزوجت: يشبه إحساس الهولندي الطائر وهو ينزل من المركب بعد ثلاثة ملايين سنة من الرحيل في بحار خطيرة ومليئة بالأسماك المتوحشة، وإذا كنت أقول دائماً: إن الزواج نثر، والحب شعر.. فالصورة لم تتغير وإنما أنا الذي تغيرت، أصبحت أؤمن:

أن الحب سماء بنفسجية مُكَوكَبة ومفروشة بالحلم، ولكنَّ البقاء لمدد طويلة متعب؟!

[● يومها: هبط نزار إلى الأرض ليعثر على "بلقيس" العراقية، وهي: أسبانية الروح والفؤاد، كما وصفها حينذاك صحافي عربي!

[● وما الذي تغير في نزار بعد زواجه من بلقيس،وبعد فَقْده لها، وحتى الآن؟!

[● هل تغير الحب، أم عطاء وقدرة الحب؟!

[● وما هو الفرق بين قصيدة العشق، وقصيدة الثورة أو البندقية؟!

[لا بد أن الكثير قد تغيَّر في نزار: الإنسان والشاعر أيضاً... لكنَّ الذي لم يتغير هو: زواج الأرض العربية بالآلام المستمرة، وأين بلغنا من الإرتباط بالأرض، ومن الإنتماء إلى عواطف الوحدة والتضامن، والنار مشتعلة على الحدود العربية، وفي النفوس أيضاً!

[والخوف: أن تتحول هذه النار إلى: أحقاد رهيبة تتوغل في الزمان القادم، وتطمس التاريخ الأصيل تاريخ بلقيس، وزينب، وفاطمة، ومريم، وسارة!!

[فما هو انتماء الشعر العربي اليوم لأحزان الأرض العربية، وما الذي أنجبه الشعراء العرب، ونزار أحد المميزين فيهم؟!

بلقيس . . وزينب!؟

[● بلقيس:

[كانت أجمل الملكات في تاريخ بابلْ.

[كانت إذا تمشي.

[ترافقها طواويس!!

● لقد أنجبت "بلقيس" طفلة حلوة فأسماها نزار: (زينب)، وأراد أن يضرب على معنيين بهذه التسمية: أرضىَ الشام في ذاته بـ "زنوبيا/ هي: الزبَّاء"، وأرضى العراق في زوجته بـ "زينب".... فما الذي أنجبته القصائد العربية لأمها الأرض العربية بعد ذلك؟!

كان متفائلاً وهو يصفها قائلاً(من يوم جاءتنا وأنا أتعلم لغتها، قبل زينب لم أكن أعرف لغة العصافير... شعوري نحوها هو الشعور نحو فراشة ربيعية أخاف على أجنحتها من أصابعي)!

[ـ يومها.. تساءلت: تُرى بأي اسم سيدلل الشاعر ابنته "زينب"؟!

إنها ولدت في جيل الصراخ العربي، ثم التمزق، وهاهي تشبُّ الآن في جيل الخيانة.. والصهاينة يمرون من أمام الأزهر، فما هو شعور

"زينب" العربية، وهي ترى في الصور: ابن اليسار الصهيوني وهو يمرُّ من أمام مسجد السيدة زينب؟!

إننا مازلنا نتذكر أن الأسماء العربية جميلة وذات معان، وتربط إنسانها بأرضه وقيمه وتراثه، ولعلها تستنخيه، فتُذكِّره لأرضه المغتصبة!!

إن زينب.... هي زنوبيا ملكة تدمر، وبلقيس هي ملكة اليمن.. فكأنما أراد نزار يومها أن يكرم اليمن بالشام، فأين الشام من اليمن، والشام منشغلة بهمومها، وصراعاتها، واليمن تنشغل بجنوبها وتتطلع إلى شمالها؟!

وقد سمى العرب (سارة) وهو من السراوة بمعنى: أميرة، ومنها أيضاً: السراة، منها اسم النهر: (سرى)، وهو اسم عربي قديم استعمله العبرانيون،

وسمَّى العرب (آسيا)، وأول من استعمله هم الفينيقيون، ومعناه: الشرق، ولهذا سمِّيت القارة آسيا، وامرأة فرعون كان اسمها: آسيا!

وهكذا أراد "نزار": أن يؤكد التحامه بتاريخه العربي، ورفْضه الانسلاخ منه، أما ابنته الكبرى من زوجته الأولى، فاسمها (هدباء) وهو اسم يوافق شاعرية أسماء دواوينه القديمة مثل: سامبا، ورومبا، ولكن اسم زينب.. كان يمثل الأخذ الكامل للشاعر نزار قباني إلى وحدة الأرض العربية !

[ونعرف أن الشاعر لم يتزوج بعد ذلك بغير بلقيس، ولم ينجب غير زينب بمثل هذا الإرتباط الذي رمز إليه؟!

[ليتنا ـ إذن ـ لا نخرج من أحضان بلقيس، ولا نتجاوز جيل زينب... فقد تعبنا من الأسماء المستعارة!!

بلاد العُـرْب!؟

• «أحاول رسم بلاد
تسمى ـ مجازاً ـ بلاد العرب
سريري بها ثابت
ورأسي بها ثابت
لكي أعرف الفرق بين البلاد وبين السفن».

• قبل أن يفكر نزار قباني «ويبدع قصيدته» / الضجة: «متى يعلنون وفاة العرب» . . كان المفكر الذي اتهم بالإلحاد (عبد الله القصيمي) قد أعلن من خلال كتابه المشهور جداً: أن «العرب ظاهرة صوتية» وكتب يومها في مقدمة كتابه/ الضجة، أو الذي أحدث ضجة في عام صدوره ١٩٧٧م، فقال:

ـ «إن التفسير الدائم الشامل الصادق للإنسان العربي: أنه الكائن الذي لا توجد أي علاقة محاكمة، أو محاسبة، أو محاورة، أو مساءلة، أو غضب، أو رفض، أو احتجاج أو حتى عتاب بين لسانه وعينيه، أو تفكيره أو ضميره، أو إرادته أو قدراته، أو حقيقته، أو كينونيته، أو نيته أو أي

شيء من حياته أو مواجهاته» !!.

[● فما الذي قاله «نزار» أو وظفه في قصيدته، ليعتبره البعض: انتقاصاً من قومه العرب، ومن تاريخهم الحافل «بالأمجاد» ومن شيمهم وسجاياهم العظيمة؟!.

[كل عربي: لا بد أن يرفع رأسه اعتزازاً بقومه العرب، مهما حدث من انتكاسات، ومحن وإحن، وتحديات وهزائم . . . فهذه حقب من التاريخ عاصرتها شعوب كثيرة، وعالجتها، وخرجت منها أو أنهارت فيها.

[وفي زهوة «إعلام» الأستاذ الصحافي «محمد حسنين هيكل»، أطلق في مقالاته/ الضجة أيضاً: اصطلاحاً نقضياً للذات العربية، فقال: (النقض الذاتي)، وكان يعني لدى الأستاذ «هيكل»: التعريض ببعض الأنظمة العربية، وادّعاء كشف كواليس البعض الآخر، والإعلان عن: المبادىء القومية التي كان يرى الإعلام يومها: أنها ستحقق للعرب رفعة وتقدماً وانتصاراً (!!)

[لكن العرب أخذوا يتقهقرون إلى الخلف عاماً بعد عام، ونظاماً سياسياً بعد نظام . . وكانت الانقلابات العسكرية تسمى: ثورة، وكانت الشعارات تسمى: منهاجاً وأيديولوجية، وكانت الخلخلة الاقتصادية تسمى خطة تنموية اشتراكية، وبطيخية!!

[والمواهب العربية لا تعد ولا تحصى . . ولكن أخطر تلك المواهب: تلك التي قفزت إلى السلطة، وتحول رموزها إلى ما يشبه المصلحين بلا إصلاح بل تخريب، وإلى ما يشبه الزعماء بلا ركائز الزعامة إلا أن يكون التسلط: زعامة . . . وكان على جيل القيادات الذي خلف المنزرعون منذ الخمسينات: أن يوسع في حجم أفواه العرب لتتكلم وتصرخ . . لا لتأكل، وتشبع!.

[● قال «نزار» في هجائيته لقومه العرب .. وهو يعلم أنه سيصدر قرار «صفعه» حتى من زملائه المثقفين والمبدعين:

[ـ «أنا منذ خمسين عاماً.

[ـ أراقب حال العرب

[وهم يرعدون ولا يمطرون

[وهم يدخلون الحروب، ولا يخرجون

[وهم يعلكون جلود البلاغة علكاً

[ولا يهضمون» !!

[● وإذن .. فهل صدر «فرمان» جديد بحظر النقد الذاتي باعتباره من (ابتكارات) حقبة مضت وقضعت، ولم يبق منها إلا «هيكل»؟!!

وهل بلغت نسبة الحساسية لدى العرب إلى درجة: أن ينبري مثقف لشاعر ليدحض (خبره) أو يقزِّم إبداعه: أو يطلع بوجه مغاير لزحمة الوجوه العربية اليوم؟!

[في وصفه للعرب بأنهم «ظاهرة صوتية» .. تحدث عبد الله القصيمي عن «موهبة النقد»، وقال عنها:

[إنها قضية حضارية وإنسانية وأخلاقية، بل وطنية قومية...إنها حروف أولى من لغة يجب أن تتعلم العروبة: الجرأة على النطق بها، وعلى الاستماع المتوثب إليها بكل معاني الاستقبال المستجيب المتلهف المتوقِّد... إنها لغة إنسانية قد تخلَّفنا كثيراً عن بلوغ طورها)!!

[فهل العرب من ماضيهم حتى حاضرهم، هم: لا أكثر من ظاهرة صوتية؟!

[نختلف مع هذا الرأي.. لأن ماضي العرب «لم يكن مصاباً بأقصى حالات الخجل، والتواضع»... بل كان حافلاً بالفتوحات الإسلامية العظيمة، وبالعلوم المتطورة، وبالمزايا المبهر: دينياً، وأخلاقياً، وقومياً!

من هو... نزار؟!

[● «... وحجزتُ تذكرتي وودَّعْت السنابل، والجداول، والشجرْ

وأخذتُ إمضاء القمرْ

وأخذتُ وجه حبيبتي... وأخذتُ رائحة المطرْ

قلبي عليك وأنت يا صوتي... تنام على حجرْ»!!

[● نزار قباني: هو "الشاعر" الذي أتقن تعريف الشعر، وفسّره، وتداخل فيه ومعه، وحلم به وحوّله إلى طائر أسطوري.. طار على ظهره ومعه كل الكرة الأرضية.

[وهو "الشاعر" الجواهرجي.. الذي حوّل الكلمة إلى ألماس، وحبات من اللؤلؤ، وعقود من الأحجار الكريمة.. فتوجَّه القارىء العربي: سلطاناً على مملكة الشعر!

[● فمن هو "نزار قباني"؟!

[ـ أجاب هو بأسلوبه: "شاعر محكوم عليه غيابياً من كل المحاكم العربية بتهمة، إصدار ثلاثين كتاباً في الحب، اعتبرتها النيابة العام ضد الدولة، لأن الدول العربية تخاف أن يداهمها الحب..."!!

[فهل هو أصدق الشعراء الرومانسيين؟!

[أم هو شاعر "تشكيلي" يبدع القصيدة بخطوط السير الزمني حيناً، وبالتكعيبية حيناً آخر، وبتكامل الرفض في العلاقة الشاسعة بين الإنسان وواقعه؟!

[أم هو شاعر من ذلك الجيل الذي وصفه الناقد القديم "محيي الدين إسماعيل" فقال عنه:

[ـ إنه جيل ثار على الوتيرة الزمنية الموروثة، وصفَّى جميع الإضافات الخارجية، وخلق في القصيدة العربية الحديثة: حركة داخلية لم يكن يعرفها الشعر من قبل"، مثل: السياب، ونازك الملائكة، وعبد الصبور، وخليل حاوي؟!

[● نزار قباني: بذرة ميلاد شعر يحمل توقيعه الخاص به.. له لغته، ومفرداته، وقماشته.

[إنه شاهد عصر مزدحم بشعراء: (تصادميين، وهستيريين، واقتحاميين.. يتجاوزون إشارات المرور الحمراء)... وقد انطلق "نزار قباني" منذ اقتحامه لمملكة الشعر، وتتويجه سلطاناً، يفتش ـ كما قال ـ عن الحرف التاسع والعشرين في الأبجدية العربية بكل ما فيه من روح تصادمية وثورية وقومية، حيث تعلو الرومانسية وتفيض على حفافي قصائده/ نفسيته، ثم تغيب لتظهر: قضيته، ورؤيته، وتصوير أوجاع أمته.. مثل "بابلو نيرودا" الذي كان يستمد إلهامه فوق قمم البراكين!

[ويصعب على القارىء الغربي لشعر نزار حتى العشق: أن يؤطره أو يحبسه في إطار محدد في كل دواوينه... ذلك لأن "نزار": يبني قصيدته من (مونة) عصر تدافعت عليه المتناقضات، والمثلات، والبشاعة والجمال،

والهزيمة والنضال، وسواد الليل وبياض النهار!

[● وفي تأملنا لتنويعات نزار على مقام العشق ـ أي لمجوهراته ـ نجده هو نفسه ذلك الشاعر الذي: "لا يجلس بانتظار أحد .. ومازال يكتب الشعر لأنه لم يجد طريقة أفضل للإنتحار.. ويكتب بالحتمية ذاتها التي ترتفع فيها السنبلة، ويفيض البحر، ويكتظ الثدي بالحليب"!

[ويبقى الحب ـ عند نزار ـ معادلاً للغيبوبة القومية، في صخب "قرقعة الطبل في أخبار عاد وثمود"!

[● هذه ـ إذن ـ هي إيقاعات الحزن التي كانت حداء الشاعر منذ عام ١٩٤٤، حين "فتح الدنيا بقاموس لم يتجاوز الألف كلمة، ليبدع بالشعر لغة الديمقراطية".. ولم تفارقه هذه الإيقاعات حتى غناها بمقام العشق.. مزج فيها معاناة الشاعر في الحياة، وأحلام الإنسان عبر تجارب ذات أبعاد فجرت في ذاته الحقائق، وسكبت هتون الشعر من بين جوانحه.

إن "التحوُّل" في مشوار الشاعر "نزار قباني": ليس معادلة ولا معادلاً لشيء، بل هو التشكيل في رؤى ورؤية الشاعر الذي يرسم من خلاله: أبعاد العشق والحرية معاً.. ليُعبِّر ببنية القصيدة عن عالم: "يحترف التزوير، والتبخير، والتمجيد"، وهو في نفس الوقت كان يشرنق برؤاه: عالماً لا يحاكم العصافير، ولا يتجسس على الياسمين، ولا يضطره لشرح قصائده حتى لا تفسَّر بهوى الحاقدين!!

● ● ●

[● شعره: دهشة.. وتقاسيمه على مقام العشق/ صور شعرية: دهشة!

[حتى مرضه.. كان: دهشة محزنة جداً لقلوبنا التي فكَّت حرف

الحب في "كتَّاب" شعره، وتثقفت خفقاتها في أكاديمية شعره.. وغنَّت البوح بتنويعات قصائده.

[هذا هو "نزار قباني" الذي ولد في حضن ياسمينة دمشقية، وشاهد القمر العربي من خصاص نوافذ التاريخ العربي المزدحم بحكايات النضال ضد الاستعمار والظلم حتى النضال ضد الفرقة والشتات للتضامن العربي... فكان لابد لكل قارىء عربي أن يقرأ شعر "نزار قباني"، وأن ينصب خيمة عشق في كل مساحات الخفق العربي!

[فماذا يكفي تاريخ "نزار" وإبداعاته وتميُّزه من كلمات تنصفه وتموسقه: سيمفونية عشق، وتطلقه شاهد انتماء عربي وياسمين غزل؟!

[وربما كان نزار قباني شديد المبالغة في نقده الذاتي لأمته العربية إلى درجة التقريع.. بل ـ كما قال لي مثقف عربي ـ إلى درجة: الركل، والرفس، و... (الرُّكب في البطن)!!

ولكن... لم يكن لدى نزار تلك الرؤية الوسط .. فهو قد وقف في أقصى نهاية خط اللغة التي لاتتفاهم ولكنها تصرخ، ولا تحاور ولكنها تتسلط كبعض الأنظمة العربية (!!) ولا تتحدث ولكنها تفرض صورة، أو حكماً اتخذه "مواطن" عربي، رأى في نفسه قدرته الخطيرة على توجيه سؤال نازف مجروح: "متى يعلنون وفاة العرب"؟!

لن يعلن أحد عن وفاة العرب، ولا حتى أعداء العرب... فالإعلان: اعتراف.. والإعتراف مرفوض... والرفض: من منهجية الأيديولوجيين والثوريين العرب.. وهي المنهجية التي أدخلت العرب غرفة العناية المركزة، في غيبوبة طويلة!!

[ـ ونطرح إثر ذلك هذا السؤال: هل نعتبر نزار قباني محشوراً في زمرة الشعراء الثوريين؟!

ولكن... مَن هم الشعراء الثوريون أولاً؟!

ـ إنهم أولئك الذين غرَّبتهم أنظمة حكمهم عن أوطانهم.

ـ إنهم أولئك الذين تحدثوا عن أمجاد قومهم في مرحلة انكسارات قومهم.

ـ إنهم أولئك الذين أرادوا ـ بالقصيدة ـ تطوير التاريخ من: مجرد ذكريات وأصداء غابرة.. إلى: بلاغة لغوية، وانبهار بالصور الشعرية.

[أولئك الذين وثقوا في قدوم الحرية الشاملة.. فسجنهم الظلم في الغربة، والتشرد عن الوطن إلى درجة التشرذم... حتى تحوّلوا إلى "ظاهرة صوتية"، وكان أول من أعلن عن "وفاة الوطن" هم هؤلاء الشعراء، وهؤلاء المثقفون الذين تكلَّسوا في (الطفولات الذاتية) التي صارت في عداد المعوقين.. مثل كثير من أطفال العرب!!

أول التعارف.. فاكس!؟

[● يارَبِّ..إن لكل جرح ساحلاً.

[وأنا جراحاتي بغير سواحل.

[كل المنافي لا تُبدِّد وحشتي.

[مادام منفاي الكبير: بداخلي!!

[● عندما كان الشاعر الكبير يسترخي أمام النهر في لندن، يتابع قطرات غير متلاحقة من المطر الذي ينقر زجاج نافذته... كتب إليّ أول رسالة أودعها "الفاكس"، بعد أن فرغ من قراءة مقالي عن تاريخه الشعري في عمودي اليومي بصحيفة "الحياة"!!

[ذلك اليوم.. كتب إلّي الدمشقي الذي احترف الهوى حتى فجّره الحزن، فاخضوضرت لغنائه الأعشاب.. أمير اللون المطلق الذي يختزن في داخله حباً كبيراً.

[هذا الصباح ٦/٥: فتح عليّ "نـزار" شبابيك التأمل، حين فاجأني بـ "فاكسه" الحب... فما أحلى "فاكسات" الحب، لتواجه تدفق "فاكسات البزنس"، وشتائم الضعفاء فكرياً وعاطفياً!

[رسالة "نزار" إليَّ ذاك الصباح: مجنونة بالحب.. مجنونة بروعة التجارب مع الهمسة، والقبلة، والخفقة... فإذا رسالته خفقة لتهوية القلب، حسبتها هذا الطائر الغريب الذي يحمل في شكله كل سمات الطيور: الوديعة، والصاخبة، والناعمة، والشرسة، والحالمة!

[جاءت إليّ الرسالة النزارية ـ من لندن إلى جدة ـ طائر فكر جريح في اللوحة،وهو ينظر إلى طائر حب حزين.. وكنت أعتقد أن مسابقات العشق قد انتهت عند حدود عرض التلفاز الفرنسي لوقائع مسابقة أطول قبلة في العالم، إلى أن قرر: "نزار" / الذي يشكو بالنثر، ويبكي بالشعر.. أن يسكب في قلبي حليب النهار في أقصر رسالة حب.

[لكن الرقيق "نزار": غسل يده مني حين طلبني أن أبدأ في سداد فاتورة الزمان.. وكأنني زهرة قُطفت ووضعت على قبر قصة عشق احتضرت... ووجه لي هذه التهمة الجميلة:

(الجنون) الذي استنشقنا فيروسه معاً، وأعلن قلة حيلته تجاه نوبات صبابتي، وصرعي، ونوبات الكتابة عندي... وهو يعلم أننا ـ هو وأنا ومن يشبهنا ـ لابد أن نظل في كامل اتزاننا أمام القبيلة، ونكتم العواطف والأحزان.. وننبجس من الداخل!

[كأنّ العزيز "نزار" يطلب مني التقاعد مع الورق، ويلومني: كيف أرفض الحبوب المهدئة، ولا أسمع كلام الأطباء... وكأنه لا يعلم أن تلك الحبوب لم تُقدم لي ملفوفة بالإبتسامة والمناديل الناعمة، وأن دائي لايملك علاجه طبيب... فمن يعرف حدود عينيه، لا يعرف حدود أحزانه!

[وهذه رسالة العزيز "نزار" / خفقاته التي امتزجت بكلماتي / خفقاتي... يحدثني عن حلم الانسان العربي المجروح بالشوك وبالأحزان،

ويُطلع من كلماته "صبار" الحب، فقال:

[● (رسالة من نزار قباني الى عبد الله الجفري ـ جدة / لندن ٢٤ ديسمبر ١٩٩٤:

[ـ أخي عبد الله/ ما أجملك حين تكتب عن التاريخ .. تاريخي.

[وما أقوى ذاكرتك حين تستحضر تفاصيل رحلة "الهولندي الطائر" بحراً بحراً..مرفأً مرفأً.. عاصفة عاصفة.. امرأة امرأة!!

[ثم ما أصدقك حين تقول: إنني أدخلُ الأشياء ولا أخرجُ منها أبداً!!

[لماذا أخرج؟؟

[إن أهم القصائد هي تلك التي لا تحمل تأشيرة للعودة.. فأنا لا أؤمن بكاتبٍ يطالب ببوليصة تأمين على أصابعه قبل أن يكتب، ولا بقصيدة تلبس قميصاً واقياً من الرصاص، ولا بعاشقٍ يدخل بحرَ العشق، ومعه طوق نجاة.

[أما قبيلتي فلا أزال أحبّها، وأحنُّ إلى عُيُون عفراء وكُحْلٍ عفراء.. وخلاخيل الفضة في قدمَيْها... ولكنْ ماذا أفعل، إذا كان أبو عفراء لا يُحبني، ولا يحبّ شعري، ولا يريدني صهراً له؟؟

[ماذا أفعل، إذا كان أعمامي وأخوالي: طردوني من خيامهم.. حتى اضطررت إلى نصب خيمتي في حديقة (هايد بارك) في لندن؟!

[ماذا أفعل إذا كان عمي (أبو عفراء) يرفضُ تغزّلي بابنته.. ويحرّضُ كلاب الحيّ على عضّي.. ويصرخُ بي كلما اقتربتُ من باب خيمته:

[" إمْضِ قيس.. إمضِ

[هل ترى جئت تطلب ناراً ..

[أم تُرى جئت تُشْعِلُ البيت ناراً؟؟. . ")

• • •

أول لقاء. . في المستشفى:

[● وتواصلنا بواسطة "الفاكس"، والهاتف، وكان اللقاء بيننا صعباً بسبب قلة زياراتي لعاصمة الضباب/ لندن. . . غير أن الظروف لم تحسن توقيت اللقاء بيننا، وإذا كانت هناك (حسنة) فهي "رؤيتي" لهذا الشاعر المميز الذي أطلقت عليه صفة: (الشاعر/ العصر) . . . فهو عصر كامل بدأ بظهور شعره، وانتهى بأفول شخصه.

[وفي مستشفى "سان توماس" بلندن، دخلت عليه، وكان مسترخياً في كرسي بقرب النافذة الزجاجية بعرض الحائط المطلة على النهر، أراه لأول مرة، ويفاجأ "بشكلي" لأول مرة وهو يقول لي ضاحكاً:

[● تخيَّلتك "ختياراً" يا عبد الله!!

[ـ أجبته ضاحكاً: وأنت يا شاعرنا مازلت فارس القبيلة وشاعرها. . يضحك الشباب بضحكتك، وتتجمل الحياة ببياض شَعرك وقلبك!

[● قال: مائتا مليون عربي ـ ياعبد الله ـ جاؤوا إليَّ هنا، وجلسوا على حافة سريري، وذلك من خلال هواتفهم وفاكساتهم وزياراتهم الشخصية للإطمئنان على صحتي. . . فماذا أعطيهم؟!

[الآن. . . أنا أبحث عن ماهو أجمل من الكلام، فالحب الأخير يعطي حباً أكبر بعشرات المرات، وبحجم كل الدنيا. . . وما سأكتبه الآن هو حبي الأخير!

[وتابعت اتصالي به.. حتى قيَّض الله له مفارقة سرير المرض، وعاد إلى بيته.

[طفرت دمعة من عينيَّ حين شاهدته وسط زهرتيه: هدباء، وزينب.. وفي هذه الخميلة الدمشقية بعبق الياسمين، كان فرحاً بتعبيري له عن مشاعر قرائه وقارئاته في وطني/ المملكة العربية السعودية.. وأطلق على محبي شعره: مطر العافية الذي غمره بالحب.

•••

مطره.. يهطل وطناً:

[• ولقد جلست على طرف الليل أتصفح مفكرتي الصغيرة التي اعتدت أن أدون فيها كل شيء.. تنبهت على صوت ديك يؤذن، فأدركت أن الوقت فجر.. لحظتها: حط على كتفي اسم نزار قباني وأمامه يوم ميلاده، قلت في نفسي: منذ متى أحلام الفجر تصدق معي؟!..

لكم اشتقت لك ـ يا نزار كمطر جائع للشجر في زمن الطحالب التي ترمي ظلالها الطوال على الحدود.

[كان الاسم معجونا كالعادة بالندى والشوق والعشق والعسل والرقص فوق هاويتين.

[آخر تحية بيننا كان لها زمن، ووقعت كزر ثوب فوق الرمال، وكقبلة فوق الجبين المهاجر، وختم على الريح.. تذكرت أن الوقت مناسب لأن يركض الزمان القديم إليه، وكانت ـ حينئذٍ ـ تنقصني امرأة جميلة لإثارة الدمشقي الذي اخضوضرت في عينيه الأعشاب، فتناولت قلمي وكتبت له أقول:

(الحبيب الشاعر نزار قبّاني ـ موسيقار تنويعات الكلمة على مقام العشق:

[منذ الـ (٢١) مارس، وأنا أحاول الكتابة إليك بلغة تخص (مقاماتك) ومقامك في نفوسنا، وتطلع سنبلة أمنياتنا لك بمزيد من غرسات العشق في عمرك المديد، وتغرد طيور رباب!

[وشَت بعيد ميلادك عندي: حسناء لا شبيه "لوشْيِها"، ولا أظن "لوشْمها"، فزادتني إمتاعاً بمقاماتك.

[كل عام وأنت "موَّالنا" وبحور شعرنا، وموسيقى شجونا.

[في عيد ميلادك الناي... أليعزف أبحدية حبنا وشجننا.. كلماتنا: قبلات تهنئة لك أيها الشاعر/ التاريخ/ النشيد الوجداني لخفقنا.

إسلم لبوحنا، ودُم مواسم ياسمين لنا)!!

●●●

[● وجاءني رده كالسنابل البرتقالية... يكفي مرور نزار بألفاظه وصولجانه اللازوردي على الورق كي تلد الروح ألف طفل من العشق، ويسيل الحليب على السجاد والعشب والروح

وينتشر ضوؤه حولي كالفجر... رد نزار يقول:

[ـ (يا عبد الله، أيها الأكثر من رائع:

[كنت أظن قبل ـ فاكسك/ القصيدة ـ أنني وُلدت في ٢١ آذار فقصُّوا حبل مشيمتي، ولفلفوني بالقماطات البيضاء.. ووضعوا في رقبتي خرزة زرقاء، وآية ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وانتهى الأمر !!

[ولكن. . اكتشفت بعد كلماتك المسكونة بالعسل والعشق، أنك دخلت بملابس الأطباء إلى غرفة الولادة،/ لتخرجني مرة أخرى من بطن أمي، وتدهن جسدي بالمسك والكافور، وترشّني بماء الشعر.

[فيا عبد الله، كيف تحولت من كاتب جميل إلى (قابلة قانونية) تتولى إخراج الشعراء من بطون أمهاتهم إلى فضاء الحرية؟!

[كم أنا سعيد بولادتي الثانية على يديك.

[وكم أنا سعيد أن تكون طبيبي، وشاهدي، وعرابي.

[وكم أنا سعيد أن أترعرع على حليب حنانك (الكامل الدسم).

[أما السيدة التي وشت بعيد ميلادي لديك، فيجوز أن تكون أمي، أو أختي، أو حبيبتي. . لأن أي أنثى على ظهر هذا الكوكب العربي لا بدّ أن تتذكر ماذا فعل نزار قباني من أجل أنوثتها، ومن أجل حريتها وعنفوانها.

[يا عبدالله . . . الذي تحدّرتُ من ينابيع عشقه، وسلالات كلماته، ونمنمات حضارته:

[سلام عليك يا أبي

[سلام عليك يا أبي

[سلام عليك يا أبي)!!

● ● ●

[● وبعد . . . لا شيء عندي ـ يا نزار الجميل ـ أقدمه لك في عيد ميلادك، غير تعري شجاعة قلب يحبك . . . ليتك أي هوى أهواك!!.

الحبيبة . . وشعر نزار !

- ـ علمتني لندن . . . أن أرى حريتي دون حدود
- ونصوص الشعر من غير حدود
- وطقوس الحب من غير حدود
- علمتني: كيف أن امرأة أعشقها
- ممكن أن تجعل العالم من غير حدود !!

● منذ تربع الشاعر «نزار قباني»: موسيقاراً يتقدم تخت الطرب العربي، و «مايسترو»

أضخم أوركسترا لشعر الحب في عصرنا الحديث . . . وقصائده: تُغَنّى على مقام العشق، وشعره: تحول إلى ذاكرة للعاطفة العربية . . وكل العشاق العرب: صاروا «يتمرّنون» على ألوان بوحه، وصوره، وغزله . . ويحلمون بوجوه النساء اللواتي شكّل منهن: تنويعاته على مقام العشق!

غنَّت له «نجاة الصغيرة» بصوتها الحييِّ الخافت الفيّاض بشجون الوجد . . فكان صوتها وهو يردد شعر نزار: خطاباً غرامياً، وإحساساً بكراً يختلط بافتتاح الصباح.

وغنَّت له «فايزة أحمد» بصوتها القوي الذي كسره حزن الهوى

المبعثر على خارطة الحب.

[وغنَّت له كوكب الشرق / أم كلثوم شعراً وطنياً .. مؤكداً مقولته: (الشاعر في بلادنا هو صفارة إنذار تنطلق في ساعات الخطر)!

[حتى جاءت «ماجدة الرومي» .. لتعيد الاحتفالات الجميلة بعيد الحب، وهي تغني من شعر نزار باختياراتها الأنيقة، بمخزون وجدانها من التنويعات النزارية، فكان غناؤها: من الوريد إلى الوريد.

● ● ●

[● وفي صخب وصراخ وتدافع ما سُمِّيت بـ «الأغنية الشبابية» ... فجأة: احتل المسرح شعر نزار قباني في أغنية جذب بها ملحنها ومؤديها «كاظم الساهر»: انتباه الشباب .. فقدم لهم الأغنية التي حركت أشجان وسيقان وأكف وأكتاف وأخصار الشباب، مع انجذاب (المخضرمين) أمثالنا.. فكانت وما زالت باقية: هذه القصيدة التي أحسن بها المطرب العراقي (الانتقاء)، فغنى:

[ـ «زيديني عشقاً .. زيديني

[يا أحلى امرأة بين نساء الكون .. أحبّيني»!

[و ... من ذلك اليوم، وهذا المطرب الموجوع الحزين: يبزغ أكثر، وينتشر فوق وجنات النساء اللواتي يبكين ويتأوهن، ويغمزن ويثرثر جمالهن، ويتماوجن كالحرير!

[ومن ذلك اليوم .. وكاظم الساهر: سمَّى نفسه مطرب قصائد نزار قباني، لكنه ما زال هذا (الصوت) الحائر ما بين أنوثة الكلمات، وأنوثة الحبيبة، وأنوثة اللحن ... فكأنه لا يغني إلا للمرأة، مثلما قيل عن نزار:

أنه لم يكتب الشعر إلا للمرأة... بينما كتب نزار للقبيلة وعنها، وللوطن والجرح، وللقومية و ... فتوحاتها «البريدية»!

● ● ●

[● ولم نسأل الشاعر الكبير ـ يومها ـ عن رأيه في غناء الساهر، لكنه تحدث عن غناء ماجدة الرومي كالقصيدة، ووصف الصوت الأنثوي هذا بأنه: إحساس راقِ.

[وفي كل مرة ـ من جنون القلب ـ نهرع إلى شعر نزار، ونتدفأ ببوحه، ونمتزج بصوره، ونتزمَّل بمعانيه.. فهو يعبّر عن لغة وجداننا، وشعره: مواويلنا وعطر إحساسنا.

[....«فما أجمل المنفى إذا كنا معاً»: الحبيبة وأنا، وشعر نزار!!

عندما كتب " خبراً " !؟

[● " نار الكتابة أحرقَتْ أعمارنا

[فحياتنُـا الكبريتُ والأحطابُ

[ما الشعر. .ما وجع الكتابة. . ما الرؤى؟

[أولى ضحايانا. . . هم: الكُتَّاب "!!

● كطفل جميل "يتشيطن" ما بين مسافات البحر والثبج، عازف مقامات العشق، مختصر العصور من بعد امرؤ القيس، وعصر عمر بن أبي ربيعة. . راكضاً بعصره النزاري إلى الدنيا مقتحماً هذا العصر العشرين بتنويعاته الأجمل على مقام العشق، بأشعاره الخارجة على القانون. . . طاوياً خمسين عاماً (وزيادة) في مديح النساء، يشهد أن لا امرأة الاّ مَنْ أحبها، يكتب تاريخ النساء. . حتى يرتطم في (المهرولين) تدمع عيناه منذ صرخته القديمة في تونس:

- أنا يـا صديقة متعـب بعروبـتي

فهل العروبـة: لعنة وعقـاب؟!

أمشي على ورق الخريطة: خائفاً

فعلى الخريطة... كلنا: أغراب!

● ومتى فرح هذا الشاعر، وكيف، ولماذا؟!

نحسب أن هذا «الشاعر/ العصر» لأول مرة في حياته (خبراً)، لذلك جاءت صياغته بروح الشعر والشاعر.. حين أعلن عبر صحيفة «الحياة» يوم الجمعة ٣/٢٧: دمشق.. تهديني شارعاً، فكتب: (ويشاء الرئيس حافظ الأسد أن يكون أول رئيس للشعر يحتضن هذا الفن الجميل، فيتبنى اقتراحاً نيابياً لتسمية أحد شوارع دمشق باسم نزار قباني)!!

وحق لنزار أن يفرح.. فما أجمل أن يُكرِّم (الوطن) أبناءه، حتى لو كان اسم نزار يحتل عشرات الشوارع في المدن العربية، وقد احتل قلوب الآلاف من عشاق شعره على امتداد الوطن العربي الكبير... لكنَّ (الوطن): يبقى تقديره في نفس مواطنه هو: الأكبر، والجائزة، والتخليد تاريخياً، وصك الاعتراف بدوره وإبداعه!

● وقبل (٢٧) عاماً. نادى «نزار قباني» على الشام من غربته، فدوَّى رنين صوته في مهرجان الشعر بدمشق يومها منشداً:

- يا شام.. إن جراحي لا ضفاف لها

فمسّحي عن جبيني الحزن والتعبا

وأرجعيني إلى أسوار مدرستي

وأرجعي الحبر والطبشور، والكتبا!

ولم تكن تلك «كلماته»، بل هي دموعه التي انسابت حنيناً وأشواقاً وانجذاباً إلى عمق الغرسة!

وأحياناً. تُختصر دمشق في وجدان الشاعر داخل حي واحد معروف

هناك، اسمه: (أبو رمانة)، لعب فوق حجارته، وقطف من أشجاره، وبلل أصابعه بماء نوافيره.. ويعجز أي رسام مبدع أن يعطي أبعاد الصورة بمثل ما رسمها «نزار» بكلماته الفياضة بالشجون وبالحنين...هو الذي حرمه التغريب من دفء الوطن والعائلة، فلما وضعوا اسمه على شارع في مسقط رأسه: طار فرحاً، وغرَّد شجناً! وفي زيارتي له بمنزله بصحبة صديقي عرفان نظام الذين: اطلعتنا ابنتاه هدباء وزينب على ما نسميها (مطبقية) كانت والدة نزار تضع له فيها شيئاً من الأكل وهو ذاهب في الصباح إلى المدرسة، فاحتفظ نزار بهذا العبق من طفولته وبهذا الشاهد التاريخي الجميل على رحمة الأمومة... فكأن هذه (المطبقية) صفصافة لها جذور غائرة في نفسه.. ونزار نفسه يتشكل جذوراً لتاريخ الشعر الحديث في الوطن العربي، ويبقى شيخاً لقبيلة العشق العربي.. لم يفرط في حلم عربي واحد حتى في أقسى محن الوطن، وحتى في قسوة أبناء الوطن على الحب و...عليه!!

٢٠٠ مليون عربي على سريره!؟

● لم أزل من ألف عامْ

لم أزل أكتب للناس دساتيرَ الغرامْ

وأُغنِّي للجميلات على ألف مَقام ومقامْ

أنا من أسَّس جمهورية للحُبِّ

لايسكنها. . . . إلا الحمام!!

● صدحت موسيقى الوطن في هتاف الحرف داخل وجدانه وعقله.. وقبل أن يبرح سرير المرض، كان «الوطن العربي» كله: يُزمِّله، يضمه، يدفئه في صقيع لندن ومن برودة المرض بصوت (٢٠٠) مليون عربي.. وكان سريره: يمثله وسْع قلوب هؤلاء الناس.

فكيف لا يشفى إذاً؟!

وكيف لا يتمرد على سرير المرض، ويمشي، ويتحدث، ويغني، ويتجورح.. حتى يقول لكل هذا الشعب الناطق بلغته الشاعرة:

- "ها أنذا بعد خمسين عاماً أعلن من لندن: انتصار جمهوريتي التي تمتد من العين إلى العين، ومن القلب على القلب"؟!

● ● ●

● ومَنْ غيره: نزار قباني.. هذا الشاعر/ العصر.. اختاره الوطن ـ دون غيره ـ من الشعراء... لأن مرضه كان ـ كما قال ـ استفتاءً جماهيرياً وجدانياً لمحبة الناس له، فتساقط أصحاب الغيرة، والحسد، وانكمش الأقزام... وكان هدير الـ (٢٠٠) مليون عربي بسؤال واحد متَّحد عن صحته، هو نتيجة الإستفتاء والإنتخاب الديمقراطي.. فما نسوا أن «نزاراً» قد انتخب محبتهم من قبل، وجعلهم هم كل الصدق في كلماته، وهم كل الوجد في قصائده، وهم كل العشق في تنويعاته!!

[● سأل «نزار» قرَّاءه في مقاله/ العودة: «هل يكفي أن أكون واحداً من الشعراء العرب حتى يأتي الوطن كله بأرضه وسمائه وأشجاره وأنهاره وبحاره ورجاله ونسائه وأطفاله.. ليدافع عن حياتي، ويمسح العرق عن جبيني، ويؤدي صلاة جماعية من أجل نجاتي»؟!

[ـ نعم أيها الشاعر/ الحياة.. يجيبك الوطن كله: لا... لم تكن (واحداً) من الشعراء العرب، بل أنت كل الشعراء العرب في واحد.. قلنا عنك: إنك الشاعر/ العصر الذي ابتدأ بشعره عصراً لا ينتهي إلا بتعبه!

● ● ●

[● ومن طقس «جدة» الربيعي إلى طقس «لندن» الشتائي الثلجي.. حمل الهاتف صوتي إلى سمع الشاعر الكبير/ نزار قباني.. مبادراً بتهنئته، بل وتهنئتنا ـ نحن الـ ٢٠٠ مليون عربي ـ بعودته إلى الكتابة، والبوح، ومطر إبداعاته في ثوب عافيته!

[ـ قال لي: كنت أسأل نفسي يا عبد الله.. هل أستطيع ـ على مستوى نفسي ـ أن أنقل إلى سمع الشاعر الكبير / نزار قباني.. مبادراً

بتهنئته، بل وتهنئتنا ـ نحن الـ ٢٠٠ مليون أكتب؟!

[كبر السؤال يا عبد الله.. فقلت: هل أستطيع أن أكون على مستواهم: إنسانية، وعطاء، وحباً؟!

[أردت في مقالي: «الوطن حول سريري» أن أقول لكل الناس: «شكراً» بصيغة تعبر عن شاعر يحرص أن يردَّ فضل الناس عليه واحداً واحداً.

[فماذا أعطي (٢٠٠) مليون عربي جاؤوا وجلسوا على سريري؟!

[أنا أبحث عن ما هو أجمل من الكلام حتى أعطيه لكل هؤلاء الناس من قارئاتي.

[● قلت له: أنت أعطيت لهم غرستك الإنسانية شعراً ونثراً على امتداد العمر.

[ـ قال: اسمع يا أحلى عبد الله... الحب الأخير يعطي حباً أكبر بعشرات المرات، بحجم كل الدنيا.. وما أكتبه الآن ـ بعد شفائي من الذبحة ـ هو: حبي الأخير!

● ● ●

[● أقرأ دعوة العزيز "نزار" لي وأتعجب، "وأقرأ أبياته أتبسَّم"...

[لقد حولتني رسالته من ضوء مسموع إلى كائن تراب، وجعلتني أردد: يا مَن سترت لا تفضح!!

[● وهذه هي رسالة العزيز "نزار" ... خفقاته التي امتزجت بكلماتي/ خفقاتي:

[● (الحبيب عبد الله:

[هذا الصباح اكتشفت مجنوناً آخر يشبهني:

[بنوبات (الصرع).

[ونوبات الصبابة.

[ونوبات الكتابة.

[فماذا أفعل لك، إذا كنت لا تسمع كلام الأطباء... وترفض الحبوب المهدئة... وتعضُّ على أيدي الممرضات.؟!

[بعد اليوم... لن أكون مسؤولاً عنك، إذا حبسك أعداء الحب في غرفة انفرادية... ومنعوا عنك الطعام، والسجائر، والفاكسات، ورسائل الحب!

[سلام عليك أيها الرجل الذي لا يتوب:

[ـ (ما تُبت عن عشقي، ولا استغفرته

[.................................)!!

● ● ●

[● هكذا تشرنقت كلمات نزار بنثرها الشعري، فامتزجت بنقطة حواري!!

[جاءني صوت نزار يحدثني عن حلم الإنسان العرب المجروح بالشوك وبالأحزان، ويرفض القبيلة لأنفسهم.. يطلع من كلماته: «صبّار» الحب المتموه في الأضلاع.

سلام عليك.. يا حبيبي!

● من دموع الشاعرة النزارية الجميلة الوفية/ سعاد الصباح:

ـ لقد أصبحتَ ضرورة قومية.

أيها الرمح المزروع في لحم الأبجدية.

أنت الذي جعلت حياتنا أكثر اخضراراً.

وأحاسيسنا أكثر شفافية

وحضارتنا أكثر حضارة!!.

● أنا متعب يا عبد الله.. لكنَّ تعبي الأكثر ألماً وقسوة في اشتياقي لكتابة قصيدة جديدة... وحشتني قصائدي وأشعاري!

هكذا بادأني بالحوار عبر الهاتف ـ قبل أكثر من شهر على خروجه من المستشفى/ فلم أسمع كلمات يخرج بها صوته المتعب، بل رأيت بأذني: من دموع هذا الشاعر الكبير التي حشد في أصدائها: شجون العمر، وعجز المرض، وشعوره بالحبس في زنزانة الصمت بعيداً عن عشقه الكبير: القصيدة.

وكان لابد أن تحلق بي أصداء حبيبة من صوته الدافىء يوم قلت له:

إنك تدخل الأشياء ولا تخرج منها أبداً. . . . فنصب ظهره، وبرقت عيناه وقال لي:

[ـ (ولماذا أخرج؟!

[إن أهم القصائد. . . هي التي لا تحمل تأشيرةً للعودة، فأنا لا أؤمن بكاتبٍ يطالب ببوليصة تأمين على أصابعه قبل أن يكتب، ولا بقصيدة تلبس قميصاً واقياً من الرصاص، ولا بعاشق يدخل العشق ومعه طوق نجاة)!

• • •

[● نعم. . . حاول أن ينسج قصيدة جديدة بعد خروجه من المستشفى ومن أزمته الصحية الخطيرة التي كاد الموت يخطفه بسببها. . فقد شعر بنشوة متدفقة من الحياة ألى شرايينه ونفسيته. . . وهو ـ في أعماقه ـ طفل شفاف: تنعشه الكلمة الجميلة المنصفة لتاريخ إبداعه الشعري والنثري الطويل، وتمدُّ في عمره: لغة الوفاء لأجمل قصور العشق التي شيَّدها في قلوب الناس وفرشها بالحرير والدِّمسق، وزرع حدائقها وشذَّبها. . وكان شاعراً منتمياً إلى قومه وقوميته، أو إلى قبيلته.

• • •

[● هكذا تبلور إحساسه في غربته، فهرعت إلى الهاتف ـ فزعاً ـ أقول له: من يجرؤ على طردك ياحبيبي من خيام القبيلة وأنت فارسها، وشاعرها، وعنترها، وعازف أشجانها وعشقها؟!

[ـ فأجابني: إحتفظ بما كتبته لك في هذه الرسالة بخطي، وأعد كتابته حين تكتب رثائي!

[● حاولت أن أضحكه وأنا أوصل إليه صوتي قائلاً: هل تريد أن تبكيني الآن؟!

[ـ قال: أنت حبيبي... فسلام عليك وعلى أصابعك التي تمطر علينا ورداً وحناناً كل صباح!

[سلام عليك ـ ياحبيبي نزار ـ وعلى روحك التي روت قلوبنا من خصب الحب!

● ● ●

[● يا سيد الورق الأبيض، وفارس الحزن المتبتِّل،

[هكذا يبدو كل واحد في قبيلتنا العربية: خُرافيا بين هذا المدّ والجَزْر، وأحلامنا تخرمها حروبنا.. حتى إشعار آخر!!

[ولا أحسب ـ ياسيدي ـ أن أعمامك وأخوالك يقصدون طردك من خيامهم، ولا التنكُّر لوشائجك معهم، ولكن..... ليست المشكلة في (عفراء) ـ كما يلوح لي ـ بل كل المشكلة تكمن في هؤلاء الطامعين في عفراء، وفي مهرك لابنة عمك!!

موظف في مصلحة بريده!؟

● إنني أحمل أوراقي، وأقلامي

وأحزاني... على ظهري

فإذا ما صادوا شمس بلادي

فبشِعْري سوف أبني وطناً!!

● أعرف يا... بعض السادة حين انشغلت سيداتكم بالتأمل بعيداً عنكم: أن فيكم من ضاق بما أُطلق عليه: (كثرة كلامي أو كتابتي) عن الشاعر/ العصر: نزار قباني، وذلك من خلال كل ما كتبته من رأي وحوار، وحتى (تصوير) عن الشاعر الكبير.... والرفيق المجامل فيكم هو الذي قال لي، أو "فكَّس" قائلاً: "لقد زودتها يا شيخ"!!

ـ والخبيث هو الذي قال لي مباشرة: ما الذي تريد أن تربحه من هذه العدسة الزوم على علاقتك الشخصية بالشاعر الكبير/ نزار قباني... وهناك المئات يعرفونه عن قرب، وفيهم من التصق به، ومن عاشره، ومن كتب عنه أجمل مما كتبت؟!

[● وهناك من أرسل إليَّ كلمات/ قذائف مباشرة، مثل: "فلقتنا بالكلام عن نزار ومعه"!!

● ● ●

[● جمعت تحت أعينكم:كل هذه الأسئلة، والإحباطات، والغيرة، والاحتجاجات/ ونسيان أن نُكرم المبدعين الكبار في حياتهم ليقرؤوا تقييم وتقدير القراء لهم على امتداد مشوار العمر، وتشييد مجد الكلمة... فنحن لا نعيش بصدور مالحة، ولا بقلوب ضيقة كحواري الصيادين، ولا نتعامل مع الكلمة كأنها "مقالع رخام"... بل نحن ننتمي إلى اللغة الشاعرة الجميلة النقية كالحليب!

[وفكَّرت أن أتوجه بكل هذه الكلمات والأسئلة، والإحباكات، والغيرة إلى صديقي الكبير/ نزار قباني، لعله يدفع عن قلبي وفرحتي، ورأيي ورؤيتي: هذه الهجمة التترية... وقد استرجعت كلمات من إهداءات بعض دواوينه الحديثة لي، ومنها:

[● (يا عبد الله: لا أريد أن أورِّطك في حبي أكثر مما أنت متورط... فاصبر على حكم العشق، والله يحب الصابرين!

[أُرسل إليك آخر كلماتي لتعيش معك على وسائد الحب والدلال!!

[كم أحبك، كم تحبك كلماتي)!

[وهكذا... وإن بدت كلمات "بعض السادة" المحتجين كشهب تتساقط فوق رأسي، لتسرق أو تحرق الفرح، وتكويني بوشم الحزن... فإنني أرفض أن أحرث هذه المشاعر والرؤية والرأي في بحر غجري!

[لقد أحس بي الصديق الكبير/ نزار، ربما بالتلباثي، أو بما نقتسمه

معاً ـ هو وأنا ـ من العشق. . . ففاجأني بهذه الرسالة التي بعثها في ثمالة عام ٩٧، يوم ٢٩ /١٢، وهي فوق أي تعليق أو تقديم. . . مضمَّخة بالياسمين كصاحبها:

[● (الرائع/ عبد الله الجفري:

[أسعد الله صباحك.

[ما كنت أحسب أنك سوف تأخذ منصب السفارة مني، وتتولى الكتابة إلى ٢٠٠ مليون عربي، ناقلاً لهم رسائل عشقي وشكري وعرفاني.

[ما كنت أحسب ـ يا صديقي المبدع ـ أنك سوف تأخذ عني لغتي، وأوراقي، وأقلامي. . . وتسمح لي أن أستعمل عمودك اليومي ليكون قافلة من ياسمين تسافر من الماء. . . إلى الماء!

[حتى لغتي: أخذتها مني يا عبد الله. . . فمن أين أخترع لغة أخرى أردُّ بها للناس فضلهم؟!

[فماذا تركت لي أيها الجميل؟!!

[وبأي لغة بعد اليوم سوف أخاطبهم؟!

[هذه الليلة سوف أنام مرتاحاً. . . لأن عبد الله الجفري قبل أن يقتسم معي لعبة العشق، رضي أن يكون موظفاً كبيراً في مصلحة بريدي.

[بعد اليوم. . سيكون نصيبك توزيع (١٠٠) مليون رسالة عشق، وسيكون نصيبي توزيع النصف الآخر. . لذلك لن تضيع بعد اليوم أي رسالة عشق)!!

لك الله . . . أتعبناك!

● من دموع الشعر العربي على رحيل الشاعر/ العصر: نزار قباني. . هذه الأبيات للشاعر/ غازي القصيبي:

ـ ونغشاك أوطاناً. . تنوء بذُلِّلها
فتأخذ منهـا حزنهـا. . وتزمجرُ
ونلقاك عُشَّاقاً، فتُطعمنا الرؤى
لكل حبيب في جيوبك: دفتـرُ
لك الله. . أتعبناك! لانحن نرعوي
ولا أنت من زوراتنا. . تتضجَر!

● يا حبيبي يا نزار: يا صديق الوردة في كلماتنا، أيها الراحل عن دنيانا التي تزهو بتجفيف الزهور. . يا من كتبت إليَّ في عام دنياك الأخير. . فقلت لي:

ـ «الحبيب/ عبد الله: هذا الصباح اكتشفت مجنوناً آخر يشبهني بنوبات الصرع، ونوبات الصبابة، ونوبات الكتابة. . فماذا أفعل لك إذا كنت

لا تسمع كلام الأطباء، وترفض الحبوب المهدئة، وتعضُّ على أيدي الممرضات؟!

[سلام عليك أيها الرجل الذي لا يتوب:

[ماتُبت عن عشقي، ولا استغفرته.

[ما أسخف العشاق إن هم تابوا»!!

• • •

[• فلماذا لم تنبت على جسر المحبة والصادقة بيننا: وردة التواصل واللقاء إلا قبل دخولك المستشفى بشهور قليلة.. فكان ارتواء عيني بنظرتها إلى وجهك وأنت على السرير الأبيض، ثم وأنت في بيتك بلندن تستعين بالعكاز على وقفتك ومشيتك الواهنة؟!

[هي أيام ـ فقط ـ من عام ثري بذلك التواصل معك، وكأننا التقينا منذ عشرات السنين.. تشبّثت بك، بوردة الحب التي أوصيتني بها في زمن الرصاصة والقنبلة والرسائل المفخَّخة والأقنعة المزيفة.. وكانت أوجاعك وأوجاعي ـ كإنسانين ـ ذهاباً ومجيئاً، أنهل منك وأمتح صبابة الوجد من تنويعاتك الجميلة بالكلمة على مقام العشق.. أنت هذه السنبلة التي أزهرت آلاف السنابل من غرسات الحب والحياة.. أنت الذي كنت (وستبقى): موّالنا، وبحور شعرنا، وأبجدية بوحنا، وموسيقى شجوننا... فنصل بأمنياتنا إليك: عشقاً مستمداً مما تعلمناه منك، نحطم به التوابيت، ونصرع به الطواغيت... ونغرس السخاء حولنا، ما أمكنا!

• • •

[● يا حبيبي يا نزار... أيها الشاعر التاريخ، العصر، النشيد القومي لخفقتنا:

[طبت نفساً في مرقدك الأخير... طابت روحك التي مرت من هنا: تُغنِّي لنا حداء شاعر ابتكر للحياة ألواناً من الياسمين والفاغية والنعناع، وحرَّض استكانة أمته في الهوان على أن تَنضُوَ عنها الذل والتركيع وتَصْدَعُ بالحرية وبالكرامة!

[لم أدْر ـ ياحبيبي ـ أنك بلغت أيامك الأخيرة وأنا أتوسل لهاتفك أن يسمعني صوتك ولو ضعيفاً واهناً كما سمعته قبل شهر.. وأنك تقطف ياسمينة الليل الأخيرة، وتتأبط «تفعيلة» واحدة، وتركض إلى انعكاس الفجر على صفحة «التايمز» تغرق غربتك في أعماقه، و..... تموت: قلباً مكسوراً، وعصفوراً يتبتَّل!

● ● ●

[● يا حبيبي يا نزار: إسترخ هكذا بهدوء، براحة، في محبة ملايين تظاهرت قلوبهم وخفقاتهم فجر الخميس ٣٠ / ابريل: حزناً على رحيلك إلى الخلود.. فانعم برحمة الله، واترك لمن خلفك: هدير كلماتك في الباطن والظاهر الدرامي العربي!!

الشاعر / العصر:

[● للشاعر اللبناني/ محمد علي شمس الدين:

[ـ لينام الشاعر، أغمض أطراف أصابعه

[وتوسَّدها كجنين في رحم الأرض وناما

[أيقظ روح الأنهار ونامْ

[أيقظ روح الأشجار ونامْ

[أشعل أسئلة في حطب الأرض ونامْ

[ورمى عينيه المغمضتين كجوهرتين على الأيامْ!!

[● يا شاعر البراءة والحب والياسمين في عصر البرية... يا حبيبي/ نزار قباني:

[بعد غيابك.. ستعود عواطفتنا: أمّية، وخفقاتنا عييّة، واعترافاتنا مزوَّرة رمادية!

[في تلقيَّ لخبر موتك.. خلت أن حبراً بلون الدم يحوطني، ليس دمك ـ يا حبيبي ـ فدمك هو نهر الأشواق.. وليس شفقك، فشفقك هو: قمر يتفقّد وجوهنا.. ولا حتى غروبك عن دنيانا في معنى الإرتحال،

فغروبك: وحشة الوحدة التي تداهمنا أبداً!

[لكنَّ خبر موتك.. كان هذا الحبر الذي تميَّز بلون خاص به.. كان هو: دمعة الوطن العربي الكبير الذي يركع اليوم ذليلاً في أضواء وكرنفالات الصهاينة فوق أرض فلسطين المغتصبة وهم يحتفلون بمرور خمسين عاماً على اغتصابهم للكرامة العربية... وكان موتك هو: طعنة للحم طالما سقيته بدموعك وصهيلك الشعري!

[كل الصور التي فاضت حياةً ـ حتى بعد موتك يا حبيبي ـ شلَّعتها الريح اليوم، لتذروها في غبار زماننا غير البهيج والصاخب بمحاولات «الإعتلاء» غير المجدية.

[● فهل أكفّ عن تقريع (الموت) ولومه وهجائه والغضب منه؟!

[نعرف أن الموت: حق.. وان كان حضوره يسلب منا مَنْ نحب، ومَن نعاشر.

[فكيف يمكنني أن أتوقف عن هذا الانشاد الحزين؟!

● ● ●

[● لقد اقتتح «نزار» ـ رحمه الله ـ هذا التعارف المباشر الشخصي بيننا حين أرسل لي عبْر الفاكس أول وردة منه: كلمات حميمة بتاريخ ٢٤/١٢/ ١٩٩٤ خطه الأنيق جداً، وقد افتتحها بهذا السطر:

[ـ (رسالة من نزار قباني إلى عبد الله الجفري ـ جدة).

[ليقول لي في إشراقة الرسالة:

[ـ «ما أجملك حين تكتب عن التاريخ تاريخي.

[وما أقوى ذاكرتك حين تستحضر تفاصيل رحلة ـ الهولندي الطائر ـ بحراً بحراً، مرفأ مرفأ، عاصفة، عاصفة، امرأة، امرأة»!

• • •

[● سمّيته: (الشاعر/ العصر)..فهو بشعره افتتح عصراً موسوماً بلغته الجديدة، بمدرسته النزارية الخاصة، بتفاصيل عشقه، بمفرداته، بشهادته على العصر... وهو بموته اختتم هذا (قمر) كإضاءة نزار!!

[هذا الشاعر... وقف ـ بشعره ونثره الشاعر ـ في قمة الكرامة محافظاً عليها وعليه فوقها، وفي إشراقة الكبرياء الذي يستحق، وفي عطاء الموقف (العروبي) كحصان يركض في منعطفات التاريخ!

[ويعتادني صوته اليوم: صدىً يسري في أوصالي وينغل في عروقي، وهو يهاتفني من لندن فزعاً حزيناً يسألني: «لماذا اختفت نقطة حوارك يا عبد الله»؟! ولايمهلني حتى أُرتب له إجابتي، فيستطرد هذه المرة متدفقاً بخوفه عليّ قائلاً: «برغم شغلات لك تُلفتني وتثير اهتمامي في ما تطرحه عن هموم السياسة العربية في عمودك، إلاّ أنني أشفق عليك من رد الفعل.. نريدك أن تستمر تكتب لنا كل صباح فلا تغيب غيبتك المحزنة هذه.. فهل تعدني بأن يلصقوا بك تهمة: كاتب المرأة، كما ألصقوا بي من القديم ما صاغوها تهمة فسموني: شاعر المرأة»؟!

[ـ أجبته وأنا أكفكف دمعة في عيني مستدفئاً بحبه الرائع هذا.. فقلت له: وهل نجوت أنت من حرائق السياسة كشاعر ومبدع؟!

لكنني سأفكر في خوفك عليّ.. أحبك أيها النهر العذب!!

[● فيا صديقي العظيم/ نزار:

[امنحنا موعداً جديداً مع الحب، والحياة، والأمل.

[أكتب لنا المزيد من شموعك، وعطورك، وياسمينك.

[أكتب لنا قصائد اللغة/ المجد، بحجم تاريخك/ العشق.

[وابق لنا ومعنا: تدهشنا، وتُدَوزن خفقاتنا بشعرك، وتُشَرنِق بوحنا بنثرك!!

قنديل حب... يضيء!؟

● من شعر/ حسن عبد الله القرشي.

في رثاء الشاعر ـ العصر «نزار قباني»:

ـ لو كان يمنع فقداً: مجدُ صاحبه .

كنت المفدَّى بمجدِ صيغَ للأبد.

لم ترتحلْ.. أنت باقٍ ملْء ساحتنا

بالأمس، باليوم في إحساسنا بِغد!!

● ما بين «صحوته» من الأزمة الصحية التي قيَّدته على السرير الأبيض حوالي ثلاثة شهور في إغماءة طويلة، وحتى دخوله إلى ممرّات الموت... حدثت تلك التي تشبه «المعجزة»، عندما أفاق وانتعش، وجلس ومشى على عكازة تارة ومستعيناً بكتف ابنته زينب تارة أخرى، وقابل مَنْ رَكَضَ إليه: مُحِباً لشخصه، عاشقاً لإبداعه، وتغنَّى بملايين العرب الذين أحاطوا سريره رغم بعدهم، وهاتفوا أهله، وكتبوا إليه!

كان عرساً جديداً لهذا الشاعر/ الطفل: نزار قباني.. زفَّه كل العرب، وشاهد بنفسه (مكانته) وحجمه، وامتداده في قلوب ووجدان

وعقول ملايين العرب.. ولم نكن نريد ـ يومها ـ أن نقول: إنه تأبين ورثاء (تقدَّم) قبل موته ليكون «نزار قباني»: أول شاعر، مبدع يتمّ تكريمه ـ جماهيرياً ـ في حياته ويشهد على محبة الناس له.. فقد اعتدنا في وطننا العربي: أن نُكرِّم المبدعين والمميزين بعد موتهم...... لمدة ثلاثة أيام، هي عمر ذاكرتنا فقط!!

[وفي بيت حبيبي نزار، عندما اصطحبني إليه صديق الطرفين الكاتب الصحافي الكبير/ عرفان نظام الدين، قال لي:

[ـ «أشعر بعد عبور أزمتي الصحية القاسية والطويلة أنني: أعيش من جديد، ربما حتى أعرف مقدار حب الناس لي بكل هذا الصدق والتدفق»!

[كأن «نزار» يومها: كان يقاوم المرض بكل ماتسمت به شخصيته من كبرياء !!

[وكنت أحدِّق فيه ذلك المساء وهو يعبِّر عن لحظة تحوُّله إلى ياسمينة دمشقية تتفتح على الحياة من جديد... وأحاول استعراض شريط حياته الطويل، هو هذا الشاعر الذي ظلمه بعض النقاد والكارهين لتميُّزه، فحصروا إبداعاته في «شعر المرأة» أو قضية المرأة، ووصفوه بأنه: شاعر المرأة، الذي دخل مخدعها ولم يخرج منه حتى الآن!

[لكنَّ «نزار» طَرق قنوات أخرى، كان من أهمها وأقواها، قضية أمته العربية.. تحول بعد: «طفولة نهد، وخبز وحشيش وقمر، وأشهد أن لا امرأة إلا أنت»، إلى شاعر قومي عروبي .. واكب مراحل الظلمة والهوان والعذاب لأمته العربية... ولم تكن «هوامش على دفتر النكسة» بداية ذلك التحول، فهناك القصائد/اللوحات في العمق الوطني: رسالة جندي في السويس، جميلة بوحيرد، الممثلون، الاستجواب، فتح، شعراء الأرض

المحتلة، منشورات فدائية، دعوة اصطياف للخامس من حزيران، حوار مع أعرابي أضاع فرسه، خطاب شخصي إلى شهر حزيران، الهرم الرابع، أنا ياصديقة متعب بعروبتي:

[● «وإذا قسوتُ على العروبة مرَّة

[فلقد تضيع بكُحلها: الأهداب»!

● ● ●

[● كنت أسمعه حين أصغي إلى صوته الذي ضربه الوهن، وحين أستذكر إبداعاته.. ولاشك أن أصعب لحظة في الحياة على الأحياء: هي لحظة فراق مَنْ نحبهم، بما يعني: أن كل شيء ـ في تلك اللحظة ـ يذوي ويذبل.. وكفكفت دمعة من عيني، ونفسي تهمس في داخلي وتبكي: «خلاص.. ما عاد فيني أفتح عليه تليفون في بدء المساء»!!

[وأثناء مرضه سألني صحافي في مجلة عربية عن: «نوع العلاقة بيني وبين نزار قباني».. فأجبته:

[ـ هي علاقة الكلمة بمعناها، وبيت الشعر بقافيته ووزنه، والنغم بموسيقاه، والحب بخفقته، والإنسان بالإنسان في أعماقه، والرؤية بالوضوح، والرؤى بالحلم!!

[ويبقى «صوت» نزار: قنديل حب يضيء ليالي الشتاء، وصرخة وطن «يسافر بنا إلى أرض البراءة»!!

الرحيل المر!؟

● **أيها السادة: إني مستقيلٌ**

من صراخي، واحتجاجي، وجنوني

مستقيل من فمي، حتى

ومن لون عيوني... فاعذروني!!

● ..... وهكذا قدَّم استقالته للحياة ومنها، ورحل الحبيب «نزار قباني»: الذي لم يكن يقارن مجده بمجد السلاطين الذين حكموا بِحدِّ السيوف، وهو الذي حكم بشعر الغزل!

رحل صديق الوردة عن دنيانا التي تتباهى بقطف الزهور ودعسها.

رحل السفير لكل النساء في مملكة العشق، شاعر كل الفصول الذي احترف تكحيل عيون المليحات بالياسمين... الفارس المميز في سباق الخيول العربية، لتبكيه اليوم: ميسون، وليلى، وهند، ودعد، ولبنى، بعد أن بكى «بلقيس» بدموع من دماء شرايينه.

رحل الشاعر الذي مارس عشقه حتى الجنون متفوقاً على «عمر بن ربيعة»..

فكانت القصيدة عنده: امرأة، والمرأة: قصيدة ووطن!

[أسَّس جمهورية للعشق لا تغرب عنها الشمس.. وأقام دولة كبرى من: الشفاه، والعيون، والأهداب، والنهود.. وعمل: خزَّافاً، ورساماً، وأستاذاً لفن الحب بالشعر!

[من نصف قرن.. وهو يطرِّز الشعر على قميص شهرزاد، ويفرش السجاد في موكبها ويزرع الأشجار.

[رسم بالكلمات لوحات على جبينه لتاريخ الجميلات: عن فاطمة، وعائشة، وراوية، وهدباء، (فيا لها من تهمة جميلة.. أن يصبح الإنسان من عائلة الظباء)!

● ● ●

[● كان يحاول سُقيا جفاف أيامي «بفاكساته» القصيرة الدسمة من لندن إلى جدة.. حتى فوجئت يوماً بصوته يقول لي:

[ـ يا عبد الله.. أحببت أن أسمع صوتك حتى أراك في لندن في تكامل محبتنا معاً»!

[وفي استعدادي لزيارة لندن... كان «نزار» يركض متعجِّلاً نحو الصمت الأخير، دون أن «أُصدق» أنا، أو أنني لا أريد أن أصدق!

[كان من الطبيعي أن تذرف عيناي الدمع على صديقي الذي تحقق حلمي: أن أصافحه، وإنْ تَعارفنا أكثر بالكلمة ودفئها... لكنَّ دموعي مفقودة، لعلها هربت من عينيَّ لتبكي وحدها إمعاناً في تكريس الحزن على هذا الصديق الذي جلست أمامه بكل تباريح الشوق، وأدفأتني يده على كتفي يحضنني قائلاً:

[٩ «بعد اليوم يا عبد الله.. سيكون نصيبك توزيع ١.. مليون رسالة عشق، وسيكون نصيبي توزيع النصف الآخر... لذلك لن تضيع بعد اليوم أي رسالة عشق»!!

[خلتُ «نزاراً» في تسجية جسده وبرودة الموت: يبتسم... لعله كان يسخر من هذا العصر: عصر الحقائب، أو «الشنطة»، والموعد الذي لا يتحقق!

[أعمق حزن في واقعنا.. هو: ترف التفاهة!

[نحن لسنا ضد العالم، والعالم يسعى لصناعة الضِّد لنا نحن العرب وفينا...فما يجدي العبوس؟!

• • •

[أيها الشاعر بوجهك الضاحك والحزين.. بشِعرك الذي انتصر على جحافل التتار:

[قرّ عيناً.. فإنْ نفاك الموت إليه، وضَحِكَتْ في رحيلك «طقوس» الرعب، وزكام الكلام، وجَرب الحقاد، وصدأ الأساس القدي... فشعرك باقٍ هنا في أحلامنا المتجددة، في تويجة ياسمينة دمشقية، في نكهة قهوتنا الصباحية، في همسة عاشقَين، وضمَّة حبيبين، في اللغة الشاعرة، في شجرة مؤصَّلة.

[شعرك ـ يا حبيبي يا نزار ـ يتشكّل من صورك: مراوح ريش وأمشاط عاج، ونهراً طويلاً من الأغنيات، وعيّنة من تراب القمر، ونخلة تفرز المفردات!

[شِعرك يبقى: يرفض أن يخلط الحب بالكيمياء، وأنت تثير به كل الظباء!

[طب نفساً ـ يا حبيبي ـ في مثواك الأخير ... ودعنا ـ هنا ـ نعيش على هامش البؤس والبائسين: أيامنا الخاوية... نفتش عن أسئلتك/ القصائد: متى يعلنون عن وفاة العرب.. مَن قتل مدرس التاريخ.. إلى أين يذهب موتى الوطن؟!!

سلام على مجد المحبة!؟

[● من لوحاته:

- أنا مع العشقِ

- حتى حين يقتلني

- إذا تخليَّتُ عن عشقي

- فلستُ أنا!!

[● دعْوَته إلى "الحب": قيمة إنسانية.. مثلما حُبّه يمثل على امتداد مشوار حياته: إنسانية التقييم!

[وفي دعوته إلى الحب.. نادى: بإلغاء الشرطة، والحدود: والإعلام، والألوان، والأجناس.. فالحب لن يكون: عنصرياً، ولا إقليمياً، ولا سجيناً، ولا مقيداً، ولا مجرماً... بل الحب: حياة، وشعار الإنسان، وعلم وجدانه، وأبعاد حياته بلا حدود، وقوس قزح من الصفات الجميلة.

[تمنَّى في حياته أن يتسلَّم سلطة واحدة لا بديل لها عنده.. تلك التي يقيم من خلالها (جمهورية الإحساس)... بحيث لا يبقى على الأرض ـ كما تخيّل ـ سوى: حضارة الأحرف، أو حضارة الأحساس!

● ● ●

[● إنه الشاعر نزار قباني: الذي افتتح بشعره ميلاد عصر كامل، نُسميه: عصر نزار قباني... وبدأ في غيابه: عصر آخر لا ينتمي إليه بالطبع: نحن هذا الجيل (الكبير) المتواصل من إطلالة الثلاثينيات، وإن جئت في الجيل الرديف!!

[عصر كامل أقامه هذا الشاعر الكبير، فرضعَتْ خفقات قلوبنا من شعره، وارتوت ضلوعنا الصديَّات من معاني قصائده .. وكانت صوره الشعرية تمتاز بالتجديد، وتتجاوز التكرار أو التشابه، إلا ما كانت "نبرته": هي التي تبلور ملامحه كشاعر أنشأ مدرسة بمفرداتها الخاصة، وبتشبيهاتها، وبصورها "النزارية" التي قلَّده في ترسمها الكثير من الذين فُتنوا بشعره.

[ولم يكن شعر نزار قباني مجرد مرآة يعكس على صفحة قصائدها: أحاسيسنا، وهمومنا، وأحلامنا فحسب.. بل كان صوته الشعري بعمق متغيرات العصر الذي ابتدأ به، وبأبعاد المعاناة التي اكتوى بها الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج:

[● "نشلوا حُرّيتي منّي [وفُرشاتي، وألواني، وألعاب الطفولة "!

● ● ●

[● ويبقى شعر "نزار قباني" مؤثراً.. يدغدغ المشاعر، ويشعل الحوافز، ويضرم النار في الظلم، والعهر السياسي، والطغيان!

[شعره: تحريض على اعتناق الحرية، ورفض العبودية.. مثلما شعره: قصيدة للعصافير و "متتاليات" موسيقية!

[هاجموه دوماً.. حتى بلغ هجومهم: اتهامه في سلوكه الإنساني (!!)

[ولم يأبه أمام الحرب التي حاصروه بها.. فكان يبدو دائماً هو

الخارج على النص العربي (الرسمي) في نفس الوقت الذي يزداد فيه دخولاً إلى عمق النص الإنساني الشعبي:

[● "إنني حطَّمت بالشعر قوانين

[هولاكو، وتماثيل هولاكو

[وسلالات هولاكو.. ودفعت الثمنا"!

[● وكان توّاقاً إلى الفرح العربي، وإلى الفرح العاطفي.. وحسِب أن المناداة بالعشق: فرح، لكنه كان أولى به ـ في البدء ـ أن ينادي بالوعي، وبالفكر... فالغوغائية تستخدم ـ غالباً العاطفة كالحذاء، والاستبداد: نرجسية!!

● ● ●

[● "سلام على ياسمين دمشق".. كم حنَّ إليه نزار في غربته، وكم تدلَّت قامات الياسمين في دمشق مع قامات العشق: حزناً على غربة نزار، واشتياقاً من: "نافورة في بيوت الشآم"

[نزار.. هو هذا الشاعر: (الذي لا يُسلطِنْ إلا على لمسات الحنان وشعر الغزل)..

الملك الأموي المزهر في حقول الوجدان أبداً.. يُعمِّر أرض القمر، ويعزف سيمفونيات الحب.

[سلام على مجد المحبة حول شعر نزار: ذكرى لا تبهت، وياسمينة، وأوراق قصيدة!!

خلاصة الحياة !؟

[● لندنٌ. . تمطرني ثلجاً

[وأبقى باشتهائي: بدوياً

[لندنٌ. . تمنحني كل الثقافاتِ

[وأبقى بجنوني: عربياً

[لندنٌ. . تمطرني عقلاً

[وأبقى: فوضوياً!!

[● شربْتُ من صوته الذي ينجو من مرضه: كلمات من الحب. . قطرات من العافية. . إطلالة من الأمل. . بارقة من الغيث. . ضحكة من الشمس التي تفتتح "إضاءات" جديدة!

[هكذا ولَدت اللحظات الأولى التي دخلتُ فيها على شاعر الحب/ نزار قباني في مستشفى (st tomas) بلندن. . . فكانت هذه اللحظات الأولى هي: النظرة العميقة المتأنية (المحتضنة) له التي أراه فيها ـ وجهاً لوجه ـ للمرة الأولى بعد أن عشْته: شاعراً/ عصراً، بهياً زاهياً.

[وبعد أن غاص شعره في تلافيف ضلوعنا وعلّمنا البوح، وسكب

اللذة: خفقة في قلوبنا.

[وبعد أن حَرَّضتنا مزاميره ـ بقوة ـ على الغناء (للعروبة) حتى حلول اللحظة الأليمة التي حولوا فيها (العروبة) إلى: تهمة، وقضبان، وآهة وجع!

[انحنيت على شَعْره الأبيض بنقاء ابتسامته.

[وقبَّلت ـ هنا ـ الحرية، والعشق، والمواويل، والحزن العربي، ونصوص الشعر، وطقوس الحب .

[و. . . . . قبَّلت: لاحدود "الإنسان" حين يغرس بذرة الحنان، وجذور الولاء للحرية أبداً!

[وتصاعد صوته المتعَب بالمرض وبالوحدة. . وقال لي:

[ـ أخيراً التقينا يا عبد الله!

[ـ قلت له: حق للحياة أن تكون الآن أجمل يا شاعر العمر.

• • •

[كمتبتِّلٍ في محراب شعره على امتداد عصر كامل ممهور باسم "نزار قباني" .

[إستأذنته: أن يمنحني هذه البارقة من جنون رؤيتي لإبداعه شعراً ونثراً.

[وأن يغدق عليَّ من عبقرية اتساع الليالي العربية بذلك الحلم العريض من عناق المطر لرمال الصحاري وغموضها!!

[فلما دخلتُ عليه في "مشفاه" : كان المرض يغادره أو يكاد، وهو يلوح بابتسامة مشاعة إلى ابتداء الحياة.

[كأنه كان ينادي على حصيلة تجربته في أصداء العمر.

[ورأيت هذا "الباقي: بدوياً باشتهائه... عربياً بجنونه" وهو يتشكل من ألوان قوس قزح قصائده!

[فمرة هو يبدو: ضوء روح.

[ومرة: يتصاعد نغماً كمعزوفة الفؤاد.

[ومرة: يحتمي بنجوى القلب.

[وما زال عربياً ـ سمعْته ـ ينادي على "فاطمة" في غيوم لندن لتشرب معه: الغيم، والحزن، والشعر... طالباً منها: (حتى تصيري امرأة.. واتركي الباقي عليَّ)!!

[هذا الشاعر/ الفلاح.. هو الذي غرس الحلم في صدورنا، وسقاه من مطر كلماته التي امتازت في شعره بتجدد الصور... وأطلق كل بيت شعر: عصفوراً يغرد الحب في اللامدى من مناخ الحرية!

• • •

[● جعلت موضعي: قبابة كرسيه الذي اتخذه بجوار النافذة.. يطلُّ على هذا النهر الممتد، كأنه يتواصل مع التاريخ، والحِقَبْ، والعصور.

[كان يشير هذا الشاعر/ النهر الممتد المتواصل مع جذوره العربية من امرؤ القيس، والمتنبي، وعمر بن ابي ربيعة، حتى الشريف الرضي.

[وتركض نظراتي خلف إشارة أصبعه المسددة إلى النهر، وهو يقول لي:

[ـ خلاصة الحياة ياصديقي: تجمَّعت في معاشرتي لها .. مع انسياب

مياه هذا النهر وتهاطل حبات المطر، وكل خرائط دروب دنياي.

[تجمعت على شكل شرايين المحبين لي الذين كانوا يتَّصلون بأهلي من شتى أنحاء الكرة الأرضية من كل الوطن العربي بلا استثناء... وكانوا ـ فقط ـ يلحُّون في الاطمئنان على صحتي، حتى إن البعض كان يسأل بلهفة:

[ـ قولوا لنا إنه بخير.. فقط هذا يكفي!

[الله يا "نزار" ... نعم، صار يكفي أن يحبنا الناس، وأنت بهذا الإجماع!

[قلت له وأنا أكفكف دمعة حب تآخت مع دمعة حبه: أم كلثوم.. كانت أقوى من الجامعة العربية، فحقَّقت الوحدة العربية بغنائها، وجمعت العرب ليلة واحدة في الشهر.

[ونزار قباني: كان أقوى من الاستعمار الذي فرَّق بين الأمة العربية، فحقق الصمود والمقاومة بشعره!!

ورقة قرنفل !!

● قادمٌ من مدح الملح إليكم

[وسـؤال واحـد يحرقني:

[ما الذي يحدث في تاريخنا؟!

[..........................

[نحن لم نُقتل بسيفٍ أجنبي

[بل قَتَلْنا كذئاب بعضنا!!

[● وتمضي إليه كلماتي دائماً: مشتاقة لخصْب الكلمة عنده، وهو يمضي بنا معاً:

"فيروز الشطآن " .... وعندما هدهدتنا تنويعاته على مقام عشقه، كتبتُ عن "الإنسان الشاسع" في أعماقه وفي شعره... ودائماً: أفرح برسائله التي يخصني بها منغمة، فتتحول صفارة الفاكس في بيتي إلى: مازورة أو نغم .. وهكذا فرحت اليوم مجدداً برسالته هذه من تنويعاته على مقام الصداقة ومودَّة العقل ... وهكذا كتب لي الرائع دائماً:

[ـ أخي وصديقي الحبيب عبد الله:

[بعدما رأيتُ جواهرك تتناثر بين أصابعي كحفلة ألعاباً نارية هذا الصباح، نسيت كل جواهري ... فشكراً لك أيها الصائغ الكبير الذي استطاع بنار العشق أن يُحوّل اللغة إلى سبائك من الذهب ... ويُحوِّل القصائد إلى طواويس بألف لون ولون.

[وشكراً، يا عبد الله، لأنَّك قرأتَني بحضارة.. فالمتحضرون وحدهم: يعرفون كيف يلامسون جسد القصيدة.. وكيف يستخرجون اللؤلؤ من شواطئها.. وكيف يعزفون على ناي أنوثتها، مع الحب الذي تعرف.

● ● ●

[● ورقة قرنفل على شكل رسالة جديدة.. تلقيتها من نزار، عبْر الفاكس... كلماتها: فراشات ملونة، وطعمها: تفاحات حب.. مموسقة كنغم الصَّبا، ممتزجة بعطر الحرية:

[ـ يا حبيبنا عبد الله:

[ما تختاره أنت للنشر أختاره أنا...

[فبيني وبينك ميثاق حبٍّ وشعر.. أهم من ميثاق الأمم المتحدة.. وشريعة حقوق الإنسان.. وملفّات جامعة الدول العربية.

[أما الشاعرُ المجهول الذي كتب إليك، فأستغرب أنه استعمل قناعاً للتعبير عن معاناته القومية،

وغضبه الكبير، لأن الدراما العربية لا تحتاج إلى أقنعة..

[وسلامٌ على أصابعك التي تمطر علينا ورداً وحناناً كلَّ صباح!!

شُو بقي / عبد الله؟!

● أنا منذ خمسين عاماً. . أراقب حال العرب
وهم يُرعدون ولا يُمطرون!!
وهم يعلكون جلود البلاغة علكاً. . ولا يهضمون!!

● ● ●

[● قال لي صديق/ كاتب كبير، مازحاً أو مازجاً مزْحه بقَدْحه: كنا قبل ليلتين نتحدث عن موت مَنْ سميته: (الشاعر/ العصر). . .فعلَّق أحدنا ـ وهو كاتب أيضاً ـ فقال لنا: ما زال "الجفري" يفْلقكم ـ كعادته ـ بالكتابة عن نزار بمناسبة وبغير مناسبة!!

[إن هذا "الزميل/ الكاتب" : عبَّر عن صخْريته لا عن سخريته بي أمام حدث الموت الذي خطف شاعراً شكَّل عصراً من التميز الشعري، ورسم بالكلمات لوحات وجدانية تغنينا بها، وحفظها الكثير، وهاجمها البعض في الصالونات والصحف بينما ردّدها في جلساته الخاصة!

[نعم . . . سأفلق صخور المماحكة الجدلية، وغيرة النفوس الجافة من ينابيع الحب، وأظل أكتب عن "نزار قباني" ، الشاعر الذي قدَّم للقاموس العربي: كلمات انفردت بصوره الشعرية، وبمفرداته الخاصة، وبشاعريته حتى وهو ينثر. . . وهو الذي سمَّى الشعر: "قنديل أخضر" ،

وكان ـ بكل كنوزه الشعرية التي أغنى بها ديوان العرب الحديث ـ هو نفسه: هذا القنديل الأخضر الذي أضاء قلوب المحبين وأعطى إشارة البدء (لرؤية) الواقع العربي الصحيح بلا نفاق ولا تزوير!

[● صفَّقت له ثلاثة أجيال...ورماه (المتكاثرون) على قِلَّة بالحجارة!

[شتمه المنافقون في وضح النهار، واحتضنوا دواوينه وشعره في منتصف الليالي!

[لكنّه خرج إلى عالم وجده يضجُّ بـ "المَخادع" التي لم يصْح رقُّادها فيها حتى الآن، ومن أهمها: مخدع السياسة، ومخدع النفاق، ومخدع المصالح الذاتية، ومخدع الإزدواجية/ دكتور جيكل مستر هايد... وتاه هذا الشاعر في تجوُّله مع قومه على هذه المخادع... وظن البعض أن "نزار قباني" عاد إلى مخدع المرأة وهو يقتحم السبعينات بعمره، فأصدر ديوانه قبل الأخير: "خمسون عاماً في مدح النساء" ـ ١٩٤٤، ولكن... لم يكن مضمون هذا الديوان مخصَّصاً لمديح النساء فقط كما أوحى عنوانه، بل أشعل فيه حسه الوطني العروبي، فضمَّنه أيضاً قصائده/ الأسئلة: مَن أنا في أميركا.. مَن قتل مُدرس التاريخ... متى يعلنون وفاة العرب.. إلى أين يذهب موتى الوطن؟!

[وهكذا تلاحقت أسئلة الشاعر وانثالت، وكبُرت بحجم الآهة العربية: عشقاً، وانتماء، ومعاناة:

[ـ (حتى انفجار البروق على شفتي.

[وحتى تصير القصائد فحماً وجسمي حطب)!!

● ● ●

[وفي عامه الأخير الذي ختم به حياته.. كنت أزوره في بيته بعد السماح له بمغادرة سرير المستشفى، فتمنيت عليه التقاط صورة بجانبه، وكان يقتعد كرسياً كأنه يلتصق به، وصعب عليه أن يقف ويجلس إلا باستخدام عُكَّاز لم يكن يحبه.. فرأيته "يهبُّ" واقفاً ويقول لي:

"دعني أحيط كتفك بذراعي.. أيها الكاتب الذي تحبك كلماتي"!

[اضطربت حقاً... وكأنني لحظتها أريد أن أنشد أمامه قصيدة شعر، وزاد اضطرابي وتلعثمت حتى قلت له: دع يدك تعربش على كتفيَّ كياسمين دمشق!

[يومها: ناولني آخر ديوان أصدره في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٩٦، وسمَّاه: (تنويعات نزارية على مقام العشق)، وقد كتب إهداءه الخاص لي:

[ـ "يا عبد الله: بعدما تنام القصائد بين أجفانك، تصبح ست القصائد..

[لذلك أرسل إليك آخر كلماتي لتعيش معك على وسائد الحب والدلال....

[كم أحبك .. كم تحبك كلماتي" !!

[وقد كان هذا الديوان ـ في هجوم المرض عليه ـ آخر كلماته الشعرية المطبوعة... وسألته يومها: ما اسم مولودك القادم.. أقصد ديوانك؟!

[ـ فأجاب بنبرة شجن: "شو بقي عبد الله ... إنه الموت"!

[هذا التاريخ: مات، هذا العصر الجميل من بوح الحب: رحل،

[لمع حتى شاع في السماء اللا نهائية!!

نَم قريراً. . . يا نزار !!

[● إنَّ اغتصاب الأرض، لا يُخيفنا

[فالريش قد يسقُط من أجنحة النسور

[والعطش الطويل، لا يخيفنا

[فالماء يبقى دائماً في باطن الصخور!!

[● في انهمار الأسى: مطراً عربياً، ولم يعد "للدمعة الأولى": تاريخ ولا ساقية، ولا "للعشق الأول": حلم ولا وجْد. . .بل تحوَّل "العربي" إلى: نقطة عطش وهو يلتحف الغيوم.

[في غربة "زمان الوصل"، واختفاء نجمة الهمس، وانكسار الأقحوان، وتهديد الياسمين الدمشقي!!

[في أحزان الخفقة، ورحيل طيور (الغنوة) المهداة إلى السواقي وتسامق الشجر.

[في هذه المراوحة بين الحاضر/ الغبش، القادم/ التمنّي. . . نتذكَّر ونفتقد: الشاعر/ العصر ـ نزار قباني. . . ذلك "الجميل" الذي اغترف من الجمال، واقترف "رؤية" أُمَّته حتى أثخنوه جراحاً وطعناً. . . ذلك الذي

رحل عنا في موعد أُمته العربية مع الكآبة والهوان!!

[ذلك "الخفقة" في عين الجمال/ الشاعر الذي فجَّرته الحيرة، فتساءل:

[ـ من أين أدخل القصيدة، يا تُرى

[والشمس فوق رؤوسنا: سرداب؟!

[ذلك الذي كان يشرب هزائم أمته العربية: علقماً، ويقول: (أعلى الهزيمة تُشرب الأنخاب)؟!

• • •

[● في ذبالة الشموع العربية التي أطفأها: احتلال المستعمر الغربي... يتجدّد "وعدنا" مع صوت ذلك الراحل/ الحاضر ـ نزار قباني ـ وما زالت أصداء صوته: تئنُّ شاكية لصديقته من "عروبته":

[ـ أنا يا صديقة.. مُتعَب بعروبتي

[فهل العروبة: لعنة، وعقاب؟!

[أمشي على ورق الخريطة: خائفاً!!

[فعلى الخريطة... كلُّنا: أغراب!!

[● فمن سنكون (نحن) في القادم؟!

[نعاني اليوم ـ أيها الشاعر الجميل ـ من تداخل البصر في الغمام المستحكم على البصيرة.

[لم تعد سماؤنا العربية تستقبل "الغسَق"... بعد أن تحوَّلت زرقتها إلى احمرار كالجمرة...

كالدم العربي المراق على تراب الوطن العربي... كهذا التكدُّس المخيف للصمت العربي.. كغياب (الشاعر) العربي الذي اختطفه أنين السواقي إلى المزيد من الجفاف والعطش، فإذا الغياب: محنة عجْز عن بوحٍ يغوص في نزْف جرح!

• • •

[• يا "نزار" الجميل الذي رأيناك يوماً: تعانق "بغداد" التي وصفْتها: "قطعة من جوهر"، وأنت ذلك البحَّار: (أنفق عمره في البحث عن حب وعن أحباب)، حتى فتَحتْ لك "بلقيس" كتاب الهوى من جديد، فرأيتها بعينَيْ العاشق وكأنها: زينب أو رباب: (وهبطت كالعصفور يقصد عشه، والفجر: عرس مآذن وقباب)!!

[• فما الذي يمكن أن تقوله اليوم عن بغداد: المستعمَرَة المحتلة، وعن لصوص تاريخها، وهي التي كانت: (ترتاح بين النخل والأعناب)؟!

[• بغداد اليوم/ يا حبيبنا "نزار": سرقوا "كُرَّاستها" الخاصة .. اغتالوا مواعيد عشقها.. بتَروا لها ذراعيها كأنهم أرادوا تحويلها إلى تمثال «فينوس» للجمال .. (بلا ذراعين) وبلا روح !!

[• بغداد / يا نزار: تواطأ فيها "هولاكو" الجديد مع التدمير، فقطع "وتر" ربابتها ... فصار "الشوق" في أمسياتها: رمادياً، لا هو بالليل، ولا هو بالنهار ... ولم تعد "بغداد" يانزار:(هزج الأساور والحُلي/ولا مخزن الأضواء والأطياب)!!

• • •

[أيها الحبيب الذي "عشتَ الحزن في ألوانه" يانزار:

[رحلت ـ حقاً ـ عن عالم يُفرِّط في حضارته، ومنجزاته العلمية .. لينحاز إلى: الدبابة، والقنبلة، والحَصْد من الجو بالموت الجماعي... عالم: استبدل العدل، والحق، والحب.. بالظلم، والباطل، والبغضاء!!

[إنه لن يكون عصرك ذلك الذي وصفته: (يعزف الحب دائماً: عنواني).. فقد اعتقلوا "البوسطجي" الذي يوصل رسائل العشق، ووضعوا في الطرقات ـ بدلاً عنه ـ هذا الجندي القناص الذي يُطلق الرصاص على الأطفال!!

[● تذكَّرتك ـ أيها الحبيب/ نزار ـ ونحن في قاع الانتظار للأمل... لعودة عصر الفرسان، بعد طغيان تفشِّي الولدان... الكبار!!

[نم قريراً ـ أيها الشاعر/ العصر ـ فهذا عصر: يعتقلون فيه العدل، والحق، والجمال.... حتى الصمت!!

الذين أحبُّوه من بلادي

● للشاعر السعودي/ غازي القصيبي:

[ـ نزار. . أزفُّ إليك الخبَرْ

[لقد أعلنوها: وفاة العرب

[وقد نشروا النَّعي فوق السطور. . وعبْر الصور

[وقد صدر النَّعي بعد اجتماع يضم القبائل

[جاءته حِميَر: تعدو: مُضَر

[وشارون يرقص بين التهاني

[تتابع من قدر أو وبَر!!

[يؤكد الشاعر/ غازي القصيبي: أنه في قلب الوجع العربي، أو أنَّ في قلبه هذا الاتساع المستمر على الوجع الإنساني و. . . . . الحضاري!

[وعندما بادر الشاعر إلى التعبير بتلك النفحة الوجدانية التي يرثي فيها (فنانة) تميَّزت بملامح "السندريلا" على الشاشة: ثار عليه المتجلِّطون، واستعدى عليه كُتَّاب النظرة المتخنِّثة، وكادوا يُسيمونه خسفاً على (فعلته). . . ولكن / غازي القصيبي: يبقى شاعراً يتفوَّق بخصوصية هذه

اللغة الشاعرة، وبإحساس يمد التصحُر في نفوسٍ طحلبية بصبابة من رواء الشعر!

[وعندما نشر قصيدته التي أهداها (إلى نزار قباني الذي سأل).. كأنه أراد بعث الحياة في عصر الرفات، واقتحام بوابات النضال بالشعر، والمقاومة بالكلمة/ الكرامة.. يُعبِّر عن قهر أمته في كثافة الظلم (الأممي المتحد)!

[وجاءت قصيدته تعبر عن سخرية ذلك الوجع... وإذا بالكاتب القاص السعودي/ على محمد حسون ـ نائب رئيس تحرير البلاد ـ يكتب إليَّ متأثراً بالقصيدة وهو يقول:

[أبو وجدي/ العزيز حتى العظم:

[للمرة الثانية أجد نفسي أخرج من هذه الإجازة فأكفَّ قدمي بعد أن أصبحت لسعات هواء الشاطئ أكثر برودة، والجسم أكثر قشعريرة، بعد أن أخذ صهد الصيف يلملم أطرافه إلى غير رجعة!

[● أبو وجدي/ أخرجَتني هذه المرة من الإجازة: تلك القصيدة/ الرمح، التي "ثقَّف" حروفها: شاعرنا الفذ/ غازي القصيبي (بمدية) وطنيته الزاخرة بكل معاني الأصالة.. كأنَّ "غازي" صاغ قصيدته من دموع كل العرب.. وتبقَّت دمعة حرّى في عينيَّ سكبتها على الورق في رسالة إلى غازي، رغم أنني أتمتع بإجازة من العمل والكتابة... فكانت هذه الخاطرة:

● ● ●

[● من "علي محمد الحسون" إلى غازي:

[ـ أمسِك عليك/ غازي... فلا "نزار" يصغي إليك، ولا "مضر".

[لا تبك .. فقد مضى عهد كان به البكاء: حريقاً، فاليوم: رقْصٌ، وقُبل (وهنبكة) وعويل.

[لم تعد "هند" كريمة، لا.. ولا عزة لدعد، ولا هديل، فلا يسمع صراخها: معتصم، ولا تهتز: قبيل!

• • •

[• أمسك عليك/ غازي... فنحن لاهون، فموائدنا عامرة، وكأسنا مترع.

[وفلسطين: قهر وتنكيل.

[لا تهزَّ كفك في وجه الريح... فلن يجيبك: عليٌّ، ولا عُمر.

[مُذْ بِعنا في سوق السياسة: سيوفنا... فكل ما نراه من عار.. فهو جميل!!

• • •

[• أبا/ يارا: لا تحزن.. فنحن مشغولون بكل ألوان الفرز والتصنيف!

[فهذا يمينيُّ الهوى، وذاك يسار اليمين، وهذا أشعريّ، وذاك سلفي.. وذلك مبتدع لعين!

[فهل رايات (البسوس) لم تمزق في ساحاتنا... وكليب استكان، وصالح!! لعله يريح، أو يستريح.

[فنحن ياسيدي: جيوش تحرس السجَّان.. وتُقبِّل يد العبيد!

● ● ●

[● أمسك عليك/ غازي.

[كل الخيول نُسرجها، إذا ماجنَّ ليل، أو أشرق نهار.

[فنحن فوارس إذا ما التف ساعد بخُصر، أو داعب كف بِرقة نَهد، أو ذاب ثغر بثغره.

[نُجندل في ساحات الوغى كل أصناف البغاء.

[نُثير النقع في ميادين الحوار... ونُدخل النار من نريد، وفي أيدينا مفاتيح الجِنان.

[فسبحان من أعطانا كل هذا ... فسدنا كل الأنام!!

من أوراق "هدباء"

ـ حمل الزهور إليَّ... كيف أردُّه

وصبايَ: مرسوم على شفتيه

وبدون أن أدري... تركت له يدي

لتنام كالعصفور بين يديه

سامحته، وسألت عن أخباره

وبكيت ساعات على كتفيه!!

● هذه هي «هدباء نزار قباني»... تقدم للقارىء العربي، ضمن منشورات أبيها لعام ٢٠٠٠م: سيرة ذاتية ثانية للشاعر/ العصر ـ نزار قباني، تحت عنوان «من أوراقي المجهولة».

ولم أكن قرأت خبراً ـ أي خبر ـ عن إصدار هذا الكتاب الجديد في طبعته الأولى الصادرة في نيسان (إبريل) من هذا العام، فالأحياء يفقدون ذاكرتهم عن الأموات غالباً... لكن «الصديق العزيز جداً إلى نفسي»: التقط لي نسخة من هذا الإصدار أثناء مروره من لندن، فإذا بي أمام «نزار» الحبيب وجهاً لوجه.. بعد أن طويت صفحة عمره، ولكن لن تطوى

صفحات شعره الخلاّق، ونثره الشاعري، ولو حاول الكارهون له ... ذلك أن «نزار قباني» كما وصفته ابنته الكبرى «هدباء» في مقدمتها لهذا الكتاب الجديد:

[ـ لم يترك بيتاً لم يدخله.. ولم يترك حديقة لم يجلس تحت أشجارها.. ولم يترك امرأة لم يزرع في شَعرها قصيدة.. ولم يترك طفلاً لم يلعب معه.. أهداها ديواناً من شعره وعلَّمها: كيف تكتشف أنوثتها... هكذا كان هو والشعر: وحدة حال» !

[وعندما قرأت مقدمة «السيدة هدباء»، قلت:

[ـ لقد ترك لنا «نزار»: ابنة أديبة قادرة على تطريز الشعر لو أرادت!

[● وتقصُّ علينا «هدباء» في مقدمة سيرة أبيها الذاتية الثانية: كيف عاش «نزار» للشعر وحده، ومات عندما توقف عن الكتابة... وقالت عن أبيها:

[ـ «لم تُجافِه الكتابة من قبل إلا مرة واحدة، ولمدة ستة أشهر.. تعذَّب خلالها كثيراً (خلال حرب لبنان) واستعاد بعدها عافيته الشعرية، لكنه هذه المرة استسلم لقلبه المريض فصرتُ أحرص على أن أضع أمامه الأوراق والدفاتر الملونة والأقلام، وأرجو منه الكتابة... أن يكتب ذكرياته مع الشعر» !

[● فمن الذي استطاع أن يرسم وجه «نزار قباني» / الشاعر المبدع؟!

[هو الذي كان يرسم وجهه بيديه ـ كما قال ـ إذ لا أحد يستطيع أن يرسم وجهه أحسن منه... وتمادى وكشف الستائر عن نفسه بنفسه قبل أن: (يقُصّه النقاد، ويفصِّلونه على هواهم، وقبل أن يخترعوه من

جديد)... ورغم كل ذلك، وما قدمه «نزار» من صراحة متناهية، وما رسمه من «بورتريه» لملامح وجهه ووجه الشاعر فيه... فقد اعتدى النقاد عليه، بل وكانت «غاراتهم» حتى على شخصه بعد شعره، وفي كل ذلك.. قال «نزار» في سيرته الذاتية الثانية:

[ـ «أنا شاعر مكشوف على الجهات الأربع، كمنارة البحر ولا يمكن لأحد أن يتهمني بالسرية أو الباطنية... كما لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه شاهدني على خمسين عاماً متنكراً في الشارع العام، أو على ورق الكتابة»!

[● وسألته يوماً: هل أنت جاد بإعلانك الطلاق البائن للقصيدة السياسية؟!

[ولم يجبني مباشرة، ولكن حواراً اندلع عن اكتشافه: حقيقة الخوف على القصيدة من الهزائم السياسية العربية اليومية، وكان من الصعب على "نزار" ـ كما قلت له ـ أن يتقهقر إلى نهداته القديمة وهو بذلك الإكتئاب في وجدانه، ومن الصعب ـ أيضاً ـ طلوعه بقصيدة الغزل: يرقص السامبا والرومبا كما كان يفعل في الشباب!

[لقد قَهَرَنَا هذا العصر، فاضطررنا أن نرقص على الحبل حيناً، ونُشوى على السُّفود حيناً آخر... حتى نواصل الرقص الدائم على أنانيتنا وآهاتنا!

● ● ●

[● و.... سيبقى "نزار قباني": شاعراً لهذا العصر، وشاعراً/ عصراً، وشاهداً على كل ما ارتكبه (إنسان) القرن العشرين ضد نفسه.... رحمه الله!

الدمشقي الذي احترف الهوى!!

● للشاعر الكبير/ محمد الفيتوري في رثاء " نزار "

ـ أنت الذي قلتَ، ساعة قلت الرحيل:

إنني ذاهب.. غير أني أقول لكم

بعض هذا الحضور: غياب

وبعض الغياب: حضور طويل!!

● لم أذهب إلى لندن بعد رحيل (صديقي) ـ بأقصر عمرٍ للصداقة ـ الشاعر/ العصر: نزار قباني، إلا مرة واحدة، قلت فيها لصديق الصدق، الكاتب الكبير/ عرفان نظام الدين، ولصديق الكلمة الضاحكة في أمسيات الحزن، الصحافي الشهير/ سالم الدوسري: صعب أن أهبط لندن، وأفتقد فيها هذا الحبيب مُتجوِّلاً بصوته في سمائها: قمراً، ومطراً، وقوس قزح!!

كيف أذهب إلى لندن ولا أجده في انتظاري مهللاً منادياً: أهلاً بحبيب قلبي؟!

ما أبشع الأمكنة بعد رحيل من أحببناهم عنها... وما أبشع المدن التي تتحول إلى "شاهد قبر" على مَن أحبُّوها!!

[و. . . . . . . من البعيد، جاءتني أصداء صوته تُردِّد:

[ـ " . . . وحجزتُ تذكرتي

[وودَّعت السنابل، والجداول، والشجر

[وأخذت في جيبي تصاوير الحقول

[وأخذتُ: إمضاء القمر!!

[وأخذتُ وجه حبيبتي، وأخذتُ رائحة المطر

[قلبي عليكَ وأنت ياصوتي: تنام على حجر"!!

[● فماذا أبقى لنا "نزار" في دنيانا هذه التي حُشدت فيها القنابل والدماء، بعد أن أخذ معه كل شواهد الجمال هذه تحت شاهد قبره؟!!

● ● ●

[● ذات يوم.. كتب إليَّ هذا الدمشقي الذي احترف الهوى عمراً فاخضوضرت لغنائه الأعشاب/ أمير اللون المنطلق الذي يختزن داخله حباً كبيراً/ نزار قباني، وقد تعوَّدت على رسائله الصباحية شبه الأسبوعية عبر الفاكس، وهو بالنثر ويبكي بالشعر... فيسكب في قلبي حليب النهار في أقصر رسالة الحب:

[ـ (حبيبي/ عبد الله:

[أُعلن عليك/ أيها "الفتى" الأبيض شَعراً، الأخضر قلباً، فأطالبك أن تبدأ في سداد فاتورة الزمان بدلاً عني... فأنت وأنا: زهرتا حب قُطفَت ووضعت على قبر قصة عشق احتضرت في موت العالم اليوم بالحقد، وبالأطماع، وبالحروب!

[دعني ـ إذن ـ أُسميك: "المجنون" .. لعلك تنجو من "عقل" عالم اليوم)!!

● ● ●

[● وذات يوم... سألت صديقي الحبيب/ عرفان نظام الدين، وهو الذي دلَّني على طريق "نزار" حين كان بالمستشفى بلندن:

[ـ هل تعتقد ونحن في لهيب هذا القرن الجديد: سنعثر على قارىء عاشق لديوان شعر، وعلى متذوق لموسيقى راقية، وعلى متأمل للوحة مستغرقاً حتى ينسى نفسه؟!

[ـ أجابني عرفان يومها: إنه عصر "الساندويتش" يا صديقي.... ساندويتش فقط!!

[و.... باقٍ هنا، كلما قرأت قصيدة لنزار قباني ـ رحمه الله ـ لابد أن تنطلق بالونات ملوَّنة، وتسطع أضواء عيد الحب، وتتفجَّر كالماء العذب: كركرةُ طفل ينعم بصدر أمه، وتتصاعد: "شيْطَنَةُ" فتى، وتُزغرد: خفقة قلب تطلب من محبوبها أن يصونها!

[باقٍ هنا.. أتذكر هذا الدمشقي الذي احترف الهوى، أُسقيه آخر رشفة ارتواء من شعره:

[ـ أُقدمْ موتي إليك على شكل شعر

[فكيف تظنين أني أُغنِّي؟!

وحده.. كرسي نزار؟!

[● لو كان للموتِ طفل

[لأَدركَ: ماهو موت البنينْ!

[ولو كان للموتِ عقل

[سألناه: كيف يُفِر موت البلابلَ والياسمينْ

[ولو كان للموتِ قلب

[تردّد في ذبح أولادنا الطيبين!!

● وحده "كرسي" نزار.. ذلك الهزَّاز:

لا أدري.. لماذا أحتل ذاكرتي أو تذكُّري هذا اليوم... بل وأضاء رؤاي ورؤيتي، وقد استعدتُ "صورته" في موقعه ذاك: وسط تلك الغرفة المستطيلة الموحشة اليوم بعد غياب ضوئها وعطرها؟!

يتطوح الآن إلى الوراء، وإلى الأمام.. ومن البعيد أصداء من صوت نزار:

[ـ "سامحيبني يا سيدتي

إذا هربتُ من عباءة العباس بن الأحنف

وشيزوفرينيا ديك الجن الحمصي

وبرغماتية عمر بن أبي ربيعة

وسمَّيتك: وردة المنفى"!

طفرت دمعة من عينيَّ، وقد استيقظ انتباهي على صوتي يهمس: يا أيها الحب الجميل.. كيف مُت؟!!

كأنَّ هذا الكرسي الهزاز ـ وحده ـ صار يُعبر اليوم في تطويحه عن واقع الشعر العربي المعاصر المتطوِّح........ فهل نواصل الرثاء؟!

وهل تسمحون لي ـ يا سيداتي وسادتي ـ أن أبكي الآن: نزاراً من جديد؟!

أتخيل كرسيه مازال وسط تلك الغرفة المستطيلة: لم يعد يهتز طرباً.. فالذي كان يُحدث التفاعل فيه: مات.... فهل هو باق/ ذلك الكرسي في مكانه؟!

أتخيل الغرفة المستطيلة الصغيرة تلك: تكبر، وتكبر، فتتحول إلى صالون ملوكي، إلى إيوان، إلى طريق بامتداد الدنيا حتى قبر نزار.. إلى بيت شعرٍ نزاريٍّ لا يموت.. ليخف صداه:

ـ "إلى أين يذهب موتى الوطن"؟!

●●●

● أي موت هذا الذي لا يميت الإنسان، بل يزيده حياة وصداحاً؟!

● أي حياة هذه التي يتفوَّق فيها الموتى على الأحياء.. ويتفوق عليها موتٌ يحيا؟!

حقاً.. كلما تتقدم بنا الحياة إلى النسيان، يستعصي "نزار" على هذا التقدم... التقدم الوحيد الذي استعصى عليه نزار، هو الذي كانت دعوته الأولى بمشعل التقدم!

فكيف نجرؤ على نسيان كل هذه "الذاكرة" العظيمة للحب.. وهل ننسى الحب من بعده؟!

إذا حاول واقعنا على إرغامنا على نسيان الحب... فقصائد "نزار" تبقى هي: قلب الحب الخفَّاق النابض أبداً!!

• رؤية سليم نصار وحوار حسن القرشي !؟

[• قل للذين بأرض الشام قد نزلوا

[قتيلكم لم يزل بالعشق مقتولا

[ياشام. . . ياشامة الدنيا ووردتها

[يامَن بحسنك أوجعت الأزاميلا

[وددتُ لو زرعوني فيك: مئذنة

[أو علقوني على الأبواب: قنديلا!!

[● تزامن توقيت زيارته لمدينة "جدة"، حيث البحر الأحمر يحتضن عروسه ويُقبِّلها كل صباح ومساء، مع توقيت معاناتي الشديدة من آلام في الظهر والقدمين. . . فكان يتعذر عليّ: الوقوف والمشي، فاعتبرت عجزي هذا: سوء حظ لي. . أفسد حرصي الشديد على الإلتقاء بهذا الكاتب الصحافي العتيق، ومتعة الحوار الجميل معه، وهدهدة "سيرة" حبنا الموحِّد عن حبيبنا الشاعر الكبير الراحل جسداً/ نزار قباني!

[جاءني صوت الأستاذ/ سليم نصار عبر الهاتف: ودوداً من نبع شخصيته، يقول لي:

[ـ هناك من قرائك من قال لي: إنك أبكيتهم بما كتبته عن رحيل نزار.. وتعرف محبتي لنزار، وقد كتبت عنه بعنوان: "نزار قباني.. الطبيب والإرهابي"، ولعلني أبعث إليك بما كتبت، وأيضاً بقصاصات مما نشرته بعض الصحف اللبنانية ولم تقرأه أنت.

[● قلت: إنك تهديني باقة من الياسمين الذي مجَّده نزار في قصائده... فكيف أراك؟!

[ـ قال: سأحرص على زيارتك في كرْمتك.

[وللمرة الثانية.. كان توقيت مواعيده وضيق مساحة زيارته لجدة: حائلاً دون ذلك اللقاء الذي أحببت أن يتم، حتى سمعت صوت صديقي الطبيب، أو الحكيم بلهجة أهل لبنان: وائل صيقلي، يطمئن على "ديسك ظهري" ويبلغني تحيات صديقنا "سليم نصار" الذي تلفَّع بضباب جدة وبعث لي أوراقاً نزارية.. فرحت بها، وكنت سأزداد غبطة لو تسلمتها بحضور الصديقين!

●●●

[● وكان لابد لي أن أتوقف "مترنماً" بهذه الكلمات، التوصيف، التحليل لشعر نزار بقلم ورؤية "سليم نصار"، الذي كتب يقول عن نزار وشعره:

[ـ "أثمرت لغته الشعرية أدباً غنياً بالإيقاع والصورة، اعتبره النقاد كسراً لقوانين تحجُّر نظام القصيدة، وصياغة متجددة أسست لولادة ظاهرة نزارية ذات أسلوب مميز ونمط متمرد.

[لذلك.. اعتبرت قصائد نزار: وصْفة طبية تصلح لكل حالات

الأمراض العربية نظراً إلى ماتتضمنه من عزاء للمحبطين، ومخدر للعاشقين، وعنف للخانعين، وأمل لليائسين"!!

[● إذن... في كثير من قراءاتي لطرح الكاتب والصحافي العربي الكبير/ سليم نصار، كنت أتلمس محوراً مشتركاً أحسبه يجمعنا، وتتجمع في معانيه وأبعاده بذرة من هذا العشق للإحتماء بمعرفة وبوجدان عربي عظيم.

[وهذا المحور المشترك ـ أيضاً أتوحَّد معه في رؤية ورؤى شاعرنا الحجازي الكبير / حسن عبد الله القرشي، الذي كان يواصل إرغاده لي بالسؤال عني هاتفياً، رحمه الله... فيطلع في هالة هذا "الكبير"، المعلم الذي يفرح بتدفق المعاني على درب الإبداع: كلمة، ورأياً، ورؤية.. ومتابعته لما أكتب: لابد أنها تشحذني بمزيد من هذا التفاعل والدفء.

[● قال لي يوم أمس: متى يحين توقيت "الأربعين" على رحيل نزار قباني؟!

[ـ قلت له: في إحساسي كأنه مات اليوم.. فما زالت الدمعة لائجة في عيني.

[● قال: لقد أفضت من قصيدة رثائي فيه، وأريد نشرها في أربعينه.

[ـ قلت: أنشرها في أي وقت لتُجدد خبر موته.. وتغرس في حقل خلود شعره: قصيدة تحييه من جديد!!

[يرحم الله "نزار قباني" .. الحكاية المعشبة أبداً بين ضلوعنا..... بلا انتهاء.

في أول حديث لمطبوعة عربية بعد مغادرته المستشفى

● نزار قباني لـ "البلاد":

●كل كلمة حب تأتيني
تغمرني بأمطار العافية !؟

● اهتمام إخواني السعوديين
يمنحني المزيد من القوة.....

[● لندن/ البلاد ـ خاص:

[غادر مستشفى (ST. THOMAS) بلندن صباح يوم الجمعة الماضي: الشاعر العربي الكبير/ نزار قباني، بعد أن أمضى ثلاثة أشهر للعلاج من أزمته الصحية الحرجة التي كثَّفت قلق الملايين العرب من عشاق شعره ونثره، من المحيط إلى الخليج، وفي أنحاء العالم.

[ويتمتع الشاعر الكبير الآن بقضاء فترة النقاهة في منزله بلندن محوطاً بحب القراء والقارئات العرب، دون أن يكفَّ هاتف بيته عن الرنين بأصوات العرب الذين يتصلون للإطمئنان على صحته.

[ولقد بادر الزميل "عبد الله الجفري" ـ بعد الإنتهاء من إجراء فحوصاته الطبية على قلبه في مستشفى "لندن بريدج" واطمئنانه على النتائج ـ فقام بزيارة خاصة لصديقه الشاعر الكبير/ نزار قباني في منزله الذي لم يستقبل فيه أحداً بعد خروجه من المستشفى سوى أهله وخاصة من محبيه ومحبهم، كما قال الأستاذ نزار.

[● قال الزميل "عبد الله الجفري" للشاعر الكبير:

[ـ حمَّلني الزملاء في صحيفة "البلاد" السعودية بصوت رئيس تحريرها الأخ "قينان الغامدي": تحية محبة لك وأمنياتهم بالشفاء العاجل، ويطمعون أن تمنح (البلاد) أول الغيث من كلماتك لتكون أول صحيفة عربية يتحدث إليها نزار قباني بعد المرض، وتُطمئن قُرَّاءها/ عشاق شعرك على صحتك؟

[ـ أجاب الشاعر الكبير قائلاً: أكثر من (١٠٠) مليون عربي من المحيط إلى الخليج وفي أنحاء العالم حتى البرازيل.. عبَّروا عن قلقهم عليَّ أثناء أزمتي الصحية، وكنت أسعد الناس باتصالاتهم من كل مكان، وشعرت بالفخر العظيم.. فكل كلمة حب تأتيني تغمرني بأمطار العافية.

[وهذا المطر القادم من المملكة العربية السعودية يحمل إليَّ المزيد من العافية، والمزيد من القوة، ويدفعني للعودة إلى أوراقي بحماس ونهم كبيرين.

[ـ وأضاف: كنت أنتظر الصوت السعودي.. فكيف إذا كان حامل الصوت هو الصديق الكبير الشاعر/ عبد الله الجفري، فهنا اجتمع المجْدان: مجد ناقل للرسالة/ عبد الله الجفري، ومجد أن تكون الصحيفة هي "البلاد" الغرّاء التي طلبت مني الكلام أولاً.

[فهذه كلماتي الأولى إليها ومن خلالها إلى قرائي الأحبَّاء، وأرجو أن يستمر المطر السعودي يُبَلِّلني ويبلل قصائدي وأوراقي.

● صحيفة (البلاد) السعودية

● ٨/ ديسمبر ١٩٩٧م

● ٨/ شعبان ١٤١٨هـ

عبد الله عبد الجبار
يُثَمِّن صداقة الجفري مع نزار قباني

نزار يُعيِّن الجفري موظفاً في مصلحة بريده!

[● البلاد ـ خاص:

[في حوار هاتفي مع الناقد الكبير الأستاذ: "عبد الله عبد الجبار" أعرب عن سعادته بالتواصل الإنساني والفكري بين عملاق مبدع في حجم الشاعر الكبير "نزار قباني"، مع مبدع من الوطن تشهد له الساحة الأدبية المحلية والعربية بعطائه المميز المتدفق هو الكاتب الإنسان: "عبد الله الجفري".

[ـ قال الرائد (الأستاذ) عبد الله عبد الجبار: لقد أسفر اللقاء اللبناني الذي تمَّ بين نزار والجفري عن صداقة رائعة يتابعها القارىء بسرور وإعجاب، وهي تذكرني بصداقة الكبار، وأخلاق وسلوك الكبار في زمن كثرت فيه ـ للأسف ـ المشاحنات والمهاترات والمغالطات بين أهل الأدب والفكر، حتى وصلنا إلى "عملقة الأقزام".

[ـ وأضاف الأستاذ عبد الله عبد الجبار قائلاً: الجفري.. كان سفيرنا

ومندوبنا الذي حمل معه باقات الحب والتقدير، أحلى الأماني لشاعر الوطن العربي الكبير: "نزار قباني".. فكان خير سفير ومبعوث، وخير ممثل لنا جميعاً!

[ولا شك أن رسائل "نزار" إلى "الجفري" خاصة الأخيرة.. هي شهادة تقدير، ليست للجفري فقط، بل لكل قارىء تابع كاتبنا طوال رحلة إبداعه الفكري الثرية الراقية.

[● وقد أكد الاستاذ الكبير "عبد الله عبد الجبار" أنه: "في مقدمة هؤلاء القراء" .. وقال:

[ـ إن هذه الرسائل هي: شهادة تقدير للأدب السعودي، خاصة وأنها تصدر من شاعر القرن العشرين/ وموجهة إلى أحد أبرز فرسان الساحة الأدبية في المملكة.. ويكفي "عبد الله الجفري" اعتزازاً وسروراً: أن نزار قباني (وفي هذه المرحلة بعد أن اكتملت له عبقريته): جعله يتقاسم معه مملكته وثروته الأدبية، وجعله يوزع (١٠٠) مليون رسالة عشق، ونزار يوزع النصف الآخر.. جعله يجلس بجانبه جنباً إلى جنب، ليُدخِلا معاً: الحب، والعشق، والسعادة إلى قلوب (٢٠٠) مليون قارئ عربي، وهذا أمر لم يقدمه"نزار قباني" لأحد من قبل، وعطاء لم يحظ به كاتب سوى الجفري!

[والكتابة عن "نزار": أقلَّ ما يقدم لمبدع كبير أمتع هذه الأمة بالكثير، فهنيئاً لهما وللقراء بهذه الصداقة الرائعة التي تمتعنا كقراء بأجمل المخاض الفكري لمبدعين اعشوشبت الساحة بإبداعاتهما!

[وكان الكاتب الأستاذ "عبد الله الجفري" قد تلقَّى من الشاعر الكبير "نزار قباني" رسالة عبر الفاكس، جاءت تعبيراً جياشاً إثر قراءة الشاعر نزار قباني لمقال كاتبنا "الجفري"

الذي نشرته صحيفة "البلاد" بتاريخ ١٤١٨/٨/٢٣هـ، وقرأه الشاعر الكبير.. فبادر بكتابة هذه الرسالة:

• • •

● لندن ١٩٩٧/١٢/٢٩م

[الرائع/ عبد الله الجفري:

[أسعد الله صباحك.

[ما كنت أحسب أنك سوف تأخذ منصب السفارة مني، وتتولى الكتابة إلى (٢٠٠) مليون عربي، ناقلاً لهم رسائل عشقي وعرفاني.

[ماكنت أحسب ـ يا صديقي المبدع ـ أنك سوف تأخذ مني لغتي، وأوراقي، وأقلامي.. وتسمح لي أن أستعمل عمودك اليومي ليكون قافلة من ياسمين تسافر من الماء.. إلى الماء.

[فماذا تركت لي أيها الجميل؟!

[وبأي لغة بعد اليوم سأخاطبهم؟!

[هذه الليلة سوف أنام مرتاحاً.. لأن عبد الله الجفري قبِل أن يقتسم معي لعبة العشق، ورضي أن يكون موظفاً كبيراً في مصلحة بريدي.

[بعد اليوم.. سيكون نصيبك توزيع (١٠٠) مليون رسالة عشق... وسيكون نصيبي توزيع النصف الآخر.

[لذلك لن تضيع بعد اليوم أية رسالة عشق!!

● أخوك / نزار قباني

● صحيفة (البلاد) السعودية

● ١٥ / ديسمبر ١٩٩٧م

من لوحات "نزار"
فكراً وإحساساً

• إنني أحمل أوراقي، وأقلامي

وأحزاني... على ظهري

وأبني بحروفي مدناً

فإذا ما صادروا شمس بلادي

فبِشعْري سوف أبني وطناً !!

• قال نزار قباني: لقد وصل الإسرائيليون إل حلوقنا.

اخترقوا الحاجز الكرتوني الذي يسمُّونه الكرامة العربية، والعنتريات العربية، والأكاذيب العربية... وصاروا في فناجين قهوتنا، وألحفة أسرَّتنا، وملاعق طعامنا.

ثقبوا غشاء الشرف العربي الذي كان أرقَّ من ورقة السيجارة وحوَّلونا في ليلة إلى بغايا!!

• • •

[● لم نكن بحاجة إلى مَن يضربنا أو ينسفنا أو يغتالنا من الخارج، فقد ضَربنا ونسفنا أنفسنا، واغتلنا بعضنا بعضاً من الداخل على مدى سنين، ووفَّرنا على الجيوش الأجنبية شرَّ القتال!!

● ● ●

[● الشعراء ليسوا جنرالات، ولا يعطون التعليمات من غرفة العمليات، ولا يعلنون الحرب، ولا يوقفونها!!

[ولو كان مسموحاً للشعراء أن يكونوا في مركز اتخاذ القرار، لما امتلأ العالم بالمجازر العرقية والعنصرية، ولما حولت قنبلة هيروشيما ٢٥٠ ألف ياباني في ثانية واحدة إلى شوربة بشرية تتبخَّر!!

● ● ●

[● صحيح أن الإنسان يمكن أن يكتب من داخل معتقل، أو من داخل زنزانة، أو من داخل قبر ... ولكن الكتابة من داخل جزمة إسرائيلية هي وجع قومي لا يطاق، فاعذروني إذا قطعت أمسيتي من نصفها، ولملمت أوراقي وخرجت من القاعة.. فالجنود الإسرائيليون احتلُّوا المسرح، ورفعوا أرجلهم على المقاعد، وأنا لا يمكنني أن أقول شعراً من داخل جزمة إسرائيلية .. هذا هو قراري، فابحثوا عن شاعر غيري يقوم بهذه المهمة المستحيلة!!

[● كتب "نزار قباني" قصيدته الشهيرة: "المهرولون"، ويومها علَّق نجيب محفوظ عليها قائلاً: "إنها قوية جداً، أشبه بقنابل تُفرقع في وجه عملية السلام، ولكن.. دون أن تقدم بديلاً، لقد أعجبتني رغم اختلافي

السياسي معها، إنني لا أنفي إعجابي بها، ومن يُشارك نزار قباني موقفه، سيجد فيها تعبيراً قوياً عن هذا الموقف، لكنه موقف"!!

● ● ●

[● وردَّ "نزار" على النوبلي/ محفوظ:

[ـ ماذا أفعل إذا كان أستاذنا "نجيب محفوظ" مصنوعاً من القطيفة، وكنت مصنوعاً من النار، والبارود؟!

[ماذا أفعل إذا كانت الرواية عنده جلسة ثقافية هادئة في (مقهى الفيشاوي) .. وكانت القصيدة عندي: هجمة انتحارية على القبح والانحطاط والظلام، والتلوُّث السياسي والقومي؟!

● ● ●

[● الذي يدعو إلى الدهشة في كلام الأستاذ/ نجيب محفوظ هو: مطالبتي بتقديم بديل لعملية السلام المتعثِّرة، كأنني السكرتير العام للأمم المتحدة، أو عضو دائم من أعضاء مجلس الأمن، أو كأنني المسؤول عن صياغة النظام العالمي الجديد!!

● ● ●

[● عندما كتبت "خبز وحشيش وقمر" عام ١٩٥٤، كانت الغيبوبة: جزئية، والشلل: نصْفياً... أما الآن فإن الجسد العربي فقدَ حساسيته القومية نهائياً، فهو لا يحسب آلاف المسامير التي تُغرز فيه، ولا بآلاف السكاكين التي تعمل فيه بَتراً وتقطيعاً!!

● ● ●

[● في الماضي كان: القمر هو الذي يسطلنا، ويأخذ عقولنا، فنقف أمامه كالبهاليل... أما اليوم فقد دخل مرحلة الكوما المزمنة، بحيث لا يهزنا شيء، ولا يحركنا شيء، ولايؤثر في جلودنا ضرب السياط.

[فهل نحن (١٥٠) مليون مواطن عربي، كما تقول الإحصاءات، أم نحن (١٥٠) مليون سمكة موضوعة في الفريزر؟!!

● ● ●

[● لا قيمة لفن لا يُحدِث ارتجاجاً في قشرة الكرة الأرضية، ولا قيمة لقصيدة لا تُشعل الحرائق في الوجدان العام، ولا قيمة لشعر يحترف التبخير والخوف والتستر.

[يكون الشعر: كشفاً، وإضاءة، وتعرية للزيف والزائفين، أو لايكون... وكل قصيدة عربية معاصرة تُجامل، تنافق، وتتستَّر على رداءة التمثيلية وتفاهة الممثلين: تتحوَّل إلى ممسحة على أقدام حاكم!!

● ● ●

[● ليس من وظيفة القصيدة أن تقترح الحلول، وتجد البدائل، وتكتب الروشتات للمرضى المعاقين.

[أما الشاعر: فهو يشتغل بمادة سريعة الإنفجار، لايمكنه أن يؤجل التعامل معها إلى فترات طويلة، وإلا انفجرت بين يديه.

[الشعر: برق.. لا عُمْر له!!

فيض من الحب ؟!

● **تفضل شاعر الأصالة/ محمد إسماعيل جوهرجي، بهذه القصيدة التي كتبها رثاء في الشاعر/ العصر، مثلما هو رثاؤه للواقع العربي... وكتب لي في مقدمة هذه القصيدة يقول:**

ـ تهانيَّ الصادقة بما جادت به قريحتك في هذه الكلمات العسجدية (الكتاب) عن: الشاعر / العصر، وعصر الشعر: أستاذ الجيل/ نزار قباني، رحمه الله رحمة الأبرار... وإليك، وإلى روحه: "فيض من الحب":

غَنِّي على الأيكِ على يا قُمرية العَذَبِ
فصوتُكِ الغضُّ قد يُجدي لمُكْترِبِ
"نزارُ": ولَّى، وما زالت خرائده
تفوحُ كالعطر أو كالمسك في الطِّيَبِ
يُنغِّمُ الشعر بالألحان يسكُبه
ويرسمُ اللَّفظَ ألواناً على الهُدُبِ
يا أيها العَنْدلُ الغِرِّيد مُجتلياً
معازفَ الحب ألحاناً من الطَّرَب
قد كنتَ للشعر قيثاراً يُمتِّعنا
بِراهفِ الحس في زَهوٍ وفي خَلَبِ

أمـضـيـتَ عـمـرك تـسـعـى فـي مُـبـارزةٍ
وليس في السَّاحِ مَنْ يقوَى على الطَّلَب
قومي هُمُو الصِّيدُ لكنْ جفَّ نبضهُمو
يسْتَركضون وراء الغَثِّ . . واعجبي!
وكنتَ فيهم أميرَ الشّعر تُبصرهم
بما يكونُ من الأهوالِ في عَتَب
أفنيتَ عمرك في سَكْبِ الشَّجا ألماً
بما تُحسّ من الإعياء والتَّعَب
وبِتَّ ترسم نبضَ الحرف مُصطلياً
بواقعِ العُرْب تجلو غُمَّة الضَّبَبِ
كفاكَ بَوْحاً فقد أفضَيْتَ مُحْتَسِباً
بما تُعانيه من بَرْحٍ ومن نَصَب
ورُحْت تُسْرج قنديلَ الرُّؤى أملاً
ألاَّ نَسِفَّ ونرضى . . الهَطْعَ للرَّكَبِ
هذي فلسطين تشكو مِنْ تمزُّقِنا
الله أكبر كَمْ في الخَفْقِ من نُدَبِ
شارونُ يسرحُ لا يخشى مقاومةً
يا وصْمةَ العارِ في ما حَلّ من وَصَب؟!
فنَمْ قريراً أميرَ الشِّعر مُحتفياً
بمَا تركْتَ من الإحساس بالعَرَبِ . .

بعض خطابات نزار
بخط يده

N. KABBANI
5 HERBERT MANSIO
35 SLOANE STREE
LONDON SW1X 9LP
Tel: (071) - 2355773
FAX: (071) - 2456659

رسالة من نزار قباني إلى عبدالله الجفري - جدة

لندن ٢٤ ديسمبر ١٩٩٤

أخي عبدالله،

ما أجملك حين تكتبُ عن التاريخ. تاريخي.

وما أقوى ذاكرتك حين تستحضر تفاصيل رحلة (الهولندي الطائر) بحراً بحراً.. مرفأً مرفأً.. عاصفةً عاصفة.. إمرأةً إمرأة..

ثم ما أصدقك حين تقول: إنني أدخلُ الأشياءَ ولا أخرجُ منها أبداً..

لماذا أخرج؟؟

إن أهمّ القصائد هي تلك التي لا تحمل تأشيرةً للعودة...

فأنا لا أؤمن بكاتبٍ يطالب ببوليصة تأمين على أصابعه قبل أن يكتب..

ولا بقصيدةٍ تلبس قميصاً واقياً من الرصاص،

ولا بعاشقٍ يدخُل بحرَ العشق، ومعه طوقُ نجاة...

أما قبيلتي فلا أزال أحبّها.. وأحِنُّ الى عُيون عفراء.. وكلِّ عفراء..

وخلاخيل الفضة في قدميها..

ولكن ماذا أفعل، إذا كان أبو عفراء لا يُحبّني.. ولا يُحبّ شعري..

ولا يريدني صهراً له ؟؟

ماذا أفعل اذا كان أعمامي وأخوالي، طردوني من خيامهم

حتى اضطررت الى نصب خيمتي في حديقة (هايد بارك) في لندن ؟

ماذا أفعل إذا كان عمّي (أبو عفراء) يرفضُ تغزّلي بابنته..

ويحرّض كلابَ الحيّ على عضّي.. ويصرخُ بي كلما اقتربتُ من باب خيمته:

لا إمضِ قيس.. إمضِ..

هل ترى جئتَ تطلبُ ناراً..

أم ترى جئتَ تُشعِلُ البيتَ نارا ؟؟.. "

نزار قباني

لندن ٥/٦/١٩٩٥

الحبيب عبدالله:

هذا الصباح اكتشفتُ مجنوناً آخر يشبهني..
بنوباتِهِ (القلبيّة)...
ونوباتِهِ العصبيّة..
ونوباتِهِ الكتابيّة..

فماذا أفعل لكَ، إذا كنتَ لا تسمع كلامَ الأطباء...
وترفضُ الحبوبَ المهدّئة.. وتعضُّ على أيدي الممرضات؟.
بعد اليوم.. لن أكون مسؤولاً عنكَ، إذا حبسوكَ
في غرفةٍ إنفرادية.. ومنعوا عنكَ الكلامَ.. والسجائرَ.
والفاكسات.. ورسائلَ الحبّ..
سلامٌ عليكَ، أيّها الرجلُ الذي لا يتوب:

(ما تُبتُ عن عشقي، ولا استغفرتُهُ
ما أسخفَ العشّاقَ، إنْ هُمْ تابوا...)

نزار قباني

نزار قباني - لندن
Tel: (0171) - 2355773
Fax: (0171) - 2456659

لندن ٦/٧/١٩٩٥

يا حبيبنا عبدالله.

شكراً على كلماتك التي تتدفق حباً.

راجياً أن يديم الله علينا نعمة الحب... حتى لا نتصحّر.. ونصير من فصيلة نباتات الكاكتوس.. أو من فصيلة رجال السياسة !!..

يسعدني أن أرسل لك عنواني اللندني، راجياً أن تبقيه بين أسرارك الخطيرة:

N. KABBANI
5 HERBERT MANSIONS
35 SLOANE STREET
LONDON SW1X 9LP
U. K

مع الحب كله.

نزار

نزار قباني - لندن
تلفون 2355773 - 0171
فاكس 2456659 - 0171

لندن ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦

يا حبيبنا عبدالله،

ما تختارُهُ أنتَ للنشر أختارُهُ أنا..
فبيني وبينكَ ميثاقُ حُبٍ وشعر.. أهمُّ من ميثاق الأمم المتحده..
وشريعة حقوق الإنسان.. وملفّات جامعة الدول العربية..

أما الشاعرُ المجهول الذي كتَبَ إليكَ، فأستغرب أنه
استعمل قناعاً للتعبير عن معاناته القومية، وغضبه الكبير، لأنَّ
الدراما العربية لا تحتاج الى أقنعة..

وسلامٌ على أصابعكَ التي تمطر علينا ورداً وحناناً
كلَّ صباح.

نزار قباني

نزار قباني - لندن
Fax : 0171-2456659

أخي وصديقي الحبيب عبدالله

بعدما رأيتُ جواهرك تتناثر بين أصابعي كحفلة ألعاب ناريّة هذا الصباح، نسيتُ كل جواهري.

فشكراً لك أيها الصائغ الكبير، الذي استطاع بنار العشق أن يحوّل اللغة الى سبائك من الذهب.. ويحوّل القصائد الى طواويس بألف لونٍ ولون..

وشكراً، يا عبدالله، لأنك قرأتني بحضارة.. فالمتحضّرون وحدهم، يعرفون كيف يلامسون جسد القصيدة.. وكيف يستخرجون اللؤلؤ من شواطئها.. وكيف يعزفون على نايِ أنوثتها..

مع الحبّ الذي تعرف.

أخوك

نزار قباني

١٩٩٦/١٢/١٤

جدة / ٢٤/٣/١٩٩٧م
١٥/١١/١٤١٧هـ

الحبيب الشاعر / نزار قباني

موسيقار تنويعات الكلمة على مقام العشق.

منذ الـ (٢١) مارس .. وأنا أحاول الكتابة إليك بلغة تخص (مقاماتك) ومقامك في نفوسنا .. وتطلع سنبلة من أمنياتنا لك بمزيد من غرسات العشق في عمرك المديد .. وتغرد طيور رباب!

وَشَتْ بعيد ميلادك عندي: حسناء "لاشبيهٌ لوَشْيِها"، ولا أظن لوشيها .. فزادتني إمتاعاً بمقاماتك!

كل عام وأنت "مولانا"، وبحور شعرنا، وموسيقى شجونا.

في عيد ميلادك / الناي .. ألْيعزف أبجدية حبنا وشجننا...

كلماتنا: قبلات تهنئة لك، أيها الشاعر / التاريخ / النشيد القومي لخفقنا.

إسلم لبوحنا، ودُمْ مواسم ياسمين لنا

أخوك

عبدالله الجفري

لندن ٢٤ آذار ١٩٩٧

يا عبدالله ،

أيها الأكثرُ من رائع..

كنتُ أظن قبل – فاكتشفتُ القصيدة – أنني وُلدتُ في ٢١ آذار ، فقصّوا حبلَ مشيمتي.. ولفلفوني بالقماطات البيضاء.. ووضعوا في رقبتي خرزةً زرقاء.. وآيةَ (ما شاء الله)... وانتهى الأمر..

ولكنني اكتشفتُ ، بعد كلماتك المسكونة بالعسل والعشق ، أنك دخلتَ بملابس الأطباء الى غرفة الولادة.. لتخرجني مرةً أخرى من بطن أمي.. وتدهنَ جسدي بالمسك والكافور.. وترشّني بماء الشعر....

فيا عبدالله ، كيف تحوّلتَ من كاتب جميل.. إلى (قابلة قانونية).. تتولى إخراج الشعراء من بطون أمهاتهم.. الى فضاء الحرية..؟

كم أنا سعيد بولادتي الثانية على يديك...

وكم أنا سعيد أن تكون طبيبي ، وشاهدي ، وعرّابي..

وكم أنا سعيد أن أترعرع على حليب حنانك (الكامل الدسم)

أما السيدة التي وَشَتْ بعيد ميلادي لديك ، فيجوز أن تكون أمي ، أو أختي ، أو حبيبتي.. لكن أية أنثى على ظهر هذا الكوكب العربي.. لا بدّ أن تتذكر ماذا فعل نزار قباني من أجل أنوثتها.... ومن أجل حريتها وعنفوانها...

يا عبدالله الذي تحدّرتُ من ينابيع عشقه ، وسلالات كلماته ، ونكهات حضارته...

سلامٌ عليك يا أبي..
سلامٌ عليك يا أبي..
سلامٌ عليك يا أبي..

نزار قباني

لندن ٢٩/١٢/١٩٩٧

الرائع عبدالله الجفري

أسعد الله صباحك.

ما كنتُ أحسب أنك سوف تأخذ منصب السفارة مني،
وتتولى الكتابة الى ٢٠٠ مليون عربي، فتنقل لهم رسائل عشقي
وشكاواي وحرماني.

ما كنتُ أحسب، يا صديقي المبدع، أنك سوف تأخذ
مني لغتي.. وأوراقي.. وأقلامي.. وتسمح لي أن أستعمل عمودك
اليومي لتكون قافلةً من ياسمين تسافر من الماء.. الى الماء..

حتى لغتي أخذتها مني يا عبدالله، فمن أين أخترع
لغةً أخرى أرد بها للناس فضلهم؟
فماذا تركتَ لي أيها الجميل؟
وبأي لغة بعد اليوم سأخاطبهم؟؟

هذه الليلة سوف أنام مرتاحاً..
لأن عبدالله الجفري قَبِل أن يتقاسم معي لعبة العشق،
ورضيَ أن يكون موظفاً كبيراً في مصلحة بريدي...
بعد اليوم.. سيكون نصيبك توزيع ١٠٠ مليون
رسالة عشق..

وسيكون نصيبي توزيع النصف الآخر...
لذلك لن تصلني بعد اليوم أي رسالة عشق...

أخوك
نزار قباني

وطن.. فوق الإرهاب!

يا وطني الأمجد

وطني النابض في أوردتي.. يسألني:
كم من العمر مضى.. يا شاعري
والدفء يستبطن منك العظْم
يلقى في مساءاتك حلو الشجن المغدق رياً
والهوى: يغزو مناخاتك
فيضاً.. في نواحيك مديداً
عامر الأنس خفياً!!

أحمد صالح الصالح/ السعودية

يا أيها «الوطن» المجيد:

كانت في السماء أذانات تعلو، وما زالت تردد: الله أكبر، الله أكبر.

هذا هو المنطلق الذي لن تحيد عنه ـ يا وطني ـ ولن ترتد عنه: كل ذرة رمل، وكل غرسة حقل، وكل عقل، وكل خفقة قلب.

يا وطني: هذا الإيمان يُمجّدك.

يا وطني: أنت ضوء، وليس للضوء صوت. . لكنك تمحي كل ظلمة.

فيك ـ يا وطني ـ تحولت حناجر الناس إلى: مآذن، وعيونهم إلى: شموس، وأصواتهم إلى: خطوات.

صارت جباه أهلي فيك: وطناً. . للوطن!

هكذا نتبعث كل عام لنحتفل بك أيها الوطن الأغر. . بيوم الوطن.

الاحتفال عندنا يعني: تجسيد الانتماء لك.

في كل صبح جديد يشرق على أرضك وإنسانك. . تتمايل الأوراق الخضراء: زهواً بالحياة على أرضك، وبالأمان والاستقرار في حضنك. . وتتحول الرمال إلى: غرسة، والصحراء القاحلة إلى: حقول، وورود، وحنطة، وذهب!

إنبلج الفجر على امتداد تاريخك ـ يا وطني ـ هذا الفجر الذي ولد

بمعطيات صُنَّاع التاريخ. . وأعزهم، وأشرافهم، وأعظمهم: محمد بن عبد الله/ نبي هذا الأمة الإسلامية، ومعلمها، ومهذبها، وهاديها إلى الصراط المستقيم، صلى الله عليه وآله وسلم.

«من هنا شعَّ للحقيقة فجر من قديم. . ومن ها هنا: يتجدد»!!

والإنتماء إلى الوطن/ إليك: يعني مواصلة تجديد العزيمة، وصناعة التاريخ الذي يزيد المسلمين رفعة، وإعزاز العقول والرجال المثمرين.

هكذا يترجم «إنسانك» فرحته، واحتفاءه بالوطن.

هكذا تتشكل ـ أيها الوطن الأغر ـ من جوهر القضايا التي صنعت تاريخ هذا العالم، والتي أرست شرف الإنسان المسلم، والتي حوّلت مسار التاريخ.

ويتبلور من هذا التشكيل. . سؤال:

ـ هل الإنسان العظيم هو الذي يصنع تاريخاً عظيماً. . أم أن تاريخاً حافلاً بالأحداث، وبالتحديات، وبالإنجازات والإضاءات. . هو الذي يصنع رجلاً عظيماً، ليبني وطناً أعظم؟!

إن الوطن العظيم: هو الذي يقدر دائماً على انجاب الرجال العظماء.

إن الرجل العظيم: هو الذي يبني وطناً متفوقاً بنضج إنسانه، وبجهده، وبعمله، وبتطور أدائه وفكره. . والتصدي للخوف، وللباطل: إنتصاراً للحق، وللعدل.

* * *

ـ يا أيها «الوطن»/ العشق:

هكذا تضيء كل لحظة. . فيولد تاريخ أبيض يقوم على هذه القواعد:

ـ أن يكون لنا موقف. . نُكرِّس به استقلال هذه الأرض، وحرية إنسانها، وعدالة مطالبها وقضاياها، وشرف كلمتها وفعلها.

ـ أن تكون لنا كلمة. . نتصدى بها لأقنعة الباطل، وننصر بها الحق والحقيقة، ونذود عن دين كفل لنا الكرامة، والعزة. . وغرس فينا بذور الخير والنماء.

ـ أن تكون لنا مطالب عادلة، مثل أشرعة سلام بيضاء في بحار الأحقاد، والحروب، والأطماع، واستغوال القوة الغاشمة المعربدة!

هكذا تنبجس ـ أيها الوطن ـ كل لحظة. . فتصدع بالقول الحق، وتمد على درب العالم: خطوة السلام/ الحلم. . في غمرة الأعاصير، والأهواء.

وفي هذا الثبات بالاستقرار ـ رغم كيد الكائدين ـ وبخطط التنمية المتلاحقة، وببناء الإنسان بالعلم. . نحن في دفئك: نصنع في كل يوم تاريخاً جديداً، ويشرق يوم للوطن.

ونحن نركز على: بناء الإنسان في قيمة الانتماء لك أيها الوطن.

ونحن نصرُّ على: قيمة جوهر الوطن. . وذلك بتربية الإنسان المشبّع بشعور الانتماء.

إن الهتاف لمحبة «الوطن»: ليس شعارات، ولا عبارات إعلامية، ولا نفاقاً، ولا خوفاً، ولا إيديولوجيات. . إنما الهتاف هو: إخلاص في العمل، وتحسين للإنتاج، وتكريس للوحدة الوطنية.

والهتاف لمحبة الوطن. . . هو: إنطاق لعطاء القدرة الإنسانية. . جسماً

سليماً، وعقلاً ناضجاً ومبدعاً، وسلوكاً قويماً راقياً.

إن المستقبل: سيكون منتظراً ما يعطيه الإنسان لوطنه.. من نصاعة الضمير، وفعل البناء، وجودة الأداء والعطاء.

إن العشق لحنان «الوطن».. لن يتحول في وجدان وضمير «المواطن» إلى سقوط في تدجين الإنتماء.

إن هذا العشق يتصاعد، ويضيء.. ليصبح «فعلاً» في تقدم الوطن، وتفوقاً في وسائل إنسانه لصناعة المستقبل.

إن الارتباط بالأرض، والإصرار على الأمل والأماني.. جميعها يكون زمناً موحداً، ويحقق خطوة للأمام، ويرسي دعائم الأمان، وينتشر إشعاعاً في الجهد والتفكير.

إن تدجين المواطَنة في ضمير إنسان ما.. هو: أن تتراكم أزماته النفسية في أعماقه، فيسبقه زمنه، وتبتعد عنه قدرة الصعود إلى سطح الحياة.. غير أننا ـ لاحتواء ذلك ـ نفتش فوق مساحة خريطة الوطن، ونحاول أن نثبت من خلال الكائنات العاقلة والعاملة، والقادرة على امتداد هذه المساحة: كيان المجموعة الواحدة التي تصوغ ـ بالوحدة، والوفاق ـ ذلك الإنسان الجديد المطلوب لصناعة الغد، ولخدمة الوطن.

إن «يوم الوطن» في تاريخ هذا الكيان الكبير في جسم واحد، متّحد، متحاب.. يتفاعل مع عمل الجماعة، وجماعية العمل!

إن «يوم الوطن».. هو: تراث قومي، وإضاءة عقائدية.. وهذا التراث العظيم قد حقق زراعة الأرض الواسعة الممتدة بالحب، وبالأواصر.

وعندما أصبح هذا الحب قاعدة شعبية لمستقبل أمة، تمتعت ـ منذ بدء

قيام وحدة هذه الأرض ـ بالأمن الذي انتشر ميزة، وترسخت بتطبيق شريعة الإسلام العادلة. . فقد تطور هذا الحب ليكون بناء، وتشييداً لدعائم التنمية والرخاء.

والاحتفال بـ «يوم الوطن». . لم يكن مجرد ذكرى وطنية تعيد حادثة تاريخية شهدتها الجزيرة العربية. . لكنه يتبلور في معنى «الوحدة» التي دمجت الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب، فكانت أبعاد هذا الدمج الجغرافي، تستشرف بإيمان: وحدة المشاعر، ووحدة الأمة الواحدة، ووحدة العقل!

وكان هذا الفعل التاريخي. . يقيم ركائز المستقبل، بهدفين:

ـ التوحيد: وهو الهدف الأول، الذي يستضيء بنبل الرسالة الدينية العظيمة.

ـ الوحدة: وهي الهدف المباشر. . الذي ينهض بقدرة الجماعة المتآلفة، المتحابة التي هي في أساسها تمثل التكوين الكلي والشامل للجزيرة العربية.

والاحتفال بـ «يوم الوطن». . لم ينحصر في «وقت» المناسبة وتكرارها كل عام، على أنها مجرد «تذكير» بتلك الحادثة التاريخية. . بل هو نهوض قومي، وطني، يرتقي إِلى ذلك «الفعل» التاريخي الذي صنع تاريخاً جديداً، والذي أقام معالم الحضارة والتطور، وبنى قاعدة التنمية، ونشر العلم والوعي، وقضى على أثافي التأخر، الممثلة في: الجهل، والفقر، والمرض!

هكذا يتلفت «الوطن» إِلى حقيقة انتماء المواطن!

وإذا تحدثنا عن قدرة «الوطن» ذاته على التطور، والانطلاق عبر دروب التنمية والإنجاز.. فالحديث يعني: ثمرة البناء بعقل، وبسواعد أبناء الوطن.

وفي هذه المساحة الشاسعة من كياننا الكبير ـ الوطن ـ نواكب تلفُّت التاريخ نحونا، ونحن نعيش عصراً سريع الأحداث والإيقاع.. تقابله بالتوازي: سرعة التطور والنماء.. لأن هذا الواقع يشكل قيمة هذا الكيان/ الوطن، من مقومات الكيان المتماسك، وهذا البناء.

والبناء في فلسفته.. له تفسير أشمل وأضخم، وهو: المزيد من الإنتاج بالكثير من العمل.. فلا يمكن أن تتوقف حركة التنمية عن طموحاتها، بل إِن طموحات الإنسان الجديد ترتقي بقدرات، وبإِرادة جهده وعمله.. نحو فعل التطور والإِنتاج.

إِن كيان «الدولة» المتماسك بقيمة وفعل «الوحدة».. هو حارس هذه الوحدة، وهو الذي يُنمِّي الثروة العقلية الناضجة، والواعية، والمؤتلفة.. قبل الثروة المادية!!

إِن (الإنسان) في هذه المقومات، وبثروته العقلية، وبحرصه على معنى وقيمة الوحدة.. يتشكل قيمة عظيمة، نستنبط منها المميزات، وهذا التمدُّد في مساحة الوطن، وفي مساقات التطور والإنجاز!

إِنها حركة التاريخ.. وهو يتجدد، ويتألق بمتانة وصلابة «وحدة» الكيان التي ينبغي أن نشدد عليها، ونرعاها!

ومع مسيرة التاريخ.. تمخضت ولادات عديدة من الإنجازات، والإيجابيات.

* * *

ـ أيها «الوطن» الأمجد:

إِن هذا الإنتماء لك . . هو عشق يتحدث عن الأبعاد التاريخية، وعن عمق الفعل التاريخي، وعن نجاح هاجس «الوحدة».

لقد قيل: «إِنّ ساعة واحدة حافلة بالأمجاد . . تساوي عصراً بكامله: عاطلاً عن المجد»!!

أيها «الوطن» الأغلى: أنت المجد . . أنت العشق . . أنت الأمان . . فالروح لك.

يوم الوطن تاريخ أبيض

ـ إنني هذا «المواطن»: إِنسان أكبر بالانتماء لكل ذرة رمل، وحبة تراب.. وأعظُم بالأفكار التي تتسلق شرفات الغد.. وأرسخ بالجهد الذي يبني ويطيل امتداد النظر: خطوات على دروب ذلك الغد.

ـ إِنني هذا «الوطن»: أسكن في عمق الجوارح المتفتحة على رغدي وعطائي، وبتأكيد «الانتماء» إِلى: القيم، والأمل والعمل، والإِنجاز والإِرادة.

ـ إِنني هذا «الفهم».. يتعمق بفكر المواطن، وفي سريرة الوطن: معنىً، وإِدراكاً، وتجربة رائدة.. وهو «الفهم» الذي يصنع ثروة الأمة الحقيقية وانتصاراتها المتطورة على: الجهل، والفقر، والمرض!

وهذه «الانتصارات».. هي: القاعدة التي كانت أول بنيان شيّده ورفعه: مؤسس هذا الكيان الكبير، وموحّد الجزيرة العربية الذي ركز أول (وحدة عربية): عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.. فكانت قاعدته التي انطلق منها لإنجازين عظيمين، هما:

ـ وحدة أرض الجزيرة العربية.

ـ بناء «الإِنسان» المتطور من داخله.

ومن أجل أن يحافظ الملك «عبد العزيز» على وحدة الأرض، وينجح

في بناء الإنسان المسلح بالعلم والإِيمان. . فقد أطلق منذ البدء دعوته التي دوّت في الأرجاء، قائلاً:

ـ «لكي ينجح هدفنا الكبير. . علينا أن نتعاون ونعمل للقضاء على: الفقر، والجهل، والمرض».

ويتفجر الشعور بالوطن، وبالانتماء. . فيصبح اليوم، وفي كل عام ـ مثل هذا اليوم ـ هو أصداء العمق في التجاوب مع تلك الركائز الهامة والعظيمة التي قامت فوقها: نهضة وطن، وتقدم أمة. . تطمح إِلى مزيد من أماني «الإنسان» فوق أرضه، وارتباطاً بتاريخه.

وهكذا. . يقف اليوم كل مواطن على هذه الأرض الطيبة المعطاء، وهو يواكب بشعوره وبجهده، وبعرقه، وبعلمه، وبخبراته، وبانتمائه. . كل هذه الأبعاد الهائلة لحجم الإنجازات الضخمة.

* * *

ـ والخطر الأعظم ـ كما قال الأمير نايف ـ هو: أن يصل المنحرفون، والعملاء، والمرضى. . إِلى فكر الإنسان، وعقيدته، ووجدانه، وتشويهه بالشعارات، وبالإثارة الفكرية، وبمحاولة هدم التضامن الإسلامي بإثارة الفتنة الطائفية!!

وهو الخطر الذي يسعى إِلى غربة التاريخ العربي، وتذويب التراث، وتسيير الإنسان ليتحول مثل آلة ترتكب الشر!

إِنَّ الدولة قد صنعت مبادرات رائعة لبناء مستقبل المواطن، من خلال هذه القاعدة التي يرتكز عليها ولي الأمر ـ خادم الحرمين الشريفين ـ في أكثر أحاديثه مع المواطنين. . وهي القائلة: «إِن صناعة الإنسان. . هي الأساس».

وقد حرص «ولي الأمر» بتصميمه، وفعله.. على إنطاق هذه القاعدة، وذلك عبر منطلقات تنموية، وحضارية، وعلمية، وصناعية، واقتصادية.. نستطيع أن نتلمسها من شواهد عديدة.

إِنَّ الدولة التي وفرت كل وسائل الانطلاق إِلى التقدم: لا بد أن تكون واعية وملتحمة بشعبها، تصنع التنمية لحياة المواطن، وتنظم المبادرات الإيجابية، والإنجازات المستقبلية التي يحقق بها القائد مطلب: «صناعة الإنسان هي الأساس»!!

ذلك شمول الرؤية الدارسة والمستنطبة لكيفية بناء دولة حديثة ومتطورة.. تطمح إِلى الإِنتقال بأمتها نحو حياة الكرامة، والأمان، والرخاء.

❊ ❊ ❊

ـ النفط.. والبدائل:

ـ وإِذا كان «النفط»: هو الذي يشكل: اهتمام العالم، وخوفه، وأطماعه.. فلا بد من إِيجاد البدائل، تماماً مثلما فكرت الدول الصناعية الكبرى في الإعداد لتوفير البديل عن البترول، فينبغي أن تفكر الدول المنتجة للنفط في عدم الاعتماد الكلي عليه، كمصدر اقتصادي وحيد!

ـ والتفكير في البديل.. كان يحتاج إِلى معالجة حكيمة، ودراسة بعيدة المدى، تبتعد عن الارتجال.

فكانت الخطوات الهامة التي ركّزت عليها المملكة من منطلق قيمة الإنسان.. هي خطوات «التعليم» التي وصفها ـ ولي الأمر ـ فقال عنها:

ـ لا بد أن تكون خطوات التعليم في بلادنا: سريعة ومتواصلة،

وهكذا. . أصبحت الطاقات الإنسانية البشرية الشابة. . هي الفعالة في دفع عجلة التطور، وفي بناء خطط التنمية.

ـ إِنَّ بناء القاعدة الاقتصادية المتينة. . يغذي شريان البناء والتطوير لشمول المواطن بواقع التنمية، ولا شك أن سياسة المملكة الإقليمية ـ كما قال خادم الحرمين الشريفين ـ مبنية على أن تكون الروابط الاقتصادية فيها. . هي المحك الأول بين دول المنطقة، ومع العالم الذي يهمه أن يستثمر صداقة النداة والمصالح المشتركة. . استثماراً لا يتعدى على كيان الأمة واستقلالها، ولا يعتسف هاجس «السلام العادل» الذي تنادي به المملكة، كمعيار لتطور تلك الروابط.

إِنَّ هذه الروابط ـ بالتزاماتها ـ هي التي تحقق: إِلتزام الإِدارات السياسية المختلفة، بمصالح شعوبها، وتؤكد مصداقيتها لتثبيت ركائز السلام العادل!

من هنا . . . نقطة الضوء

ـ هنا ـ من هذا البلد ـ نقطة الضوء دائماً.

نقطة الضوء التي استهدفت ـ قبل كل شيء ـ داخل الإنسان المتناقض الحائر المضطرب.. فعالجت انفلاشاته، وهدَتْه إِلى شعور الأمان والسلام والخير، وشذَّبته من القبح والسوء والجهالة.. فإِذا الإنسان في صياغة جديدة ترتكز مميزاتها على العلم، وعلى الكرامة، وعلى قيمة المعاني، وعلى إِرادة قدرة الحق المؤكد للعدل فوق هذه الأرض!

نقطة الضوء التي بدَّدت من نفسية الإِنسان اضطرابها، فتوحدت على عقيدة، وتوحدت على إِدراك، وتوحدت على إِيمان ينشر اليقين، وتوحدت على «خُلق» يحسن المعاملة، ويوصل الأرحام، ويصدع بالقول الحق والكريم، ويحفظ الجوار، ويرعى الأمانة، ولا يخون العهد، ويتشبث بالوفاء!!

نقطة الضوء التي انتشرت إِلى كل المسافات وفوق كل المساحات لنصرة حق الإِنسان في الحياة الكريمة، وفي العيش الآمن الرغد، وفي التضامن الذي يجعل الأرض واحدة، ويجعل الكلمة واحدة، ويجعل الهدف واحداً، ويجعل القدرة فعّالة لسيادة العقيدة والحق قبل التسيُّد بالمال!!

نقطة الضوء.. كانت هي التحديد المرغوب في عالم الرغبة اللا

محدودة. . كانت إِرهاصاً، ونوراً، وإِرهافاً، وبناء لقوة الإِنسان أمام كل الذين أرادوا استضعافه!

كانت الصوت الواحد في زمن الصوت المتعدد. . والرؤية المباشرة لليقين، بعد أن كانت الرؤية خلفية، وكانت ظهور الناس هي التي تتلفت بحثاً عن الرؤية!

كانت الارتواء والنور. . بعد أن كان الظمأ يغمر الروح، وبعد أن كانت العتمة تسود الدرب!

نقطة الضوء تلك. . هي الإسلام الذي زرع الأمان في النفس، وبدد العتمة، وارتفع بقيمة الإنسان من الجهالة والتفسخ. . إِلى الهداية والإِدراك والقيم!

ومن هنا. . انطلق الإسلام إِلى كل الأرض يهدي، ويُعلِّم، ويوحِّد، ويبني.

ومن هنا. . انبثقت تعاليم الخير والمحبة، والتضامن، والكفاح حتى الاستشهاد ذوداً عن العقيدة، ودفاعاً عن مكتسباتها، وترسيخاً لمعطياتها!

فكان هذا الضوء هو تاريخنا الحقيقي، وتراثنا، وقيمنا، ومبادئنا، وإِرادتنا في اكتساب المستقبل المميز بالعدل، وبالحرية، وبالسلام!

وهذا البلد المعطاء: هو الذي أهدى إِلى الناس رسول الحق والعدل والحرية، والذي نشر الهداية، والمحبة والخير في كل مكان، والذي دعا إِلى التضامن والتماسك والكلمة الحق.

هذا البلد: لا يستحق النكران أو الجحود، ولا يستأهل أن يُرمى بالسباب والتشنج!

فما زال هذا البلد يعطي من نقطة الضوء تلك.

وما زالت نقطة الضوء: ضميره، وخلقه، وأفعاله لخير الأرض، ولخير الحق، ولخير الأهل، ولخير التضامن.

ولسنا ـ هنا في هذا البلد ـ في مجال التعبير وإِبراز معطياتنا.. لكننا في مجال التذكير، وإِغداق معطياتنا المجندة دائماً للتضامن الإسلامي، وللنصرة مع الحق، وللقدرة على تفتيت الباطل!!

نحن في هذا البلد.. ما زلنا نستلهم قدرنا وقدرتنا، وندرك مسؤوليتنا كاملة تجاه كل المقدسات، وكل الأرض المسلوبة، وكل محاولات تمزيق التضامن لنقف في وجه المتربصين دوماً بمميزاتنا، وبحريتنا!!

ونحن في هذا البلد.. لن نستمزج أسلوب التلاحي وضرب الأخ بأخيه، والاستفادة المؤقتة من التلاعب بالألفاظ، والتلاعب بمستقبل نقطة الضوء.. تلك التي هدتنا وعلَّمتنا وزرعت بين صدورنا المؤمنة إيماناً لا تُصدّعه الرغائب المادية، ولا تشرخه طموحات الذات.

إِن قدرتنا وقدرنا.. يتضحان في حفاظنا على نقطة الضوء هذه، غير ملتفتين إِلى المواقف المؤقتة المرهونة بمحاولة القفز فوق كتف التاريخ.. لأننا ـ بنقطة الضوء ـ صنعنا تاريخ الإِنسان الكريم.. الحر.. المؤمن.. المنتصر.. القادر على الوجود والحياة في مناخ العزة والرفعة!

إِننا تعلمنا من تشريعات ديننا العظيم: أن نرتفع دائماً إِلى مستوى قيمنا وأهدافنا، وأن نسقط في سبيلهما موقف الاضطراب النفسي، وأن نسقط التنابذ والتجهيل، وأن نسقط الغرور والبحث عن تفرد الذات.. ذلك لأن خلق الإِسلام قد علمنا الهداية والهدوء، وعلَّمنا التسامح ونكران الذات، وعلمنا التضامن المنطلق بنا إِلى الإِدراك والرؤية الواضحة، وعلمنا أن

اختلاف الرأي لا يعني السفه والسباب!

* * *

ـ وبكل هذا الذي تعلمناه . . استطعنا أن نرتفع بمستوانا الإِنساني، فلا يجرنا الانفعال والتشنج إِلى قطيعة الأرض، ولا إلى قطيعة الدم، ولا إِلى قطيعة الجوار، ولا إِلى قطيعة الحكمة والعدل . . ولقد تأدبنا بهذا السلوك لنحقق ونتمسك بالصفة التي كرّمنا بها القرآن بقول الله عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)!!

وبهذ الخُلق أيضاً تمكنّا من إِضافة إِضاءة على المستقبل . . نستمدها من نقطة الضوء الأصل . . من أهداف الإِسلام . . لتكون انطلاقة هذا الوطن بركيزتين هامتين:

ـ الركيزة الأولى: تعزيز الدعوة إِلى الله ونشرها، وجمع كلمة المسلمين ودعم قدراتهم . . حتى نتمكن معاً من استرداد الحق التاريخي لهذه الأمة الرائدة، ونجعله من جديد في مصاف الأمم القوية القادرة على تأكيد وجودها، وتحقق أدواراً هامة وتساهم في صناعة ورخاء المجتمع البشري، كما وأننا نحرص على خدمة المقدسات ورعايتها والحفاظ عليها!

وبلا شك . . فإِن أهم ما يقلقنا الآن هو: استعادة القدس الشريف من فجور ودنس الصهيونية الحاقدة، ولا بد أن يكون المسجد الأقصى قبل كل شيء، وقبل أي أرض مُحرَّراً!

ـ الركيزة الأخرى: تكريس الأمن والاستقرار في الداخل . . ليكونا أساس التعاون مع الغير، ومنطلقاً إِلى خدمة الأمم الأخرى والعيش ضمن إِطار الأسرة الدولية على أرفع درجات المشاركة وأعظمها!

وبهاتين الركيزتين نستطيع أن نُقدم للإِنسان في كل مكان ترتفع فيه دعوة الحق، ونداء الإِسلام: كل دعم، ومحبة، وخير!

وبتأمل مضمون هاتين الركيزتين.. يتبلور موقف هذا الوطن نحو قضايا الأمة الإِسلامية، والأمة العربية ونحو مسؤوليتها تجاه تضامنهما وعزتهما وآمالهما.

وإِدراك بلادنا لهذا الموقف.. يجعلها لا تلتفت أبداً لسلبيات الغرور والتفرد الذاتي.. لكنَّ اهتمامها ينصبُّ بالضرورة على كيفية الحفاظ على التضامن ورأب الصدع، وتجاوز المواقف الجانبية التي يضخمها التشنج فتتحول إِلى عناد يخلو من التأمل والتفكير.

وهذا الاهتمام من المملكة.. لم يأت مخاضاً للأحداث الموجودة الآن على الساحة العربية، وإِنما هو اهتمام ينبع من دور بلادنا الإِسلامي.. وتلك المواقف كانت وما تزال تُركِّز على: التضامن، وتحذر من التحديات الخطيرة التي تواجه المسلمين في كل مكان. وتعمل على دعم جبهات الصمود ومناضلي الكفاح لتحرير المقدسات والأرض، وحماية الإِنسان المسلم.

❊ ❊ ❊

ـ خطورة مرحلة اليوم:

ـ لقد حدّد خادم الحرمين الشريفين ـ في خطاباته إِلى الحجاج ـ دور المملكة، ومسؤوليتها، والتزاماتها.. وأشار إِلى خطورة وأهمية هذه المرحلة التي نحياها، والتي ينبغي فيها: أن نرتفع بتفكيرنا، وبعملنا، وبعواطفنا إِلى الرؤية الحقيقية.

وأوضح ـ ولي الأمر ـ ذلك التحديد في نقاط هامة . . يركِّز عليها دائماً في كل خطاباته، وحواراته وتصريحاته، وهي :

أولاً : إن المرحلة الحاضرة تعتبر من أكثر مراحل التاريخ خطورة . . لا بالنسبة للأمة الإسلامية قاطبة، ولعلّها مناسبة طيبة أن نؤكد مواقفنا الثابتة مجدداً من القضايا العربية والدولية الراهنة، وهي غير قابلة للتغير أو التبديل . . لأنها تنبع من إيمان صادق.

ثانياً : إن ما أصبح عليه حالنا . . إنما هو نتيجة لتمزقنا، وتباعدنا، وتجافينا عن بعضنا البعض . . وعندما تتوافر لنا القناعات المشتركة بضرورة العمل على تكتل الجهود ووحدة الأهداف . . فإننا سنكون قادرين على مواجهة كل الأخطار!

ثالثاً : إن المملكة تؤمن بأهمية السلام العادل القائم على استرداد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وعودة الأراضي العربية المحتلة بما في ذلك القدس الشريف، وأن تتحقق للشعب الفلسطيني إمكانية التعبير عن إرادته وسيادته وكيانه!

رابعاً : يجب أن نؤكد أهمية العمل على إدراك حجم المخاطر المحدقة بنا، ووضع سياستنا على أسس علمية ومنهجية تعرف كيف تُسخِّر الجهود والطاقات وتوظفها لخدمة الأهداف الكلية . . بعيداً عن التشنجات والتفاعلات، حتى تظل قراراتنا تاريخية، وحتى نبعد عن تأثير المتغيرات المفروضة علينا!

خامساً : بدون أن تكون أهدافنا على قدر كافٍ من الوضوح . . فإنا لن نفقد أدوارنا التاريخية الهامة، وإنما سنفقد ذاتنا الإسلامية المتميزة، وقد يعود بنا استمرار الخلافات والانقسامات إلى وضع جديد تتبدل فيه خارطة

المنطقة تبدلاً كاملاً، ونعيش ظروفاً جديدة أقل ما يمكن أن توصف به: أنها ظروف تعسفية وخطيرة!

سادساً: إذا كانت المملكة قد وجدت نفسها في مركز المسؤولية من القضايا المصيرية، وسعت بكل جهودها إِلى جمع الكلمة وتسوية الخلافات، وإطفاء نيران الفرقة والقضاء على مؤثرات الفتنة، وعملت على امتصاص الكثير من الأخطار والكوارث.. وتحمَّلت في سبيل ذلك الكثير.. فما ذلك إِلا لأنها تؤمن بهدف واحد هو: أن تعود هذه الأمة قوية متماسكة خلاّقة!

ـ مسؤولية وطننا:

ـ إِن المملكة التي تضطلع بدور حضاري وإِنساني كبير تجاه مستقبل الأجيال المتطلعة إِلى المزيد من الاستقرار والرخاء: حريصة على أن ينعم هذا الإِنسان بالخيرات، وأن يحقق قفزات جديدة لخيره، وخير الإِنسانية جمعاء، وسوف نظل حريصين على أن نستمر في هذا الطريق: بجمع الصفوف، وتوحيد الخُطى، وتعزيز الجهود الإِيجابية المخلصة، ونعمل على تحقيق جميع المعطيات الخيرة لهذا الإِنسان!

وبعد ذلك كله.. إِن هذه هي مسؤولية بلادنا منذ وحدة كيانها الكبير.. دائماً هي الكبير الذي يضم بقية الأشقاء إِلى حضن واحد غامر المحبة.. دائماً هي الكبير الذي يسدي النصح، والدعوة إِلى الحكمة، وإسقاط التشنج وابتذال مواقف الرجال.. دائماً هي الكبير الذي يتجاوز المهاترات، ويعفّ عن سقط القول، ويرتفع فوق الآلام والجراح والأنانية!!

وسنبقى هكذا: مسؤولية دينية قومية إِنسانية تجاه أشقائنا وأصدقائنا، تجاه المجتمع البشري. . وفاء بالتزامنا، وانطلاقاً من قناعتنا في تحقيق أقصى درجة من التوازن بين مصالحنا الذاتية، وبين مصالح سائر الشعوب!!

الكيـــان الكبيـــر

ـ من هذه الأرض المقدسة الطاهرة/ تاج هذا الوطن وعزَّته.. صدع معلم الأمة/ النبي الخاتم، صلَّى الله عليه وآله وسلم بدعوة التوحيد والإِيمان، وأعلن (الجهاد) على الأصنام والكفر، لتحرير الأمة من الهوان والظلم.. فانطلق إِلى كل الأرض: ناشراً صوت الحق والعدل، مبدداً من نفسية الإنسان: اضطرابها، هادياً إِلى الأمان والسلام والخير.. فإِذا هذا الإنسان المسلم قد تبلور في صياغة جديدة ترتكز مميزاتها على العلم والكرامة، وعلى الحرية وإِرادة قدرة الحق المؤكدة للعدل فوق الأرض.

من هنا.. انبلجت نقطة الضوء التي سطعت وعمّت المساحات، واجتازت المسافات لنصرة حق الإنسان في الحياة الكريمة، وفي العيش الرغيد، وفي تضامن المسلمين الذي يجعل الأرض واحدة، والكلمة واحدة، والهدف واحداً.

كانت نقطة الضوء هي: الإرهاص والنور، وهي بناء قوة الإنسان المؤمن أمام كل الذين أرادوا أن يستضعفوه ويذلّوه.. كانت هي: التحديد المرغوب في عالم الرغبة اللامحدودة، وهي: الصوت الواحد في زمن الأصوات المتعددة، وهي السلام الذي زرع الأمان في النفس، وبدّد العتمة في الفكر، وارتفع بقيمة الإنسان من الجهالة والتفسخ إلى الهداية والإِدراك والقيم.

ومن هنا . . انبثقت تعاليم الخير والمحبة، والتضامن والكفاح حتى الاستشهاد ذوداً عن الدين، ودفاعاً عن مكتسبات العقيدة، وترسيخاً لمعطياتها . . فكان هذا الضوء هو تاريخنا الحقيقي وتراثنا الباهر، وقيمنا ومبادئنا، وإرادتنا في اكتساب المستقبل المتميز بالعدل وبالحق، وبالحرية وبالسلام!

* * *

ـ وما زال هذا الوطن على طريق رسالة الخير: سائراً . . يمنح من نقطة الضوء هذه ويمنح القدوة والإلتزام بمبادىء الإسلام وتشريعاته.

وما زالت نقطة الضوء هذه هي: ضمير هذا الوطن وأفعاله، وعلاقاته وخلائقه.

إِنه هذا الوطن الذي يستلهم تاريخه الحافل والعظيم، مرتكزاً على بطاقة انتمائه، وعلى رايته المرفوعة بعلم التوحيد والجهاد في سبيل الله، والداعية دوماً إِلى التمسك بالعقيدة الإسلامية.

إِنه هذا الوطن الذي يواصل مسيرته الرائدة، وقد استلهم من تشريع الدين العظيم: أن يرتفع دوماً إِلى مستوى القيم والأهداف التي تعمل لخير الأمة وحريتها.

وهو هذا الوطن الذي احتفل من أقصاه إِلى أقصاه بمرور مائة عام على: قيام دولة عظيمة شاسعة، وميلاد تاريخ مميز . . إِنحسر عنه الجهل والشتات، والفقر والمرض . . وخرجت الجزيرة العربية إِلى الحضارة والتقدم والعلم . . فكان تأسيس هذا الكيان الكبير: صرحاً شامخاً . . ببنيانه العزة، وحجارته الوحدة، وأساسه المتجذر في الأرض: أرومة، ومحتداً.

مئة عام.. منذ (١٣١٩هـ)، وحتى اليوم: مسيرة بطولة، وبناء، وتنمية، والخروج بإنسان هذا الوطن من الخوف والقوقعة إِلى الشجاعة والانطلاق، وإِلى العمل والإِنتاج.

مئة عام.. افتتحها المؤسس/عبد العزيز آل سعود بفتوحاته التي جندل فيها بسيفه: الفُرقة والتمزق، واستطاع أن يركز العلم الأول (للوحدة) العربية فوق ثرى الجزيرة العربية، ويقضي على الدسائس، وهو يواجه مصاعب لا يتصدى لها سوى الفارس الواثق من نفسه، والمؤمن برسالته ودوره التاريخي.

* * *

ـ وبكل هذه الركائز التي شهدها الوطن: قيام دولة، وبناء أمة، وعزة وطن.. إِستطاع هذا الكيان الكبير بقيادة هذا البطل التاريخي، ومن بعده (أبناؤه) أن يرتفع بالاهتمامات الإنسانية، وبالخطط التقدمية الإنمائية، وبالعلاقات الدولية لخدمة السلام والعدل.. ولم يستطع مستعمر، ولا حاقد، ولا طامع، ولا مضلل أن يجرّ هذا الوطن إِلى: الانفعال، والتشنج.. لا إِلى قطيعة الأرض، ولا إِلى قطيعة الدم، ولا إِلى قطيعة الجوار، ولا إِلى قطيعة الحكمة والعقل.

وهذه الركائز العظيمة.. كانت أيضاً هي سلوك هذا الشعب ليؤكد بها ويحقق الصفة التي كرمنا بها القرآن الكريم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وبهذا الخلق أيضاً: استطاع هذا الوطن وشعبه أن يضيفا إِلى المستقبل إِضاءة من نقطة الضوء الأساسية.. فكان سعي (ولاة الأمر) في هذا الوطن،

يتركز على إنجازين هامين صنعا لنا معايشة الأمن والأمان، والقدرة على دعم مطالب الحق والعدل والحرية:

ـ الإنجاز الأول: تعزيز الدعوة إِلى التمسك بالعقيدة الإسلامية، ودعم قدرات المسلمين، والوقوف معهم في محنهم ونضالهم ضد أعداء الدين والأرض.

ـ الإنجاز الآخر: الإصرار والعمل على تكريس الأمن والاستقرار داخل الوطن، وتطوير خطط التنمية لتحقيق الرخاء والرفاهية.

وبهذين الإنجازين. . إِستطاع الوطن أن يقدم للإنسان في كل مكان ترتفع فيه دعوة الحق ونصرة الإنسان، ونداء السلام ورغبة التضامن: كل دعم ومحبة وخير.

***

ـ وتَواصَل هذا البناء والتعمير. . فكان كل مواطن: يشرئب إِلى اجتلاء وجه الأمل في صناعة المستقبل للوطن . . فكانت هذه النقلة الحضارية في عهد «خادم الحرمين الشريفين» الملك فهد بن عبد العزيز. . وهي النقلة التطويرية لأنظمة الحكم بتركيز شدد على التمسك بالتشريع الإسلامي: هداية و صُوىً.

وباستقرار الأبعاد التي ركَّز عليها «ولي الأمر/ الملك فهد». . نجده في خطابه الذي توَّج صدور الأنظمة الثلاثة: (الحكم، الشورى، المناطق) يقول بروح القاعدة الأساسية لهذه الانطلاقة الحضارية:

ـ إِن هذه الأنظمة الثلاثة. . تأتي توثيقاً لأسس قامت عليها هذه الدولة وصياغة الأمر واقع معمول به.

وقد أجمع المتحدثون عن هذه النظم الثلاثة على: أن هذا «الكيان الكبير» كان وما زال يسير على الشورى، منذ أرسى المؤسس الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ دعائم دولته الحديثة.

إِن الجديد الذي يستخلص من هذه النظم الثلاثة.. يتحدد في: التنظيم، وتوزيع المسؤولية ما بين ولي الأمر، والمسؤول المكلّف بالتنفيذ والتطبيق، والمواطن الذي يتلقى الخدمات، ويشارك في تطبيقها، وحسن الممارسة لها.. وقد التزم هذا (الكيان الكبير) ـ المملكة العربية السعودية ـ منذ توحده بهدى الإسلام: نبراساً، وتشريعاً وديناً، وتنظيم حياة.. فهو التنظيم اليقيني الذي يتبلور في ضمير الأمة إِلى: مصير، وإِلى: قيمة للحياة!

ـ وفي «رؤية» حضارية، متشبعة بالهَدي الإسلامي.. تحدث الأمير «طلال بن عبد العزيز» فقال:

ـ إِنه لا يمكن أن يكون هناك إصلاح خارج عن الشريعة الإسلامية.. وأي إِصلاح خارج عن التشريع الإسلامي غير وارد، ولا يمكن قبوله على الإطلاق.. وفي وطن يتشرف باحتضان وخدمة الحرمين الشريفين: المكي، ومسجد الرسول ﷺ.

وهكذا.. فقد وضعت المملكة العربية السعودية أحد المبادئ الإسلامية ـ وهو مبدأ الشورى ـ في صورة نص قانوني!

ويعنينا في هذه الانطلاقة الجديدة: أن لا نتظاهر بأسلوب الضجيج، ولا نركض خلف ظواهر تستهدف الاستهلاك المحلي.. وإِنما نحن نستدعي من تجربة التاريخ التراث، والمعاصر، والممارس: حصيلة من عطاء هذا الاستقرار الذي لا تدعيه المملكة العربية السعودية، كصوت إعلامي، تزاحم

به اختلاط الأصوات. . ولكنه (العطاء) الذي يتجسد في الممارسة، وفي التعامل بين الشعب وولاة الأمر. . لتنبثق من هذا التجسيد رؤية شاملة وصادقة لحقيقة الإصرار على سيادة نظام فريد، يرتكز نجاحه على: تأكيد معنى، ومضمون، وفعل التقيُّد بالتشريع الإسلامي. . النبراس، والعقيدة، والإِيمان، والعمل، وفلسفة الحكم.

***

ـ وإِذا كان المحللون السياسيون قد أجمعوا على اضطلاع هذه الأنظمة الثلاثة بالتطور في مجالات عديدة. . فإِن التطور المقصود، يجيء في صياغة كل نظام، وتطبيقه والتعامل به، وتحريك جهود وخبرة وعلم: الكفاءات العلمية في بلادنا. . وهو ما يسميه المحللون: (الإصلاح السياسي)!!

ولقد ركز «ولي الأمر/ الملك فهد» على دور «المواطن» كأهمية لا يستهان بها. . فتحدث عن: الحرية الشخصية، وحقوق المواطن وفق ما شرعه الدين الحنيف.

إِن المواطن ـ في التنظيمات الجديدة ـ قد وجد تنظيماً لحرية الرأي، وهو يتطلع إِلى إفساح المجال لحرية «الرأي الآخر». . فهو مواطن يتمتع بحريته الكاملة، وفق هدي دينه، وتشريعه. . دون أن يعتدي على حقوق الآخر، أو يسرقها، أو يظلم لمصالحه الخاصة. . فالدولة من قبل إصدارها هذه النظم، وهي تتعامل مع المواطن بالشرع، والقضاء لا سلطة عليه من أحد.

والدعوة الملحّة اليوم: تتركز على اختصار المراحل الزمنية للتطور،

والنمو.. مع التركيز الهام على ترسية قاعدة الأمن الوطني.. وهي القاعدة التي تمكننا داخل وطننا العظيم من الارتفاع بقدراتنا في العمل والإِنتاج!!

* * *

ـ إِن أحد خبراء التخطيط والاقتصاد في العالم.. قال ما معناه:

ـ إِن العالم في مرحلته المعاصرة.. يجتاز اختباراً دقيقاً، فهذا العالم الذي أحرز حتى الآن: قسطاً من القوة، والثراء، والسيطرة على الطبيعة.. بات من المحتم عليه أن يختار بين أمرين:

ـ إِما أن يدع هذا القسط الوافر من القوة، والثراء، والسيطرة على الطبيعة: يفسد تقاليده، ونظمه، وسبل حياته.

ـ وإِما أن يفلح في جعل الإنجازات المادية: أداة من أدوات تطوير النظم، والتعامل، والجهد!!

ـ وهذا الاختبار الدقيق.. لا بد أن يتعرض له البلد الذي يطمح إِلى تنفيذ برامج الإِنماء، والتصنيع.. مع مواطن يطالب بمزيد من التحسين للخدمات، ومن التطوير للتنمية.. وذلك بأداء دوره كعضو عامل، يشارك مع الأجهزة التنفيذية، أو في داخلها وكمواطن يحرص على تنفيذ الأنظمة، واتّباعها!!

ـ وفي هذا الواقع: تتمثل احتفالية الشعب السعودي في إعلان الحدث المهم.. لتكون احتفالية الشعب دائماً من منجزاته، وكما وصفه الملك فهد قائلاً:

ـ إِن الهدف هو: ترسيخ (القيمة) الفعلية للإنسان السعودي في وطنه، ومنحه المزيد من حرية الرأي المتلاحمة مع دور المواطن في عمق

المسؤولية حاضراً ومستقبلاً، ومسؤولية الدولة نحو تطبيق الأنظمة، ومتابعة خطط التنمية وإنجازاتها . . بهذا التمسك الأساسي بنصوص الشريعة الإسلامية التي لن يرضى الإنسان عنها بديلاً!!

وهذا هو «الكيان الكبير» الذي أرسى دعائمه وأقامه: المؤسس له/الملك عبد العزيز آل سعود . . ليبقى كياناً متيناً قادراً دائماً على تلقي المتغيرات والتطور، وثابتاً دائماً في وجه الأعاصير التي تستهدف استقراره وأمانه، وشامخاً دائماً بمبادئه ورواسخه الثابتة.

بدأنا الحوار

ـ ينتصب سؤال هام دائماً فوق محور التقييم» لركيزتي: بناء ونجاح القيادة في تجسيد الحلم على امتداد مساحات الأمل.. وهو:

ـ لماذا يحض «المواطن» هذا الشعور الغني والفياض بـ «المواطنة».. كلما تأكد التعاون، ووحدة العمل، واليد الواحدة.. بين المواطن، وبرامج خطط التنمية التي تضعها الدولة؟!

ونقترب من هاتين الركيزتين فوق محور التقييم، وفي أبعادهما ومضمونهما: تستطيع كل (فكرة) بنّاءة ومتطورة وانطلاقية أن تحقق الرخاء والازدهار حتى في الواقع الاجتماعي، و «النفسي» لكل مواطن، بعد الرخاء الاقتصادي بالطبع!

ويستطيع كل (مواطن) أن يتفهم دوره في البناء، وفي المساعدة على نجاح القيادة في تفعيل آمال البناء.. وذلك كلما تحسنت نسبة الوعي والإِدراك في مفاهيمه، وفي ترسيخ انتمائه بعمق الوطن.

من هنا.. تجدر بكل «مواطن» هذه الوقفة الإِستيعابية، الإِدراكية، الحضارية أمام هذه (الغرسات) التي يواصل «الأمير/عبد الله بن عبد العزيز» ولي العهد: بذرها في تربة الوطن، وفي عقل المواطن، استشراقاً واستهدافاً

لوعيه وإِدراكه وتفهُّمه، وحثًّا له على إِنطاق تعاونه مع الدولة بتصحيح تفعيل إِسهاماته في البناء!

ـ المواطن: مسؤول عن ملاحظات التأخر أو الأخطاء/مشاركة مع الأجهزة: مثلما هو مسؤول عن شواهد التقدم والرخاء. . لأنه يُشكِّل تروس الأجهزة التنفيذية، هو الذي ينطلق بالعمل إِلى الإِنجاز، وهو الذي ـ بتقاعسه، وبلامبالاته: يتقهقر بالإنجاز إِلى الوراء. . فالدولة تعتمد على سواعد أبنائها من الذين تتلاطم بكثرتهم: الوزارات، والإِدارات، والمصالح الحكومية، والشركات، والمصانع.

وبهذه النظرة العميقة: فصَّل «ولي العهد» في خطاب أبوي موجّه منه إِلى الأمير/ محمد بن فهد بن عبد العزيز ـ أمير المنطقة الشرقية: أن «الوطن» له فؤاد من نقاء العقيدة، وأن إِنسان هذا الوطن هو شريان عطائه، وأن خفقات هذا الوطن/ كما نحلم ونتطلع ونعمل: في إِنجازاته المدوية!

ولم يكن (عبد الله بن عبد العزيز): شاعراً وهو يترنم بهذه الكلمات التي استقبلها المواطن كنشيد وطني: يُغنِّي، وتدفعه إِلى الرقصات الشعبية. . بل كان «الأمير عبد الله»: مسؤولاً أبوياً، أو أباً مسؤولاً، لا بأس من أن يهدهد أبناءه بكلمات الحلم وإيقاعات الأمل، وبجمال هذه الكلمات الشاعرية المتفوقة على كل إِحباط. . ولكنه في هذه الهدهدة يؤكد في أبعاد كلمته قائلاً:

ـ «ولست من الحالمين دون أمل. . وهمم أبنائي وبناتي هي: الأمل»!

ـ فيا أيها الأمير/المسؤول/ الإنسان/ ولي الأمر «عبد الله بن عبد العزيز»: لقد دعوتنا إِلى (العمل الجاد)، ولم تمارس معنا قسوة إِسقاط

الأمل، بل أكدت على الوعي والنضج والحوار حين أشرت بقيمة الحياة إِلى استشرافك هذا، فقلت:

ـ «أستشرف الآفاق دون إخلال بواقعية، أو تجاهل للحقائق»!

ـ و... يا سيدي الأمير/المسؤول: نحتاج ـ نعم ـ إِلى مزيد من التربية الوطنية.. تكْفَا أيها الأب/يا ولي العهد.

نحتاج إِلى «تربية وطنية» تختلف تماماً عن هذه التي قدموها للمدارس بطريقة (التشليل)، على طريقة: ليس في الإمكان أبدع مما اخترناه من الكتب!!

ونحتاج إِلى «تربية وطنية»: تهز مشاعر الطفل والفتى والفتاة من النخاع حتى نشوة الرأس.. تُعمّق الوطن بين الضلوع، وليس مجرد كلمات معادة، مكرورة.. (متوقعة)!!

ـ ويا أيها الأمير (المسؤول) الإنسان «الأمير عبد الله بن عبد العزيز»:

ـ في زياراتك للمناطق، ودخولك المدن على امتداد وطنك الشاسع الكبير.. كانت كلماتك: (جديدة)، أو أنها حفلت بالنبض، وبالوهج.. وفاضت بالدعوة إِلى الحياة الكريمة التي يحرص ولاة الأمر أن يوفروها (للمواطن)، حتى وإِن تعرض (الوطن) لأزمات مالية مرتبطة بما يشهده العالم من خلل في سياسة العدل الدولية، وبما يتعرض له اقتصاد الدول الفتية أو الطموح من هزات بفعل القوى العظمى الطامعة في تذييلها لقوتها!

* * *

ـ رجل. . يقتلع الخوف:

ـ وفي القراءات المتعمقة لخطابات الأمير/عبد الله بن عبد العزيز المتتالية: نستنبط من معانيها، ومراميها، وأبعادها. . دعوة الأمير لكل مواطن إِلى: اقتلاع الخوف واللحاق بالعزيمة والإِرادة. . وإِلى نبذ اليأس وصناعة الأمل الذي ينعش الحلم من إِغفاءته. . وإِلى: الحض على العمل والإنجاز، فلن تحيا أمة تعتمد على الآخرين، أو كما قال «جبران خليل جبران»: ويل لأمة تأكل مما لا تزرع، وتلبس مما لا تنسج، وتشرب مما لا تعصر!!

وقبل عدة سنوات. . توجه أحد الصحافيين العرب بسؤال إِلى «الأمير عبد الله بن عبد العزيز» فقال لسموه:

ـ ما الذي يمكنكم أن تتوقعوه لمستقبل البلد بعد سنوات؟!

ـ فأجاب سموه قائلاً: إِن هدفنا المباشر والوحيد ينصب على: أن يحس كل مواطن في هذا البلد بارتباطه العميق بأرضه، وقيمه، وتراثه. . وأن نوفر له أحدث وسائل الحضارة لينعم بالرخاء، وذلك يتم تحقيقه بالمحافظة على مبادئنا وعقيدتنا، وبالتعاون الذي تراه بين الحاكم والمواطن.

ـ وفي خطابه الأبوي لأمير المنطقة الشرقية. . قال الأمير عبد الله:

«إِن ردود الأفعال: انعكاس لمنبعها، وكم كان الفعل جميلاً خلاباً في موضوعه قبل شكله، تمثلتم فيه بدماثة الخلق وأصالة القيم، كما تمثل آباؤكم وأجدادكم مواقف النبلاء في سبيل وحدة إِنساننا وترابنا، وقبل ذلك عقيدتنا. . ».

والتذكير بمواقف (النبلاء). . إِنما هو: حثٌّ متعاظم ورائع على التمسك بهذه السلوكيات التي أنشأت أوطاناً، وبذرت قِيَماً وسلوكيات عظيمة

نحن أحوج ما نكون إِلى استلهامها في سلوكياتنا العصرية الحديثة، وفي تعاملاتنا فيما بين بعضنا البعض.. حتى ننجح في المحافظة على هذه الوحدة التاريخية المبهرة والقدوة في منطقتنا العربية!!

* * *

ـ تفعيل دور وعطاء المرأة:

ـ يا صاحب السمو الملكي/الأمير عبد الله بن عبد العزيز:

ـ لقد سقيتَ الأزهار بتصريحاتك/الإرتواء لهن.. فانْبعثن، وتفتَّحْن: تفاؤلاً بيقظة الحلم.. وكنا عندما نريد أن نفتتح حواراً عن قضايا المرأة وهمومها، نعتبر أننا سنقتحم منطقة أسلاك شائكة، أو أسواراً مكهربة.. فالكلام عن قضايا المرأة (عند البعض!) له حساسية شديدة تتحول إِلى ما يشبه الارتكاريا والهرش!!

أنت ـ يا سيّدي ـ قرعت الجرس لئلا تطول المسافة على درب التطور والحياة بين المرأة في وطننا، والمرأة ـ على الأقل ـ في الأقطار العربية.. تحدثت بواقعية ولم تتجاهل الحقائق.. وهذه إِحدى دلائل شموخك في تمسكك بالحق والحقيقة، وفي (رؤيتك) الواعية لأبعاد التطور في العالم.. حتى لا نبقى: «مكانك سر» نمارس العجز بخوف شديد من التجربة، وبخوف أشد من امتلاك الثقة في نفوسنا، وفي (المرأة) التي علّمناها، وخصَّصناها في مختلف العلوم والثقافات، ثم... رمينا بها: مجرد (متاع) مهمل!!

إِن الملايين التي أنفقتها الدولة على تعليم المرأة.. لا بد أن يستثمرها الوطن: عقولاً متفتحة، ومدارك واعية منتجة عاملة: تصنع مستقبل هذا

الوطن/كنصف آخر، من الحماقة أن نعطله، ونلغيه تماماً، و. . . نخاف منه في إِدّعائنا غير الصحيح بالخوف عليه!

ـ نعم. . حقاً: لماذا لا تعمل المرأة، وتشارك مع الرجل في وظائف تحتاج جهودها، بل وتحتاج (شخصيتها) وتخصصاتها. . في الشركات، وفي أجهزة الخدمات. . وقد نجحت (التجربة) في عمل المرأة بالبنوك، وبالمستشفيات (إِدارياً)، وحتى في التجارة؟! وهناك من (يتهم) مجتمعنا ـ من كُتَّاب الخارج ـ بأنه: «مجتمع بطيء الحركة»!!!

وهذا الاتهام فيه إِشارة مباشرة إِلى: سلحفائية تقدُّم مجتمعنا إِلى التطور. . أم أن هذا المجتمع ما زال يستغرق في (الجدل) عن البيضة والدجاجة حتى الآن، و (الآخرون) سبقونا إِلى القرن الواحد والعشرين؟!!

وما زال بيننا مَنْ هم (مستمرون) في طرح التشكيك أبداً في داخل عباءة الخوف، وذلك بتضخيمهم المخيف لضعف قدرة المرأة على حماية نفسها، وبالتالي: ضرورة الحجر عليها في البيت، لتتولى دور الأم وتربية الأطفال. . بينما (هي) في وضعها هذا الذي نقسرها عليه: لم تعد تجلس في البيت، ولم تعد تهتم بالأطفال، وأصبح الخلل شديداً في (دورها) كأم، وذلك لانشغالها باهتمامات خاصة بها، أو على الأقل. . لمحاولات تمردها ـ غير المنظَّم ـ على واقعها الذي صارت ترفضه. . فضاع الأطفال، وتغرَّبت الأمومة، وصار (الرجل) في مجتمعنا يعاني من: الانفصام في الشخصية!!

ـ وهناك (المرأة) التي تصرف من مدخول عملها على بيتها وأسرتها، حتى لو كان الدخل متواضعاً جداً (٢٠٠٠) ريال أو أقل. . وهناك المرأة التي حصلت على أعلى الشهادات وعلَّقتها في المطبخ: لماذا لا نستفيد من طاقاتها العلمية والإبداعية؟!

ـ وهناك من قال: لماذا لا تمارس العمل في بيتها؟!

ـ كيف.. أم أن الهدف ـ فقط ـ هو: الإبقاء عليها بين الحيطان، وهي ـ في الواقع ـ لم تعد بين الحيطان، بل هو الرجل الذي صار يبني الجدران حوله؟!

* * *

ـ دور المرأة في القيادة الإدارية:

ـ قال معالي نائب رئيس مجلس الشورى/د. عبد الله نصيف السابق، في حوار صحافي معه:

ـ يمكن للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى.

نعم ـ يا سيدي ـ علينا أن نسارع في دراسة هذه الخطوة التي لم تبق دولة في العالم لم تتخذها.. بل من الأهمية أن تشترك المرأة (عضواً) في مجلس الشورى لسماع صوتها، وآرائها، ورؤيتها.. كنصف آخر من المجتمع تقوم «التربية» ـ سلوكياً ووطنياً ـ على جهودها في البدء.. فلا أقل من أن تسهم المرأة المثقفة، والمربية، والمتخصصة في هذه «التربية الوطنية»!

وحين دعوت أن تتولى المرأة: إِدارة رئاسة تعليم البنات.. فليس في دعوتي (إِثارة) صحافية ـ كما كتب البعض ـ بل هي فكرة مطلوبة، وضرورية (وواقعية) لتتولى المرأة: القيادة الإِدارية في الرئاسة العامة لتعليم البنات.. فهي (الألصق) بالفتيات، كامرأة، وأم، ومعلمة.. وهذا المجتمع (الرجالي) الذي يتولى القيادة الإدارية: يضطر إِلى وسيط، وإِلى جسر.. لا غنى عن المرأة فيه.. وكيف يمكن لقيادة (رجالية) أن تعقد ندوات مع

الأمهات، وتناقش المشكلات الأخطر التي بدأت تظهر في البيت وفي المدرسة معاً؟!

لا بد أن تستعين هذه القيادة (الرجالية) بالمرأة. . فلماذا ـ إذن ـ لا تقوم المرأة ذاتها بهذه القيادة (مباشرة) وهي الأكثر إِلماماً بمطالب المرأة، وحتى بنفسيتها. . أم أننا نتعامل بطريقة: «إِذنك من وين يا جحا»؟!

لقد بقينا سنوات طوال: نتشبث (بمنع!) أشياء كثيرة هي من أسس التقدم التنموي لمجتمعنا. . فكيف نضع رؤوسنا في الرمال، والقوافل من حولنا تنطلق؟!!

لذلك. . نتساءل: لماذا لا تتولى إِدارة تعليم البنات: سيدات مثقفات، وتربويات متخصصات. . وهنَّ أعلم بمشكلات البنات، وأقرب للتفاهم معهن؟!!

ـ وهناك نقطة أخرى هامة أشار إِليها الأمير «مقرن بن عبد العزيز»/أمير منطقة حائل (أمير منطقة المدينة المنورة حالياً) في افتتاحه ليوم المهنة، حين قال:

ـ «إذا أخذنا بعين الاعتبار: أن نصف المجتمع معطل، وأن لدينا عمالة وافدة بلغت أكثر من (٥) ملايين وافد. . فإِنه من الضروري أن تواكب المناهج احتياج سوق العمل، وأن نبذل المزيد من الجد والاجتهاد، والعمل من أجل وقف نزيف الاقتصاد الوطني الذي يتسرب إِلى الخارج»!

فما هو العائد الاقتصادي الذي نجنيه لو قمنا بفتح أبواب العمل للمرأة للحد من هذه العمالة؟!

ـ وفي تصريح للأمين العام لمجلس القوى العاملة في المملكة/حسين

الحازمي، نشرته صحيفة «الحياة»: قدّر حجم الأموال التي يحولها العمال الوافدون إلى المملكة بنحو (٦٠) بليون ريال/١٦ بليون دولار سنوياً!!!

* * *

ـ وبعد..

فإن هذه السطور، والكلمات.. هي: مبتدأ الحوار، الذي (نأمل) أن نتعامل معه بحضارية شديدة، بعيداً عن الانفعال والنرفزة والشتائم التي تعودنا عليها من بعض أصحاب شعار: (لأ) لكل شيء.

دعونا نستضيء بهذه الإشارة الخضراء التي أضاءها ولي العهد/الأمير عبد الله بن عبد العزيز، بمحبة راسخة للوطن، وبحرص أشد على الإنسان ومصالحه، وبإنصاف وعدل لكل فئات وشرائح المجتمع، ومَنْ يستحق أن يتبوأ مكانته، وقدره، ويحقق قدراته.. فهذه هي (قيمة) الإنسان الحقيقية في الوطن!

هانحن ـ إذن ـ بدأنا الحوار.. ونتطلع إلى: الأمل/ الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ليحمي هذا الحوار من الذين (يتمتعون) بالصمت، وبالخرس، ويتلذذون بكلمة: (لأ)!!!

* * *

من أقوال ولي العهد/الأمير «عبد الله بن عبد العزيز»:

ـ إنه لشرف عظيم أن أكون مواطناً قبل أن أكون مسؤولاً.. وشرف كهذا كلنا شركاء فيه ونفخر به، مهما تباعدت بقاعنا الجغرافية، أو تعددت جذورنا، أو اختلفت مذاهبنا طالما أن كلمة التوحيد هي شريعتنا ومنهجنا!!

* * *

مَن يتحالف مع مَنْ؟!

ـ ها نحن ـ العرب والمسلمين جميعاً ـ في صهد هذه المرحلة، أو هذه الحقبة المصيرية التي وصفها ولي العهد/الأمير «عبد الله بن عبد العزيز». . فقال شارحاً مستفيضاً:

ـ «إِننا في حقبة الصواريخ والأسلحة النووية».

ولا شك أن أمم الأرض كافة، تعيش في عالم من كوابيس رهيبة. . وذهب البعض إلى القول: إِن الخوف المتبادل هو الحلقة الأساسية في سلسلة التعايش السلمي.

لكنَّ التاريخ برهن على أن العمل بهذه المقولة، كان ينتهي دائماً بالخائف والمخيف إلى الانتحار. . فالخوف: يشل العاطفة، ويخنق العقل، ويترك للغريزة أن تكون الناظم والمعيار»!

هكذا شرح الأمير «عبد الله بن عبد العزيز» واقع العالم اليوم. . وليس هذا (الخوف) وقفاً على العرب، بل إن القوى العظمى أيضاً تعيش هذا الخوف، وهي التي صنعته وأوغرته، وتعاملت به حتى سقطت فيه.

ـ فمن يتحالف اليوم مع مَنْ؟!

ـ ومن يضمن اليوم حتى قُوّته وصولاته بالقوة والعنف؟!

إِنَّ الصواريخ، والأسلحة النووية: هما «الخوف» الذي يتحكم في مصائر الشعوب، ويتحكم حتى في استمرار هذه القوة العالمية وفي سقوطها!!

بمعنى: إن الشعور بالاستعلاء من مرتكزات القوة، لن يحمي الحضارة، ولن يحرس القيم العظيمة التي قامت عليها كيانات الشعوب حتى أصبحت من الدول القوية لأن من يزرع الخوف لا بد أن يحصده!

هذه الرؤية التي ألمح إِليها الأمير «عبد الله» في خطاباته (العربية).. هي حوار «العقل»، لعلّ البريق الإيجابي ينبعث من فهم العقل الأمريكي!

ونتذكر في أعقاب اللقاء الذي كان قد تم بين الملك فهد، عندما كان ولياً للعهد، والرئيس الأمريكي الأسبق «كارتر»، عبارة خادم الحرمين الشريفين:

ـ «إِنني أعتقد أن أمريكا تستطيع أن تلعب دوراً هاماً في حل القضية.. إِذا علمنا مدى النفوذ الأمريكي والعلاقة القوية التي تربط أمريكا بإسرائيل مما يمكنها من ممارسة الضغط على إسرائيل لاتخاذ مواقف إيجابية نحو حل القضية الفلسطينية»!!

لذلك.. ركّز الأمير «عبد الله بن عبد العزيز» في تصريحاته على قضية العرب الأولى: فلسطين!

ولعلّنا نسترجع أصداء الزيارة السابقة التي قام بها «الأمير عبد الله بن عبد العزيز» للولايات المتحدة، في رئاسة «بوش»/ الابن عندما وقف النائب الأمريكي آنذاك «لاري سميث» وقال للأمير عبد الله بعنجهية الأمريكي المتصهين، وروى ذلك الموقف يومها: الأستاذ/عثمان العمير، رئيس تحرير «الشرق الأوسط» السابق: ـ «سمو الأمير.. إِنني ضد سياسة المملكة،

وأصوّت دائماً في الجانب المعاكس لها»!

كأنه كان يومها يقول للأمير: إِنني ضد العرب والمسلمين جميعهم، وضد الحق والعدل، ومع الباطل الإسرائيلي!

لقد جعل ذلك النائب نفسه سخرية أو مسخرة، لأنه ظن في عبارته التنفُّج والاستعلاء. . فما كان من الأمير «عبد الله» إِلاَّ أن رد بعبارة، تعتبر في مصاف الأقوال التي كان يطلقها دهاقنة السياسة، والفكر، وتدل على سرعة البديهة، وامتلاك ناصية المنطق الذي يدحض الجدل والهرطقة. . فأجابه سموه:

ـ «إِننا نرحب بالنقد البناء. . بشرط أن يكون ذلك في مصلحة وطنك، أما إِذا كان لغير مصلحة وطنك. . فلا احترام، ولا تقدير عندي أو عند غيري لك»!!

وهكذا. . أصيب «النائب» بالخرس!!

* * *

الأمير عبد الله. . والتاريخ

ـ الأمير «عبد الله بن عبد العزيز» في اعتبار وتقدير مواطنيه اليوم: هو الذي قاد قطار «الحوار الوطني» لتسريع الإصلاح. . منطلقاً من (مواطَنَتَه) قبل أن يكون مسؤولاً. . ليأتي تأكيد سمُوّه الأكبر والأشمل والأكثر بُعداً على: آمال المواطن وتطلعاته المرتبطة مباشرة بمسؤولية «ولي الأمر» المنبثقة أساساً من الأمانة التي حملها أبناء هذا الوطن لولاة أمره.

وفي أصداء «تأكيد» الأمير عبد الله، حين استقباله أعضاء الملتقى الثاني للحوار الوطني، على ضرورة انطلاقتنا جميعاً متكاتفين داخل قطار الإِصلاح، وترسيخ: التسامح والوسطية في الخطاب الديني، وتطوير وتشذيب مناهج التعليم. . فإِن كل مواطن أصغى إِلى كلمات «الأمير عبد الله»: لا بد أن يفخر بانتمائه لوطن (الوحدة). . وطن الأمة التي ينبغي لها أن تُحافظ على تماسكها لتواصل شموخها بميزة: استتباب الأمن فوق أرضها.

* * *

ـ وقفات هامة في حديث «ولي العهد» أمام أعضاء ملتقى الحوار الوطني الثاني، ربَطها سموّه (بالتاريخ الذي لن ينسى جهد المشاركين بالحوار الوطني)، كما قال سموه. . وهي وقفات تشير إِلى سمات

المجتمع: المتطور لا الخامل، والطموح لا الكسول، والواعي المتفتّح لا المُنغلق المتعصب!

وبهذا كله: ترتقي خطة تنمية الإِنسان التي تتأسس من: استثمار العقول، ونتجاوز بها (تهمة) ألصقوها بمجتمعنا، وربما حصرونا بها، تقول: إِننا مجتمع نفطي، إِستهلاكي. . بما يعني: أن روح (الإنتاج)، والمثابرة، والابتكار: ربما بدت مفقودة أو مشلولة!!

ومن هنا. . كانت دعوة «الأمير عبد الله» إِلى: حوار وطني يبني قواعد لهذه المنطلقات التي نتطلع إِليها. . وهي:

ـ الإِصلاح: يبدأ بحرية الحوار، واحترام الرأي الآخر، والثقة في ما يطرحه (الآخر) دون الإسراع إِلى توجيه التهم الظالمة والجائرة. . ففي البدء والانتهاء: كلنا (مواطنون) يحزمنا حبنا وانتماؤنا لهذا الوطن.

ـ والإِصلاح: يبدأ بمحاربة الفساد، ومعاقبة المفسدين مهما كانت مراكزهم!!

ـ والإِصلاح: يبدأ من توفير عدالة القضاء، وإِرغاد القضاة لئلا تُفسدهم الماديات، ومراقبتهم في أحكامهم. . وأن لا يكون «القضاة» فوق المساءلة، لأن «القضاء» هو فوق الجميع بالعدل.

ـ تجديد الخطاب الديني بما يتناسب والمتغيرات المعاصرة التي لا نسمح لها بأن تنال من أسس وتشريع هذا الدين الموصوف بالسماحة. . وقد شدد «الأمير عبد الله» في تعقيباته على كلمات أعضاء الحوار: على وسَطية الإِسلام، وردَّد سموه: (الوسطية، الوسطية، نحن إِسلامنا وسَطِي)!!

وهذا التوجيه من ولي الأمر: يلحُّ علينا أن نعترف بأخطاءٍ وقعنا فيها

كمجتمع: علماء/رجال دين، ومواطنين خضع البعض منا لتشدُّد مارسه بعض المتنفِّذين لتطبيق تعاليم الإِسلام إِلى درجة الغلو، وكأنَّ القاعدة عند هؤلاء: «أن المجتمع في حاجة دائمة إِلى تجديد تديُّنه».. بينما المجتمع قام على العقيدة، وحماية الإِسلام، والمساجد تكتظ بالمسلمين.. وإِذا كانت هناك أخطاء يمارسها البعض، فالدعوة تتطلب التوجيه العقلاني لا العقاب النفسي والاتهام لعقيدة الآخر!!

ـ تطوير مناهج التعليم: ونحسبها تنطلق بنا من طموحات الأمة في وطن القدسية والنماء والبناء، قد تبلورت وشعَّت، وانبعثت منذ انطلق التوجيه الربَّاني لتعليم الإِنسان قيمة نفسه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ. ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ. ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١/٥).

وليس لـ (ما لا نعلم) آخر، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).. فالعلم شاسع، واعتقال (العلم) في رؤية خاصة المنهجية الدينية: تشويه لسماحة الإِسلام الذي حضَّ على طلب العلم «ولو في الصين»، وحجْب التعلم فوق قاعدة لا تسمح بالتطور والتجديد!!

* * *

ـ وفي رؤيتنا لأبعاد تطور هذا المجتمع.. نحاول اليوم بيقظتنا على الحوار الوطني: أن ننفي التهمة الخطيرة التي راجت حولنا، والقائلة: بأننا مجتمع نفطي استهلاكي، نهتم بالمظاهر والظواهر!!

في الوقت الذي «تغرَّبنا» داخل نفوسنا، وكدنا أن نتحول إِلى طبعات كربونية من مجتمعات أخرى، وقد جهلنا ما أكد عليه علماء الأحياء

المعاصرون الذين قالوا: «إِن الحياة نفسها هي: فعل من أفعال المعرفة»!!!

لكننا ـ فيما كان يلوح ـ قد طوَّحنا بالمعرفة الحقة، واستغرقنا في ما نُسمِّيه: «ذاتية القرار». . في بحثنا آنذاك عن: المجتمع المتعاون المتكافل، والمجتمع المتكامل، والمجتمع المنتج الذي يدفع بفئاته كلها إِلى: الإِنتاج والعطاء لتفعيل قاعدة: (استثمار العقول أبداً)!!

حتى في مناهجنا الدراسية: وقفنا نصدُّ الحوار، والاجتهاد، والبحث. . وتقوقعنا بجانب أسس التشريع الديني لمسلم يدخل إِلى الإِسلام لأول مرة، مثل: نواقض الوضوء، وتكريس (المحرَّمات) في حياتنا ومعاشنا. . والإِسلام: يُسر وتسامح، ونحن نعيش العام ١٤٢٥من الهجرة النبوية!!

* * *

ـ أما «الكارثة» لقوامنا في مجتمع نحرص فيه على التقدم في ركب العلم والحضارة، فقد تمثَّلت في ما أشار إِليه/ الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ونُسميِّها: (أخلاق الإِنترنت) ونقصد به:

ـ هؤلاء الذين استخدموا وسيلة حضارية بعقلية منغلقة، تنزُّ منها قروح وصديد وعقول توقفت عن (الرؤية) للحياة الأجمل، وقَبَرها أصحابها في كهوف حياة لا يرون فيها سوى: الأسوأ، والأقبح، وقد حُرموا من نعمة (الجمال) في الحياة. . جمال الروح أولاً، فأرواحهم تعفَّنت بصديد الكراهية لكل شيء: الناس، والحوار الذي يقوم على العقل والمنطق. . فوصفهم الأمير عبد الله بأنهم: فئة خسرت سماحة الأخلاق، وتعرَّت نفوسهم من قيمة الإِنسان والإِنسانية. . وصارت «بضاعتهم»: التقيُّؤ بكلام بذيء. . وهي

أخلاقيات: من العار أن يتَّصف بها أي «مواطن» من هذا الوطن: المقدَّس والراسخ في تاريخ الفروسية!!

هؤلاء هم: (المفسدون في الأرض).. لا يعرفون عدالة الفكر الناضج وهم يمارسون «الإِرهاب» الفكري، والتخريب للأخلاق والقيم.. وأي «فكر» هذا ـ دينياً، أو أيديولوجياً، أو يدَّعي الوطنية ـ يقوم على التحريض لإِهدار الدماء، وتشويه القيم؟!!

أمن الوطن والتاريخ!؟

ـ في اللحظات الداكنة التي عبثت فيها (القوة) العالمية بأمن وثروات الشعوب مستهدفة قتل الأمة العربية، والهيمنة على العرب والمسلمين لاحقاً!

وفي الوقت الذي تفجَّرت فيه أحقاد الإِرهابيين المغالين الخارجين على الانتماء لوطنهم، واستفحال (الإِرهاب) قتلاً، وتدميراً للتنمية في وطننا!

يقف «التاريخ» نفسه في صف الأكثرية في أرجاء العالم التي رفضت إِشعال حرب لا تقوم على شرعية دولية، وتضرب القانون الدولي في عرض الحائط، وتنتهك استقلال الدول، وتعبث بأمن الشعوب.

وفي هذه اللحظات أيضاً: يترافق مع وقفة التاريخ: صوت «ولي العهد»/الأمير عبد الله بن عبد العزيز. عبر وسائل الإِعلام، لحظة توجيه كلمة قيادة هذا الوطن التي ألقاها سموه باسم/ خادم الحرمين الشريفين. . ليعلن للعالم كله: أبعاد السياسة التي قام عليها هذا الكيان الكبير/المملكة العربية السعودية، الذي يجد عزَّته وقوَّته في حماية وخدمة (قبلة) المسلمين والحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، قبل أن يتحدث عن: نفطه/ثروة أرضه من عطاء الله عزّ وجلّ لهذا الوطن!

ولا شك في أن الذين سعوا بتصميم وهدف استعماريين إِلى إِشعال حرب القرن الجديد ـ الواحد والعشرين ـ قد استفزوا (التاريخ)، الشاهد على: الكيل بمكيالين في السياسة الأمريكية.. ليُدخل التاريخ إِلى صفحاته وأجندته: هذا العمل الشرير الذي قامت حجته ـ غير الصادقة ولا المنطقية ـ على خلع شخص فرد من كرسي الرئاسة لبلده.. فيقتلون ـ لهذا السبب ـ شعباً بكامله، ويدمرون لهذا السبب: البنية التحتية واقتصاد هذا البلد، بعد أن فشل المفتشون في إِثبات وجود أسلحة الدمار الشامل!!

* * *

ـ وفي حلكة هذه اللحظات الأكثر ظلاماً في التاريخ الحديث: جاء صوت «ولي العهد»/ الأمير عبد الله بن عبد العزيز: شمعة يحاول ضوؤها أن ينتشر إِلى آخر هذا النفق الحالك الذي جرَّت أمريكا كل العالم إِلى أعماقه وظلمته، وصيحات الظلم المتصاعدة منه: أصوات شعوب.. وأمريكا بأساليب استعمارها الجديد: تستهدف تدمير كل شيء حتى (حضارة) هذه المنطقة الحافلة بالتراث الإِسلامي وعلومه التي استفاد منها كل الغرب!!

ولم يكن «صوت» الأمير/عبد الله بن عبد العزيز: مجرد «خطاب» يشيع أنين وبكاء الأمتين الإِسلامية والعربية.. بل كان: خطاب عقل يسترشد بحقوق الإِنسان الذي كرمه خالقه عزّ وجلّ على كل مخلوقاته.. وكان خطاب «الحدث» الجسيم الذي يحمل رؤية أمة بكاملها نحو الصراط المستقيم الذي مهدته: الحقيقة، وفرشته: الحقوق المشروعة للشعوب التي ينبغي لها أن لا تضعف ولا تهان ولا تركن إِلى مصير ترسمه لها (القوة) الطامعة!

لقد بالغت «القوة» الغاشمة في إِهانتها لقدرات الشعوب، بعد أن أعتقد هؤلاء المستعمرون الغربيون: أنهم «آلهة» القرار، مثلما بالغوا أيضاً ـ كما قال «حسين أحمد أمين» في التحقير من شأن تراث أمتهم الذي حسبوه ـ خطأً ـ هو المسؤول عن التخلف الذي صرنا إِليه!!

لذلك. . قال الأمير «عبد الله» في خطاب قيادة هذا الوطن: «إِن الظروف الاستثنائية التي أحاطت بهذه الأزمة ـ منذ اثني عشر عاماً ـ تفرض علينا: أن لا ندخل في مغامرة غير محسوبة تعرض سلامة وطننا وشعبنا للمخاطر. . ومع ذلك، لا بد أن نقول: إِنه إِذا اتخذت الأحداث مجرى غير الذي أوضحناه، أو تجاوزت الحرب أهدافها المعلنة. . فعندها: سوف يكون لنا موقف مختلف، ولكل حادث حديث»!!

* * *

ـ هنا. . تتعالى صرخات (الحرية) التي تصدر من معاناة وقهر شعوب: رزحت قرناً وسنيناً تحت نير الاستعمار الغربي، و. . ليست تلك (الحرية) التي رفعوا لها تمثالاً رمزاً، خدعوا الشعوب عشرات السنين بمسرحيات/ مقولات عن: حقوق الإِنسان، والشرعية الدولية، والحرب على: الجوع والفقر والمرض في واقع شعوب ما سمُّوه: العالم الثالث، أو النامي. . . في الوقت الذي تنامت فيه: «ديكتاتورية» هذا المستعمر الغربي وهو يضحك من سذاجة هذه الأمة، وخيباتها، وحلمها الذي عملوا على إِفساده طوال قرن كامل!!

إِن «القوة» الطامعة والمعتدية والقاتلة لأماني الشعوب: لا تعترف بأخلاقيات (الحياد)، لكنها دوماً: تبيع (الرثاء) لهذه الشعوب!!

لقد جعلت «قوة القرن الواحد والعشرين»: القتل هو: الانتصار، والموت للآخر هو: الديمقراطية... وكل ما عدا هذه القوة: إِرهاباً وإِرهابيون، وهي وحدها: من يصنع مصير الشعوب وأقدارها/نستغفر الله الحق العظيم!!

وذات يوم.. صرخ مفكر عربي في غمار القهر، قائلاً:

ـ (إِلى أيِّ حد.. حرية القوي، وحرية الشيطان: حُرَّة)؟!!

هناك مَنْ راق له أن يتحدث عن ما أصبحت «معضلات» اليوم في واقع الشعب العربي والإِسلامي، مثل: «السياق التاريخي الحضاري»، ومثل: «إِدارة الشعوب المغلوبة والمنتهكة إِرادتها»، ومثل: «الحرية التي يُنظِّر القادة في العالم عنها وباسمها، و.... ينتهكونها» اغتصاباً، وخداعاً، وحقارة!!

* * *

ـ من هنا.. التفتت «القيادة» في وطننا بصوت «ولي العهد» نحو (الموقف الموحَّد الفعال) في داخل الوطن قبل خارجه، وفي خارجه لتجاوز: الضعف والوهن العربيين.. فقال الأمير/عبد الله في وقفة التاريخ مع صوته:

ـ «إِن أمن بلادنا: مسؤولية مشاعة بين الجميع.. فكل مواطن شريف: شريك في وحدة هذا الوطن واستقراره.. لذلك، فدورنا جميعاً: تحمُّل المسؤولية تجاه حماية وطننا من عبث العابثين»!

حقاً.. نحن أحوج ما نكون اليوم إِلى: الوحدة الوطنية، وإِلى: أن نكون في مستوى المسؤولية لحماية أمن واستقرار حياتنا!!

ينبغي على كل (مواطن) منا: أن لا يكون: «عالقاً» في استهتاره بقيم، أو في تصنيفه «لمعنى» يهدره، أو في مجازفاته وهو لا يتجرد من الأهواء!

لا بد أن تتسامى (قدراتنا) حتى نستطيع أن نستشرف: (الحلم) في الحرية الحقة، وفي الغضب النبيل دفاعاً عن «الإِنسان» في أعماقنا، وفي الانتصار على العنعنات والرغبات الأكثر ذاتية!!

***

ـ وبعد. . كيف نحافظ على كرامة المواطن/الفرد. . أولاً؟!!

المجموعة تتشكل من الفرد حتى تشخص في وحدتها نحو: مقتنيات عقلية، نشفي بها من علل تتأتَّى في أبداننا، وعقولنا قبلها من: قضم أظافرنا/دليل همجية أعصابنا المنفعلة!

ويعرف «قادتنا»: أننا قد تخطينا مهرجانات تمجيد السلطة حتى النفاق والتفريغ من: القيمة والقيم. . بل صار يطلب منا «قادتنا» اليوم: المشاركة بالرأي وبالرؤية، والحصافة في تقديم «التجربة» الإِنسانية من خلال (رسالة) خدمة الآخر في مجتمع متماسك. . وذلك من أجل: إِرساء المزيد من قاعدة الحوار لا القمع للرأي، والتعبير الحر لا التزلف. . . وهذه الصفات الحضارية: ارتقت عن تعريفها أو تصنيفها بـ (الجرأة) في القول والرأي، لتصبَّ في: لغة تنموية/إِن جاز تسميتها، وهي: لغة تحديد المشكلات والقدرة على حلولها.

إنِ «ولي الأمر» في وطننا الذي يستشرف مُواطِنه: الالتحم بالقيادة التي لن تكون: (سلطة) بقدر ما هي: تحمل مسؤولية (الوحدة الوطنية) في

لحظات حالكة العتمة.. لنؤكد جميعاً ـ قيادة ومواطنين ـ على إِنصاف التاريخ لنا، وعلى أننا في مستوى هذه المسؤولية التاريخية التي تواجه مؤامرات عدو صار الغرور محيطه الهادر الذي يغمره حتى يغرقه!!

الأمير سلطان: حرية الرأي ووعي المجتمع!؟

ـ في حوارنا عن المؤسسات الصحافية ودورها، والدعوة إِلى تطويرها. . . نجد في حوار الأمير/سلطان بن عبد العزيز عن «الإِعلام» في وطننا، وسموه يتحدث إِلى رؤساء تحرير الصحف: وقفة هامة ينبغي أن تستقطب اهتمام الكُتَّاب والعاملين في الصحف، وفي كل مرفق إِعلامي. . وذلك لعمق التوجيه فيها إِلى ما ينبغي أن تقوم به الصحافة من دور هام في هذه المرحلة التي نتجه فيها مع العالم كله نحو «الألفية الثالثة» واتساع مجالات الإِعلام التي غزتنا من كل الأطرف، وبأسرع السبل. . فكان تركيز سموه على: تطوير الإِعلام عموماً/مقروءاً، ومكتوباً، ومرئياً. . لينسجم ذلك مع طموحاتنا وأمانينا، ومع ما يشهده (الوطن) من تطور في خدماته، وما بلغه (المواطن) من وعي ونضج يجعلانه يُميِّز بقدرة عالية!

ونحسب أن «التوجيه» الذي خاطب به «الأمير سلطان» القيادات الصحافية في بلادنا. . يُعتبر: خطة عمل صحافية إِعلامية تستنهض الدور الأهم للحفاوة بالمستقبل.

ولعلّنا في هذا الاستشراف (لرؤية) سمو الأمير سلطان لدور الصحافة. . نتوقف عند قواعد: ركَّز عليها سموه لتكون الضوء الأخضر في مسيرة تطور الصحافة في مرحلتنا القادمة والهامة، فقال:

ـ «أنا أؤمن بحرية الرأي وضرورة أن تقول الصحافة رأيها في الأوضاع القابلة للمناقشة دون المساس بالأمور التي تمس العقيدة، أو الرمز، أو الأمن الوطني.. لأن النقد ـ لما عدا هذه الأمور ـ مرغوب، بل ومطلوب لكي يعرف المخطئ خطأه ويتجنب الاستمرار أو الوقوع فيه.. ما دام أن النقد بنّاء، ويبتعد عن التعريض الشخصي والمصالح الذاتية»!

وهذا التوجيه من سموه الكريم.. نأمل أن يبلغ «وعي» كل مسؤول في وطننا، وأكثر من ذلك: يوقظ المسؤول السادر في استعلائه وترفُّعه عن الصحافة، ومَنْ يُردد: (كلام جرايد).. فالصحافة دائماً هي: السلطة الرابعة في كل العالم، وهي صوت الأمة الذي يصل إِلى ولاة الأمر بالصدق وبالحقيقة.

ـ ويقول سموه: «إِن وعي المجتمع تطوَّر.. وعلى وسائل الإعلام أن تكون في نفس المستوى، وعلينا معالجة أخطائنا.. ونربأ بصحفنا أن تعتمد على عناصر غير مؤهلة لئلا تضعف أداءها وتؤثر في مصداقيتها وتوقعها في كثير من الأخطاء بحكم مشاغل رئيس التحرير الضخمة وعدم تمكّنه من الاطلاع على كل شيء.. ونحن نقدره تماماً، ولكننا نتوقع منه أن يحسن اختيار العناصر الجديرة بتحمل المسؤولية والقادرة على أداء الواجب على أحسن وجه»!

وهذا التوجيه.. يُجيَّر لحساب أعضاء المؤسسات الصحافية، وأعضاء مجالس إِدارتها، ومدرائها العاملين الذين يحتاجون إِلى «إِدراك» لهذه الأسس التي يقوم عليها نجاح كل مطبوعة، والتي لن تستطيع الاعتماد على العناصر المؤهلة إلاَّ بالبذل المالي ليتطور أداؤها ولا تتأثر مصداقية ما تنشره!

ـ ويقول سموه الكريم: «نحن في بلادنا لا نحبذ من يمدحنا، ولا مَنْ

يبارك جهودنا . . لأننا نعرف أنفسنا، ونعرف أوجه النقص لدينا، ونريد من يقول لنا ما يفيدنا».

علينا نحن ـ كمواطنين ـ أن نفاخر بهذا الطراز الرفيع من (ولاة الأمر) الذين يترفّعون عن النفاق، والتزلُّف.

إِن «ولاة الأمر» في وطننا لا يحتاجون إِلى هذا اللون من الكذب. . فهم أكبر بتواضعهم، وبمعرفتهم لقدر أنفسهم ومكانتهم في نفوس شعبهم. . فإِذا جاء «مادح» يبالغ في تزلُّفه، فلا بد أن يكشفه هذا الأسلوب الذي لا يتفق وأصالة ولاة أمرنا، مثلما أنه لا ينسجم أبداً مع هذا العصر الذي يضج بالمعرفة، وبوعي المجتمع ـ كما وصف سموه ـ وبحرية الرأي التي ترفع قيمة الإنسان ولا تخفضها، طالما أن رأيه: حقيقة لا تدليس فيها، ومنطقياً.

من جانب آخر. . فإِن «ولاة الأمر»: لا يضيقون بالنقد الذي يقوم على الحقائق والأدلة، ويترفع عن الافتئات والتهويل. . بل إن الصحافة ـ بدورها ورسالتها ـ إِنما تساهم في التوجيه والتوعية، مثلما هي تشارك في تركيز عدستها الزوم على النقص.

ولذلك. . قال سمو الأمير «سلطان» بنبرة الاعتزاز والمفاخرة والإشادة:

ـ «يكفي أن ببلادنا آلاف العلماء، والمفكرين، والأكاديميين. . ممن نعتز بهم وبكفاءاتهم».

ـ ويقول سموه الكريم في التركيز على دور هؤلاء (النخبة) من علماء ومفكرين وأدباء وأكاديميين:

ـ «إِن وَعي المجتمع: تطوّر. . ولذلك لا بد أن تتطور معه وسائل الإِعلام».

ونجدها فرصة نتوقف فيها لنتحاور في (الموضوع) الذي تقدمه وسائل الإِعلام، كما تمنى لها سمو الأمير «سلطان».. ويهمنا هنا أن نشير إِلى مضمون «الصحافة» فنقول:

ـ إِن الكثير من الصحف حوَّل بعض الصفحات إِلى مقالات، وحشد أسماء معروفة وغير معروفة.. مؤهلة للكتابة الصحافية، وللإبداع، وللتحليل.. وغير مؤهلة إِلاّ لطلب الشهرة والذيوع، وصرنا نقرأ (أسماء) ولا نقرأ أفكاراً.. ونقرأ (أعمدة) ومقالات، ولا نقرأ رؤية جديدة ولا حواراً هادفاً ومفيداً.. وبعض الموضوعات: ميتة، لا أكثر من نقل واقتباس من الكتب والمجلات.. وكأن هذه الصفحات التي تموج بالمقالات والأعمدة قد تحولت إِلى: صحف حائط!

وبعض الصحف (تحشو) الصفحات.. فهي تقدم ـ كمثال ـ (٨) صفحات للشعر الشعبي مما هبَّ ودب وملء الفراغ، ولو اختصرت هذه الصفحات إِلى النصف، لأمكن اختيار شعر رائع، وصارت صور هؤلاء الشعراء والمتشاعرين وخصامهم ومنافساتهم: (قضيتنا)!!

وكذلك بالنسبة للاقتصاد، ولكرة القدم التي لا تعترف صفحاتها بأية رياضة غيرها!

* * *

ـ إِننا ـ بعد قراءة هذه الكلمات التي وجهها الأمير «سلطان» إِلى الإِعلام، وخص الصحافة بجانب كبير منها.. لا بد أن نشعر بغبطة على هذا الاهتمام من سموه، ففي كلماته: لمسنا التعاطف مع طموح الصحافة والصحافيين، وفي انتظار صدور نظم المؤسسات الصحافية الجديد، عسى

أن نجد فيه انعتاقاً للصحافيين من الارتباط بنظام العمل والعمال ليكون لهم نظم يحميهم من: الفصل التعسفي، ومن تلقف الرصيف لهم كلما تغير مزاج المدير العام، أو رئيس التحرير، أو حتى مدير الإِدارة.

إِن كلمات «الأمير سلطان» لأبنائه الصحافيين. . إِنما تأتي بلسماً، وتوجيهاً حصيفاً لتعينهم على أداء رسالتهم نحو الوطن والأمة، وليس أجمل، لختام حوارنا، من توجيه سموه الكريم في إِجابته التي قال فيها:

ـ «أتوقع من نظام المؤسسات الصحافية الجديد كل الخير إِن شاء الله، وعليكم أنتم واجب كبير في المساهمة لبلورة هذا النظام، والاجتماع مع المسؤولين في الدولة وفي مجلس الشورى، لكي يخرج مكتملاً ومحققاً لحرية الرأي والكلمة، وإِضفاء الحيوية والعمق اللازمين على المضامين المنشودة، والخروج بصحفنا من المحلية والإِقليمية إِلى الخارج وتطويرها»!!

* * *

ـ من كلمات سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز:

ـ نظرتي للإِعلام. . نظرة شمولية في بلد كل ما فيه يتطور، فنحن لم نعد ذلك البلد الصغير والمعزول. . بل نحن بلد له مساهمة حقيقية في تنمية وتطوير دول العالم. . ومن الواجب أن يكون لنا إِعلام داخلي قوي، وإِعلام خارجي مؤثر وفعّال!!

هاجس الأمن والأمير/نايف

ـ المرحلة الحضارية التي بلغناها ـ هنا ـ في هذا الكيان الكبير/المملكة العربية السعودية: تُعتبر دليلاً على تطور وتقدم (الإنسان) في الوطن الآمن المستقر.. وإِذا كان معدل الجريمة ـ قبل الطفرة وتدفق العمالة إِلى بلادنا ـ لم يكن يزيد على ١٨، ٠٪ من مائة في الألف من السكان، فإِن هذا المعدل كان دليلاً آخر على قاعدة تمسَّكَ بها هذا المجتمع، تقوم على: الإِلتزام بالشريعة الإسلامية وتطبيقها، مما يحقق لنا الأمن والاستقرار.

أيضاً.. فإِن هذا المعدل نفسه، يكشف الإحصاء له وفيه: أن مرتكبي الجرائم والسرقات ليسوا من أبناء هذا الوطن إِلاَّ بنسبة ضئيلة جداً.. حتى غزتنا عصابات المخدرات والسم الأبيض، بعد أن صار الشباب يعاني من الفراغ، ونسبة (تتزايد) أخذت تعاني من البطالة بعد تخرجها من الجامعات، فانعكست الأزمات النفسية على سلوكيات البعض.. وهذه المؤشرات جعلت «ولاة الأمر» والمسؤولين عن الأمن: أكثر حزماً وانتباهاً، وينبع ذلك من حرص ولاة الأمر والمواطنين/متعاونين على بقاء هذا المجتمع المتميز بالأمن: ينعم بما عُرف عنه، وتعوَّد عليه، واستقر في أمانه.

إِننا في هذا الوطن.. نركز على فلسفة الأمن كالتزام، وكما قال وزير الداخلية/الأمير نايف بن عبد العزيز:

ـ «إِن التطور الذي عاشته وزارة الداخلية، هو: الانعكاس الحقيقي للتطور الذي عاشته المملكة منذ تأسيسها على يد مؤسسها الملك عبد العزيز، تغمده الله برحمته، وذلك عندما وضع برنامجاً إِصلاحياً طموحاً هدف إِلى: توطين البدو، وتعليمهم القراءة والكتابة وأصول دينهم ومبادئ الزراعة، ليعيشوا في بيوت بدلاً من كسب العيش عن طريق الرعي والانتقال خلف منابت العشب».

تلك هي ملامح حياتنا التي توطدت ـ منذ البدء ـ على دعائم الأمن بسبب تمسكنا بالعقيدة. . وتلك هي ملامح قدراتنا ـ كدولة ـ تنادي بالسلام العادل.

وهذا (الأمن) الذي اعتبرته صحافة الغرب والشرق: أسطورة هذا الزمان في وطننا، حتى هبَّت علينا أعاصير مما اجتاح العالم: إِرهاباً، وجريمة. . هو (الخيمة) الواقية لحياتنا، حتى انعكس تأثيره على الحياة الاجتماعية والمدنية، وعلى رفاهية البعض. . فالأمن: من أوائل تشريعات الإسلام لحماية المسلم، وصونه، وتشذيبه وتهذيبه. . والأمن في وطننا هو: قاعدة الأسرة الاجتماعية!

ونذكر ـ قبل سنوات ـ ذلك السؤال الذي طرحته صحيفة عربية أسبوعية، قالت فيه:

ـ «كيف انقرضت الجرائم في السعودية، حتى أصبح معدل الجريمة لا يزيد على ٠،١٨ ٪ من مائة في الألف من السكان»؟!

وكانت الإِجابة المستخلصة من تجربة الدولة السعودية في ضوء تطبيقها للشريعة، هي:

ـ «إِن هذه البلاد لم تعرف الخوف من الجريمة، لأنها طبّقت أحكام

الشريعة الإسلامية التي تكفل العدالة للجميع، وتحمي حقوق الفرد والجماعة، وترفض الفوضى والاستهتار بأمن المجتمع».

لكنَّ «الأخطر»: يتمثل في ما يتراءى لنا في شريان المجتمع الإنساني.. وما زلت أحفظ كلمة قالها لنا «الأمير نايف بن عبد العزيز» في حوار قديم بيننا وسموه عن: الأمن، والتماسك الاجتماعي والأسري، وضرورة التناسق بين مطالب العصر والتطور العلمي والحضاري، وبين مفهوم الإنسان ووعيه وإِحساسه أيضاً.. يومها قال الأمير نايف:

ـ «إِن تعويض الآلة التي تُكسر: سهل.. ولكنَّ الصعب جداً: إصلاح الإنسان الذي ينكسر، أو ينحرف، أو تتشوه نفسيته أو أخلاقه»!

ولا بد أن الإنسان ـ في كل مجتمع ـ يريد الحب والألفة، ولكنه يصطدم بمن يمارس الكراهية، فالبعض يريد الحب ويتعرقل بالكراهية.. والبعض يريد التحضُّر ولكنه يضغطه داخل مطالبه الذاتية.. والبعض: ما زال يريد أن يعرف ماذا يريد (؟!).. فالاتجاهات الإنسانية تقف على مجرى شلال هادر من الماديات، والنزعات والشهوات، وضعف النفس.. وغالباً ما يكون الإِشفاق على العيش: أكثر ضرورة من الحنان على الشعور بالحياة!

* * *

ـ إرهاب.. بأشكال أخرى:

ـ إِن (الإِرهاب): لم يعد ينحصر في العمل المسلّح التدميري العنيف فقط.. فهناك إِرهاب بالكلمة، وإِرهاب بمصادرة حرية الرأي فلا يروج إِلاَّ «الرأي الواحد».. ومثل هذا الإِرهاب هو الذي يعمد مُروّجوه إِلى قذف كل

مَنْ يختلفون معه في الرأي بشتى النعوت والاتهامات التي صار من أسهلها: إِتهام مَنْ يقول رأياً مختلفاً بأنه: علماني، أو شيوعي، أو حتى. . «عوْلمي»، ومن هو: المسلم/ العربي الذي يرضى على نفسه أو فكره بالانتماء للعولمة؟!!

لكنَّ كيل الاتهامات جزافاً لكل مَنْ يختلف معنا في الرأي، أو حتى في الطرح والرؤية للغد. . لا بد أن يُحدث الفُرقة بين الأمة الواحدة، ولا بد أن يثير «الفتن» التي نحاربها ونتحاشاها ونربأ أن نُسقط فيها أي حوار يخص ديننا وشؤون حياتنا ومعاشنا!

إِن أسلوب التوتر، والتجلط الحواري، والانفعال، وإِشعار الطرف الآخر/الذي نختلف معه في الرأي أو الطرح بأننا: الأقوى منه والأقدر على إخراسه. . لهو أسلوب تنسحب عليه صفة «الإِرهاب» بالكلمة، أو بمصادرة الرأي الآخر، وهو ما يبعد ببعض الشعوب عن أبعاد وأهداف (الشورى) التي تسمح بالحوار في حرية لا تتعدى بالطبع على العقيدة، ولا على القيم والمبادئ الثابتة!

ولعلّنا في مناسبة سريان مفعول الاتفاقية العربية لمكافحة الإِرهاب التي اعتمدها مجلس وزراء الداخلية العرب في اجتماعه التاريخي برئاسة: الأمير نايف بن عبد العزيز ـ وزير الداخلية السعودي، والرئيس الفخري لمجلس وزراء الداخلية العرب. . نتطلع إِلى بقية الأقطار العربية التي مطلوب منها أن تستكمل إِجراءات التصديق والإِيداع لدى الجامعة: أن تبادر إِلى هذا الإِجماع، ليتخذوا بهذا التنفيذ الإيجابي خطوات مواجهة ظاهرة الإِرهاب الأخطر التي تحصد الأرواح البريئة، وتُشوّه صورة وحقيقة الإسلام النيّرة

القائمة على: المحبة، والتسامح، والتضامن صفاً واحداً في وجه عدو بشع يستهدف الإسلام ويتعقب المسلمين.

وسيذكر التاريخ المعاصر الذي نشهد اليوم كتابته على هذا العطاء الذي نذر «ولي الأمر» نفسه ووقته وجهده لتحقيق نتيجة فعّالة من شأنها أن تنجح في محاربة الإِرهاب/الظاهرة، والعودة بالشعوب العربية إِلى حياتها العادية التي تعيشها في أجواء الأمن والأمان، وتحجيم مؤامرات المخربين والمعطلين لخطط التنمية، ومَنْ نظنهم يقومون بدور خسيس ضد شعوبهم ونسميهم: الطابور الخامس.

* * *

ـ الشباب.. هاجس المستقبل:

ـ ولا بد أن (الشباب) عماد مستقبل كل أمة.. هم: هاجس، وهموم، وقضية، ويقظة «ولي الأمر» من ناحيتين هامتين في إطار المسؤولية، وهما: الناحية الأمنية، والناحية الإعلامية التي تُوجِّه الشباب.

والشباب الذي يظن أن كل متنفساته محصورة في: كرة القدم ـ فلا بديل معها أو أمامها ـ وكل نقاشه مركَّز على الفريق الفلاني واللعب العلاني.. ماذا يمكن أن يعطي وطنه للإنتاج المطلوب في مراحل خطط التنمية، وحتى في التسابق الحضاري عامة.. خاصة وأن (النوادي الأدبية): تُشخِّر وادعة، تُهيمن على إِدارتها قدرات واهنة شاخت.

وما هو دور النوادي الرياضية للارتفاع بمستوى الشباب، إِذا كنت تكتشف أن لاعباً أو حتى مشجعاً كروياً ـ من نفس المستوى المعرفي! ـ لا يقدر على نسج عبارة كاملة صحيحة؟!!

إِن المتنفِّسات للشباب: مطلب حيوي بالإشراف على عطائها ودورها وتأثيرها. . وإِذا كنا نهاجم اليوم (الفضائيات) العربية بالذت، وإِذا كان (الشباب) يواجهون في حياتهم اليومية: مَنْ يُحرّم عليهم أغلب متع الحياة وترفيهها، ولا يعطيهم البديل الذي يشغل فراغهم. . فماذا يفعلون؟!

فالمشكلة ـ إذن ـ أعمق من أن نثير حولها خواطر جانبية، تلمس السطح والقشور، وتترك العمق واللب. . وطبيعة الحب ومعناه في التماسك الاجتماعي: أن نطرح أبعاد المشكلة بصراحة ومن كل جوانبها، وأن نناقش الظواهر التي غزت مجتمعنا، ووقفنا أمامها عاجزين، لا نملك سوى: الوعيد، والتهديد بالويل، ورد الفعل العنيف ضد أبنائنا وبناتنا!!

* * *

ـ وبعد. . فهذه جوانب هامة من هاجس الأمن والأمان الذي يشغل «ولاة أمرنا»!!

آباء.. وأبناء

ـ هل هؤلاء «الشباب» من أبناء أُسَر راسخة في جذور الوطن: حصلوا على «تربية» مُثلَى تُعمِّق انتماءهم للوطن، وعلى «تعليم» يرتفع بتفكيرهم فوق مهاوي الفحش في القول، والغلو في التفكير حتى يتحول إِلى: تكفير؟!

وهل هؤلاء «الآباء»: أحسنوا تربية من أعدُّوهم ليكونوا غرسات مثمرة لتنمية الوطن؟!

وهل هؤلاء «المعلِّمون/المربُّون»: صدقوا ما عاهدوا الله عليه في تمكين عقول هؤلاء الذين كانوا براعم حتى شبُّوا من: العلم النافع لخير أمتهم ووطنهم.. أم أن الوطن: واجه حفنة من «أنصاف المتعلمين» الذين ظنوا في ما حصَّلوه: اكتمال العلم.. فلم يجدوا من يردعهم من العلماء والمعلِّمين والمربين عن: الفهم الخطأ، والرؤية الضبابية، ومن يدِّعي أنه أحاط بكل جوانب وأبعاد العلم؟!

في تعريف «ابن خلدون» للعلم ضمن مقدمته الشهيرة، قرأنا: «عندما يكثر العمران، وتتوهج الحضارة: تنتشر العلوم».. لكن أصحاب هذا «العلم» الناقص من أنصاف المتعلمين: سخروا من العمران، ورفضوا الحضارة والعلوم الأخرى لأنها ـ في زعمهم ـ ضد قيم الإسلام، برؤية

علمهم الناقص والداعي إِلى عزلة المجتمع عن الثقافات والحضارة!!

ويأتي «الحياء» في الإِسلام من ملامح شخصية الأمة المسلمة والفرد المسلم، وقد قال الحبيب المصطفى/صلَّى الله عليه وآله وسلم لسيدتنا عائشة رضي الله عنها: «لو كان الحياء رجلاً لكان صالحاً، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»!!

وقد وقع هؤلاء الشباب بانحرافاتهم الثقافية، والعلم الناقص، والتعليم المغالي: في دوامة لم تثبِّتهم على الحياء: (خلق الإِسلام)، وأسقطتهم في الفحش: (الجفاء في النار)!!

* * *

ـ ولعلّنا حين نتلفت اليوم إلى واقع وحالة (آباء وأمهات) هؤلاء الأبناء الذين فقدوا ذاكرة انتمائهم للوطن، ولفتهم الدوامة التي أسقطتهم في الفحش، ونستمع إِلى دموعهم/كلمات موجوعة على فقدان أبنائهم وانحرافاتهم. . فإِننا نكتشف: تمرد هؤلاء الأبناء على آبائهم وأمهاتهم، وهَجْر البعض منهم لزوجاتهم وفلذات أكبادهم. . ممن كانوا ينجذبون إِلى نيران الحرب في «أفغانستان» باسم الجهاد، ولن نسمع عن أحد منهم ـ على سبيل المثال ـ انجذب إِلى المجاهدين في الأرض المحتلة لتحرير «بيت المقدس» من رجس الصهاينة (!!) فالجاذبية التي اتجهت بهم بوصلتها إِلى أفغانستان: كانت من صنع أعداء الإِسلام وليس مدافعين عن الدين. . فهي جاذبية مخطط سياسي لفصل هذه الأعداد من الشباب الفتيِّ عن أوطانهم وأُسرهم وعقوق والديهم!!

ـ ولا بد أن نعترف الآن: أن موقف (الآباء) كان مغرقاً في الضعف،

إِن لم يكن السلبية للتحرك مع الدولة للبحث عن هؤلاء الذين اندفعوا (بنصف العلم)، وبفتاوى التكفير، ومغازلة الموت غرباء بعيداً عن الوطن والأهل.. فحصد «الآباء» هذا العلقم من شذوذ أبنائهم واحتراقهم في أتون الغلو، وسعار الدم الذي عايشوه مهرقاً في أفغانستان حتى انقلبوا على أوطانهم!!

ـ ولا بد أن نعترف الآن: أن حصيلة ما تلقوه في بعض الجامعات والكليات: قد أثَّر كثيراً في المنحى الثقافي والديني، والاستغراق في المغالاة التي لا تتفق مع سماحة الإِسلام ورحابته!

فإِذا كنا اليوم: نتعاطف مع دموع الآباء والأمهات.. فلا بد أن نعترف ـ ثالثاً ـ أننا قصرنا/ آباء وأمهات، ومؤسسات تعليمية/ تربوية، ومؤسسات عمل وخدمات وأجهزة في استيعاب الخريجين، فتلقف بعضهم الضياع ورماهم في الإِنحراف.. فصاروا لا يستحيون من الله عزّ وجلّ، وصار ينطلق عليهم التوجه الرباني: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ (هود: ٤٦)!!

في عينَي حفيدي!!

ـ دخل «حفيدي» ابن التاسعة وفي عينيه هلع يُعبِّر عن (الخوف) الذي بات يُكرِّسه في وجدان ونفوس صغارنا: هؤلاء القتلة. . وقد عاد لتوِّه من الشارع الذي كان الناس فيه يتدافعون هرباً من زخات رصاص الإِرهابيين الذين تمترسوا في ملحق أرضي لعمارة سكنية آهلة بالسكان، ومن حولها وأمامها عمائر مماثلة. . وكان «حفيدي» في صحبة أمه وأبيه لشراء متطلبات مدرسية له. . وبدأ يصف لي ما رآه بعينيه البريئتين المحشوَّتين خوفاً:

ـ «جاء البوليس إِلى سيارتنا، وقال: ابتعدوا حتى لا يضربكم الإِرهابيون، وكان يمسك رشاشاً بيد، ومسدساً بيد، وأصوات الرصاص جات لنا من هناك»!!

إِذن. . هذا هو (دين) هذه الفئة الضالة الباغية: قَتْل الأطفال/ كما حدث في تفجير مبنى الأمن العام، ومن قَبّله في مُجمّع «المحيا»، وإِشاعة الخوف في أعماق الأطفال، وقتل آبائهم ليتيتمَّوا، وسرقة الأمن والأمان الذي كان ينعم به المواطنون والمقيمون على حد سواء!

ـ في اليوم التالي، قالت لي «أم» حفيدي: لقد عانى ابننا في نومه تفزُّزاً، وقد نام خائفاً بعد أن غلبه سلطان النوم، لكنه حرص أن ينام في سريرنا بيني وبين والده. . فما بالكم بطفل يرى الدماء تُهدر أمامه، أو يرى

الجدار متهدماً على أخته التي قضت في تفجيرات الرياض؟!

* * *

ـ ونقل لي أبنائي صورة أخرى من منطقة الحدث، وهي خلف العمارة التي نسكنها مباشرة، فقالوا لي: خلْف العمارة التي اختبأ فيها الإِرهابيون، كانت هناك عائلتان تحتفلان بزفاف ابنهما وابنتهما حين دوَّى صوت الرصاص، وأصبح المدعوون وأهل العِرْس في مرمى الرصاص.. مما اضطرهما إِلى إِلغاء حفل الزفاف أو تأجيله، فخرج كل المدعوين وأهل العروسين وشباب ورجال المنطقة كلها من البيوت ليتجمهروا في الشوارع المحيطة، ربما ليكونوا في قلب الحدث، ويشهدوا القضاء على الإِرهابيين!

ولكن.. ينبغي أن يفهم هؤلاء الذين تجمهروا: خطورة تجمُّعهم حول الحدث، فقد يتعرض منهم لرصاص الإِرهابيين، بالإِضافة إِلى: إِعاقتهم لأعمال وتعامل رجال الأمن الذين يهمهم سلامة كل إِنسان/مواطناً كان أو مقيماً.. فهذا خطأ جسيم بعيد عن التعاون مع رجال الأمن!!

* * *

ـ أما النقطة الإيجابية الجميلة التي خصَّ بها المتجمهرون رجال الأمن، فقد تمثَّلت في ذلك الهتاف والدعاء من حناجر الناس المؤيدين والداعمين لتصدِّي رجال الأمن للإِرهابيين، وهو مشهد رائع دلَّ بلا شك على تلاحم المواطنين والمقيمين مع حماة الأمن المتصدِّين لهؤلاء المخرِّبين للأمن والأمان، باذلين أرواحهم فداءً لاستقرار الوطن!!

ـ أما تلك «العروس» التي تسبَّب الإِرهابيون في إِفشال زفافها تلك

الليلة. . فنحسبها قد رفعت يدها إِلى السماء تدعو على هؤلاء الذين يسرقون (الفرح) من مشاعر الناس. . تماماً كما يسرقون من اطمئناننا: الأمن والأمان!!

إِن هؤلاء الإِرهابيين في تشويههم لسماحة الإِسلام، إِنما يغرسون بذور «الكراهية» الشاملة. . وبأفعالهم: إِنما ينسفون «الثقة»، ويُكرِّسون الشكوك، ولكنهم ـ في النهاية ـ لا يحصدون إِلا الموت. . فلا يمكن أن ينجح أي عمل إِرهابي يقوم على القتل، والتخريب، والكراهية بادِّعاء الإِسلام، والإِصلاح!!

التربية الدينية!!

ـ الواقع الأمني الذي يحاول أن يفرض أبعاده على شعب هذا الكيان الكبير/المملكة، وذلك من خلال فئة تستحق الكثير من نعوت: الانحراف، والضلال، وخيانة الوطن، وجريمة قتل الأبرياء.. وهي الجريمة المستمرة التي أوضح سمو «ولي العهد» في خطابه إِلى الشعب: أن الصهاينة وراء ما يحدث في وطننا من إِرهاب وتخريب بنسبة ٩٥٪!

هذا الواقع يدعونا ـ بإِلحاح ـ إِلى دراسة أسباب نشوئه وأسباب انتشاره أو تناميه في خلال سنوات قصيرة تلاحقت ربما في واقع (استمتاعنا) بخيمة الأمن المظلة منذ إِرساء الأمن والأمان إِثر توحيد هذا الكيان الكبير!

والآن.. ونحن نفيق على واقع مغاير لما ألفناه، وسكنا إِليه، واستمتعنا به معتزين بثباته.. فإِننا نواجه العديد من (المتغيرات) الهامة جداً، والسريعة في ركضها بنا إِلى الخروج من عصر بكامله، ولو من واقع محدود، إِلى عصر مغاير، ومتلاطم، ومجنون!

ولقد ضربت هذه (المتغيرات) في عمق المجتمع: عاداته، وتقاليده: تربيته وتعليمه.. أغنيائه وفقرائه.. بما نسميها: إِيمان، وقيم، ومبادئ، وسلوكيات أو أخلاقيات، وترابط أسري.. وكل متغير من هذه المتغيرات: حمل في قدراته: ضربة موجعة، وربما قاضية أحياناً في عمق المجتمع..

أي في: الإِيمان، والقيم، والمبادئ، والسلوكيات. . فحدثت الخلخلة في صميم (التربية) وتصدير أجيال جديدة بتنا نخاف على طلائعها من تأثرهم بهذه الضربات!!

* * *

ـ إِن «العودة» إِلى الدين أو التديُّن: تُلح على علمائنا ومفكرينا أن يواكبوها لدى الشباب من طلائع الجيل الجديد. . فهي عودة محمودة نافعة إِذا كانت إِلى: كتاب الله وسنة نبيه، ملتزمة بمعاني الآيات الكريمة وتوجيهاتها، وبتفسير الأحاديث النبوية. . وليس في هذه (التربية الدينية) بالكتاب والسنة: ما يحضُّ الجيل الجديد على: التكفير للآخرين، ولا على قتل الناس، وتخريب المجتمع، وتهديم المباني، وزعزعة أمن المجتمع، وتعتيم إِضاءات الحياة بتحريم أغلب ما نعيشه أو نعايشه!!

ومن قال أن (الإِسلام) يدعو معتنقيه إِلى: تظليم حياتهم، وتعتيم مباهجها، وإِحلال القتل مكان: النصيحة (الدين النصيحة)، واستبدال الحوار بالقنبلة والرصاصة، ومحبة الآخرين بالبغضاء والحقد؟!!

أسئلة. . نحسبها لم تعد تجد اليوم لطرحها على الذين سلكوا درب الإِرهاب والقتل. . لأن عقولهم قد فطمت على: الغلو، والبغضاء!!

الوطن. . وثقافة المواطن

ـ يقول «مالك بن نبي». .

في ربط الثقافة بالجانب النفسي والاجتماعي:

ـ بعض الناس: يُقدِّم الجانب النفسي، وبالتالي: الفردي، معتبرين الثقافة: قضية الإِنسان. .

وآخرون يقدّمون الجانب الاجتماعي،

ذاهبين إِلى أن الثقافة: قضية المجتمع!!

ـ يشير المفكر العربي المسلم «مالك بن نبيّ» إِلى: ميلاد المجتمع الإِسلامي الذي كانت ثقافته «متجانسة متَّحدة الطابع عند الخليفة والبدوي البسيط، وتجلَّى ذلك في موقف الخليفة/عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خطب المسلمين غداة توليه الخلافة، فقال قولته المشهورة: «أيها الناس. . من رأى منكم اعوجاجاً فيَّ، فليُقوِّمه»!!

ولكي يبحث «مالك بن نبي» في مشكلات الثقافة، كان عليه من قبل أن يتعمق في: «مشكلات التخلُّف المزمنة»، وفي منهجية ثقافة ودراسات هذا المفكر المسلم الذي عرَّفوا جهده العلمي والثقافي هذا بأنه: (ركَّز على

معالجة مشكلة الاستعمار، والتكديس إِلى البناء، والحق إِلى الواجب، وعلم الأشياء والأشخاص إِلى عالم الأفكار، معتمداً على هداية القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: ١١)!!

من هنا. . وفي موجات الإِرهاب هذه التي تسرق عقول وحتى عواطف شباب الوطن منا وتحوِّلهم إِلى: خونة لوطنهم، وأشرار قتلة. . لا بد لنا أن نهتم بثقافة المجتمع وما حولها من مشكلات. . سواء كانت: انحرافاً ثقافياً فكرياً، أو انحرافاً تربوياً، أو السقوط في التخلف/المزمنة مشكلاته!!

* * *

ـ والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الظاهرة التي عصفت بمجتمعنا/ ثقافياً وتربوياً:

ـ هل موجات الإِرهاب الطارئة على مجتمعنا، والمشوِّهة للإِسلام وتعاليمه السمحة: تدلُّ على غيابٍ «حضاري» يتطلب منا الاستعانة بالفكر الديني المستنير، والحوار الفكري المبدع، والرؤية التي تقوم على ثقافة ووعي؟!!

إِن هذه الهجمات الشرسة التي وصفها «ولي العهد»/الأمير عبد الله بن العزيز بأنها: تُهدد الوحدة الوطنية. . تلحُّ علينا أن نبادر إِلى الإِلتفاف حولها، والتصدي لمحاولات الذين (جيَّشوا) هؤلاء الشبان، بل (والفتيان) لمحاربة دينهم، وبثِّ الرعب والفزع في مجتمعاتهم، حتى إِلحاق الأذى بأهليهم وأسرهم!!

ولقد فزعت ـ حقاً ـ عندما قرأت ضمن أخبار العمليات الإِرهابية في

المدينتين المقدستين الأُوليين/مكة المكرمة والمدينة المنورة: أن بعض المقبوض عليهم من الفتيان المراهقين، من سن: (١٥) إلى (٢٠) سنة.. كأن هناك من تقصَّد القيام بغسل مُخّ هؤلاء الذين تمنيناهم: نبتة خير وصلاح، وعقولاً متفتحة على البناء لا الهدم، وعلى الحياة لا القتل والموت!

ـ فأين دور الآباء والأمهات نحو العناية «بالتربية» داخل البيت أولاً، وخدمة مبدأ ترسيخ العلاقة الأسرية التي غابت بعيداً عن بيوت هؤلاء الفتية المنحرفين؟!!

* * *

ـ يقول «ولي العهد»/ الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وهو يخاطب المشاركين في الحوار الفكري ضمن اللقاء الوطني في مكتبة الملك عبد العزيز العامة:

ـ علينا أن نتنبَّه لعوامل التنافر والشقاق، وظهور العصبيات، والتطرف، والاختلاف الفكري!

وفي هذه العبارة: مخاطبة للعقل بالإقناع الذي طالب به «ولي الأمر».. وتوليد لسؤال رديف يقول:

ـ هل صار لدينا شباب (يحترفون) الإرهاب، لأن تأسيس فكرهم قام على: الغلوِّ، أو لعلّه تشكَّل من مجموعة «عُقَد» لتتبلور نفسيات تنتعش بالإنتقام من الأمن؟!

ـ أم أن هؤلاء الشباب الذين سقطوا في واقع: (الشخصية الشاذة فكرياً وثقافياً، حتى نفسياً).. جاؤوا تشكيلاً لدوافع لا تقيم وزناً لوسيلة تحقيق

الهدف (وأي هدف؟!) بل لنتائجَ تُبرر هذا الاحتراف للدموية التي لا تقيم اعتباراً للأبرياء ولوحدة المجتمع؟!!

إِذن. . فإِن «الأعداء» الذين أشار إِليهم/ الأمير عبد الله بن عبد العزيز، الذين يهددون الوحدة الوطنية ويُعرِّضونها للاختراق. . توجب على كل مواطن ينتمي إِلى وحدة هذا الكيان، ويُنمِّي عشق الوطن في داخله: أن يتصدى لهذه الحرب القذرة!!

* * *

الإصلاح. . والحوار الوطني!!

ـ في «إِشراقته» يوم ٢٨ رمضان، لفت رئيس تحرير صحيفة «عكاظ»/ د. هاشم عبده هاشم انتباهي إِلى «أبعاد» من الحوار عن الدعوات التي ارتفعت عن: (الإِصلاح) الذي نريد. . وذلك في عبارته هذه:

ـ «إن المجتمع الذي يشغل نفسه بقضايا غير جوهرية، ويُوسِّع دائرة الحوار والجدل بشأنها. . هو مجتمع يحتاج إِلى إِعادة ترتيب أولوياته، في التفكير. . في التخطيط. . وفي الممارسة أيضاً»!!

ـ بمعنى: أن هذه الدعوة الهامة التي ركَّز عليها الكاتب الكريم: «ترتيب أولوياتنا»، نحسبها موجهة إِلى: المجتمع بكل فئاته وأناسه الذين يطالبون بـ «الإِصلاح»، مثلما هي دعوة موجهة في نفس الخط إِلى: الدولة، وتخطيطها، وأجهزتها التنفيذية والخدمية، و. . . تطبيق أولويات الإِصلاح المطلوب!!

ـ ولعلّنا نطرح ـ هنا ـ سؤالاً غير هامشي يقول: هل قيادة المرأة للسيارة، مطلب يأتي من الأولويات، حتى وإِن أصبح ضرورة عصرية وأمنية في تفاقم مشكلات العمالة الوافدة. . أم أن: تقدم المرأة للمشاركة في البناء التنموي، والاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي: أهم من ذلك المطلب؟!!

ـ وهناك سؤال ربما يبدو رديفاً للسؤال السابق: لماذا نحاول ـ بإصرار

عنيف ـ أن نجعل من ديننا الحنيف/الإِسلام: ضد التطور، وضد تسهيل ممارسة الحياة، إِذا كان ما نتطور به لا يتعارض مع البنية الأساسية لقاعدة الإِسلام؟!!

* * *

ـ وفي زحام ما يُكتب الآن من مقالات، وتنظير، وردود فعل لظاهرة الإِرهاب بدوافع الغلو في الدين تحت ما يسمى: (الإِصلاح) أو المطالبة به.. نلاحظ في قراءاتنا الصحافية ـ المحلية والعربية ـ تلاحق، وتعدد، وتكاثر كلمة: (الإِصلاح).. حتى انتشر في خناقات و «هوشات» ما يسمى حواراً عبر بعض الفضائيات الناطقة باللغة العربية!!

ـ فما هو تعريف: «الإِصلاح»؟!!

ـ وكيف يفهمون معنى: «الإِصلاح» من صاروا يتداولون الكلمة صبح/ مساء؟!!

ـ وهل تقف دعوة «الإِصلاح» على قاعدة: الحوار الوطني؟!!

استوقفني سؤال هام طرحه رئيس تحرير صحيفة «الرياض»، الأستاذ/ تركي السديري، قال فيه: «أي مستقبل لأمة تعيش هاجس الحذر من العلم والثقافة، لأن أقلية محدودة العدد توحي بذلك»؟!

سؤال جوهري.. وفي المقابل: إِذا كان العلم والثقافة قد تحوَّلا في التفسير الديني الأكثر غلواً إِلى: خطر، وعلمانية، وتُهم تودي بصاحب الفكر إِلى المهالك.. فكيف نحقق: رحابة الحوار الذي يحمل لعقولنا: قناعات هامة بركائز الإِصلاح المطلوب في المجتمع؟!

ـ وفي عنوان ساخر لمقال كتبه وزير الإعلام الأردني الأسبق/صالح

القلاب، قال: «اللَّهم أحم الإِصلاح من أصدقائه»، وربط الدعوة ببالونة الرئيس الأمريكي/ بوش التي أطلقها داعياً المجتمعات غير الغربية إِلى الإِصلاح تحت شعار: «الديمقراطية» الذي يتحلل الآن وتفقد أمريكا إيجابياته ومعانيه بتعاملها الاستعماري الاحتلالي التهديدي بعيداً عن الديمقراطية، وكسراً للحوار.. لذلك اعتبر الكاتب الأردني: «أن أقسى إِساءة توجه إِلى الإِصلاح في هذه المنطقة وإِلى تطلعات التحول نحو الديمقراطية، هي تصريحات الرئيس بوش التي دأب على إطلاقها»!!

* * *

ـ وإِذن.. فإِن «الإِصلاح» يبدأ عندنا من: «البنية التعليمية» التي وصفها د. محمد عبده يماني بأنها: ضعيفة للتصدي لمشكلاتنا، ولا ننتظر من الآخر/ الغربي إِصلاح مناهجنا!

ونأمل: أن لا تكون المطالبة بـ (الإِصلاح) تأتي على حساب (الفكر) الذي ينتج الإصلاح بالحوار، ولا على حساب صراع التيارات، ولا على ما يمرُّ به الوطن العربي من خلخلة استعمارية لوحدته القومية والوطنية!!

* * *

عدو الإيمان والأمان!!

ـ ما تبقَّى شاهداً على جريمة العدوان والحقد، وإِدعاء المبادئ المتَّصلة بالدين. . هو هذا المشهد الذي كان ينتشر في كل أرجاء الوطن من جهاته الأربع، والذي كان يتَّسع: غصة ووجعاً في قلوب المواطنين الذين طالما اعتزوا باستضافة وطنهم لأشقائهم من العرب!!

المشهد: أحرق حتى الشعور بالإِنسانية. . قاسٍ، وموجع، والبكاء فيه «دم» بدل الدموع!

فمن يطيق ـ في مجتمع الإِنسانيين والأسوياء ـ أن يشاهد جثة طفل أو طفلة وقد شوَّهها انفجار مرتكبي السوء في وطننا الآمن؟!

في أيّ عصر نعيش، وهؤلاء (سافكي الدماء البريئة) يدَّعون الجهاد في الإِسلام، وهم أبعد ما يكونون عن قوة الإِسلام الذي علَّم المهتدين إِلى سماحته: أن الإِيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون ـ أفضلها قول: لا إِله إِلا الله، وأدناها: إِماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإِيمان!

ألم يقرأ هؤلاء المنحرفون هذه (العظمة) في تهذيب النفس والارتقاء بالأخلاق؟!

فإِذا كان في قمة الإِيمان وأفضل شُعَبه، قول: لا إِله إِلا الله وأدناها:

إِماطة الأذى عن الطريق.. فكيف أصيبت نفوسهم وحناجرهم بالبُكم ولم يردِّدوا: لا إِله إِلا الله؟!

وإِذا كانت إِماطة الأذى أدنى شُعب الإِيمان، فكيف بمن: يقتحم بيوت أبرياء آمنين مع أطفالهم ليفجر البيوت، ويقتل، ويُروِّع، ويموت منتحراً خارجاً عن المِلَّة؟!!

* * *

ـ والسؤال: هل استهداف وقتْل الأطفال والأمهات، والأبرياء عموماً: يجد تبريراً لدى هؤلاء القتلة الذين وجدوا في تفجيراتهم: دماء الأبرياء تُروي عطش أحقادهم تحت ما أدَّعوه عن الجهاد؟!!

إِذن.. نحن ـ هذا المجتمع السعودي الذي طالما اعتز بميزة أَمْنه ـ نواجه (حرباً) من نوع آخر، ليست حرباً باردة، ولا حرباً ذات قيمة تعود بالخير للوطن.. لكنها حرب الشيطان، تفتقر إِلى الحضارة، وهي حرب ضد (الإِسلام) وسُمْعته وقيمته في العالم، حتى شجَّعت بعض المتربصين بالإِسلام والمعادين له: أن يسفروا عن وجوههم، ويُسقطوا أقنعة الحضارة التي أدعوها، فيظهروا على حقيقتهم: عنصريين، صليبيين!!

هؤلاء ـ إِذن ـ هم: قَتَلة الوطن، وقتَلة المحبة، وقتلة الدين.. فلا أقل من أن يتصدى كل مواطن لهذه الشرذمة، حتى يعود إِلينا الأمان!!

* * *

الدعاة: ليسوا قتلة!؟

ـ من مقال للأستاذ/تركي بن عبد الله السديري:

ـ نحن هنا في المملكة: كيف جاز لنا التصديق بأننا على صواب إِسلامي في عددنا الستة عشر مليوناً، بينما ما يقارب الستمائة مليون مسلم على خطأ، بدليل اختلافنا مع معظم الأشياء عندهم؟!!

ـ في أجواء الحج، وروعة تلاحم المسلمين التي أفاضت ضياء من فوق (جبل الرحمة) في عرفات. . كان الحوار ساخناً بين مجموعة مسلمة عن: دور الداعية المسلم:

ـ هل يكون في داخل الأقطار الإِسلامية، وفي قُطْره الإِسلامي. . أم أن هذا الدور يلحُّ عليه أكثر بتواجده خارجياً، حيث تتفشَّى حركات التنصير، ويتصدى للإِرتداد عن الإِسلام بواسطة تلك الحركات؟!!

ـ وهل هناك توجيه في الدين الإِسلامي الحنيف يحضُّ هذا (الداعية) على العنف، والإِرهاب، وقتْل النفس البريئة التي حرَّم الله قتلها إِلا بالحق؟!

وبهذا السلوك والانغماس في أعمال الإِرهاب. . تنتفي قيمة (الدعوة)،

ويغيب وجه (الدعاة) في انسفاح الدماء!

* * *

ـ وطرحت على المجموعة المسلمة التي كانت تتحاور.. اسم الداعية الإِسلامي ـ المغفور له إِن شاء الله ـ الشيخ (أحمد ديدات).. الذي انكبَّ على منازلة، ومناقشة (المنصِّرين) للمسلمين، أو الداعين إِلى التنصير، وكانت له جولات من ذلك الحوار الدسم، والمنطقي معهم.. وقد أعلن الشيخ (ديدات) في إِحدى محاضراته هذه الإِحصائية الخطيرة إِلى اليوم والغد، والتي تتطلب من الدعاة بحق أن يهبُّوا وينطلقوا لخدمة الإِسلام، ولحماية المسلمين من موجات التنصير، بدلاً من أن تشغلهم جهات مريبة بدفعهم نحو أعمال الإِرهاب داخل أقطارهم، وقتْل أهلهم، وتحطيم اقتصاد أوطانهم.. فأهلهم داخل أقطارهم الإِسلامية: مسلمون لا ينبغي أن نعتبرهم جهلاء بدينهم!!

أعلن الداعية ديدات يومها: «أن المنصِّرين المسيحيين استطاعوا إِخراج (١٥) مليون مسلم من دينهم، وأدخلوهم في الدين المسيحي، وذلك وفق خطة محكمة، خططها المنصّرون لتحويل إِحدى الدول الإِسلامية التي تضم ١٠٠ مليون مسلم، يشكِّلون ١٠٪ من عدد المسلمين في العالم، وهو أكبر تجمع للمسلمين في بلد واحد، إِلى بلد مسيحي في نهاية القرن العشرين».

ـ أعلن الداعية ـ يومها ـ إِحصائية أخرى أيضاً:

ـ «بلغ عدد المنصّرين في إِحدى الدول الإِسلامية ستة آلاف شخص (آنذاك): لديهم من الإِمكانات ما لا يخطر لهم على بال، حتى إن

مطاراتهم الخاصة تفوق في عددها مطارات الدولة ذاتها»!

❊ ❊ ❊

ـ فمن هي جهة الدعم المادي لتحرك (الدعاة) المخلصين للدعوة، ولنشر الإِسلام الحق الذي لا يحضُّ على العنف، والغلو، والفكر الآحادي؟!

بدأ «ديدات» رحمه الله، من حصيلة زكاة المسلمين في جنوب أفريقيا، وتلقى المساعدات من أهل الخير المبتغين نشر الدعوة. . وكلها مجهودات شخصية، وكان يُعامَل من حكومة جنوب أفريقيا العنصرية بصفته: ملوَّناً تابعاً للزنوج. . ومن زكاة المسلمين الملونين يستمد تحركه!

ذلك «مثال» لمسلم داعية بحق لوجه «الإِسلام»، وليس تابعاً لجماعة، أو للأسلوب الإِرهابي.

❊ ❊ ❊

ـ وقال «ديدات» رحمه الله: «كل ما أقدمه هو ناقوس يدقّ عالم الماديات المطلقة. . وأنا لا أملك أموالاً أواجه بها الحكومات والمنظمات»!

ـ إِقتراحه القديم: كان يتمنى لو تولى اتحاد الإِذاعات الإِسلامية ـ بعد أن ينطق ـ عمل شريط فيديو: كيف تتكلم العربية؟!. . يكون مُعلِّماً لكل من لديه جهاز تلفاز، فيتمّ توحيد اللغة من باكستان وأندونيسيا، ومسلمي أمريكا، وأفريقيا، والصين، وروسيا!

هذا الداعية. . كان يعيش في أقسى مجتمع متعصِّب، لا نظير له في العالم إِلا الكيان الصهيوني. . حيث نسبة المسلمين هناك لا تزيد على ٢٪،

ورغم ذلك فإِنك تجده منتشراً في أرجاء العالم: داعية للإِسلام بلا كلل.. فكان هو (الداعية) بحق!!

واليوم.. نتطلع إِلى استنبات (دعاة) يدعون إِلى الوسطية والاعتدال، ولا يسرقون (الإِسلام) إِلى الفكر التكفيري، ولا إِلى رأيهم الآحادي.. وينشرون دين الله عزّ وجلّ بسماحته!!

* * *

الإرهابيون. . طالبانيون!!

ـ ليتصوَّر أبسط مواطن: ماذا سيحدث للوطن وللمواطنين، لو نجح (الإرهابيون) في قلب وتقويض نظام الحكم في المملكة، وتغيير نمط الحياة، كما قال الأمير/تركي الفيصل، سفيرنا في بريطانيا، ضمن حوار تلفازي في لندن لشبكة «بي. بي. سي»!!

يا ساتر. . يا مُنجِّي. . يا حامي مقدساتك، وديارك، وعبادك.

إِن هدف هؤلاء (الإِرهابيين): الاستيلاء على الحكم، ليقيموا دولة النموذج لما كانت تُسمَّى حكومة أو دولة: (طالبان) في أفغانستان. . وهي في الحقيقة: (سلطة) قفزت إِلى الحكم بالرشاش، والقنبلة، وسفك دماء الأبرياء هناك تحت مظلة (الإِسلام)، إِمعاناً في تشويه حقيقة: دين الرحمة، والتطور، والعدالة، والتكافل الاجتماعي!!

وكان هدف «طالبان»: العودة بأفغانستان القهقري إِلى العصور الغابرة، والفقر، ورفْض التقدم والتطور، ومحاربة التعليم والحضارة. . أي: إِدخال أفغانستان إِلى نفق مظلم تتراكم الجثث داخله، وتُرفَض كل وسائل الحضارة، فيُحرم المواطن من: المواصلات الحديثة، ومن الجامعات والمدارس الراقية، ومن التلفاز. . مدَّعين أنهم يعودون بالحاضر إِلى الماضي السحيق لترسُّم نهج الصحابة الذين كانوا يخلصون العبادة لله حقاً

وصدقاً، ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا يحوِّلون حياة المسلمين إِلى خوف وعزلة!!

* * *

ـ إن الإِسلام الذي يدعو إِلى: التعليم، ونهل العلوم، والانفتاح على العالم للاستفادة مما يحقق التطور في إِيجابيات بناء المستقبل: اقتصاداً، وعلوماً، وحضارة.. لم يكن ديناً انعزالياً، ولا عنصرياً، ولا دموياً يعتمد على القتل.. ولم يكن (يتَّهم) المسلمين في عقيدتهم ويشكك في ما يؤمنون به، لكن هذه الثمرة الخبيثة التي نبتت هناك في أرض «أفغانستان/ طالبان»: يسعى زبانيتها إِلى تقويض (الحياة) بأشكالها المتقدمة، وذلك بتكفير المسلمين، وتحريم كل مناحي الحياة التي تسقط في الغلو بكفر منغلق، وبممارسات دموية: الحلول فيها تعتمد على إِهراق دماء الأبرياء وحتى الأطفال!!

إِن هؤلاء الذين يعيثون فساداً في الأرض.. إِنما يترسمون الأساليب العنصرية البغيضة التي تعطي أصحابها الحق في (تفنيد) عباد الله وتقسيمهم إِلى مسلمين يخضعون لتكفيراتهم، وإِلى خارجين عن الإِسلام ويستحقون القتل!!

وهكذا ينتفي (المنطق) في منهاجهم الدموي، بعد أن كفروا بالحوار والتشاور في الأمر!!

أبعاد فتنة التكفير؟!

ـ قتل «أسامة بن زيد» رجلاً شهد أن لا إِله إِلا الله.

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

ـ يا أسامة. . أقَتَلْته بعد أن قال: لا إِله إِلا الله؟!

فما زال يكررها على أسامة، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم!!

ـ يخلط بعض الذين يكتبون ـ وقد كثروا ـ بين الغلوِّ في الدين إِلى درجة (تكفير) كل مَنْ لا يوافقهم على غلوِّهم ودمويتهم، وبين (الفكر) في أبعاد معانيه. . فيُطلقون على «التكفير»: فكراً، ولن يكون: الإِرهاب، والغلو، وإِباحة دماء الناس: «فكراً» أبداً. . فالفكر: تفكير، وهؤلاء لا يفكِّرون وإِنما: ينساقون خلف فتاوى ظالمة، و «يتهيَّجون» بسفك دماء الأبرياء!!

فإِذا كان للإِرهاب، والتكفير، وقتل الأبرياء: (تفكير). . فما هي الأسس التي يقوم عليها هذا «الفكر»؟!!

* * *

ـ لا حلول أخرى، ولا وسائل يتَّبعها هؤلاء الذي جاؤوا إِمتداداً للقتلة في مصر، ثم في الجزائر الذين يذبحون الأطفال والنساء كالنعاج.. فالحلول والوسائل: لمن يحمل هدفاً وفكراً نيِّراً، أو رأياً آخر على الأقل.. لكن هؤلاء يفتقرون إِلى (الفكر)، ولا يعترفون بالحوار وإِنما بالرصاصة والقنبلة، وآراؤهم تسقط دائماً في المنطقة الرمادية، أما هدفهم فهو منحصر في القتل، ثم القتل.. حتى لو أفنوا الأطفال، وبقروا بطون الأمهات، وهدموا البيوت الآمنة على أناس مسالمين جاؤوا من أوطانهم للمشاركة معنا في بناء التنمية، ولتوفير رزق كريم وافر لهم!!

ـ وإِذا أردنا تقديم مبادرة سريعة للبدء في معالجة فتنة (التكفير) التي أراد مروِّجوها أن تحلَّ بدلاً من (التفكير).. فنحسب أن أمامنا خطوتين نتَّجه بهما إِلى هذا البدء للتصحيح الذي نريده للعودة إِلى «الإِسلام» الأصيل البعيد عن التطرف والغُلوِّ.. وهما:

ـ الخطوة الأولى: الإِلتفات إِلى (المساجد)، والذين يعتلون منابرها ويخطبون للجمعة، والذين يهرعون إِلى المايكروفون ويُحدِّثون المصلين في بدء استغفارهم بعد الصلاة فلا يمكِّنونهم من الدعاء، بل يشغلونهم بما يسمّونها: الدعوة والإِرشاد!!

ونعرف أن هناك وزارة مسؤولة عن ترشيح (وانتقاء) هؤلاء الأئمة، لكنها لا تراقب كل ما يقولونه للناس، وأكثره مرتجلاً، وفي الحي الواحد نجد عدة مساجد بحمد الله، لكن توفير الإِمام المتمكِّن: باتت مهمة صعبة.. خاصة أمام ظاهرة عجيبة نلاحظها في بعض مساجدنا بالأحياء لا تحدث في المساجد، وتتمثل في مفاجأة المصلِّين بعد انتهاء فريضتهم بقيام شخص ـ على مرأى ومسمع من الإِمام، وربما استأذنه قبل الصلاة كما

يقال! ـ فيمسك ذلك الشخص بالميكروفون، وكأنه ينطلق في صفوف الجهاد، أو كأن الجالسين في المسجد من المصغين إِليه لا يفقهون في أمور دينهم. . وكثير من الجالسين هم من «العمالة» التي لا تعرف العربية!!

وعن هذه «النقطة» بالذات كتب الكثير في الصحف منذ فترة بعيدة، عن إِصرار أئمة المساجد في الأحياء على فتح مايكروفون المسجد مع الأذان ـ وهذا مطلوب لدعوة الناس إِلى الصلاة، ونحسب أن هذا هو دور المايكروفون الأساسي ـ ثم الصلاة واستمرار إِبقاء المايكروفون مفتوحاً لنَقْل أصوات مَنْ يتحدثون بعد الصلاة مما يُسمُّونها أحاديث توعية!!

وقد رأيت وسمعت ذات مرة في مسجد الحي الذي يجاوره بيتي: قيام شخص بعد صلاة العشاء، وكان من المصلِّين، فأمسك بالمايكروفون، وأخذ يقصُّ رحلته (الإِيمانية) ـ كما وصفها ـ إِلى الشيشان، وإِلى بعض هذه الدول التي يذهب إِليها: (دعاة) ثم ـ بكل أسف ـ يطلب أهل ذلك البلد منهم الخروج لمغالاتهم وتشددهم. . وهناك حكايات تروى عن تلك الرحلات!!

فنحن لا نطالب (بمنع رفع صوت الله) كما اهتاج البعض في ردودهم. . بل وُضِعت المايكروفونات لتوصيل الأذان وإِعلام المسلمين بموعد الصلاة والحضور إِلى المسجد!!

* * *

أما الخطوة الأخرى الهامة. . فهي: ضرورة الإِلتفات إِلى مدارس البنين والبنات، وحتى الجامعات والكليات. . وما يجري هناك مما تقوم به «شريحة» من المغالين والمتطرفين ـ معلمين ومعلمات ـ من إِصدار فتاوى

وتفسير لتشريع الإِسلام العظيم، وأيضاً: غسل أدمغة الأولاد والبنات بمزيد من الغُلوّ فوق سماحة ورحابة الإِسلام الذي درَّسه لنا معلمونا الذين التزموا!

والإِلتفاتة المطلوبة: هامة وذات بُعْد في اختيار (المعلم والمعلمة) ممن نثق في وسطية فكرهم الديني، وممن نأمنهم على أولادنا وبناتنا بين أيديهم بما يُغذُّون به عقولهم من معتقدات وأفكار تدفع بهؤلاء الغرسات في الوطن إِلى: التَّزمت وحتى الانفصال عن أُسَرهم وعزلهم داخل بيوتهم، ومجابهة الأب والأم بخطأ ممارستهما للحياة العادية إِلا إِذا انصاعا لما قاله المعلم والمعلمة!!

وإِذن.. علينا أن نتذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم ـ وهم خير البشر بعد الأنبياء ـ (كانوا يتدافعون عن الفتيا.. كان يتدافعها العشرة والعشرون، كل رجل يريد أن يتحمَّل أخوه عنه مسؤولية هذه الفتيا.. فالإِقدام عليها من نصيب العلماء الكبار)!!

فعلينا أن نعيد النظر في اختيار المعلم والمعلمة، وخاصة في المرحلة الإِبتدائية التي تختار لها الدول الحضارية: معلمين يحملون الشهادات العليا!!

غرسات الحنظل!

ـ من أقوال أحد الحكماء:

ـ «أنت على دين، فأنت على خلق قويم

تركن النفوس إِليك

وترفّ الأرواح عليك»!!

(١)

ـ ماذا حصد هؤلاء الذين حسبناهم: «شباباً» يتطلع إِلى مستقبل خيِّر للوطن، والذين نبتوا غرسات حنظل من عمق هذه الأرض الطيبة التي عاشت زمان أجدادهم وآبائهم: في حلم الأمن والأمان بعد موجات قُطَّاع الطرق.. وفي حلم: وحدة الأرض/شبه الجزيرة العربية، بعد أن كانت مِزَقاً؟!!

نشأنا على هذه الأرض التي لا شبيه لها في قدسيتها الإِسلامية وفي جذور عروبتها.. وكان المواطن منَّا: ينسى أن يقفل بوابة «فيلته» ويصحو في الصباح دون أن يفتش بيته لثقته في الأمن والأمان.. وكنا ندخل العمائر والمجمَّعات السكانية، دون أن نتردِّد مرتابين في (تفجير) مفاجئ يقوم به ـ

بكل أسف وأسى ـ أبناؤنا.. وكنا نحرص على (حماية) الضيف المقيم ببلدنا وهو يعمل فيها مُعوِّضاً نقص الخبرة أو التخصص لدى شبابنا.. فلم نقتل أحداً (مدنياً)، ولم نفجِّر منزلاً ينعم سكانه من أطفال ونساء بالأمان!!

❊ ❊ ❊

ـ والآن.. ماذا يحدث؟!

مَنْ قلَبَ «تربة» مجتمعنا، وأنبت من رحمها: شوكاً، وحنظلاً.. قتلة وإِرهابيين، يُروِّعون الآمنين، ويدَّعون ما لا يتفق و (خلطهم) الخطير بين معاني وأبعاد وأفعال: (الجهاد) في الإِسلام، وبين حصاد وخسائر (الإِرهاب) الذي يشوِّه قِيَم ورسالة (الإِسلام) العظيم؟!!

لقد اتخذت هذه الحفنة من الإِسلام: خيمة ومظلة لتدمير: المنطق، والعدل، والمشاورة في الأمر، والشورى، وهم أكثر غلواً وحقداً، لا قيمة عندهم للدم البريء المراق!!

وربما (نفاجأ) في تعاظم هذه الموجة التخريبية لمكاسب الأمن والأمان في وطننا بهؤلاء الذين ما فتئوا يُصدِّرون (الفتاوى) الأكثر ميلاً إِلى العنف، وإِلى الإِنغلاق، وإِلى التزمُّت، وإِلى منع الحياة عن الناس في أصوات وعيدهم ونذرهم بالنار وجهنم.. ويطلبون من الناس: أن يقتلوا الحياة فيهم، وأن يستبدلوا الابتسامة بالدمعة، وأن يحيلوا حياتهم إِلى: رفض لكل تجديد، وإِلى تحريم لكل متعة لا تخلُّ بسلوكيات المسلم!

❊ ❊ ❊

ـ نحن ـ بالعقل ـ مع الردع الأمني الحاسم لكل «إِرهاب» تتعدد

أشكاله . . وهؤلاء (الإرهابيون): يمثِّلون الجانب الذي يرى في القتل والتدمير: نشر أفكارهم التي يلصقونها بالإسلام الذي يَنْهى عن قتل الأبرياء، بل وشرَّع القصاص من هؤلاء الخارجين على إجماع الأمة وأمنهم . . وهؤلاء: يمارسون (القمع) الفكري من منطقهم الذي يقوم على قاعدة: مَنْ ليس مؤيداً لدمويتنا فهو ليس معنا!!

* * *

ـ وبعد . . فنحن نعرف أن ما نكتبه: لم يأت بجديد، لأن «وعْي» هذه الفئات قد اختُطِف وصودر وأصبح رهن: عنف الفكر . . لكنها مساهمة في استمرارية الحوار المطلوب الآن بشدة عن فعل غريب، كالجسم الغريب، يرفضه مجتمعنا، وتلفظه سماحة ديننا، ولم نعد في حاجة إلى مقالات الشجب، ولا حتى الدفاع عن أمننا بالكلام . . بقدر ما نحن في حاجة إلى (رؤية) جديدة تنبع من داخل تفكيرنا وتعاملنا مع (الحدث) المستجد بمنطق، دون الدخول في مكابرة واستعلاء على هذه المتغيرات.

وفي حاجة ماسة إلى الخروج من (اعتيادية) مواجهتنا للحدث، إلى الاعتراف بالخطر، والإلتفاف عليه، والإلتفات إلى مؤسساتنا الدينية والتعليمية والتربوية، وتفعيل دور وسائل «الإعلام» حتى نخرج من عنق هذه الزجاجة الضيق جداً!!

* * *

(٢)

ـ هل ما يجري في واقعنا اليوم من: قتلٍ لأبرياء، وحتى قتلٍ لِمَنْ نختلف معهم في الرأي، والتوجُّه، والأيديولوجية.. يُعبِّر عن منهج (الإِسلام) وأسلوب دعوته بالحسنى، وأمرْه بالمعروف ونهيه عن المنكر، ودعوة الناس كافة إِلى الله بالحسنى؟!

أم هو (إِرهاب) حقاً، وفعلاً، وسلوكاً، وهدفاً للقفز إِلى السلطة أو الهيمنة.. متمثلاً في: اغتيال بالرصاص، وتهديم بالمتفجرات، والعبث بأمن الوطن ونشر الرعب بين الناس الأبرياء؟!

ـ وما الفرق بين ما يمارسه هؤلاء «الكوماندوز» غير النظاميين، الذين يغتالون مفكراً، أو سياسياً نشطاً، أو عالِماً يختلفون معه، أو صحافياً كاتباً، أو وزيراً.. كما حدث في مصر خلال السنوات القريبة الفارطة، حتى إنهم اغتالوا «الشيخ الذهبي» العالم/ الوزير، وهدَّدوا الشيخ الشعراوي بالقتل ـ رحمهما الله ـ وحتى اغتيال «جار الله عمر»/ السياسي المعارض في اليمن.. وبين ما يفعله الجنود الصهاينة في أرض فلسطين المحتلة من قتل الأبرياء، وتهديم لدورهم، ومنْع دخول الأغذية والماء إِليهم، وحصارهم حتى تجويعهم.. فتكيل أمريكا العظمى بمكيالين في تعاملها مع الإِرهاب الذي تقوم به جماعات متشَرْذِمة ممن يدَّعون الإِسلام، ومع إِرهاب الدولة الذي تتعامل به حكومة الإِرهابي/ شارون مع الشعب الفلسطيني؟!

* * *

ـ لا بد لنا أن نجتمع: علماء وجمعيات إِسلامية، وجامعات، ومفكرين.. لنناقش (ظاهرة) أن يتحوَّل شباب الأمة العربية/ الإِسلامية إِلى:

إِرهابيين بالفعل. . يقتلون بدم بارد مَنْ يُصدرون بحقه (فتوى) منهم بأنه: ملحد، أو كافر، أو خائن، أو علماني!!

ويقال ـ بكل أسف ـ بعد تنفيذ جريمة القتل، وسقوط ضحية هذا «الفهم» المعتم: أن القاتل ينتمي إِلى: جامعة، أو جمعية (إِسلامية)، وأن مَنْ يُشرف عليها ويديرها: عالم، أو داعية، أو شيخ من المتفقهين في الدين!!

فهل (الإسلام) في نصوصه، وتشريعه، وخطوات انتشاره الأولى: كان له هذا (الفهم) عن وجوب قتل الناس جزافاً بلا تحقُّق ولا شواهد؟!

ـ وإذاً. . مَنْ وراء هؤلاء الذين ما زالوا يلوِّحون بالموت للآخرين بشكل مطلق ومجاز لديهم، على أنه: صوت الإِسلام، وصوت الشهادة، وصوت القصاص. . والإِسلام بريء من هذا القتل؟!!

* * *

ـ ولكن. . هل تجيز مبادئ وقيم، وأهداف (الإِصلاح الإِسلامي)، أو «الجهاد الإِسلامي» أو أي مُسمَّى بهذا المعنى، ويدَّعون أن مَنْ يديرها ويُشرف عليها: علماء مميزين، أن نقتل إِنساناً نختلف معه في الرأي، ونتوحَّد معه في الإِنتماء لوطن، والارتباط بمصير واحد؟!

أية عقلية هذه التي تُجيز العنف والإِرهاب، و (تورِّط) سمعة الإِسلام في أفعالها التي لا يُقرِّها الشرع. . بالإِضافة إِلى إِشعال الفتنة بين أبناء الوطن الواحد؟!

والفتنة معناها: أن الأخ يقتل أخاه.

والفتنة معناها: نسف كل خطوة حثيثة وجادة إِلى بسط (الديمقراطية في الوطن؟!!

وفي ذلك يقول نبي الأمة ومعلمها، الحبيب المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم: «ليس الشديد مَنْ غلب الناس، إِنما الشديد من غلب نفسه».

انتهى **جدة/جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ**

غرة/آب ـ ٢٠٠٤م